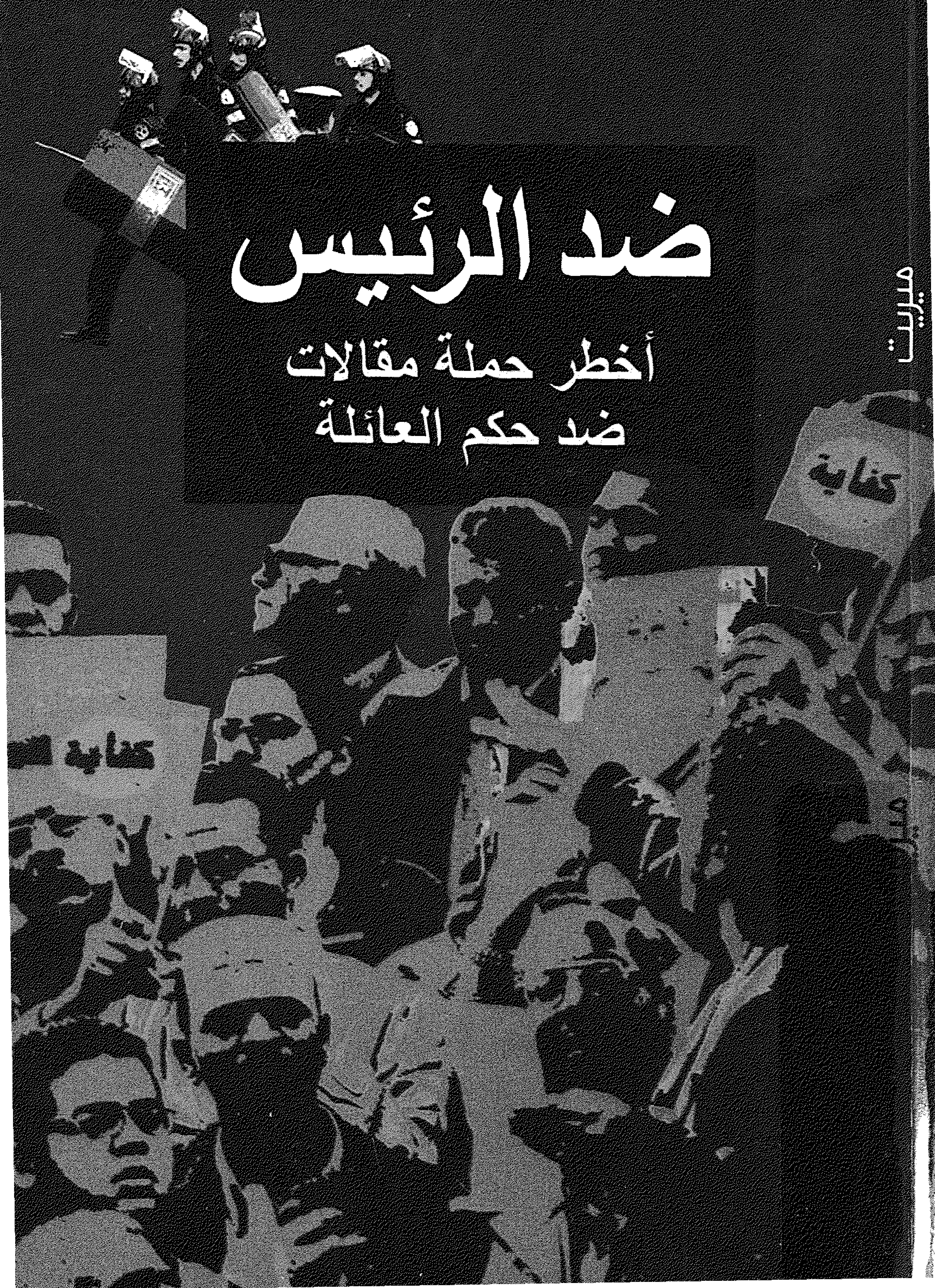

عبد الحليم قنديل
ضد الرئيس
أخطر حملة مقالات
ضد حكم العائلة
ميريت
كفاية
كفاية

ضدّ الرئيس

أخطر حملة مقالات

ضدّ حكم العائلة

ضدّ الرئيس

أخطر حملة مقالات

ضدّ حكم العائلة

عبد الحليم قنديل

الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.com
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/١٤٣٣٣

الترقيم الدولى: 977-351-253-3

عبد الحليم قنديل

ضدّ الرئيس

أخطر حملة مقالات

ضدّ حكم العائلة

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٥

الإهداء..

إلى أمى

هذا الموضوع ليس شخصياً، وإن بدا كذلك من عنوانه.

فهـذه أول مرة أصوم فيها دون أن أسمع صوت أمى، ودون أن تأتينى دعواتهـا المـباركة. ودون أن أصـغى لكلمتيها الخفيضتين العميقتين "ربنا يحمـيك"، كانت تعبر عن مكنونها فى اقتضاب، ولم أتخيل أنى سأشعر بكل هذا اليتم رغم أعوامى الخمسة والأربعين، مات أبى قبل عشرين سنة ففقدت سـنداً، وماتـت أمى قبل شهور فتهدم العالم كله من حولى، شعرت بلسعة الـبرد وحطـام الرأس، شعرت لأول مرة أننى وحيد، كنت أظن نفسى قوياً فاكتشفت ضعفى، ربما هو الفطام المتأخر فى أواسط العمر، أو فى نهاياته، فـالله وحده يعلم، لم تبق لى من مقدرة على احتمال المكاره، إلا ساعة أتذكر أمى، وأستعيد كلماتها المتحفظة المفعمة بجيشان الروح، وأخطو على حقول الأشواك كأنها حدائق الورد.

لـم تكن أمى متعلمة ولا مثقفة، أقصد أنها لم تكن تفك الخط، ولا تقرأ غـير الفاتحة والتحيات والصلوات الطيبات، كانت مدرسة للتعليم الصامت، فلاحـة فقيرة مكافحة بصدق وتلقائية وشرف، والأم مدرسة إذا أعددتها، ولا أحـد أعد أمى غير شعبها الطيب الأعراق، لم أسمعها مرة تبكى فى حرقة، ولا وجدتهـا مـرة تفرح فى صخب كأنها كتلة مشاعر عاجزة عن النطق، وكـان صـمتها الـدءوب أشد ما يعذبنى ويغرينى، ربما لأنه لا وقت لديها للكـلام الكثير، وربما لأنها تود أن ينطق أبناؤها عنها، وربما لأن أحزانها ومتاعـبها وأمراضها تنطق، كانت تعمل وكفى، نذهب ونأتى من المدارس فـلا نـراها مرة فى نوبة راحة، كأنها تقول لنا: تعلموا فسيرى الله عملكم

والـــناس، كأنها تريد – بصمتها القدسي – أن تخرجنا من سجن الصمت، أن نفهم ونعي ونتحدث ونقول الحق ونطاول الجبال، لفت نظري مرة أنها تقرأ الأرقـــام دون الكلمات، وماتت قبل أن أسألها عن سر اللغز، بل قل إنني لم أجرؤ، فلا أحد يسأل الأشياء المقدسة عن سر القداسة، واسترحت لتفسير من عـــندي تصورته صحيحاً، فربما هو هَمّ الدنيا الذي يعلم العد والحساب دون حاجة لمعلم ولا لكتاب.

وقد حيرني صمت أمي، ولا يزال، فهل هي "ثقافة الصمت" التي عاش علـــيها المصريون حقبا وقرونا؟، هل هو القهر المستديم الذي يخنق الأحبال الصـــوتية؟، أو الـــذي ينسينا نعمة النطق من أصله؟، انزل إلى الشارع، أو اجلـــس على أقرب مقهى، وجرب أن تتحدث، أو اكتف بالسماع المباح، فلن تجـــد غـــير النكتة المكرورة، أو الخبر البايت عن ماتش الكورة الخائب، أو الشـــكوى المريـــرة مـــن لعـــنة الزمن، كلام عن اللعنة لا يمس الملاعين، فـــالحوائط لهـــا آذان، والعـــياذ بالله، ولفحات الهواء كأنها موجات لأجهزة تنصت، وقد لا يوجد أحد يراقب أو يتلصص، لكنه الخوف الموروث أباً عن جـــد، والمـــيل الفطري لإغلاق الأبواب التي تجيء منها الريح، والاعتصام بإنكـــار القلـــب، والإحســـاس القاتل باللاجدوى، وخفض الرأس للعواصف، والصبر على سلطان السوء إلى أن يأتي السلطان الأسوأ.

حـــيرني صمت أمي، كما يحيرني صمت المصريين، علمتني بصمتها أن أنطـــق، وظلت هي إلى أن ماتت دون أن تنطق، وهآنذاً أكتب عنها بعد فـــوات الأجل، فلم يكن بوسعها أن تقرأ، ولا بوسعها الآن أن تسمع، وأتخيل أنهـــا لـــو سمعت فلن تزيد حرفاً، سوف تعيد عليّ ذات الدعاء المكون من كلمتين لا غير، سوف تقول في اقتضاب "ربنا يحميك"، وربما هي المصادفة البلـــيغة الـــتي تجعلـــني أسمع ذات الكلمتين كل ساعة تقريباً، تكتب لينطق الناس، وهم يقولون لك "ربنا يحميك" صحيح تشعر بالامتنان، وأنك لا تنفث دخانـــاً فـــي الهواء، لكنك لا تعرف ما يقصدونه بالضبط، وهل يعصمونك بالدعـــاء مـــن وحـــش الخوف؟ أم أنهم يحذرونك من عواقب النطق الزائد وجموح القلم في فضاء الورق؟

نعـــم حيرني صمت أمي، وإن كنت أحن إليه كما يحن محمود درويش إلى خبز أمه.

العربي – ١٨ نوفمبر ٢٠٠١

هذه جريمتى!

هـــذه ليست مقالات كتبتها، بل جرائم ارتكبتها، ولا أريد أن أعتذر عن هـــذه الجرائم "النبيلة" – فيما أظنّ – لأحد مما يَعدُّون، لا أعتذر عنها لوزير الداخلـــية الـــذى وصف مقالاتى – فى حوار تليفزيونى – بأنها مما "يعاقب علـــيه القـــانون"، ولا أعتذر لبيت الرئاسة – ولا "لشجرة الضُرّ" فيه – الذى توحى الظنون بأنه دبّر ونفّذ حادث الخطف والاعتداء الدنىء الذى تعرضت لـــه صـــباح ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، كان الحادث ذروة الدراما فى صدام خفى – فظاهر – على مدى خمس سنوات، لم يكن الأول فى سلاسل إيذاء وتحرش سياســـى وأمـــنى متّصل، كانت التهديدات تهوى كالمطارق من أول سطر، ومن مماليك كبار بالقرب من "بيت السلطان"، كانت الفكرة بسيطة فى أذهان الذيـــن أرادوا أن يعاقـــبوا، لم يكن وارداً إغلاق "العربى"، خاصة أن إغلاق جـــريدة "الشـــعب" صـــادف فـــى التوقيت بدء حملة "العربى" ضد التوريث فالـــتمديد، والبديل: ضغط وتهديد للحزب الناصرى الذى تصدر عنه جريدة "العـــربى"، وكـــان حملـــة رسائل التهديد من عيّنة زكريا عزمى وصفوت الشـــريف ومصـــطفى كمـــال حلمـــى وكمال الشاذلى وأسامة الباز، فحوى الرســـائل كـــان دائماً أن الرئيس غاضب وحانق مما تنشره "العربى" بعامة، ومن مقالاتى بالذات، وبدعوى أنها كسرت خطوطا حمراء وحطمت أسواراً صـــينية، ولم تصل رسائل التهديد إلى أهدافها مباشرة ولا بالوساطة، وكان لموقـــف ضياء الدين داود رئيس الحزب الناصرى – بالذات – أثره اللافت وربما الحاكم، فقد لعب ضياء – بطريقته المميزة فى امتصاص الضغوط – دوراً حامـــياً لـــتجربة الخـــروج عـــن النص، بدا للضاغطين بالمهاتفة أو بالمشافهة – فى لباس النصح – أن الطريق مغلقة، وجرّبوا الضغط بوسائل أخـــرى بـــدت أكـــثر خشونة. جرّبوا الضغط مرات بتهديد الأهرام – زمن إبراهـــيم نـــافع – بوقف طبع "العربى"، وجرّبوا الضغط مرة – فيما أعلم –

برســـائل ساخنة عبر أسامة الباز مستشار الرئيس مبارك وراعيه الشخصى مــنذ أن كـــان نائـــباً للرئيس السادات، فقد انتقل أسامة الباز بشخصه – فى ســـابقة هـــى الأولى والأخيرة – إلى مكتب رئيس الحزب الناصرى، كانت الحـــوادث المصـــاحبة فـــى واحـــدة من ذرى احتقانها المثيرة لأسئلة تتعلق بالمصـــائر، كـــان الرئـــيس مـــبارك قد وقع مغشياً عليه، وهو يلقى خطابه الافتـــتاحى فـــى دورة للـــبرلمان أوائل ديسمبر ٢٠٠٣، وتصادف أن كان المشـــهد متلفزاً، كانت الأعصاب ملتهبة مشدودة، وكانت التصرفات مختلطة مرتبكة كاشفة لخواء غائر إلى العمق، وبدا أنه الخبر الأول – بطبائع الوزن المصـــرى – فى قوائم الاهتمام العام، وحدث أن اتصلت بى قناة "الجزيرة" للتعلـــيق على ما جرى، ويصعب بالطبع – ولدواعى السياق الخاطف – أن أعـــيد التعلـــيق بكامله، أذكر فقط أننى قلت "إن صحة الرئيس – بحسب ما يذاع – على ما يرام"، ثم كانت الإضافة المستدركة "لكن صحة نظام الرئيس ليســت كذلـــك"، وتداعى التعليق – بروابط السياسة والمنطق – إلى رفض التوريـــث بالعائلـــة أو التوريث بالمؤسسة، ولم يكد التعليق يذاع حتى دارت عجلـــة الضغط هائجة فى الاتجاهين، طلب أسامة الباز أن يقابل ضياء الدين داود فـــى مكتـــبه، والتقاه بالفعل فى اجتماع مغلق على مدى ساعة ونصف الســـاعة، وتحرك صفوت الشريف – وزير الإعلام القوى وقتها – فى اتجاه آخـــر، اتصـــل بـــإدارة قناة "الجزيرة" – فى الدوحة – ناقلاً غضب الرئيس وثورتـــه العنـــيفة، وبدا أنه – فيما تأكد لى باليقين – أنه سمع ما لم يعجبه، فانتقل بالاتصال الضاغط الغاضب إلى الديوان الأميرى رأساً، كانت الرغبة فى الانتقام كاسحة عمياء، على جبهة "العربى" بدا أن لقاء الساعة والنصف فـــى مقر الحزب الناصرى لم يؤثر كثيراً، بدا أن ضياء الدين داود حريص علـــى تكتم ما جرى، وإن كانت التوصية الأبوية بالتهدئة من لزوم ما يلزم، ولـــم أكن وقتها على علم بالذى جرى من ضغوط القاهرة فى الدوحة، وإن جـــاءنى الفعـــل الذى هو الأسبق إنباء من الكتب، فقد وصلتنى رسالة بعدها بأيام من كلمتين تقريباً – مذيلة بتوقيع رئيس تحرير جريدة "الراية" القطرية، كـــان الطلـــب المفاجئ أن أتوقف "مشكوراً" عن كتابة عامود صحفى يومى بعـــنوان "هوامـــش" ظلت "الراية" تنشره لى – وتنقله عنها صحف أخرى – لتســـع ســـنوات ســـبقت أمر الإيقاف، وبدا الطلب غريباً لافتاً مثيراً للحيرة وللريـــب، بـــدا كأنه الطلاق الذى لم تسبقه مشكلة ولا إحم ولا دستور، فلم

يسبق أن ثار نزاع أو جرى حذف سطر أو حرف مما كتبت فيما يقرب من ثلاثة آلاف عامود صحفي، ولم يسبق لي – في كتاباتي بـ "الراية" القطرية – أن تطرقت لشأن مصري لا بالمدح ولا بالقدح، لم أكن أصدر فيما فعلت عن تعصب لمصر يقتصر بشئونها وشجونها على أهلها وصحفها، بل كانت الدواعي الأخلاقية هي الأهم، فما دمت لا أستطيع انتقاد أمير قطر بالاسم على صفحات "الراية" القطرية، فليس من المستساغ – بحساب الأخلاق – أن أنتقد مبارك بالاسم هناك، ويختلف الأمر – بالطبع – في الفضائيات بما فيها قناة "الجزيرة"، فقد انتقدت الكل بمن فيهم أمير قطر في قناة "الجزيرة" بالذات، المهم أن ما جرى كان في وقعه الشخصي فادحاً فقد، كانت الأبواب قد غلِّقت دوني، أعمل في "العربي" – براتب رمزي – لظروف معلومة، وغالب دخلي الشخصي تقطعت موارده، فالضربة التي تلقيتها في الدوحة – بضغط خشن من القاهرة – بدت كأنها اللعنة التي تسبقني إلى كل العواصم، صحف عربية تحمست أو رغبت أو عرضت نقل عامودي اليومي إليها، ثم يبتلع الحماس حلقه، وحتى من أصدقاء عمر ورفاق على الطريق، وكأن يداً خفية تهدد بقطع الرؤوس قبل الأرزاق، أو أن يقال لك – بدواعي الحرج – اكتب ولكن ليس في السياسة، وصلت الرسالة، ولم يكن لمثلي أن يطلب أو أن يلح، وطويت ضيقي، ولم أكتب حرفاً عما جرى قبل هذه السطور، كنت أتشاغل عما جرى، ولم تصل بي الظروف أبداً – والحمد لله – إلى حافة جوع، وكان هذا كافياً بالنسبة لرجل لا يطلب غير الستر، وإن لم يكن مريحاً لأسرة – من زوجة وثلاثة أبناء – بدا أن عائلها يناطح الحائط المسدود، كان صبر الزوجة المؤمنة المتفانية أفضل دعم معنوي تلقيته في الضائقة المتصلة، وبدا أن شيئاً لم يتغير في حياتي اعتماداً على مدخرات قليلة أخجل من ذكر أرقامها، بدت المقدرة على الاحتمال وكأنها لا تنفد، لكن الرغبة في الانتقام بدت وكأنها لا تنفد أيضاً، بدت مخزونة منذرة بمواعيد الخطر، فالصدام الخفي تحول إلى اصطدام ظاهر، تهديدات هاتفية بالقتل من مجهولين، لم ألتفت ولا تحريت، ولا كان بوسعي أن أتحرى ولا أن أتراجع، واحتميت دائماً بشرط الضمير، وتحصنت بصوت أمي التي ماتت، وتناسلت دعواتها في دعوات لآلاف الآباء والأمهات كانت تصلني، ولم يكد يمر العام على رغبة الانتقام بالتجويع حتى تحول المشهد ذات صباح رمضاني إلى الانتقام بالترويع، ووقع الحادث الدنيء المروع

بتفاصيل مفزعة صارت فى نطاق العلم العام، ولا يبدو الاحتياج ملحاً لتذكر الذى جرى بعد ساعة الفزع، بلاغ للنائب العام، واتهام لوزير الداخلية وبيت الرئاســة، وتحقــيقات وشهود ومعاينات محفوظة فى الأدراج - إلى الآن - وربمــا إلــى يــوم يبعــثون، لا أدعى أننى كنت هرقلاً ولا رامبو، ولا أن أعصــابى قدت من حجر، فالذى لا يخاف ليس إنساناً، وقد كنت خائفاً، وفى انــتظار القتل، لكن دفء أسرتى الصغيرة - مع حادث الانتقام بالتجويع - ســرى فى بدن وطن بأكمله مع حادث الانتقام بالترويع، وبدا الكبار - الذين نصحنى الخاطفون بألا أكتب عنهم - صغاراً فى القيمة إلى حد التلاشى، لقد أرادوا عقــابى فقطعــوا أنوفهــم، أرادوا عقاب شخص فتفجر غضب أمة، وأعــترف بأنــنى لم أتوقع أبداً كل هذا التضامن مع شخصى الضعيف، فأنا أبــدو شخصــاً بريئاً مقطوع الصلات بطقوس الجماعة ومجاملاتها الطبيعى فــيها والمصــنوع، لــم أتوقع السيل الجارف من نداءات التضامن ومقالات الــتعاطف بالمئات، بدا أن ضمير مصر الساكن ينتفض أخيراً، بدت القصة كلهــا فــوق ما أستحق، وبدا أن أغلب الذين تعاطفوا تجاوزوا شخصى إلى القضــية ذاتها، فلم أكن - حين عوقبت - سوى المتهم بجريمة الخروج عن النص، وقد أرادوا هم أيضاً أن يخرجوا عن النص، أرادوا أن يقولوا "كفاية" لحكم الأب والأم والابن، وقد كان.

عبد الحليم قنديل

القاهرة فى ١٣ يوليو ٢٠٠٥

من هنا نبدأ*

من وليمة حيدر حيدر إلى وليمة سمير رجب.. يا قلب لا تحزن.

الوليمتان – معاً – تؤكدان بؤس الثقافة والسياسة فى مصر، حريق ثقافى اشتعل فى المحروسة مع كلمة أو كلمات منحطة منتزعة من السياق فى رواية متوسطة القيمة، وزلزال سياسى ضرب التجربة الحزبية مع مقال تحريض للأخ رجب، وتحول المشهد إلى سوق عكاظ، قصائد هجاء، وحروب قبائل، وقصف بشتائم من العيار الثقيل، وخفوت لصوت العقل، وانكشاف غير مسبوق لدولة رخوة تفككت أوصالها وضاعت ضوابطها، وفزع عام، وبيادق شطرنج، وإطلاق لأحط ما فى النفس الإنسانية من سفالة ووحشية وبدائية، وفتاوى بالقتل، ودعوات للمصادرة المتبادلة، وكأننا فى بحبوحة من الحرية، ونريد للقيود أن تغلظ، وللسلطات أن تتدخل لضبط المرور الثقافى، ووجدها سمير رجب فرصة سانحة، وجعل من نفسه – وهو صحفى وكاتب من وزن الريشة – حكيم زمانه، وراح يلقى بالمواعظ ويفتى فيما يجوز ولا يجوز، وينصح بضبط المرور فى حوارى السياسة بالمرة، تصور أن بوسعه إغلاق أحزاب، وافتعال رؤساء، وتصرف وكأنه الحاكم بأمره، ولم لا؟ فالوزراء يخشونه ربما خوفاً من اللحاق برأس الجنزورى الطائرة، وتحسب حسابه أحزاب وفئات تنسب نفسها للمعارضة، وتشارك بحماس مريب فى دعوته لاغتيال حزب العمل، وتقيم تعارضاً متعسفاً بين حق التعبير وحق التنظيم، فقد نختلف مع مبالغات جريدة العمل فى وليمة حيدر، وهذا لا يعنى أن نترك حزب العمل وليمة لسمير رجب، فحق الجدال والاختلاف يجب أن يصان، ولا سبيل لترشيده بغير العقلنة والبحث عن قواسم مشتركة، ونقطة البدء: اعتراف الكل بالكل، وضمان حقوق التعبير والتنظيم للكافة، ولا يليق بمثقف حر أن يلجأ لاستعداء السلطات، فهذه خطيئة، ارتكبها حزب العمل، ولجأ إليها مخالفوه، لكنها لا

* المقالات كلها من سلسلة "لوجه الوطن" التى نشرتها "العربى" على صفحتها الأخيرة، وسوف يشار – فيما بعد – إلى تاريخ النشر أسفل المقال.

تقـــوم مبرراً لنفي وجوده الشرعي أو تفكيكه، أو استنساخ بدائل موهوبة في معامل تفريخ سمير رجب.

مـــرة أخرى، جاءت الحوادث الأخيرة كاشفة لانحطاط الثقافة والسياسة في البلد: وكأنه حكم علينا ألا نتعلم من التجارب، وأن نعيد الطريق من أوله دائمـــاً، المـــتقاتلون في الثقافة يضعوننا بين اختيارين كلاهما زائف، فريق ينطلق من عصمة دينية لا محل لها من الإسلام، وفريق يناطح باسم علمانية لا موقع لها من الإعراب في سياقنا الثقافي، بينما لا دينية مانعة ولا علمانية فاصلة تصلح عندنا، والموقف الصحيح هو التمييز - لا الفصل - بين الدين والدولة، بين دور الدين في المجتمع والسياسة، وهو ثابت ومؤكد، وبين دور الوضـــع والعقـــل والاجـــتهاد البشـــري، وهو جوهري أيضاً في المجتمع والسياسة، ولا بأس أن يميل فريق إلى الإغراق في المحافظة، ولا أن يميل فـــريق مقـــابل إلى التطرف في التجديد، والتطرف في الآراء ينعش رغبة المجـــتمع فـــي التفكير والبحث عن مخارج، فهناك رؤية ثالثة دائماً، وهي ليســـت في الموقف الوسيط بالمعنى الحسابي، ليست بين بين، بل هي البديل الأرقـــى المـــتجاوز للقصور وضيق الأفق في الاتجاهين، فلسنا مضطرين لاختـــيار موهـــوم بيـــن قداســـة الإسلام وحرية التفكير والإبداع، فنحن مع الإســـلام وضد المصادرة في نفس واحدة، وليس في ذلك ذرة تناقض، اللهم إلا إذا تصـــور الـــبعض أنهم مبعوثو العناية الإلهية، أو أصر آخرون على تألـــيه التفكـــير البشـــري، فلا الإبداع كهنوت، ولا الله أعطى سلطته لأحد، والحوار وحده، والتفاعل مع الرأي العام، والمقدرة على الإقناع، كل ذلك - مـــن قبل ومن بعد - هو الفيصل الحاسم، وكسب الجمهور هو المعيار، فلا يمكن أن تبقى معزولاً، أو أن تسكن في برج عاجي، ثم تدعي أنك تدافع عن الحـــرية، ومن باب أولى لا يصح لأحد أن يتحول إلى مخبر ثقافي أو مرشد سياســـي، ثم يتحدث عن الحرية، ولا يصح لأحد أن يطالب بمصادرة كتاب ولا بـــإغلاق حـــزب، ففـــي الثقافة دائماً رؤية ثالثة لكن السياسة لا تقبل إلا واحـــداً مـــن موقفين، إما أن تكون مع الكبت السياسي أو أن تقف مع حرية الآخرين وكأنها حريتك بالضبط، فالتغيرات الثقافية - بالطبيعة - تحتاج إلى زمن ممتد، وتغيرات السياسة هي القاطرة الأولى، ولا يمكن أن نتحدث عن حوار وتفتح ثقافي مع دوام القهر السياسي.

هـــذا هـــو اجتهادنا في "العربي" رؤية ثالثة في الثقافة ورؤية ثانية في السياســـة، الرؤية الثالثة في الثقافة هي الفريضة الغائبة، والدفاع عن الحرية السياسية هو فرض العين، فلا تخلطوا الأوراق من فضلكم.

٢١ مايو ٢٠٠٠

الحبّ القاسى

أعترف بأننى فوجئت بهذا الحماس الطاغى لجريدتنا "العربى"، فلم يكد يصدر عدد وعددان حتى تحولت "العربى" إلى مادة لحديث صاخب فى المنتديات السياسية والمهنية.

وقد رغبت أن أقول للمهنئين عبارة بليغة صكها محمود درويش، ذات يوم، طردوا الشاعر العبقرى من الأرض المحتلة، ولسعته حرارة الاستقبال بالأحضان فى القاهرة، ووجد الدموع تطفر من عينيه وهو يقول "ارحمونا - دام فضلكم - من هذا الحب القاسى"، ونحن نقولها - مع اختلاف الظروف وحفظ المقامات - للذين يأملون فينا خيراً، لا نقول لهم - بالطبع - اقطعوا فينا الأمل، بل نقول لهم - فقط - ترفقوا بنا قليلا، فبعض عطفكم يحيى نفوسنا، وغامر العطف ربما يغرقنا، فلسنا صناع معجزات، ولا فى أيدينا حبة البركة، ولا نحول النحاس إلى ذهب، نحن - فقط - نحاول بقدر ما نطيق من شرف واستقامة، أن ندافع عن الكرامة المهنية والوطنية لهذه الجريدة، فقد ظلمت طويلا، وحوصرت أكثر، وأرادوا خنقها، وربما إغلاقها بالضبة مع تضييع المفتاح، ووضعوها فى ظروف بدت قاهرة، وربما مستحيلة، وأحاطوها بالأسلاك الشائكة، وتصوروا أنهم سجنوها، واستراحوا من صوتها المشاغب، العميق العفى، فالإمكانات المالية معدومة تقريباً، والظرف السياسى ضاغط، وعصا العقاب الغليظة عند حافة الرأس، وكلها ملابسات دفعت لوقف الإصدار اليومى إلى حين، وشكرنا لمن وضعوا فينا ثقتهم، وعدنا نحاول النهوض من جديد، ولسنا عميانا حتى نغفل العثرات والمزالق، ولا ابتلعتنا رمال الوهم حتى ننسى تربص المتربصين، ولا ركبنا الغرور حتى نتجاهل الفخاخ المنصوبة، لكننا - ببساطة - قررنا أن ننجح، والنجاح - تماماً كالفشل - يبدأ بالإرادة، وشجاعة القلب وتفجير الطاقات

المحبوســة أهــم من الممكنات المادية، قد نخطئ هنا أو نصيب هناك، لكننا قادرون – بعون الله ومواهب الزملاء – على العبور لخط الشمس.

نحــن لا ننشئ جريدة جديدة بالطبع، وقد يكون ذلك أسهل كثيراً، لكننا نســعى لــرد اعتبار جريدة مظلومة، ونحن لا نختط سياسة جديدة بالطبع، فالسياســة فــى خطوطهــا العامة يقررها الحزب وقيادته، ويترك للجريدة حريــتها واســتقلالها الكــامل فى ترجمة السياسة مهنياً، ولا يوجد – وهذه فرصة مثلى – ما هو أعلى من سقف سياسة الحزب الناصرى فى هذا البلد، فالجــريدة الناصــرية تكون كذلك بقدر وطنيتها الجامعة، فالناصرية ليست شــرنقة، ولا ورقــة متيبســة، ولا نصوصاً متكلسة، الناصرية يقظة أمة، الناصــرية هــى الوطنــية المصــرية فى أرقى مراتب امتيازها، ووضوح الرســالة المهنية شرط لازم – فيما نحسب – لتفوق الأداء المهنى، والرسالة الملهمة تفجر ينابيع الإبداع الصحفى، إلا أن يكون طلب النجاح معزولاً فى ذاتــه، وبذاته، أو بحثاً عن رواج تجارى ببهارات السوق، وهذا ما لا نريده قطعاً، فنحن لا نقلد أحداً، ولا ندعو أحداً لتقليدنا، بل نسعى لصحافة أخرى، جادة نعم، وحيوية جذابة فى الوقت نفسه، صحافة حوار انسدت شرايينه فى المجــتمع، صــحافة تــرد الاعتبار للسياسة فى مناخ مأزوم ضاغط خانق ومخنوق.

نحن – بالتأكيد – لا نركب بساط الريح، ولسنا أبطالاً فى أساطير، نحن فقــط نخلــص ونتعلم، ونحلم بنجاح يساوى مثقال ذرة من محبتكم، وننتظر حكــم ســيدنا القــارئ، وهــو كالقضاء المستعجل، وإن جاز أن نطلب فيه اللطف.

٤ يونيو ٢٠٠٠

طُويت الصحف

جفــت الأقــلام وطويـــت الصحف، ولم يبق إلا مشاهد العزاء الأخيرة الثقيلة الحزينة.

هــذا هــو المآل النهائى لتجربة حزبية مشوهة كسيحة، بدأت قبل ربع قــرن، وانحطــت - على غير المفترض - بمنسوب المشاركة السياسية فى اطــراد، وكلمــا زاد عــدد الأحزاب ذبلت فكرة السياسة، فى وقت ما بدت التنظيمات الحزبية طرية ضعيفة، وقيل: إن الصحف تكفى، وأن الصحف قد تنشــئ أحــزاباً فــيما بعد، ثم جاء الدور على صحف الأحزاب، تراجعت، وحوصـــر التأثير فى الرأى العام، وبدا أن التجربة برمتها فى النزع الأخير صــحفاً وأحــزاباً، فالقيود ثقيلة، وترسانة القوانين مغلظة كابتة لأى حريات حقيقــية، والمشــهد كلــه اصطناعى، زهور من بلاستيك على مائدة قديمة، وديكــور مصبوغ بألوان حائلة، وقد تضحك على الناس بعض الوقت، لكنك لا تســتطيع أن تواصــل خداعهم لآخر العمر، وسرعان ما أدرك الناس أن الــتجربة تفتقر للحد الأدنى من الجدية، فلا تداول سلطة، ولا تداول صحف، والأدوار موزعــة بعــناية، كأنــنا فــى مسلسل تليفزيونى ممل، لا بصدد صراعات اجتماعية وفكرية صاخبة وفوارة، والسياسة مستبعدة بالكامل، وما أغرب السياسة التى تكون ضحيتها.. السياسة بالذات.

بــلا رتــوش، ولا مكياج، ولا تكلف، بدت التجربة على سوءاتها - إن كانــت لهــا حســنات - هذا الأسبوع، المحكمة الإدارية العليا أيقظت نصاً تصــوروه مهجوراً، وقضت بحق جهة الإدارة - الحكومة أو الأمن لا فرق - فى تعطيل وإغلاق صحف المعارضة جميعاً، والحكومة - على أى حال - لــم تقصــر فى واجباتها وحقوقها المرعبة، جمدت حزب العمل، وأغلقت صحيفته بجرة قلم، وتركت باقى المهمة لجهات الأمن تتصرف على هواها، وتوالــت الفصول الهزلية، وجرى عقد اتفاق ببركات الرعاية الأمنية، وقيل

إن الاتفـــاق هو الحل، وهو حل حقيقي لحزب العمل، ليس حلاً يعيد الأمور إلـــى ســيرتها الأولى، بل حلا نهائياً للحزب الذى نعرفه، فالأحزاب ليست صـــوراً وكاميرات، الأحزاب حساسيات وطبائع، وما حدث مع حزب العمل موح جداً، وقابل للتكرار، الحكومة وضعته فى ثلاجة التجميد، والأمن تكفل بتســليم الجثة لغير أهلها، وعلى العنوان الوهمى، ولو كنا فى تجربة حزبية حقيقـية، لمـــا حدث ما يحدث، خلافات الأحزاب ليست بدعة، ولا هى من وساوس الشيطان الرجيم، والمختلف يستطيع إنشاء حزب يخصه، فالأحزاب ليســت دكاكين بقالة، ولا رهناً عقارياً، وحيازاتها لا تنتقل للراغبين بفلوس السوق، ولا بوصايا الباب الأمنى العالى.

إنهـــا الكوميديا السوداء، لم تعد تبدو لنا غريبة، ولا مدهشة، والنتيجة: حالـــة مـــن المـــيوعة والبلادة والرخاوة، وطلاق للسياسة بالثلاثة، ومجتمع يمضى إلى المجهول، تموت فيه السياسة الظاهرة، ويفيض باطنه بنوع آخر مـــن السياســـة الجوفـــية، وسير عشوائى ينتهى بالسياسة الجوفية إلى دماء جوفية، واحتقان ينتهى بانفجار مجهول المواقيت مشحون بالمخاطر.

ولا بأس أن يغلقوا كل الأحزاب وكل الصحف، فربما يريحونا - على الأقـــل - مـــن وجع الدماغ وخداع البصر، وربما تكون القارعة التى تحيى السياسة بعد أن باتت عظاماً ورميماً.

١١ يونيو ٢٠٠٠

إنّى أعترض

منعاً لكل لبس، وحجباً لأى تأويل، فإننا نؤكد – بطبائع الأشياء – احترامنا لذكرى الرئيس الراحل حافظ الأسد، وهو قائد حقيقى من طراز نادر، يكفى أنه انتقل إلى رحاب الله دون أن يوقع اتفاقاً مع إسرائيل، ودون أن يصافح قادتها، ودون أن يضع أنف سوريا فى الرغام، وظل – قرابة ربع قرن – يناور ويداور فى دهاء وصلابة، ويستفيد من الفرص القليلة المتاحة للحركة بعد وقوع مصر فى وحل كامب ديفيد، وأثبت أنه الرقم الصعب فى معادلة المنطقة، ونجح باقتدار فى توحيد إرادة سوريا ولبنان فى اتصال المواجهة مع إسرائيل، بينما تسابق الآخرون إلى نيل رضاها السامى وتقبيل أقدامها الشريفة (!)، وكان له دوره المقدر فى إلحاق الهزيمة بإسرائيل، ودفعها للانسحاب من لبنان دون قيد ولا شرط ولا معاهدة سلام.. ولا يحزنون.

واعترافنا بدور الأسد شيء واعتراضنا على ما جرى مع رحيله المباغت شيء آخر تماماً، والفجوة بين الحالين مفهومة، فسوريا بلد عربى، وكلنا فى المصيبة ذاتها، دور الشعوب يختصر فى دور أفراد، والحكام أشبه بالآلهة، والشعارات معلقة فى الفراغ المخيف، وظواهر الاستبداد والفساد تنمو فى تلازم، وفرص الديمقراطية معدومة، ويقظة الأمة خفتت أصواتها، والسياسة ماتت فى هدوء، والاستقرار الذى يحدثونك عنه كتم للأنفاس والنفوس، والمدن المكتظة تبدو كأنها خلاء صحراوى، بشر كالأشباح، وأشباح كالبشر، وهو ما يغرى باغتيال الحقائق والمبادئ ويحول نظم الحكم الجمهورى إلى نظم للحكم المملوكى والسلطة لمن غلب بالسيف والثروة، والرئاسات تورث كالممالك، والحكم حرفة عائلية، والدم الأزرق له الأولوية، والدساتير مجرد أوراق جف حبرها من زمن، انفصام كامل بين الأقوال والأفعال، وازدواج فى الشخصية تواطأ الكل عليه، وسكتوا عنه،

وتلاشٍ لحس المعارضة والنقد وحرية الضمائر، وكوارث تتوالى، كأننا فى كـــابوس يقظة أو لطشة منام، فها هو المبدأ الجمهورى يهوى، وكنا نحسب أنـــه استقر، ولم يعد مثاراً لنقاش، كنا نحسب أننا قطعنا نصف الطريق، أو أنـــنا نقف على الناصية، فالجمهورية موجودة كعنوان فى الدساتير، وإشاعة الديمقراطــيةِ قد تحولها إلى حقيقة معاشة، لكن ما حدث كان مذهلاً، وإن لم يكـــن مفاجئاً، وبدت سوريا – للأسف – كأنها حقل تجارب لردة مفزعة إلى جاهلـــية السياسة، وهو ما نخشاه ونفزع منه، ونعده أكبر إساءة لتيار القومية العربـــية ممن يزعمونٍ انتساباً إليه، فالقومية العربية ليست حكم طائفة، ولا حكم عائلة، ولا توريثاً بالدم، القومية العربية إرادة الناس فى النهضة والتقدم والتحرير والتوحيد، القومية العربية جمهورية عربية متحدة، القومية العربية تزدهر بالديمقراطية وتختنق فى غيابها، القومية العربية أم المبادئ، وليست من بنات التمثيل والتدجيل والتلاعب بمشاعر الناس فى صدمة حزن وفوات عقل.

ســـوريا الـــتى نحـــبها هى التى تواجه إسرائيل، وإطلاق إرادة الناس المحبوســـة هـــو الذى يكفل اتصال المواجهة إلى النهاية، ولنا فى لبنان قدوة حسنة، فقد نمت ظاهرة حزب الله فى ظل الديمقراطية النسبية، وكان النصر للشـــعب لا لأمـــير ولا لخفير، وهذا هو التلازم بين حريات الناس وحريات الأوطـــان، هذا هو المثال الذى نتعلق به، هذه هى القومية العربية فى أصفى معانـــيها، هـــذه هى جمهورية الناس لا جمهوريات الدساتير، التى ثبت أنها تتغـــير فـــى ربع ساعة، وتتحول من داخلها إلى ملكيات ظاهرة على جثث الجمهوريـــات الملتبسة، وهو اختراع سياسى حول بلادنا إلى حدائق حيوان، وجعلنا – بلا منافس – مسخرة للعالمين.

نقولهـــا بمـــلء الفم، نعم لمواجهة إسرائيل، ولا لتوريث الجمهوريات، فلســـنا عقـــاراً يـــورث ولا عبـــيداً فى سوق النخاسة، ولا متاعاً للرؤساء والملوك.

١٨ يونيو ٢٠٠٠

نصل السكّين

أن تعيش فى خطر أفضل من أن تموت، وأن تموت واقفاً أكرم من أن تموت فى جلدك وأنت تنظر فى رعب إلى نصل السكين.

وهــذه الجــريدة فــى خطــر حقيقى، نجاحها المفاجئ خلق لها آلاف الأصــدقاء، وزاد عداوات الأقوياء المتربصة فى الوقت نفسه، فلم يكن أحد ينــتظر أن ننجح بهذه السرعة، وأن ننتقل - فى خمسة أسابيع لا غير - من خانة النسيان إلى قمة الحضور، ولا أن نترك سلة المهملات إلى أعلى برج القاهرة، ولا أن نتحول من جريدة نسيت تماماً فى السوق إلى صوت يبحث عــنه المتلهفون بعشرات الألوف، فما حدث - بكل التواضع - أشبه بعملية إحــياء ميت، أكبر كتاب مصر وصحفييها كان له رأى محبط تماماً، قال لنا ببساطة: لا أتوقع نجاحاً، قال لنا: كل عناصر الفشل متوافرة، وكانت مفاجأة ســارة لــنا أنـــه غير رأيه فى ظرف أسبوعين، تحول من توقع الفشل إلى الحفــاوة بالــنجاح، والحــث علـــى المزيد، ولم يكن رأيه الأول مغالياً ولا متعســفاً، فهو يعرف ما نعرف تماماً، يعرف قسوة التربص، ويعرف كبوة الديون المخيفة بأرقامها الفلكية، ويعرف أن أحداً لا يرحم، وأننا وضعنا فى اختــبار بــلا اختــيار، كنا نعرف ذلك وأكثر، لكننا اعتصمنا بجبل العناد، وتمســكنا بفضيلة التحدى، واستعضنا عن نقص الزاد المادى بتوهج الروح، ولــم نركــب رؤوســنا غرورا، ولا ادعينا أننا نصنع المعجزات، نحن فقط نخلــص ونتعلم، ونقف فى قفص التجربة ننتظر حكم سيدنا القارئ، وفاجأنا العطف بلا حدود، وطلبت شركة التوزيع زيادة رقم المطبوع خمس مرات، ولــم نســتطع تلبية رغبة السوق بالكامل، فالإمكانات المالية معدومة تقريباً، والحصار الإعلانى محكم، والأرض من حولنا محروقة، ونصال المتربصين علــى الأعناق، والجريدة الناجحة عصفور جميل على شجرة باسقة يقطعون جذورها، وتتكرر المفارقة التى تحدث فى النادر، الفشل ينظر إليه كأنه تاج

الفخـــار، وتتسابق إليه زهور التكريم ودواعى الحماية، والنجاح جريمة تدين وتشـــين، الــنجاح جناية تستحق الخنق والشنق، إنه خلل يمشى كالسوس فى خشـــب المشهد العام، والبعض يريدونها مظلمة تماماً، يريدون إطفاء الأنوار حتى لا تكون فرصة لتمييز بين إدمان الفشل وكئوس التفوق.

ولـــك أن تتصور - عزيزى القارئ - جريدة تصدر من نقطة الصفر، فلا تليفون مباشر، ولا حتى ورقة دشت، ولك أن تتخيل الباقى، وجع نازف مـــن جروح الجسد، وأوضاع لا تصدر معها جريدة من أصله، دوائر خنق متصـــلة جهنمية مفرغة، وحرب إبادة تشبه حصار العراق، والبعض ينتظر قـــراءة النعى فى صفحة الوفيات، وهو ما لن يحدث أبداً بإذنه تعالى، فقد لا نملـــك الإمكانات المالية، وقد لا تتاح لنا قريباً، لكننا نملك ما هو أثمن، وله فعـــل السحر، فالرغبة فى النجاح هى خاتم النبى سليمان، وطاقات ومواهب الـــزملاء والأصدقاء تكفى وتزيد، والجريدة التى عبرت إلى الحياة لا تعود لقبر، والجريدة التى عبرت إلى النور يصعب حبسها فى القمقم.

لا نخفى شيئاً، ولا نطلق وعودا من خيال، لا نشكو أحداً بعينه، ولا إلى أحـــد بذاتـــه فقـــط، نصـــارح ســـيدنا القارئ الذى لا يرد حكمه، ولا يقبل الاستئناف ولا المماطلة ولا دفن الرؤوس فى غبار الرمل.

٢٥ يونيو ٢٠٠٠

فى الممنوع

ليست مصادفة أن نكون الأشد قلقاً من مخاطر توريث الحكم الجمهورى، أو تحويل الجمهوريات إلى ملكيات أو "جمهوريات" واختلاط النسب العائلى بأنساب السياسة.

وليست الحكاية أننا نتحلى بفائض شجاعة، أو برغبة مجانية فى اقتحام مناطق الخطر وكسر الخطوط الحمراء والسير فى الممنوع.

نحن ببساطة جريدة ناصرية، والناصرية – فى أحد أهم تجلياتها – قرين للفكرة الجمهورية، وقيادة تاريخية بحجم جمال عبد الناصر كانت قادرة على طى صفحة العصر الملكى نهائياً، ونحن نواصل الطريق ذاته، لا نبدأ من حيث بدأ عبد الناصر، بل من حيث انتهى، فلا جدال فى أولوية الفكرة الجمهورية، ولا جدال أيضاً فى مخاطر تهدد باغتيال الجمهورية تواترت مع انقلابات السادات، فقد نصب السادات نفسه "ربا للعائلة" من انفتاح "السداح مداح"، أصبح الحكم حكراً لـ "الرئيس الرب" مع "غلمانه وندمائه"، وبدا مواليد المعونة الأمريكية – بعد كامب ديفيد – كأنهم صناع القرار، تركزت الثروة الحرام فى يد حفنة تحولت بسرعة البرق من خانة المليونيرات إلى خانة المليارديرات، والإتاوات للمماليك من حول مركز السلطة المنفرد تقريباً، وأصبح الحكم والثروة معاً لعائلات معدودة، وهى ظاهرة تفاقمت إلى الأسوأ بعد مقتل السادات، وحولت الحكم الجمهورى إلى حكم عائلى عملياً، وهذا هو مربط الفرس ومربض الخطر، فالتحول العائلى يفرض مقاييسه، ويميل على نحو متزايد إلى إطفاء الأنوار وحصار الحد الأدنى من حريات التعبير، ويضع الدستور على الرف، ويخلق أجواء مريبة توحى بالتمهيد لاقتراف جريمة.

نعم، نحن ضد توريث الحكم الجمهورى، ونسعى لرد الاعتبار للفكرة الجمهورية التى ارتبطت باسم جمال عبد الناصر، ولا انفصال بين اختياراتنا

السياســية والاقتصادية والثقافية، لا انفصال بين دفاعنا عنها ورفض التحول الملكــى أو العائلى من وراء القناع الجمهورى، ولا سبيل للدفاع عن المبدأ الجمهــورى بغــير ديمقراطــية كاملة الأوصاف، ديمقراطية لا تختلط فيها صــراعات السياســة مع مشاهد المسرح، ديمقراطية لا توزع فيها الأدوار الهزلــية علــى نحو مثير للضجر والقرف، ديمقراطية مختلفة عن دعاوى العائلــة الوفديــة إياها، أحد زعماء الوفد ياسين سراج الدين قال لنا: أرشح جمــال مــبارك رئيساً لمصر!، وكان التصريح قنبلة ناسفة لركام هائل من الزعــيق الوفدى، فهم يبدون كأنهم ضد التوريث فى سوريا، بينما يناصرون رغــبة أو إيحــاءات التوريث فى مصر (!)، وهذه فضيحة عقلية وسياسية معاً، وتكشف روابط الحبل السرى بين عائلات الثروة وعوائل السلطة، وهو مــا كــان موضــع انتباه لجريدة "لوموند" الفرنسية العالمية ذائعة الصيت، أشادت لوموند بجريدتنا "العربى" وانتصارها للحرية.

نعــم، نحــن ضد التوريث لأننا مع الحرية، فلم يخلقنا الله عقاراً يورث ولا متاعاً لرئيس ولا لابنه.

٢ يوليو ٢٠٠٠

بلد فى الحرام

إلى متى تظل السياسة فى بلدنا من اختصاص عمال المطافئ؟!

صدر حكم تاريخى للمحكمة الدستورية، ومنطوق الحكم صريح وقاطع، فكل قوانين الانتخابات المطعون عليها مخالفة للدستور، والمعنى: بطلان كل انتخابات جرت فى ظل النصوص المطعون عليها، المعنى: بطلان كل المؤسسات التى يقال لها "دستورية" فى هذا البلد، بطلان كل مجالس الشعب، بطلان كل المجالس المحلية، بطلان الحكومة المنسوبة لحزب "أغلبية" لا محل لها من الإعراب، بطلان إجراءات ترشيح واستفتاءات الرئيس مبارك، فكل ما بنى على باطل فهو باطل، ودعك من نظرية "الموظف الفعلى"، فهى تخريج قانونى لا أكثر ولا أقل، ومنطوقها: العفو عما سلف حفظاً لمصالح جارية للبلاد والعباد، لكنها لا تجعل ما جرى – كله ولا بعضه – موافقاً للدستور بالطبيعة، ولا تعنى ضمان الشرعية الدستورية لكيانات قائمة ومستمرة، فالبلد كله يعيش فى "الحرام الدستورى" لو صح التعبير، و"انكشاف الشرعية" شامل للجميع، بعبارة أخرى: لم تعد من شرعية لأحد فى هذا البلد، وحكم الدستورية كاشف للحقيقة لا منشئ لها، حكم الدستورية أزال الأصباغ ورتوش المكياج السياسى، وزلزل النظام السياسى من أصوله لا فى فروعه وامتداداته وقوانينه، حكم الدستورية يوجب حل النظام لا حل "مجلس شعب" لا علاقة له بالشعب ولا بصحيح الدستور!.

والغريب، أن الحكم تلقى خبر حكم الدستورية كأنه خبر حريق شب فجأة فى مخازن شركة أحذية، اجتماعات مطولة فى مجلس الوزراء، واجتماعات أكثر طولاً فى رئاسة الجمهورية، ثم تمخض الجبل فولد "فأراً سياسياً" هارباً من الحريق، مستشارو السوء قالوا كالعادة: كل شىء تمام، وترزية القوانين عرضوا خدماتهم الجاهزة، قانون احترق فلا مانع من إبداله، وبركان انفجر فلا مانع من تصويره كحريق بماس كهربائى، وحكم

بالبطلان لا مانع من تطنيشه، وتأخير مريب لنشر حكم الدستورية فى الجريدة الرسمية، وتلاعب بالإجراءات على طريقة المحامين فى قضايا تجار المخدرات، ودعوة لمجلس شعب ليس موجوداً ومفضوح البطلان من ساعة التكوين، وتصفيق هزلى حار، وكأن الحريق انطفأ والحمد للخراطيم (!)، وشروع فى الاستعداد لانتخابات أخرى باطلة، وكأن المشرحة تنقصها الجثث، وكأن التعديلات والترقيعات تضمن انتخابات أنزه من انتخابات أمريكا، وهم يعرفون – كما نعرف – أن اللعبة كلها تمثيل فى تمثيل، وأن البلد زهقت من العيش فى الحرام الدستورى، وتريد أن تتنفس هواء نقياً قبل أن تنقبض الروح ويمشى الدود فى ركام الجثث.

ارحمونا من فضلكم، وفضوها سيرة، وقولوا إنكم تحكموننا بالقوة والأمر الواقع، أو ارحلوا عنا بحكم الدستور، وربما يغفر الله لكم، لكن الشعوب لا تغفر لأحد.

المملوك "عجب"!

تبدو نقابة الصحفيين فى مشهد بائس، صحيفة "الشعب" أغلقت، ولا يبدو أنها ستعود قريباً، وربما لا تعود أبداً، والزملاء فى صحيفة "الشعب" بدأوا إضراباً عن الطعام حتى الموت، ومجدى أحمد حسين – رئيس التحرير – يشارك فى الإضراب من السجن، ومجلس نقابة الصحفيين يوالى اجتماعاته ومناشداته، ويريد حلا من المجلس "الأعلى" للصحافة، والأخير لا يرد، ربما لأنه "أعلى" وربما لأن أحداً وضع فى أذنيه طينا وعجينا (!)..

فى مراحل سابقة، كان يحدث أن ينقل الصحفيون لأعمال غير صحفية، وهو إجراء مرفوض بالبداهة، لكن الدولة وقتها كانت موجودة، وكانت رواتب الصحفيين المضارين تصل بالتمام والكمال، وهو ما لا يحدث الآن، فلا يبدو أن أحداً تعنيه القصة كلها، ولا أحد يتذكر أنه مسئول، والسبب: أننا تحولنا من حكم الدولة إلى حكم المماليك، والمملوك الذى حرض على إغلاق صحيفة الشعب مصمم على إذلال صحفييها.. وإذلال نقابة الصحفيين بالمرة!.

هل نطمع فى عطف المملوك "عجب؟" أم نظل ننتظر دورنا فى جنازة صحفيى "الشعب" المضربين عن الطعام.. وجنازة نقابة الصحفيين؟!.

١٦ يوليو ٢٠٠٠

نبيكم فريدمان

نعــم، نختلف بالجملة مع اختيارات وسياسات الحكم، ونعارض الرئيس مــبارك، وقــد انفــردنا - كناصــريين - بمعارضة تجديد ترشيحه للولاية الــرابعة، ونبهــنا مــبكراً إلــى مخاطر التوريث الرئاسى والكبت السياسى وشيوع الفساد وبيع مصر فى مزاد الخصخصة المثير للريب.

كل هذا صحيح، لكنه لا يعنى أن نسكت على البذاءة والسفالة الأمريكية ضــد مصــر والرئيس مبارك، فأمريكا هى أصل الداء المصرى، وتعامل أتــباعها كخدم وعبيد، وتغلظ لهم القول لو تهاونوا فى الفعل، وقد تجاوزت الإهانــة الأمريكــية كل تخيل، ووصلت للذروة مع مقال الصحفى اليهودى الأمــريكى توماس فريدمان فى صحيفة "نيويورك تايمز" قبل أيام، افترض فريدمان أن الرئيس الأمريكى كلينتون خط بيده خطاباً شخصياً جداً لصديقه حســنى مبارك، وراح يكتبه نيابة عن كلينتون، والمقال - الخطاب قمة فى الــبذاءة والإهانة وهدر الأعراف الدبلوماسية والمهنية والأخلاقية، فكلينتون يخاطــب مبارك كما لو كان ولداً عاقاً ناكراً للفضل والجميل، ويتعجب لأن أوامره لا تنفذ على الفور، طلب كلينتون من مبارك أن يضغط علي عرفات لتأجيل ملف القدس، وتردد مبارك لحساسية الملف عربياً وإسلامياً، والتردد خطيئة فى عرف السيد فريدمان، فهو يعتقد أن أمريكا اشترت مصر بـــ ٣٠ ملــيار دولار معونــة، ولــم يفعــل مبارك - بالمقابل - غير دعم التدخل الأمــريكى لتدمــير العــراق، ولم يزر إسرائيل سوى مرة واحدة فى تشييع جــنازة رابيــن، ويتعلل بالمخاوف من غضب الأصوليين الإسلاميين، ولا يــؤدى الدور المطلوب منه - أمريكيا بالضبط - فيما يسمى عملية السلام! ويــنعم - كما يقول فريدمان - بإغماض أمريكا عينها عن الفساد والاستبداد السياســى، ويتصرف مع أمريكا بخشونة فى واقعة حبس سعد الدين إبراهيم

الـــذى يحمل الجنسية الأمريكية، وتصل بذاءة فريدمان إلى قاع السفالة حين يتحدث عن دين مبارك لأمريكا الذى يجب أن يؤديه.. وإلا "!"

وفريدمان – بالطبع – لا يعبر عن شطحة شخصية، فهم قريب جداً من دوائـــر صنع القرار الأمريكى المسيطر عليها يهودياً، وهو ينطق فى العلن بمـــا يقوله الآخرون فى الكواليس ومن وراء الأقنعة الدبلوماسية ومن ثم فلا معنى لهذه الهوجة فى الصحافة الحكومية ضد شخص فريدمان، فلا بأس فى هجاء فريدمان، البأس كله فى التوقف عنده، البأس كله فى إغماض العين – المصـــرية هذه المرة – عن خطورة الاختراق الأمريكى للسياسة المصرية البأس كله فى "حزب فريدمان" عندنا فى مصر لا هناك فى واشنطن، لنتذكر – فقـــط – أن فـــريدمان كان ضيفاً معززاً مكرماً على الحكومة وصحافتها وأغواتهـــا قـــبل شـــهور، نظمـــوا له استقبالاً أسطورياً، وفتحوا له برامج التلـــيفزيون، وعومـــل من المثقفين الحكوميين المتأمركين كأنه النبى المنقذ، وكتبـــت فيه المدائح، وألقيت العظات، وطبع كتابه المتواضع القيمة "السيارة لـــيكزس وشـــجرة الزيتون" فى مجلد فاخر باهظ التكاليف كأنه الإنجيل أو القـــرآن، وكانت جماعة كوبنهاجن – وعبد المنعم سعيد بالذات – هم الأكثر حفـــاوة بفريدمان، ولا عجب، فهم مثله يحتفون بالدور الإسرائيلى والعظمة الـــيهودية "!"، وهم مثله لا يمانعون فى دور "تايوانى" طفيلى لمصر، وآراؤه هـــى ذاتها آراء "حزب أمريكا" المتحكم فى صحف مصرية كبرى ومراكز دراســـات رســـمية وأهلية مخترقة بالتمويل الأمريكى بالذات، والفزع الذى أبـــداه فريدمان على سعد الدين إبراهيم سبقه إليه مصريون معروفون بالاسم والرســـم، فهـــؤلاء هـــم ثمـــرة "التكييف الهيكلى" للسياسة بالتمويل الأجنبى وأولوياتـــه، وهؤلاء هم الجناح الفكرى والسياسى لحزب أمريكا الاقتصادى فـــى مصـــر، فقـــد جـــرى تصنيع "قطاع النهب الخاص" بمليارات المعونة الأمريكـــية وتوكـــيلاتها وروشتة "التكييف الهيكلى" لصاحبيها صندوق النقد والبنك الدوليين، وجرى مد الصلات بين جناح السياسة وجناح الاقتصاد فى "حـــزب أمريكا المصرى"، وهم يعتقدون أنه آن الأوان لسيطرة كاملة على الحكـــم بعد أن استنفدت رموزه أدوارها المرسومة، ومقال فريدمان – على بذاءتـــه ووقاحـــته – هـــو المانيفستو الأكثر صراحة لـــ "حزب أمريكا" فى القاهرة.. لا فى واشنطن.

نعـــم، هاجموا فريدمان كما تشاءون، فقط لا تبالغوا فى التمثيل وإخفاء "الوجوه" بالأقنعة، فسكة الكرامة الوطنية معروفة، وحزب أمريكا فى مصر – لا شـــخص السيد فريدمان – هو عنوان الإهانة الحقيقية، فهل يملك أحدكم أن يطالـــب بحله؟، أم أن الحكاية ليست من اختصاص المدعى "الاشتراكى" ولجـــنة حل الأحزاب؟!، قولوا الحقيقة – من فضلكم – أو ابتلعوا حذاء نبيكم فريدمان!.

٦ أغسطس ٢٠٠٠

الهروب بمصر

رجال الأعمال لا يهربون من مصر، إنهم يهربون بمصر (!).

ثـــروة بلد فى حقائب السمسونايت، ومصائر شعب فى دفاتر الشيكات، وحكومـــة تحـــترق كسيجار بين أصابع رجال الأعمال، بينما لا رجال ولا أعمال، أغلبهم من النصابين المحترفين، والزمن هو العصر الذهبى للنصب، ثرثـــرات عـــن التنمـــية والاستثمار، ومشاريع على الورق وفى الإعلانات المليونـــية، تســـهيلات وأراض مجانية، وقروض منهوبة من البنوك العامة، ومضـــاربات جنونـــية فى البورصة، ومليارات تتكدس بلا عائد على الناس وبـــلا تكلفـــة علـــى أصحابها، يبدأون بالنصب وينتهون إليه، والنتيجة: قوة مـــتزايدة للمـــال الحـــرام، وانهيار فى المشروعية وهدر للقوانين، وحروب عصابات، وحكومة تتحول من مسئول إلى سائل، تتسول الرحمة من رجال الأعمـــال أو رجـــال النصـــب، فـــلا فرق، وهم يسوقون الدلال، يعرضون ويهـــددون بالهـــرب، وبعضهم يفعلها أكثر من مرة على طريقة رامى لكح، فهو هارب أحياناً، وضاغط فى كل الأحوال، هو المدين الأقوى من الحكومة الدائـــنة، لا يهـــرب خوفـــاً من قانون، بل لكى يصنع قانونه الخاص، ليس مذعـــوراً فـــى منفاه الاختيارى، بل الحكومة هى المذعورة فى وطنها الذى كـــان لـــنا، لم يهرب من مصر، بل مصر هى التى تهرب إليه، ومسئولوها يســـتدرون عطفه، فهم لا يطيقون الهجر، ويتخوفون من الفضائح، لا يعنيهم أن تعـــود الأمـــوال المنهوبة، كل ما يهم أن "يكفى على الخبر ماجور" وأن يبدو كل شىء وكأنه تمام التمام، وكأنهم يعيشون فى كوكب آخر، غرقوا فى الجب ويخافون أن يراهم أحد وثيابهم مبتلة، بينما لا ثياب تستر العرى، فقد انكشـــفت القصة كلها بمناسبة لكح، وربما بدونها، فلا حكومة فى مصر من أصـــله، بـــل عصـــابة مماليك وكشوف بركة وتوزيع أدوار وضحك على الذقون.

لقــد نهبت مصر مرات، نهب للخارج فى عهد الخديو إسماعيل، ونهب أبشــع فــى عهد السادات، ويجرى نهبها لثالث مرة الآن، الجديد: أن شبكة النهــب أوســع نطاقاً بما لا يقاس، نهب للخارج، ونهب يبدأ للداخل وينتهى للخــارج، عملــيات الخصخصة واغتيال القطاع العام متصلة، قلاع إنتاجية جــرى تفكيكها، وعمليات بيع أقرب للصورية، وتبادل منافع خفية وظاهرة، واختراقات مريبة، وأحلاف لأجانب وصهاينة مع نصابين مصريين يسمون أنفســهم "رجال أعمال"، وتبدو الحكومة وسيطاً أو شركة سمسرة، تماماً كما يلعــب الحكــم دور الوســيط "المطــوع" فى اتفاقات الاستسلام لإسرائيل، والحكومــة مبــتهجة بــدور "المصفى العام"، ووزراؤها متفرغون لالتقاط الصور مع المليارديرات الجدد، وتسهيل عمليات الاقتراض بلا ضمانات من البــنوك العامــة، وتــرويج أحاديث كاذبة عن نهضة القطاع الخاص ودور رجــال الأعمــال، وتــبدو مصــر كما لو كانت مصائرها معلقة برغبات النصابين المحترفين، ومادام الأمر كذلك، فليكن، فضائح ودراما متصلة من عملــيات الهــروب تــبدو كأنها حلقات من مسلسل "ألف ليلة وليلة" ورعب حكومــى من انكشاف الحقائق، واضطرابات فى الأسواق، وانهيارات لقيمة الجنيه المصرى، وركود وكساد وفساد وخراب مستعجل.

هروب رجال الأعمال ذروة عمليات النهب والنصب، وهو النذير – فى الوقــت نفســه – بانفجــار مقــبل، فقد تقاسمت الحكومة وعصابات النهب الأدوار، وتواطــأوا علــى حذف "الشعب" من المعادلة، أو اكتفوا بركنه فى مقــاعد المتفرجيــن، والجديــد: أن الفرجة لم تعد مسلية، وجاء أوان قذف اللاعبين بالبيض والطماطم وما ملكت اليد من حجارة الغضب.

٢٧ أغسطس ٢٠٠٠

إنّها الحرب

أعظم احتفال للناصريين بذكرى رحيل عبد الناصر الثلاثين أن يعتذروا له عن تقصيرهم فى حقه، فلا أحد ينكر الهوة الشاسعة الفاجعة المفزعة بين تأثـير عبد الناصر الممتد وحجم التيار الناصرى بإجمال، لا أتحدث هنا عن حـزب بذاتـه، ولا عـن شخص، ولا عن فريق، فالكل - بمن فيهم كاتب السـطور طبعاً - لحقت بهم شبهة التقصير، والأفضل أن نعترف بالتقصير والخطـأ، لا أن نكابـر، وندفـن الـرؤوس فى الرمال، ونلقى بالتهم على الآخريـن، ونتصـور أننا نغسل ضمائرنا بزيارة الضريح، وقراءة الفاتحة تـرحماً علـى روح عبد الناصر، فلم يكن الرجل قائداً ومضى، ولا زعيماً وانطـوت أعلامـه وأيامه، ولا مجرد أب عظيم ينتظر الدعوات الطيبة من أولاده الصـالحين، ولا تحـول إلى رفات فى كوبرى القبة، ولا هو الميت ونحن الأحياء، فالحياة لا تقاس بالأعمار، ولا بدبيب الأقدام، ولا بكلمات فى الهواء، الحياة هى المعنى الباقى، وعبد الناصر هو أعظم المعانى الباقية فى حياة الأمة، لا نقول - بالطبع - إنه المعنى الوحيد، بل هو الأظهر والأوفر حضوراً، تأمل - فقط - ما يكتب ويذاع عن عبد الناصر من هجوم ودفاع، المعـارك حـارة ساخنة، كأن عبد الناصر مات أمس، أو كأنه لم يمت بعد، ولا يخفى عن المتجادلين - بطبائع الأشياء - حقيقة الرحيل الفيزيائى المؤكد بـتقادم الوقت لشخص عبد الناصر، لكنهم يدركون - بطبائع الصراعات - حقـيقة الحضور الاجتماعى المتزايد مع اتصال الوقت لجمال عبد الناصر، فهـم لا يـتحدثون عـن شـخص، ولا يتقاتلون فى التاريخ، ولا يتحاربون لإنصـاف عـبد الناصر ولا لهدم مكانته وزعامته فى المقابل، فعبد الناصر ليس بحاجة لإنصاف من أحد، ولا أحد - بالمقابل - يقدر على شطب دوره بجـرة مـن قلم ولا من ملايين الأقلام، وما يدور أقرب لصدام فى الحاضر

والمستقبل يتخفى بأقنعة التاريخ، ما يدور أقرب لصراعات اجتماعية وجدت فـي عـبد الناصر محور ارتكاز أو هدفاً للقصف، الذين يدافعون عن عبد الناصـر يعـبرون عن انحياز لمشروعه الباقى، والذين يهاجمونه يريدونه سـرقة حلـم أمة بالنهضة والتحرير والتوحيد، ولم تكن مصادفة أن انقلاب السادات – عقب حرب أكتوبر بالذات – بدأ بحملة القماقم ضد عبد الناصر، لـم تكن الحملة – المتصلة إلى الآن – تفريغاً لمكبوت ولا موجة نقد وجدت أوانها، بل تجاوزت سياق النقد المشروع إلى هدف النقض الموضوع، كانت الحملـة أشـبه بسـتار كثيف من الدخان أريد له أن يخفى ملامح الجريمة ويطمـس مسارحها، ستار كثيف من الدخان كالذى يطلق فى بداية المعارك، وتقدمـت طلائـع الردة – من قوات المشاة – لنقض اختيارات عبد الناصر وفـك تحصـيناتها الاجتماعية والتاريخية، ومن وقتها تحولت موجة الهجوم علـى عبد الناصر إلى "قانون سياسى" مفضوح المنطق والمقدمات والنتائج والديباجات، اغتيال التنمية المستقلة بانفتاح "السداح مداح" كان يلزمه الهجوم علـى عـبد الناصر، وتحطيم الاستقلال الوطنى بالتبعية لأمريكا كان يلزمه الهجـوم على عبد الناصر، والتقدم إلى خيانة كامب ديفيد كان يلزمه الهجوم على عبد الناصر، ونهب مصر بدعاوى الخصخصة كان يلزمه الهجوم على عـبد الناصر، والتستر على الاستبداد السياسى والاعتقالات لعشرات الألوف والإعدامـات بالمئات كان يلزمه الهجوم على عبد الناصر، وحتى انقلابات الأفـراد السياسـية تجـىء مصحوبة أو مسبوقة بهجوم على عبد الناصر، والأمـثلة بـلا حصر، يكفى أن تنظر حولك، فالقانون واحد، طلقة على اسم عـبد الناصـر تعنى شروعاً فى اغتيال ما تبقى من كرامة الوطن ومصالح أوسـع الفئات والطبقات الاجتماعية المقهورة، والذين يقودون الحرب ليسوا مـن الـبلهاء، فهم يعرفون مكمن الخطر بالضبط فصورة فى التليفزيون أو شـريط صـوت لعبد الناصر كفيلة بإطلاق المعارضة الاجتماعية وإطلاق المعارضـة الاجتماعـية وإطـلاق قوافل الحنين للحلم، وصورة أو شريط صـوت لعبد الناصر تكشف ضعف التيار الناصرى فى الوقت نفسه، وهذه هـى المفارقـة التى يجب أن نلتفت إليها، فلابد أن هناك خطأ، بل أخطاء، لابـد أن هناك خللا بحجز صورة الناصريين عن مدى التطابق أو التقارب مـع اسـم جمـال عبد الناصر، ولا أريد أن أتعجل الفتوى، ولا أن أستبق

الحــوادث، ولا أن أقــص الوصـايا العشر، كل ما أردت قوله إن هناك خطأ وخللاً، وأن التيارات السياسية الواثقة بنفسها لا تخاف النقد ولا تفرح بالنظر النرجسى فى مرايا الذات ولا تنتظر سفينة نوح.

٢٤ سبتمبر ٢٠٠٠

الكلمة للشهداء

امسحوا دموعكم، وانهضوا، فلا وقت للأحزان.

فـــى جريدتنا لوحة معلقة على جدار، وزهور حمراء على درب الآلام إلـــى القدس، وكلمة فى أسفل اللوحة تقول: دمنا فداء للقدس، كنت دائماً أقف أمامها مستغرقاً، أتأمل حالنا الذى لا يسر، وأحلم بيوم تتلاشى فيه المسافات بين الواقع المحبط والخيال الطليق، ولم أتخيل أن الحلم فى قبضة اليد وحدقة العين، فها هى انتفاضة القدس أكثر إلهاماً من شطحات الفن، ها هى الزهور الحمـــراء علـــى درب الآلام فـــى الواقـــع لا فى الخيال، فى اللحظة لا فى الـــتاريخ، فى الحياة لا فى الأسطورة، وها هى أبواب الحرية تدق بالأيادى المضرجة بالدماء، فى نشرات الأخبار لا فى قصائد الشعر، وها هم الشهداء يتســـابقون إلى الموت دفاعاً عن القدس، تأمل جنازات الشهداء فى الأرض المقدســـة، مواكب فرح وفوز عظيم، وتأمل وجه الشهيد المسيحى شاباً كان أو امـــرأة أو طفـــلاً، تـــأمل آخـــر شهقة ونفس له فى هذا العالم، لا وجوه منقبضة، ولا فزعة رعب، بل ابتسامة وضيئة تبشر بالآتى، وقد تقول: كفانا أحلامـــاً، وأقول: بل لا بقاء لغير الأحلام، فالمرء بلا حلم ولا قضية مجرد حـــيوان ناطق آكل شارب، والبشر بلا نبل مجرد تروس فى ماكينة ضجيج، نعـــرف أن القـــدس أســـيرة، ونعرف أنهم كادوا "يهودونها" إلى آخر حجر، ونعرف أن موازين القوى مختلة، ونعرف أننا الأضعف فى سباقات السلاح والتقدم والتكنولوجيا، ويكاد العقل الآلى يقول لك: لا فائدة، وأن القدس ذهبت بـــلا عودة، وربما يكون ذلك حديث الأرقام، والأرقام وحدها لا تصنع حقيقة ولا تلغيها، وفوائض الروح أرجح فى تحولات التاريخ وسننه، وهذه الأمة – بذاتهـــا وملامحهـــا – هـــى الدليل الأعظم، لا نتحدث عن الماضى الذهبى المســـطور، بـــل نعيدكم إلى حاضر من ماس وبللور، فهذه الأمة تحتكر – ربما أكثر من سواها – صناعة القنابل البشرية، وتثبت أن تفجيرات النفوس أشـــد هولا من التفجيرات الذرية، حزب الله فى لبنان – اجترح المعجزة، لا بالمـــال ولا بالسلاح، بل بالبشر الملائكى الممتاز، بالإنسان المصنوع على

عين الله وبيده القدسية، يكفى أن تنفض الغبار وأكوام اليأس، يكفى أن تسبر الغـور إلى مدن الروح، وسوف تكتشف أنه لا قوة على الأرض تستعصى علـى الهزيمة، وهذه الحقيقة يعرفها - بحدسه - كل طفل خرج فى مواكب الانتفاضـة، فـلا طلقـات الرصاص توهن القلب، ولا حدث الموت يذهب بالحياة، إنه النشيد الافتتاحى لأمة تستيقظ وتفتح عيونها على حقيقة لها قداسة الإطـلاق، فـالقدس فـي قبضـة اليد لو كنتم تعلمون، ما يراه "المعقلنون المبرمجون" بعيداً ومستبعداً ليس كذلك، فالحلم أقرب من أرنبة الأنف وحبل الوريد، القدس لنا لأنها فينا، هذا هو النداء الساكن فى صدور مئات الشهداء والجرحى الفلسطينيين، النداء الذى أيقظ مئات الألوف - بل والملايين - فى عواصم الأمة على ثراء طاقاتها، وبؤس حكامها، أمة قررت أن تلوذ بالحلم، وتعـرف الحقيقة بالإلهام، أمة قررت أن تخترق الحجب وتنفض التراب عن الروح، وهذه ليست دروشة، بل أرقى مراتب العلم، فيقظة الأمة وحدها تقدر علـى تحطـيم المشهد الزائف، يقظة الأمة تقدر على اختصار الطرق للقاء العدو وجها لوجه، يقظة الأمة تقدر على اجتياز متاريس الحكام، يقظة الأمة تقـدر علـى وقـف التطبيع والمفاوضات المهينة، يقظة الأمة تسترد الكلمة للشـارع مـن قصور الحكام الموتى، يقظة الأمة تعجل بالديمقراطية ويقظة الأمـة تـرد الاعتـبار للفداء المسلح. وقد يتوهم البعض أنهم قادرون على احتواء الخطر، أو امتصاص الغضب، أو التظاهر بمسايرة الناس، أو العودة لـترديد معزوفات السلام الملوث، وهذه كلها أوهام، فقد جربوا كل صنوف الخـداع، واسـتنفدوا الفرص لتزييف الوعى، زعموا أن حرب أكتوبر هى آخـر الحروب، وأن لا قتال بعد، وأن السلام خيار استراتيجى، وكان بيدهم أن يقـرروا ويخـتاروا، وكـأن كلمة "ماما أمريكا" لا ترد، بينما قصورهم "بـيوت مـن رمـال" ونفخة غضب تذهب بهم لأقرب مزبلة، فهم يخافون انتفاضة الأمة ربما بأكثر مما تخافها أمريكا وإسرائيل.

امسـحوا الدمـوع، فالأمـة فى لحظة فرح، الأمة تعيد اكتشاف نفسها بنفسها، والعيون مذهولة بالطاقات المخبوءة المستكنة، وفيضان الروح يغرق أعشاب البحر.

الكلمة الآن للأصلاء لا للدخلاء.

الكلمة الآن للشهداء.

٨ أكتوبر ٢٠٠٠

ليس قدرنا

الأخ إبراهــيم ســعدة – رئيس تحرير "أخبار اليوم" – يظن نفسه كاتب زمانه، ومطرب أوانه، ويخلط الألف بكوز الذرة، واسم مصر باسم الرئيس، ويقــول لــك ببساطة: إن رئيس مصر هو "رمزها الأعلى" و"مصدر فخرها واعــتزازها"، وكــنا نظــن أن هذه اللغة النفاقية الفجة انقرضت مع ذهاب المــرحوم السادات، فالسادات هو الذى اخترع فرية أن الهجوم على الرئيس هجــوم علــى مصر، حتى لو كان الرئيس كالسادات يهين وطنه ويفرط فى شــرفه وكرامته، فالرئيس على حق دائماً، وأمثال إبراهيم سعدة مع الرئيس أى رئيس، وصحافة "أخبار اليوم" هى التى وصفت حملة اعتقالات السادات السوداء لرموز مصر وشيوخها وقساوستها بأنها "ثورة ٥ سبتمبر" (!).

مــا عليــنا، المهم أن سعدة فتح النار على "العربى" فى افتتاحية "أخبار الــيوم" بــالأمس، والتهمة: أننا هاجمنا افتراءاته فى مقالة "هذا قدرنا"، وهو يقصــد قــدره الشخصــى، أو قــدر الذى جعل نفسه شاعر ربابة عند باب قصورهم، ولا بأس أن يهاجمنا أمثال سعدة، فالتهمة لا ننكرها، والشرف لا ندعــيه، فقــد تصــدت "العــربى" وحدها لجريمة "أخبار اليوم"، وأثبتت أن الصــحف لا تقدر بما تملكه من مال، ولا بمن يقف وراءها، فالعربى مهددة بالإغلاق، ولا يوجد فى خزانتها مليم، ولا على مكاتبها ورقة دشت، ولا فى جــيوب محــرريها ثمن تذكرة أوتوبيس، وتصدر بكتيبة مواهب انتحارية، ونهضت كالعنقاء من الرماد، وصارت – فى لمحة من عمر الزمن – أقوى صحيفة للوطنية المصرية، وكان طبيعياً أن ندخل نحن بالذات فى النزال مع إبراهــيم سعدة، و"أخبار اليوم"، فنحن لا نؤمن بخرافة المساواة بين منصب السيد الرئيس ومكانة مصر، فمصر أكبر من أى رئيس، والسياسة المصرية أصــغر مــن مصــر، والغضب من السياسة المصرية مفهوم، ومشروع، وجموع الغضب مبرر، فلا معنى لأن تحافظ مصر الرسمية بيديها وأسنانها

علـــى علاقـــة الإثم مع إسرائيل، ولا أن يبقى السفير الصهيونى فى مصر معـــززاً مكرماً، وكأن شرعية وجوده هى شرعية النظام نفسه، وتبحث عن الشـــرعيتين فـــلا تجد سنداً، إلا أن تكون سطوة الأمر الواقع هى الشرعية، وإلا أن القمع العارى هو منتهى الديمقراطية، وإلا أن يكون التزوير - عينى عينك - هو منتهى النزاهة، وأعظم آيات تزوير دور مصر هو العلاقة التى تـــربطها بإســـرائيل، تـــبادل دبلوماسى، تواصل سياحى، وتطبيع زراعى، وتصـــدير للبـــترول المصـــرى - بســـعر مخفـــض - دعمـــاً لآلة الحرب الإســـرائيلية، فـــى الوقـــت الذى تدك فيه الدبابات والطائرات والصواريخ الإســـرائيلية شـــعبنا الفلسطينى، وفى الوقت الذى يصعد فيه الشهداء شهوداً علـــى عار ومذلة سبقت إليها السياسة المصرية، وفى الوقت الذى تظل فيه مصـــر رهينة للسلاح الإسرائيلى، وتتصرف فى خوف مذعور من غضب الصـــديق بـــاراك، والسبب ليس مجهولاً، فقد تركت سيناء مكشوفة منزوعة الســـلاح فـــى أغلبها بنصوص اتفاق العار فى كامب ديفيد، وقد آن الأوان لتســـتعيد مصـــر ســـيادتها الـــتامة بالســـلاح على كامل ترابها، وأن تلغى الالـــتزامات المهنية لمصر، وأن يستعيد الوطن حريته وقراره، ويخرج من أســـر العجز التاريخى، وهذا هو مربط الفرس، وجوهر الخلاف فلا فرصة للـــف ولا لدوران، ولا للتلهى بشتم عرفات ولا القذافى، وخلافنا مع الاثنين معـــروف وجهـــير الصـــوت كمـــا كل الحكام العرب، لا نستثنى أحداً، ولا الرئـــيس المصـــرى - بالطبع - مع عظيم احترامنا لمنصبه الرفيع، فلم تعد صـــنوف الخـــداع تنطلى على أحد، ولا مواعظ إبراهيم سعدة وسمير رجب وبقـــية الأشباه، فنحن نريد رد الاعتبار لمصر وكرامة شعبها، وهم يضعون أنوفـــنا فى الرغام، ويصمموننا بالتواطؤ مع إسرائيل فى مذابحها ومجازرها اليومـــية للشـــعب الفلســـطينى، فقضـــية فلســـطين قضية العرب بمسلميهم ومســـيحييهم وقضية العالم الإسلامى كله، وهى قضية مصر أولاً، ونحن لا ندعـــو لإعلان الحرب فوراً، بل نريد أن نكون مستعدين لها، وأن نتصرف بمـــا يليق بمصر فى ساعة الخطر الزاحف، لا أن نستمر فى علاقة عاطفية غـــير بريـــئة مع العدو الإسرائيلى، ولا أن نفزع كلما طلب أحد قطع علاقة مصـــر بإســـرائيل، ولا أن نطلـــب كالخصـــيان استثناء مصر من قرارات المقاطعـــة، ولا أن تســـارع السياسة المصرية بخرق قرارات القمة العربية،

وحبرها لم يجف بعد، وتسارع للمشاركة مع إسرائيل فى اجتماع "مارسيليا" قبل أيام، ثم ندعى أن كل شيء تمام التمام.

بقى أن نهمس فى أذن إبراهيم سعدة بخطئه الفاضح المتعمد، فبيان المثقفين المصريين - الذى نشره كاملا - نشرته "العربى" أولا، ونقلته عنا كل صحف الدنيا، وطبيعى أن يغضب السيد سعدة من المثقفين الوطنيين تماماً كما غضب من "العربى" التى خصها بحممه وسخائمه وطلقاته الفشنك.

وهجوم الأخ سعدة شهادة لنا، فهذه هى "العربى" تصارع عماليق المال وخدن السلطان، ونقض مضاجعهم، حتى لو كانت صحيفتنا على شفا الإغلاق القاهر، وحتى لو داهمتنا جلطات الروح والغصة فى القلب.

١٦ نوفمبر ٢٠٠٠

سدرة المنتهى

بدون لف ولا دوران، نقولها ببساطة: لا للصوص القروض ولصوص الأحزاب.

الأحـــزاب الحقـــة ضـــمائر العصـــر، وتشكيلات سياسية لا تشكيلات عصـــابية، وأشواق جماعة لا شركة فى السوق، ومنصة مبادئ لا أسهم فى البورصـــة، وكائـــنات حـــية لا مومياوات فى متاحف، وقطاع عام لا تركة للخصخصـــة، وحقـــوق لا تقبل التصرف لا أسلاب تجوز عليها المساومة، ووضـــوح جـــذاب لا أسرار ولا كهنوت، ورأى عام لا مستويات تنظيمية، وتواريـــخ كفـــاح لا عمـــارة متعددة الطوابق، وثقة بالناس لا ضحك على الذقـــون، ولـــيس معقولاً أن نخون الثقة وندعى أننا أهلها، وليس مناسباً أن نتحدث عن الشرف وتزل أقدامنا فى الوحل.

لا لمـــنطق البيع والشراء من أصله، وحتى لو كان الاختيار الآخر هو المـــوت لا أقـــل، فـــأن يغلق حزب أفضل من أن يلوث رداؤه، وأن تتوقف جـــريدة أفضـــل مـــن أن يلـــتوى لسانها، فالموت بكرامة أفضل من العيش المغموس فى الذل، وأن تموت شهيداً أفضل من أن تعيش ضحية، أن تموت باحـــترام أفضل من العيش وأنت موضع لشبهة أو محط للتساؤل، ولا توجد مـــنطقة وســـطى، فالجنة لها تقاتها، والنار لها الركام، والإنسان ليس حيوانا يـــأكل ويشـــرب ويعمل وينطق، الإنسان قيمة إلهية، الإنسان مجد سماوى، والـــنجوم لا تضـــىء فـــى التراب، والشرف ليس علبة كبريت ولا ولاعة رونســـون، شـــرف الإنســـان سدرة المنتهى، والفضيحة قاع القبر السحيق، والحـــزب الحق – كما الجريدة الحقة – إنسان اجتماعى لا صالة للمزايدات والمناقصات.

لا للمقامـــرة بدعـــوى المغامـــرة، لا للتـــبديد بدعوى التجديد، لا لخلط مصـــائر الأحـــزاب بدفاتـــر الشـــيكات، فالأحـــزاب الحقـــة تقاس بقابليتها للاستنهاض لا القابلية للاستفضاح.

ذنوب الأخ كمال

الرئـيس مـبارك يلقـى خطابـه المنتظر اليوم، والبعض يتحدث عن تغيـيرات كبـيرة. أو صغيرة، وأقول لهم ببساطة: لا تغيير من أصله، وإن جـاز أن تتواصـل لعبة الكراسى الموسيقية، وأن يوضع الحاج أحمد محل السـيد أحمـد، أو أن يوضع السيد جمال محل الأخ كمال، فلا أحد يريد أن يسـتمع لنبض الناس، ولا أن يتجاوب مع أشواق التغيير المستبدة بالضمائر والقلـوب، ولا أحد وصلته رسالة الشارع بأن "ارحلوا عنا جميعا.. يرحمكم الله".

تـأمل – مـثلاً – جلسـة الافتتاح الديكورى لمجلس الشعب إياه، نفس المشـاهد تـتكرر، وذات الـدور للجوكر كمال الشاذلى، والأصوات غالباً: موافقـون. موافقون، ولولا أن نائباً معارضاً خرج عن نص القسم، وفضح نقـص احـترام أكـبر رأس فـى البلد لصحيح الدستور، ولولا أن النائب الناصـرى حمديـن صباحى تمرد على الإرادة السنية، ورشح نفسه لرئاسة لجـنة الـثقافة، وحصـل علـى أعلى الأصوات، لولا أن هذه الاستثناءات الشجاعة حدثت، لقلنا إن مصر ولدت على يد قابلة اسمها كمال الشاذلى (!)، فاللهم لا تحشرنا فى زمرة "الكماليين" ولا "الجماليين" ولا تأخذنا بذنوبهم.

لا نقول وداعا

لا أشـعر بتأنيب الضمير، فقد كتبت عن رمزى زكى فى حياته، وقلت عـنه إنـه "كنز مصرى"، ولم أنتظر أن تخون الأقدار، أو أن يرحل رمزى زكى هكذا، على النحو المباغت المفاجئ القابض الصادم.

نعم، لا راد لقضاء الله، ولا تعقيب ولا تثريب، وإن حق للعين أن تدمع وللقلب أن يحزن على رحيل مفكر فى أوان الورد، وأن يصبح خبراً وهو لم يكـد يحضـر ذكـراً، وأن تقصف الرعود الوعود وهى فى ذروة عطائها واكتمالها ونشوتها العظمى.

ومـن حقـنا أن نرفع رؤوسنا كمصريين وعرب لأنه كان بيننا رجل اسمه رمزى زكى.

١٧ ديسمبر ٢٠٠٠

السادات خائناً

مانشـيت "العـربى" عن السادات "الخائن الأعظم" أعقبه زلزال سياسى وصحفى لا تزال توابعه تتوالى، وهذه شهادة جديدة تضاف لرصيدنا المهنى والسياسى، فقد فجرنا المكبوت والمسكوت عنه طويلاً، وبديهى أن يكون له وقـع الصـدمة فى مناخ من الركود والتباس الحدود وفوات المعانى والميل للـتواطؤ وإيثار السلامة وتشييع جنازة السياسة بصداماتها وبريقها وحرائقها الاجتماعية والتاريخية.

ولا مفاجـأة فـى عشرات المقالات التى بدت معارضة لنا بعنف، تأمل فقط أسماء الصحف المشاركة بنشاط أوفر فى حملة التحريض ضد "العربى" كلهـا صـحف حكومـية أو ذيلية، "الأخبار" و"الجمهورية" والنشرة السرية للحزب الوطنى، و"أحرار" الأخ قبضايا، وجريدة ناطقة بوحى "الحبايب" فى مباحـث أمـن الدولة، وتأمل أسماء الكتاب، الاستثناء الوحيد المختلف إلى الآن: مقـال عابر للصديق إبراهيم عيسى، والأغلبية من ماركة سعيد سنبل ووجـيه أبو ذكرى وصلاح قبضايا وعبد العظيم رمضان وعبد المنعم سعيد إلى آخر الصنف، والخطابات ظاهرة من العناوين، والكتابات قريبة بالطبيعة من غضب "مراجع عليا" فلا هم – ولا نحن – نتحدث فى التاريخ، والصدام فـى الظاهـرة – والباطـن – على الحاضر وفى المستقبل، هم يحرضون ويسـتعدون السـلطات لإسكات صوت المعارضة من النوع الجذرى، وهم يـريدون تبرير وتسويغ السياسات والاختيارات الموروثة عن السادات الذى يحكمـنا مـن قـبره، ولا بأس بإطلاق الدخان الكثيف عن ضرورة احترام زعمـاء مصر، والمبدأ لا خلاف عليه، الخلاف فى توصيف السادات نفسه، فلـم يكن زعيماً ولا يحزنون، وإنما مجرد شخص آلت إليه مقاليد الرئاسة، والـبعض يقـول لـك: لكنه هو الذى حرر سيناء بكامب ديفيد، وهو قياس بالمـنطق المعكـوس، فقـد جلت قوات الاحتلال الإسرائيلى عن سيناء من

زمـن، لكـن سـيادة مصر لم تعد خالصة على سيناء منزوعة أو مخفضة السـلاح فـي أغلـبها، والأهم: أن الاحتلال الإسرائيلي لسيناء ذهب مقابل تكريس وتعويل الاحتلال الأمريكي لصناعة القرار، وهذا هو جوهر السقوط الـذى حدث ويحدث، فقد جرى احتلال سيناء فى ١٩٥٦ قبل إعادة احتلالها فـى هـزيمة ١٩٦٧، وعادت سيناء بلا نزع للسلاح. عادت فى سياق من الفـوران والتمصير والتأميم والنهضة المستقلة، عادت دعماً لوطنية القرار المصـرى لا افتـئاتاً علـيه، ولا انتقاصاً من سيادته، ومصر عبد الناصر أعـادت بـناء الجـيش من نقطة الصفر بعد هزيمة ١٩٦٧، وأثبتت مصر مقدرتهـا علـى استعادة سيناء بالقوة فى ملاحم الاستنزاف وحرب أكتوبر، وكـان زاد القـوة الشـاملة بإجمالى معانيها يكفى ويزيد للوصول بأشواط الـتحرير إلـى منـتهاها، وكان ذلك هو العهد التاريخى الذى خانه السادات وأفـرغ التحرير من معناه، وجرد القوة من مبناها، وعادت مصر إلى رهن قرارها للغير، وانحطت السياسة والاقتصاد والثقافة بالجملة، وكأننا عدنا إلى أول القـرن فـى آخـره، وكأن دار المندوب السامى البريطانى عادت فى حقائـب السفير الأمريكى، ويكفى أن تنظر حولك، فهذه مظاهر وثمار خيانة كان السادات ولا يزال رمزها الأول، خيانة وهدم الركائز الوطنية لمشروع النهضـة، فقد لا تعنينا هنا سجلات السادات وأحواله الشخصية، وفيها كلام كثير، وقد لا تعنينا سجلاته الجنائية، وفيها كلام أكثر، ما يعنينا هو سجلاته السياسـية، وكثيرون يشاركوننا الرأى فيه، وإن خالفونا فى وصف الخيانة، وهـذه وجهـة نظـر قابلة لنقاش، ورأينا ببساطة: أنه لا يجوز حذف لفظ "الخيانة" من معاجم اللغة والسياسة، وإلا جاز حذف "الوطنية" بالمقابل، وهو عبـث لا يجوز بأبسط بداهات المنطق، فالخيانة ليست وجهة نظر حتى وإن بدت لها السيادة وقوة المنح والمنع.

أخلاق الوزير!

معركة الوليمة الجنسية الجديدة "عك" حقيقى كامل الأوصاف.

جماعـة الإخـوان تحارب الفساد بنصوص "روايات" لا يقرؤها أحد، وتذهـب أغلـب نسخها للمخازن ومحلات البقالة، وكأن عيون الإخوان لا تتصـدم، وقلوبهم لا تفزع لكل هذا الفساد الذى يحكم مصر اقتصاداً وسياسة وثقافـة، يتركون الأصول ويهربون إلى الفروع، يهملون الفروض ويحجون

إلــى الــنوافل، نقــول هذا ونحن - بالطبع - مع حق الإخوان كغيرهم فى إعلان حزب سياسى مصرح به قانوناً.

ولا يــبدو حال المثقفين المفزوعين أفضل، فهم يدافعون فى قلق له ما يــبرره عــن حرية الإبداع، المشكلة: أنهم يشفعون الدفاع عن المبدأ السامى بأمــثلة مــنحطة، وكأن الحرية هى الانحطاط، وكأن الإبداع هو التبول فى الطــريق العام، وكأن الأدب صار من اختصاص مصلحة المجارى وبوليس الآداب.

أولويــات الإخــوان المقلوبــة منحت الشهرة والذيوع لنصوص مهملة مطمــورة، وغضب المثقفين منح النجومية. لأسماء لا علاقة لها بالأدب إلا من باب قلة الأدب (!)

الأطــراف المتصــارعة خســرت المعــركة مبكراً، السياسة خسرت، والإبداع خسر أكثر، والفائز الوحيد: فاروق حسنى وزير الثقافة اللطيف، بدا حسنى وكأنه حامى حمى الأخلاق، وهذه مفارقة الموسم الكبرى، وما أضيع بلد يتأسى بأخلاق فاروق، ولو استقامت الأخلاق حقاً لاستقال فاروق حسنى أو أقــيل، فقــد أقيل المثقف الممتاز على أبو شادى رغم أنه ليس المسئول المباشــر عن إصدار الروايات المتهمة، وكان الأوجب أن يقال فاروق لأنه المسئول الجامع عن الوزارة المتهمة، وقتها كنا نكسب شيئاً نافعاً غير رقص الطبول، لكن الحدأة لا ترمى الكتاكيت ولا وزراء الأنس.

١٤ يناير ٢٠٠١

الخروج إلى التاريخ

بـدون الخـروج مـن كامب ديفيد، سوف تظل مصر دائماً فى خطر تتخلف عن الاستعداد لملاقاته وتوقى عواقبه.

ولا يصـح أن ندفن الرؤوس فى الرمال، ولا أن نتخفى وراء غلالات الأوهـام، ولا أن نصـدق حكاية "إحنا بتوع السلام"، ولا أن نصور التزامنا بفلسـطين وكأنه قضية تعاطف إنسانى، ولا أن نصور الصراع مع إسرائيل وكأنه عرض سيكولوجى، فالمرضى النفسيون لا يصنعون التاريخ، ومآزق الأوطـان لا تلـتمس حلولهـا بقراءة الكف ولا باستشارة الطبيب النفسى، الـتاريخ تصنعه عظات الخرائط، وجرأة القفز على العوائق، ونعمة الخيال الطليق، وبصيرة العيون المفتوحة، وجسارة المقدرة على الحركة فى الاتجاه الأصح، وقبل فوات الأوان.

ومصر فى خطر حقيقى داهم، لا لأنها تفتقد – معاذ الله – مقدرة الدفاع عـن نفسها، فنحن نثق تمام الثقة فى فاعلية وكفاءة قواتنا المسلحة، والخطر لا يـتفاقم فقط بوصول الخنزير شارون للحكم فى إسرائيل، فمصر أكبر من ألـف شارون، وقد لا يستمر شارون هناك طويلاً، والأرجح: أن الانتفاضة الفلسـطينية ستدق عنقه، والأرجح: أن يأتى بعده من هو ألعن وأضل سبيلاً، فـلا الـداء فى شارون، ولا الدواء عند باراك، وإسرائيل كلها كتلة عدوان متصـل بطبائع وجودها ذاته، وإسرائيل سوف تظل مصدر الخطر الأعظم علـى مصـر، فأغلب معارك المصير المصرى – كلها تقريباً – دارت فى الشـرق، والمعـركة المقبلة سوف تجرى هناك أيضاً، وقد لا نريد الحروب بـتخوفات الـتكلفة الإنسـانية، لكنها سوف تفرض علينا حتماً، والأمم التى تتخلف عن خوض حروب تفرض عليها تحكم على نفسها من متون التاريخ إلـى هوامشـه، وتفقـد اتصـال الذاكرة القومية، والمقدرة على الحلم فوق

الأرض الثابتة لا في مطبات الهواء، فالأمم تنهض وتصنع تاريخها ومستقبلها فوق خرائط الجغرافيا على بساط الريح.

الحرب - إذن - واقعة، واقعة، قد تحدث بعد شهور، وقد تتأخر سنين، وما من سبيل غير تأهيل الجهد الوطنى لدفع ضرائبها وتجنب مهالكها، ونقطة البدء: تحرير مصر من قيود اللحظة الموروثة، تحرير مصر من قيود كامب ديفيد ومعاهدة السلام إياها، تحرير الدور المصرى من دونية التواصل بالتبعية للإرادة الأمريكية، وتحرير أحلام النهضة، وطاقاتها من أقفال وضعت على أفواهها، وحواجز وضعت فى أيديها، ولصوص يسدون عليها الطرق، وتحرير الحالة المصرية من دوار يعميها ويشل حركتها عن الذهاب إلى الخطر، وعلى حدوده، لا البقاء الذاهل المذهول فى انتظار الكوابيس، وطبيعى أن نؤكد اعتزازنا وفخارنا بقواتنا المسلحة، لكننا نريد فك القيود التى فرضت على حرية حركتها، نريد تحرير إمكاناتنا العسكرية من قيود السياسة، نريد أن تنتهى قصص وأوضاع نزع السلاح المهينة، فالسيادة ليست علماً ولا نشيداً فقط، السيادة ليست منتجعات، وشاليهات وفنادق ومغاطس للسواح، السيادة قبضة ممدودة بالسلاح إلى كل شبر وأبعد شبر، نريد استكمال تحرير سيناء، لا أن نظل رهينة لمحطات الإنذار المبكر وتهديدات السلاح الإسرائيلى.

نعم، لا بديل عن الخروج من كامب ديفيد، لا تقولوا لنا إنها أعادت سيناء، فنحن - وأنتم - نعرف كيف عادت؟، وقد يسعد المرء لو عادت إليه قدماً فقدها فى حادث طريق، لكن السعادة تنقلب غما لو كان ثمن الجراحة أن يأخذوا عينيه!.

٤ فبراير ٢٠٠١

دقت الساعة

هــذا الــبلد تســتبد به أشواق التغيير، والاعتصام بحبل الحكومة أقرب السبل للسقوط فى الهاوية رأسا.

وســاعة التغيــير تــدق من زمن، وما أن يكشف عنها الغطاء، ما أن تتســرب نســمة هــواء نقى، ما أن تتاح الفرصة حتى تتفجر الينابيع هادرة مكتســحة لأعشــاب الــبحر، آخر المشاهد المثيرة جرت فى انتخابات نقابة المحامين، انتفاضة ديمقراطية عارمة بأصوات الناس التى بدت كحجارة من ســجيل، قائمــة معارضة اكتسحت مقاعد مجلس نقابة المحامين، والمرشح الناصــرى سامح عاشور فاز بمنصب نقيب المحامين، وبالضربة القاضية، اللافــت أن أغلب الذين فازوا بمقاعد المجلس لم يكونوا على وفاق انتخابى بالضــرورة مــع ســامح عاشــور، لكن غياب التوافق الانتخابى لم يحجب المغــزى السياســى، لــم تكــن القــاعدة: من يقف ضد من فى التربيطات الانتخابــية؟ بــل زحــف المــزاج الساخن ليفرض شروطه، وبدا أن كلمة المعارضة لها مفعول السحر، لا يهم إلى أى تيار سياسى تنتسب، الأهم: أنك تعــارض وكفــى، وكلما أمعنت فى المعارضة دنت ثمار الفوز، كلما كنت مكروها وطريداً من الحكومة اقتربت أكثر إلى قلوب الناس، فالمعارضة هى الوصفة الأكيدة للنجاح فى أى سباق انتخابى يجرى بشروط الحد الأدنى من الــنزاهة، والســوابق القريــبة موحية، خذ عندك مثلاً: الدوائر القليلة التى حــررها الإشــراف القضــائى من ضغط التزوير فى الانتخابات البرلمانية الأخــيرة، قبلها ظهر المعنى نفسه فى انتخابات نقابة الصحفيين التى انتهت بفــوز أغلبــية غــير مســبوقة من تيارات المعارضة القومية والإسلامية واليسارية، وفى كل هذه المشاهد بدت روح الأجيال الجديدة عفية قادرة على اجتراح ما يشبه المعجزة.

انتفاضـــة المحامين تقول ببساطة إن "مصر لم تمت" فهى تولد دائماً من رمـــاد، وتأملوا مصير مرشح الحكومة رجائى عطية الذى اجتمعت لخدمته الإنـــس والجـــن من خيل الحكومة وأحزابها وصحفها ورجال أعمالها، ومع ذلـــك كانـــت الهزيمة من نصيبه، ونحسب أن النتيجة لم تكن لتتغير حتى لو نزلت قوات المارينز الأمريكى إلى بر نقابة المحامين.

العفاريت هى الحل

هذا البلد مسكون بالعفاريت (!).

هذا هو التفسير العلمى الوحيد المتاح.. حتى إشعار آخر (!).

تـــأمل – مثلاً – حكاية الأجسام البشرية المكهربة فى منطقة المعادى، وقـــبلها حكاية السحابة السوداء الضاربة خيامها فوق القاهرة، وقبلها حكاية إغمـــاء البـــنات فى المدارس، وقبلها ألف حكاية بدت مثيرة وملغزة، ما أن ينتشر الخبر حتى ينهمر سيل الفتاوى العلمية جداً فى الصحافة والتليفزيون، وعبـــثا تحـــاول العـــثور على تفسير تطمئن إليه، علماؤنا الكبار – سنا – مختلفون جداً، ولا مانع أن تختلف معهم بأدب أو بقلة الأدب، فرؤوس العلم والجهل تبدو متساوية، والحوادث تقيد دائماً ضد مجهول يركب بساط الريح.

وربمـــا يكـــون الحل فى إنشاء، مركز لبحوث العفاريت (!)، وتوزيع "بـــودرة العفريت" على بطاقة التموين تسهيلاً لهرش الرؤوس بحثاً عن بقايا العقل الطائر (!).

كنز المواهب

فـــى دفقـــة كـــرم عاطفى، وصف الكاتب المرموق محمد عودة جريدة العربى بأنها "معجزة صحفية تتكرر أسبوعياً" وقد لا تعرف طعم هذه العبارة إلا لـــو كنـــت واحـــداً من كتيبة مواهب تأوى كالفراشات الملونة إلى شلال ضـــوء اســـمه "العربى"، كتيبة فدائيين نذرت نفسها لخدمة صاحب الجلالة القـــارئ، لا تنـــتظر أجراً لا يأتى من شهور طويلة، ولا تحلم بورقة دشت، ولا تـــتعلل بـــانعدام الموارد المالية، ولا بظروف مستحيلة لا تتيح – بالعقل الـــبارد – فرصـــة التفكير فى إصدار مجلة حائط، لكنه الجنون الملهم الذى يقهر المستحيل ويصنع المستحيل.

وإلـــى أن يـــأتى وقت تهدأ فيه الروح، ونكتب القصة المثيرة بتفاصيلها المـــرهقة، دعونا نكتفى الآن - أنا والزميل عبدالله السناوى - بإعراب عابر عن عميق الامتنان والعرفان للزملاء الموهوبين: فتحى عامر ورفيقيه الفنان الكبير محمود الهندى والفنان المتألق أدهم لطفى، هؤلاء الفرسان صنعوا لك ملـــف "عشرة كتب هزت مصر" بوجدان ذائب فى عشق مصر التى لا تفنى إلى أن يرث الله الأرض.

وما أبهى كنز الحرية حين تلتقطه شرارة الإبداع.

٤ مارس ٢٠٠١

سرّى للغاية

كـل محاولـة للكتابة - خارج معنى النفاق العام - هى بمثابة عملية انتحارية، وكل نية فى الكتابة شروع فى جريمة، إذا كتبت منتقداً بصفة عامة فأنت معرض للحبس والتفليس بدعاوى السب والقذف، وإذا كتبت مستنداً إلى محرر رسمى أو وثيقة دامغة فأنت معرض للحبس والسجن لمدد أطول تصل إلى خمس سنوات كما يبشرنا مشروع القانون المنعوت باسم "حماية الوثائق"، ولا يبقى لك - إن أردت أن تبقى آمناً - سوى التغزل فى الوسامة المعترف بها للسيد رئيس الوزراء، أو تلحين تصريحات السادة الوزراء، أو أخذ منحة تفرغ لكتابة قصائد الفخر بالسيد الرئيس، وقد لا توفق فى هذا كله، فالمهام النفاقية الجليلة لها ناسها المقتدرون الأكفاء، وقد تتورط - بجهالتك - فى القدح من حيث تريد المدح، ولا مجال هنا لاعتداد بحسن النية، ولا لظروفك النفسية والعقلية التى قد لا تجعلك رائق البال مستزيداً لنجاح فى بلوغ غاية المراد من "لصوص" البلاد، ولا بحيرتك و"حيص بيصك" فى البحث عن أى موضوع تكتب فيه، والسلام، والأفضل - لدواعى الاحتياط - أن تحصل على موافقة كتابية مسبقة من السيد رئيس الوزراء الذى هو نائب السيد الحاكم العسكرى، أو أن تبعث بمقالك رأساً لديوان رئيس الجمهورية الذى هو الحاكم العسكرى بمقتضى قانون الطوارئ ودستور "الثوابت" (!).

قد يبدو التصوير هزلياً، لكنه جاد جداً للأسف، فما من قانون فى هذا البلد إلا ويعاقب على الحرية، قوانين تحتجز كقوات احتياط يجرى استدعاؤها فى أحوال التعبئة العامة، وقوانين أخرى فى حالة استنفار دائم، خذ عندك - مثلاً - قانون الأحزاب الذى يجيز الإغلاق الإدارى لأى صحيفة ليس لحزبها عشرة نواب فى البرلمان، النص قديم، وتجاوزته شروط التصريح بأى حزب فى القانون نفسه، فالقانون لم يعد يستلزم وجود

ولا نائــب واحــد كشرط للسماح لحزب، ويجيز لأى حزب إصدار ما يشاء مــن الصــحف مثنى وثلاث ورباع، وربما ألف صحيفة، شيء يبدو وكأنه منتهى الحرية، لكن النص - إياه - يهزأ بك وبالحرية التى توهمتها، ويجيز إغلاق صحف كل الأحزاب بجرة قلم، فليس لأى حزب معارض مسموح به عشــرة نــواب فــى الــبرلمان الآن، ثم إن الأحزاب فى ذاتها مجرد منحة حكومــية بمقتضى القانون، ومن يملك المنح يملك المنع، وخذ عندك - مثلاً - قانون الشرطة الذى يحظر التحدث للصحافة خارج التصريحات الرسمية المدهونــة بالــزبدة المغشوشة، وخذ عندك - مثلاً - قانون العاملين بالدولة الذى يجرّم ويؤثم الإدلاء ببيانات أو معلومات للصحافة، وخذ عندك - مثلاً - قــانون الشــركات الذى يشترط موافقة رئيس الوزراء للتصريح بإصدار صحيفة مستقلة، وخذ عندك - مثلاً - قانون العقوبات الذى تسمح نصوصه المطاطــة بــإدراج كل كلمة نقد فى خانة السب والقذف، ولا مجال للمزيد، فالنصــوص المانعــة - لا المقيدة فقط - المقيدة للحرية أكثر من الهم على القلــب، وتحصين الكبت والفساد بالقوانين العادية أقوى من مشروع تحصين أمــريكا بــدرع الصــواريخ الفضائية، ولا نتحدث هنا عن اختراق القانون ومــرمطة جدوده فى التراب، فهذه هى القاعدة السائدة - لا الاستثناء الشارد - فى مصر المحروسة، وهذه التصرفات محمية هى الأخرى بقوانين المافيا غــير المكــتوبة، ومحمية أيضاً بقانون الطوارئ بفظاظته وغلظة نصوصه ونفوســه، ولا معنى لحديث عن الدستور، ولا لتذكير بمصيبة بلد تعيش كل مؤسســاته فــى "الحــرام الدستورى"، فكل هذه القوانين غير دستورية، لكن الدســتور فى إجازة طويلة، وإذا حدث أن أماتت المحكمة الدستورية نصاً، فــلا تكــون الواقعــة نهاية لقهر، ولا بشيراً بفجر، ولا إيذاناً بشعاع ضوء، فالقهــر بنصوص تنسب للقانون حرفة متأصلة، بل ربما تكون هى الصناعة المصرية الوحيدة التى لا يخشى عليها بانفتاحات "الجات" فلدينا دائماً فوائض مــن القهــر قابلــة للتصدير، ولا تتأثر بالمنافسة التى هى فوقها، وكل قهر يموت يولد من قبره ألف قهر جديد، وإلا فما معنى نصوص القهر المضافة فى مشروع القانون المسمى "حماية الوثائق"، وكان الوثائق إياها متاحة على الأرصــفة، وكــان الصوبات السياسية والقانونية لاتكفى للحماية، ولا تتهور فتســأل عــن هوية الوثائق المقصودة، فالقانون يستثنى من نصوصه وثائق الدفــاع الــتى هى من الأسرار العليا المفهومة، غير المفهوم أن يصبح كل

محــرر رسمى من أسرار الدولة العليا، غير المفهوم هو الخلط بين الوثيقة والمســتند، غــير المفهوم هو العبارات الفضفاضة من نوع "الإضرار بأمن الــبلاد ومركــزها الاقتصادى والاجتماعى والدبلوماسى"، غير المفهوم هو جعــل كل شيء فى البلد "سرى" أو "سرى للغاية"، غير المفهوم هو اشتراط أخذ إذن كتابى من مجلس الوزراء قبل نشر مضمون أو فحوى أو نص من أى وثــيقة أو مستند، كلها أشياء غير مفهومة ببديهيات العقل والنشر، لكنها مفهومة جداً فى أبجديات الحكم، فلسنا إزاء تشكيل سياسى يحكم، إنه تشكيل عصـــابى بكــل معنى الكلمة، الأولوية عنده لإخفاء آثار الجريمة، الأولوية عــنده لغلق الأفواه وحظر النشر، وجعل رئيس الوزراء - اسم الله عليه - رئيساً لتحرير كل الصحف (!).

١١ مارس ٢٠٠١

نهايات حقب

لا أخفى عليكم شعوراً غلبنى بالقهر، وأنا أقرأ أحاديث منسوبة للرئيس مبارك إلى الصحافة الأمريكية، والغريب أن الصحف الحكومية أعادت نشر واحد من هذه الأحاديث مرتين ربما إمعاناً فى الإغاظة والتنكيل بمشاعر الرأى العام.

وقد يكون لك شعور آخر، وقد ترانى متساهلاً أو متطرفاً، لا بأس، ولكن قل لى - بالله عليك - ماذا يكون شعورك وأنت تقرأ كلاماً من هذا النوع، كلام لا تنقصه الصراحة الجارحة، ولا يلتف ولا يدور حول الحقيقة القاهرة، كلام يؤكد وجود اتصالات نشيطة مع شارون، مبعوثون منه وإليه، ومهاتفات وتفاهمات، وسعى مصرى لاتفاق مع شارون (!)، ودور مصرى للضغط على عرفات لوقف "العنف" الفلسطينى (!) وهو هدف شارون بالضبط، واستخدام لنفس ألفاظه، تسمية الانتفاضة بالعنف، واعتبار عرفات مسئولاً ومطالباً بوقفها، يا الله، كأن الضحايا الفلسطينيين هم القتلة (!)، وكأنهم هم الذين يغتصبون الأرض ويهددون أمن الوديعة إسرائيل (!)، وكأن الانتفاضة - التى صارت "عنفا" - هى العقبة المعيقة للسلام إياه، وتسىء لعلاقاتنا "الاستراتيجية الهادئة" مع الست إسرائيل، فالكلام يقول ببساطة: لا تجميد للعلاقات مع إسرائيل، وسحب السفير المصرى مجرد إجراء موقوت قصدت به مجاراة الرأى العام الغاضب، والتعاون الزراعى مع إسرائيل بألف خير، والرسائل ذاهبة وآتية من شارون وإليه، شارون الذى هدد رفاقه مراراً وتكراراً بضرب السد العالى، شارون الذى طالب صراحة بعقاب مصر، وكأننا نقول له: بل نحن نستحق محبتك ونستعفى من عقابك، والغريب أننا نقول ذلك بعد أيام من قمة عربية لم يجف حبرها الداعى لمقاطعة إسرائيل، الرئيس مبارك قال لعبدالله - ملك الأردن ومضيف القمة ورئيسها - "لا تقلق" فأمر المقاطعة لا يخصنا، وعلاقاتنا مع

إســرائيل لا يغلبها غلاب، وألف أهلاً وسهلاً برغبة إسرائيل - لو أرادت - شــراء الغــاز المصــرى، شرطنا الوحيد: أن تدفع الثمن نقداً وعداً، ومن يغضب فليشرب من البحر الأسود لو لم يكفه الأحمر والأبيض (!).

هــل بالغت قليلاً؟ لا والله، فالكلام منشور فى أحاديث للواشنطن بوست والنــيوزويك والبوســطن جلوب، وربما يكون جرى عليه بعض التحريف، لكــن أحداً لم يتطوع بالتصحيح أو التكذيب، فكلمة الأمريكان - فيما يبدو - لا راد لهــا ولا معقــب عليها، وهذه هى المصيبة فى نصوص السياسة قبل حــروف الصــحافة، المصــيبة: أن سياستنا "السنية" مجرد تعريب لرغبات أمــريكا، تــرجمة بالحــرف مــن الإنجليزية للعربية، ودورنا هو الوسيط والمترجم ومعلم اللغة الأمريكية، وربما تكون هذه حقيقة قديمة، هذا صحيح، المفارقــة: أن أحــداً لا يتوقف ولا يتبين، ولا يتسمع لوقع الحوادث وطرق القــوارع، فهــل تكــون تلك "نهايات طرق" بالتعبير البليغ لكاتبنا الصحفى الأشهر محمد حسنين هيكل؟، أم أنها "نهايات الحقب والنظم"؟.

فساد بالصحف

شىء ما يبدو مثيراً للريب وداعياً لتكاثر الظنون.

الموضــوع: بــيع الصحفيين، القنبلة فجرها الكاتب الصحفى المرموق فهمى هويدى فى الزميلة "الوفد" فساد مرعب انكشف عنه الغطاء، وبدلاً من أن يجــرى التحقيق عاجلاً وعلنيا فى الكارثة، راحت مشاهد العبث تتوالى، نفى غير مريح من الرقابة الإدارية، وعقاب لفهمى هويدى بحجب مقاله فى الأهرام واعتصام بالصمت فى نقابة الصحفيين.

إنــه الفســاد الــذى يــتوحش ويــنهش حرية الصحافة ويدوس كرامة الصحفيين فى عقر دور الصحف.

٨ أبريل ٢٠٠١

ترانزيت فى الجنّة

أخذت عينى إلى طهران، وتركت قلبى فى مصر.

غلبـــنى الشوق لرؤية بلد تسيطر أخباره على وسائل الإعلام، ولم أتردد فى تلبية دعوة كريمة من مجلس الشورى الإيرانى لحضور المؤتمر الدولى لدعـــم الانتفاضـــة الفلسطينية، لم أكن مهتماً بالمؤتمر فى ذاته، فأنا لا أحب ولائـــم الكـــلام، وأختـــنق فى ضجيج الكلمات التى تخدش نبل التضحيات، وتـــتطفل علـــى بهائها، ولم يكن مؤتمر طهران كذلك بالضبط ولا كان كل الحاضـــرين فـــيه مـــن جنرالات الكلام، وكانت لحظة بالعمر كله أن ألتقى وأصـــافح وجـــوه وأيـــادى جنرالات تاريخ من طراز حسن نصر الله زعيم "حزب الله" وخالد مشعل زعيم حركة "حماس" والمطران هيلاريون كبوجى بتاريخه النضالى الباهر وحماسته الطاغية لتحرير كل فلسطين، مجلة "التايم" الأمريكـــية وصـــفت نصـــر الله ومشعل بـــ "توءم الإرهاب" ووصفت لقاء طهـــران بأنه أكبر تجمع دولى للإرهابيين، والذى تكرهه أمريكا نحبه نحن، فهذه هى بوصلة العيش بكرامة فى العالم الجديد.

المســـافة مـــن القاهـــرة إلـــى طهران ليست بعيدة جداً، لكن لا طيران مباشـــر، وتـــبدو الرحلة بين عالمين، وتستغرق بالطائرة يوماً كاملاً تقريباً، هبطـــت فى "دبى"، مطار دبى يستفزك بفخامته، كل شيء آلى ولامع، جنة مصـــنوعة بعـــناية، حتى التخيل – رمز الأصالة – صناعى يخدعك لأول نظـــرة، طال الانتظار لعشر ساعات، ترانزيت فى الجنة التى أنت طريدها، خاصـــة إذا كنـــت مـــثلى من المبتلين بداء التدخين، فالتدخين ممنوع، ومن يرغـــب يذهـــب إلـــى زنزانة حقيرة يسمونها "غرفة التدخين" قضيت أغلب الوقت فى الزنزانة، تمتصنى السجائر، وأتأمل المشهد فى ذهول، فهذا مطار لمدينة عربية لا تسمع فيه كلمة عربية واحدة، وتكاد لا ترى فيه وجهاً عربياً إلا أن يكـــون مـــثلك مـــن العابرين المحتجزين، والوجوه الآسيوية الغريبة

بلكنـــتها الإنجليزية المكسرة تدير حركة المطار من الأول للآخر، والجواب ظاهــر مـــن عـــنوانه، فأنت في الدولة – الفندق، أهلها العرب أشبه بنزلاء فـــندق، الدولــــة فـــندق بناه الأجانب، ويديره الأجانب من الاستقبال وخدمة الغـــرف حـــتى الســـرير والاتصالات الدولية، والعرب عابرون فى الكلام العابـــر، والـــذى يعيش فى فندق يجيء له يوم لا يقدر فيه على دفع فواتير الحساب، ما علينا، المهم أن موعد الإفراج حان أخيراً، وحملتنا الطائرة إلى طهران، المطار فقير متواضع، وأوحى لى بما تخوفت منه، خفت أن يكون الكـــلام الـــثورى هـــو كل البضاعة التى تلقانا فى طهران وأن تكون اللحى والثياب السوداء هى كلّ المشهد الذى ينتظرنا، وروحت عن نفسى بالتدخين المسموح به فى صالة كبار الزوار، وما هى إلا دقائق حتى دخلنا الحلم الذى تصورناه كابوساً، الخضرة فى كل مكان، والأشجار الباسقة مصفوفة بعناية، وبيـــن كل حديقة وأخرى حدائق أجمل، مدينة صنعتها يد الله، والجبل يلتف علـــى خصـــر طهـــران كحزام سماوى، والينابيع تتدفق من قمة الجبل إلى مجـــارى مشـــجرة عند حواف الأرصفة والأشجار طويلة ممدودة إلى حافة الســـماء السابعة، والطرق سهلة ممهدة، الشوارع غاية فى النظافة لا ورقة مهمـــلات، ولا ذرة تـــراب، ليست مرايا مصقولة ترى فيها وجهك كما هو الحـــال فى مطار "دبى" لكنها العناية الإنسانية لا المصنوعة، ولا المجلوبة، والإدارة المنضـــبطة، الذاتـــية لا الأجنبية، والمرور ميسر رغم الزحام فى طهـــران التى تنافس القاهرة فى عدد السكان. ولا حاجة للتكييف الصناعى، فأنت فى مدينة دافئة جافة نقية الهواء، حرارة الجو قريبة من القاهرة، ومع ذلك لا تنزل منك نقطة عرق، ولا تتسخ الثياب بالتراب والهباب، ولا مكان للســـحابة السوداء إياها، ولا وجود لجيوش المتسولين وباعة الرصيف، وقد تجولت فى طهران لساعات، فلم أصادف غير شحاذ وحيد خجول كان طفلاً فـــى الثالـــثة عشـــرة، علـــى نواصى الشوارع صناديق مكتوب عليها كلمة "صـــدقة" ومعمار البيوت متناسق مميز، والأبراج السكنية قليلة، والفوارق لا تصـــدم العيـــن، لا فـــى البيوت، ولا فى السيارات الغادية والرائحة، وتبدو الطـــبقة الوسطى هى الغالبة، ولولا الخوف من المبالغة، لولا الخوف – إياه – لقلـــت إن طهـــران هـــى قـــبس من الجنة، البنات كحور العين، والزى الإســـلامى ليس رداء تزمت، والحجاب مصحوب بانفتاح العقل والوجدان،

وكثافة اشتغال النساء بالسياسة ظاهرة مفرحة، لا أظن أن هذا العدد من نساء السياسة موجود.. ولا حتى فى عواصم "الاستربتيز" (!).

طهران – باختصار – تملك عليك قلبك، وكنت قد تركت قلبى فى القاهرة، ولا أعرف كيف لحقنى إلى هناك، ما إن تنطق "مصرى" حتى تفاجأ بسيل المشاعر المتدفقة عطفاً ووداً، الإيرانيون ينطقون كلمة "مصرى" بالسين لا بالصاد، ومع خجلك من الرقة الآسرة يمطرونك بأشواق الحنين لأم كلثوم وجمال عبد الناصر ومشهد الإمام الحسين، وإذا أردت أن تجدد حبك لمصر فاذهب إلى طهران.

يا وزير الداخلية

كمبيوتر مطار القاهرة من بقايا العصر الحجرى، قوائم تفتيش وبهدلة موروثة من أيام السادات، واحتجاز بالساعات حتى يتكرم ضباط مباحث أمن الدولة بالسماح لك بمغادرة المطار إلى منزلك.

كدت أتعرض للبهدلة لولا أنهم يعرفون صفتى الصحفية، واحتجزوا القيادى الوطنى أحمد بهاء الدين شعبان، وكان عائداً معنا من طهران، ومر الوقت ثقيلاً إلى أن مرت الأزمة بسلام، ولا أعرف عن ماذا يبحثون؟، المؤكد أنهم لا يبحثون عن قنابل ومتفجرات، ربما يبحثون عن كتب ومجلات ومنشورات، وربما لا يعرفون أن كل شىء صار متاحاً، على شبكة الإنترنت دون حاجة لحمله فى حقائب.

فهل يتكرم السيد وزير الداخلية بالإفراج عن اسم أحمد بهاء شعبان والمئات مثله من المعذبين بالإهانة دونما ذنب ولا جريمة؟

٢٩ أبريل ٢٠٠١

غرف الحريم

جـاءني صـوته عبر التليفون ملتاعاً ملهوفاً، كأنه يطلب النجدة، قبلها مـرت ثوان مرهقة، صوت بدا كأنه يحول لي مكالمة عبر سنترال، وطلب مهـذب بالانـتظار لإيصالي بالصوت الملهوف، ذكر اسمه، ومهنته، ومحل إقامـته في حي بولاق الدكرور، وأستأذنه الآن في حجب بياناته منعاً لإيذاء وارد جـداً للأسـف، كـان الوقت من ساعات الذروة في حرب الانتفاضة المقدسة، طائرات "إف - ١٦" الإسرائيلية - من صنع "ماما أمريكا" - تدك المدن والمنشآت الفلسطينية، وشعور بالزهو لنجاح عملية "تتانياً" الاستشهادية فـي الصـباح، وإحساس صاعق بالحزن والغضب لترك البسالة الفلسطينية وحـيدة فـريدة شهيدة تواجه همجية العصف الإسرائيلي، ورجاني الصوت الملهوف أن أنقل رسالة عاجلة للرئيس مبارك، قال لي: قل للرئيس أن يفعل شـيئاً، قـل للرئيس أن يأمر بدفاع مصري مباشر عن الفلسطينيين، قل له: مـاذا ينـتظر؟، قل له: لن يتحرك العرب ومصر نائمة، قل له: إن العرب بـدون مصـر صفر كبير، قل له: إن مصر بدون قيادة العرب هي النسي المنسـي، ولم أشأ أن أناقشه، لم أستطع في الحقيقة، صدني حماسه، وهزني عظـيم رجائه، ولاحظ صمتي، كرر الرسالة، ووعدته بنقلها، وهأنذا أفعل، وإن كان رجائي منقطعاً ويأسي عميماً.

وأكاد أثق أن الرئيس مبارك - مع كامل الاحترام لمنصبه الرفيع - لن يفعـل شـيئاً مما يحب الصوت الملهوف، ليس لأن مصر هانت، بل لأنها أهينـت، أهانها الذين وضعوا أنفسهم على رقابنا، دون شرعية من الدستور، ولا شرعية في التاريخ، ولا يعقل أن تتحول سلطة الكبت العام، لا يعقل أن تـتحول سـلطة النهـب العـام إلى قيادة لتعبئة عامة، والأسماك تفسد من الرؤوس أولاً.

أكاد أثق أنهم لن يفعلوا شيئاً، فقد جعلوا من مصر رهينة لاستعمار أمريكى مباشر، وجعلوا من مصر فريسة لسطوة السلاح الإسرائيلى، سيناء فى أغلبها منزوعة السلاح، ومصر تصدر ١٤ مليون برميل بترول سنوياً لإسرائيل، ربع طاقة الآلة الصناعية والحربية الإسرائيلية تأتى من مصر، ربع طاقة القصف والعصف بالفلسطينيين تأتى من مصر، فنحن لا نشارك فقط فى جناية الصمت، بل ندعم بالبترول حرب الاحتلال الإسرائيلى ضد الفلسطينيين، أضف: الاختراق الإسرائيلى للزراعة والصناعة والسياحة، أضف: السفارة الإسرائيلية القائمة فى صلافة وتحد لكل شعور وطنى، فطرى برىء، أضف: تقييد مصر بالعجز وجرائم كامب ديفيد الموروثة عن السادات، أضف: إدمان دور الوسيط التابع الأمين المهين، وكأن مصر تحولت إلى "شركة سمسرة" لا وطن وحضارة وقيادة للتاريخ.

أكاد أثق أنهم لن يفعلوا شيئاً، وهم يعرفون أننا لا نطلب المبادرة إلى حرب، فقط نطلب مقاطعة إسرائيل، فقط نطلب دعم المقاومة بالمال والسلاح، فقط نطلب الاستعداد للحرب حين تفرض، وها هى الآن تدق الأبواب، فلا تسمع غير صوت ارتعاب الفرائص، كأننا الفرائس، كأننا المحكوم عليهم فى غرفة الإعدام، وما من فرصة للنجاة بغير التماس تقرير طبى يؤكد الإصابة بالسرطان، نتوقى حكم الإعدام بأحكام المرض والعلة اللعينة الناهشة، ونهرب من مصائر الرجال إلى غرف الحريم.

إشارات

* "غياب منقطع النظير" عبارة بليغة دقيقة منشورة لأحد القضاة المشرفين على ما يوصف – عبثاً – بانتخابات مجلس الشورى.

* رئيس "شاعرى" لقناة تليفزيونية موظف بدرجة مستشار إعلامى لرجل أعمال "سيراميكى" انتهى الخبر، وبقيت التفاصيل "الثقافية" جداً.

* إلى الزميل عادل حمودة: أظنك – مع "صوت أمتك" – تعرف الفرق بين جمال عبد الناصر وفيفى عبده، ولا أريد أن أزيد الآن.. وحتى إشعار آخر.

* سنة كاملة مرت من نهوض "العربى"، سنة من "الرمادة" المالية والزهو المهنى، وكلمة السر: انتفاضة المواهب.

٢٠ مايو ٢٠٠١

السيّد وكفى

كلما رأيت هذا الرجل شعرت بقرب نهاية إسرائيل.

إنــه ســماحة السيد حسن نصر الله زعيم حزب الله، لم أتعود أن أسبق الأســماء بألقــاب التفخيم والتعظيم، لكن السيد حسن رجل كامل الأوصاف، يقين مطلق، وهدوء سابغ، وصدق لا نهائى، بل هو الصدق كله يمشى على قدميــن، مــا مــن ذرة تــناقض بين أقواله وأفعاله، لا يقول لك: إنه يكره إســرائيل، ثــم يســعى إلــى رضاها فى السر، ولا يقول لك: لا حل بدون المقاومــة، ثــم يلجأ إلى الراحة وانتحال الأعذار والتعلات، كان بوسعه أن يرضــى بمــا قسمت له الأيام، فقد حقق نصراً عزيزاً مقتدراً، ووضع أنف إسرائيل فى الرغام، وحرر الجنوب اللبنانى بقبضة سلاح، واجترح المعجزة فــى زمن العجزة، وكان بوسعه أن يفاخر الدنيا بما فعل، لكنك لا تلمح فى عينــيه لمعــة غرور، ولا ترى فى مشيته أمارات الزهو والخيلاء، بل هو الهدوء الواثق وكفى، هدوء سماوى صاف، وثقة بفرج الله القريب، وإن رآه الآخــرون بعيداً، ولثغة رائية محببة فى كلامه تزيل الحواجز وترفع الكلفة، واستعداد فطرى للقاء إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

كــان بوســع الســيد حسن أن يفعل كغيره، أن يتحدث كالآخرين عن المتغــيرات، أو أن يتحدث مثلنا عن الثوابت، أن يغالط ضميره طلباً للأجر، أو أن يــريح ضــميره طلــباً للعفو، لكنه لا يطلب أجراً ولا عفواً، لا يخدع الــناس، ولا يــريد التصفيق، فهو الضمير الحى، والشهيد الحى، يعرف أن إســرائيل تــريد رأسه، وأن أجهزة مخابرات الدنيا ترصد حركاته وسكناته، ولا يــبدو عليه الخوف أو القلق، لا يخشى الموت الذى يترصده، بل يسعى إلــيه، وكأنه الجائزة الكبرى، ينتظر الرعد كأنه الوعد، ويبتسم بفرح حقيقى غامــر، يبتســم، وهو الذى فقد ابنه "هادى" شهيداً فى معركة، ساوموه على جــثة ابــنه فلــم يخضع، فابنه ليس هيكلاً من عظام ولحم ودم، ابن المعنى

الخـــالد خـــالد مـــثله، ولو كنت مثله، وفقدت ابنى، لحزنت إلى آخر الدنيا، وأغلقــت الأبواب، وأسلمت نفسى لفراش الفجيعة، أنا وأنت وهو وهى نفعل ذلـــك، لكـــن السيد حسن لا يفعلها، والسيد حسن - هنا - ليس الرجل الذى نعـــرفه فقــط، إنه الرمز الكاشف المكشوف، إنه هذه الأمة حين تفصح عن أنـــبل ما فيها، تلد الجند والشهداء الأغانى، تلد الأم التى تودع ابنها إلى قبر وكأنهـــا فـــى حفل عرس، تلد الابن الذى يكنز صورة أبيه الشهيد كأنها مال قـــارون، تلـــد البنـــت التى تتحدث فى شغف عن أبيها الشهيد، وكأنها تقدم مسوغات اختيارها ملكة جمال للعالم، أمة كهذه هى أجمل الأمم بإطلاق، أمة لا تنـــتظر الحـــياة ولا تتســـول العطف، بل هى التى تخلق الحياة باختيارها الربانى، أمة القنابل البشرية الأقوى من قنابلهم الذرية.

السـيد حســـن - ككل الناس - يعيش وسيموت، لكنه سوف يبقى دائماً هـــناك، وســـوف تجـــدون اسمه منقوشاً بماء النار على آخر خيط فى كفن إسرائيل.

إشارات

* لقـــاء "رئـــيس التحرير" حمدى قنديل مع السيد حسن نصر الله أرقى حـــوار تلـــيفزيونى منذ حوار حمدى قنديل - أيضاً - مع الرئيس الجزائرى "المعارض" عبد العزيز بوتفليقة.

*.. واســـتجواب النائـــب الناصـــرى كمال أحمد عن فضائح البورصة أقوى محاكمة برلمانية لعهد تنهار أسهمه فى بورصة الشارع.

*.. ولـــو كـــنا فى بلد "ديمقراطى" لأقيل عاطف عبيد رئيس الوزراء فوراً بعد كشف "العربى" لفضيحة الأرقام "المضروبة"!

٢٧ مايو ٢٠٠١

بواقى فساتين

تصـــريحات الرئيس مبارك عن البلطجة والمال وإهدار أحكام القضاء أقـــرب لاعتراف رسمى – على أعلى مستوى – بفساد المجالس التشريعية وصحة الشكوك المحيطة بشرعية تكوينها من الأصل.

وبعــيداً عـــن تصريحات الرئيس، فإن الدوافع قد لا تكون بريئة وراء الإنذارات الرسمية بقرب حل مجلس الشعب، أو التبكير بانتخابات برلمانية، أو رفـــع حصـــانة زيـــد وعبيد، أو إسقاط عضوية عدد من "نطاطى الحيط" والإيهـــام بحملة تطهير فى مناخ ملوث بالطبيعة، أو أننا بصدد معركة ضد الفســـاد على طريقة أفلام "الأب الروحى" أكباش فداء وحوادث طرق وخبط بالكـــتف القـــانونى، وهذه كلها صارت من المحفوظات الفسادية التى حلت محل الأناشيد الوطنية القديمة، طلقات "فشنك" لها صوت الرصاص ولزوجة قطـــرات الزيـــت، وكلمات طمأنة مريبة لمذعور استبد به الخوف والفزع. وحبة أسبرين لمريض مصاب بالسرطان، الألم الناهش يعتصره، والفزع فى عينـــيه مـــن ســـكرات الموت، ويوهمونه بأنها حالة دوار خفيف، أو لفحة أنفلونـــزا تجيء لتمضى، مجرد تلاعب مناور فى الوقت الضائع، فهب أنهم حلـــوا مجلس الشعب القائم، وأجروا انتخابات جديدة بالقائمة أو بالفردى أو بـــبودرة العفاريت، هل يعنى ذلك جديداً؟، وهل يزول أثر المال والبلطجة؟ وهل ننتهى إلى مجلس شعب موفور الشرعية؟ وهل تنهض أحزاب هجرها زمانهـــا، وقلت حظوظها، وتداعت حيلها، لا تظن أن شيئاً من ذلك وارد أو بالإمكان، وليس السبب فى تشاؤمنا الخلقى، السبب فى وضع يستعصى على إجـــراءات الإصلاح بالقطعة، فالبلد فى أزمة خانقة مستحكمة، وأينما وليتم الوجـــوه رأيـــتم النذر وعلامات النهاية، دور مصر القومى فى "بير السلم" واســـتقلال القرار فى خبر كان، ورموز الحكم شاخت على مقاعدها، وعصا النبى سليمان أكلها النمل من زمن، والسياسة ماتت بالكبت والعجز، وقانون

الطوارئ حل محل الدستور، والمؤسسات كلها تعيش فى "الحرام الدستورى"، وهدوء السطح يبدو خادعاً، فالمجتمع زاخر بتفاعلات العنف وتوحش الفقر والبطالة واحتقان الطوائف، والاقتصاد يحتضر بفساد الاختيارات وجنون النهب، والحكم يبدو "كليبتوقراطيا" صرفاً، الكليبتوقراطية - بالترجمة العلمية المباشرة - هى "حكم اللصوص"، ولا نتصور وصفا أليق ولا أدق لحكومتنا السنية، لا نقصد الاتهام الأخلاقى، بل نقصد جوهر الاختيارات المسيطرة، جوهر الاختيارات التى تبدو كمزرعة لصوص، وهذه هى العلة، وكل حل لا يتقدم إليها يتحول إلى مشكلة إضافية، قد تبدو إجراءات معينة مغرية فى ذاتها، وقد تبدو صحيحة لو نظر إليها مفردة معزولة، المشكلة: أن عناصر الصحة فيها تذوب بحمض كبريتيك السياق الخاطئ بالجملة، وما بنى على خطأ فهو خطأ، وأبسط معانى الاستقامة الخطية تبدو غائبة، فاختيارات السياسة والاقتصاد والثقافة "بزرميط"، قصاقيص و"بواقى فساتين" من دكان ترزى أفرنجى، تركنا فريضة الوعى بالذات، وأخذنا بسنة اقتطاع الأسوأ من معارض الدنيا، ومشاهد الخلق، فلا أبقينا على ظهر ولا قطعنا من طريق لآخره، نظام حكم اشتراكى بالدستور و"لصوصى" فى الممارسة، ديكتاتورية سابغة مثقوبة بخروق ديمقراطية، صحوة على الخطر وغفلة عن الدور، بضائع مهربة وسياسات هاربة، وفساد نباهى به الأمم، وجمهورية تتحول من داخلها إلى "عزبة ملاكى"، ودولة تتداعى من الرخاوة إلى "حكم المماليك" وهذا الحال المائل لابد له من حل، ليس الحل - طبعاً - فى مجرد حل مجلس الشعب، الحل فى "حل الحكم" وتفكيكه وإعادة التركيب فى صياغة مختلفة، ولا نريد لأحد أن يكون وصياً، ولا أن يفتعل لنفسه دوراً لم يخلق له، فلا حل إلا أن يعود الأمر لأهله أولاً، لا حل بدون الخروج النهائى من تلوث "الحرام الدستورى"، لا حل بدون دستور جديد يصدر عن جمعية تأسيسية منتخبة، ونقطة البدء فى حل كل المجالس وتجميد كل الرئاسات، نقطة البدء فى انتخابات مبكرة للرئاسة والبرلمان معاً، نقطة البدء فى انتخاب رئيس بمنافسة تعددية لا بالاستفتاء إياه، نقطة البدء فى عقد وطنى واجتماعى وديمقراطى جديد، والبديل: أن تظل الأقدام غارقة فى الوحل، وأن يتحول النيل إلى بحر من الدم، فليحفظ الله مصر.

إشارات:

* عـودة حجـازى، فنان الكاريكاتير الأعظم، ومذكرات القديس عبد الرحمـن الخميسـى بخـط يده عن قصة اكتشافه لسعاد حسنى، هديتان من "العربى" لقرائها و"درس خصوصى" لمن يريد استكمال تعليمه المهنى.

* وبالمناسـبة: نـرجو من المدعو "أبو خليل" أن يتوقف عن "الهلفطة" المهنـية، وندعو الوزير فاروق حسنى لإرسال رئيس تحريره "المخصوص المخضـوض" صـلاح عيسـى لتسلم شريط الفضائح، ولا مانع من تزويده بنسـخ إضـافية من شرائط شعبان عبد الرحيم على سبيل التسلية والتشجيع على تحمل مشاق الصعود من سفح "القاهرة" لقمة جبل اسمه "العربى".

* "حظـر الطيران فى شمال العراق وجنوبه لم يصدر به قرار دولى، لكـنه "شرعى" لأن أمريكا تريده" هذا هو نص تصريح حقير لشخص أحقر اسمه كوفى عنان سكرتير عام الأمم "الأمريكية" المتحدة.

* "الأمـر مـتروك لشارون" جملة كاشفة لكولين باول وزير الخارجية الأمريكى فى لحظة التجلى، ولا عزاء للمتأمركين العرب.

* بكيـت لوفـاة أمـى، وبكيت أكثر لسيل جارف من برقيات العزاء والتلـيفونات والفاكسات والقصائد ووسائل البريد الإلكترونى، ولم أجد سوى الصـمت تعبيراً عن الامتنان الغامر، فكلمات الشكر فى لغات الدنيا كلها لا تكفى.

١ يوليو ٢٠٠١

حطام لا نظام

لا الـتعديل الوزارى، ولا رفع حصانة نصف أعضاء مجلس الشعب، ولا حـل الـبرلمان الصورى، ولا إجراء انتخابات جديدة، ولا التحول عن النظام الفردى إلى القوائم مختلطة أو نسبية، لا شيء من ذلك، ولا هو كله، يعنى تغييراً فى مصر، ولا اقتراباً من تغيير تدق ساعته على الحوائط دون أن ينتبه لها أحد.

نعم، لم يعد الإصلاح بالقطعة مفيداً، ولا حل مؤسسة بعينها مجدياً، ولا الـتخلص من أشخاص بذواتهم، فالمطلوب: حل النظام كله، المطلوب: نظام جديـد ونخبة جديدة ومجتمع جديد، فقد آلت السياسات والاختيارات الراهنة إلـى نهاياتها، واحتدمت الأزمة، ولم يعد وارداً غير الخروج من كارثة إلى كارثـة جديـدة، فيما نبدو نحن كالشهود كالخرس، الدولة تحللت، وتفككت حصـانتها، وسـرى الإيـدز السياسى فى الشرايين والأعصاب، والمماليك يقتسـمون الغـنائم، واللصوصية تحكم، والنظام فاقد عقله، والفقر يتوحش، والبطالة تزحف، والاحتقان الطائفى يتزايد، ويد القمع العارية لا تتوقف عن الدهس والتلطيش، والأحزاب تحولت إلى مقابر، والأوضاع كلها تحولت إلى جثة منتفخة متحللة فى الطريق العام، والروائح تزكم الأنوف، ولا أحد يتقدم ليزيح العفن، والناس تبدو ساخطة محتجة، لكنها يائسة تماماً، لا أمل لها فى غـد أفضـل، ولا فـى استعادة الكرامة المهدرة، والعدل المفقود، والحرية الذبيحة.

ومـن العبـث أن نطلـب من النظام أن يصلح نفسه، وكأننا نطلب من المشـكلة أن تقـدم الحل، وكأننا نغسل أيدينا، ونريح ضمائرنا المثقلة، بينما نـدرك أنـنا بالصـمت نشارك فى صنع المأساة، أو فى التستر عليها على أفضـل الأحوال، ونمد فى عمرها بالوقوف فى طوابير مدح الإمام أو رجاء عفـوه، ونتناسـى أنـه لم يعد من إمام، وأن رأس الدولة يبدو عارياً، وأن

جماعات الضغط – المصنوعة أمريكيا – تحولت إلى صناع قرار، فلا نحن نحكم بيسار مصرى، ولا بيمين، ولا بوسط، ولا بأى قوة تنتمى لجذور ومنابع وطنية، بل يبدو الحكم فى بلادنا وكأنه توكيل تجارى، حكم بالوكالة أصيل فى صناعة المأساة، ولن نتعب طويلاً فى البحث عن هذا الأصيل الدخيل، نأمل تركيب ما يسمى "جماعات البيزنس"، واقرأ فى سير ووجوه وأفعال رئيس الوزراء ووزرائه الكبار، عاطف عبيد أمريكى الهوى بالتاريخ والاقتناع، ويوسف والى إسرائيلى الهوى بالأصول والفروع، عاطف عبيد تابع لمصدر النفوذ الأكبر فى صناعة اختيارات النظام، ويوسف والى – الأمين العام للحزب الحاكم – "حصان طروادة" لجماعة إسرائيل، وقس على ذلك ما يجرى فى دوائر الإعلام وجيوب اكتناز الثروات الحرام، واقرأ الفاتحة على مصر التى تحولت إلى مستعمرة أمريكية، يصدر الصوت من واشنطن فتسمع الصدى فى القاهرة، الاختيارات والسياسات تصنع هناك، والتفاصيل متروكة للوكلاء فى القاهرة، ويد القمع والتشويش والتمويه الإعلامى تكمل القصة.

لم تكن مصر فى خطر كما هى الآن ولم تكن فى مأزق أسوأ مما هى عليه، ولم تنحط مكانتها ولا غاب دورها كما يحدث تحت أعيننا، فهل يتحرك أحد (!) أم أننا تحولنا إلى شعب من الأموات؟ نموت فى جلودنا خوفاً من غضبة السلطان الذى لم يعد سلطاناً والنظام الذى صار حطاماً.

الصمت الجنائى

أنا مستعد للرهان على نعومة رد الفعل العربى والإسلامى على جريمة وضع حجر الأساس للهيكل اليهودى المزعوم وبدء المرحلة الأخيرة فى خطة "البقرة الحمراء" لهدم المسجد الأقصى بالقدس المحتلة.

لن نسمع غير التصريحات العبيطة السفيهة، إدانات خجولة للسلوك الإسرائيلى، وتحذيرات عبثية من استفزازات شارون، وأحاديث مرتعشة عن المراقبين والمفاوضات وسلام المذلة، ونداءات للسيد الأمريكى أن يتلطف بنا ويتعطف، وعودة إلى الصمت المهين، فالمسجد الأقصى لم يعد يهم أحداً من حكامنا، أحدهم قال مرة عن المسجد المقدس "يروح فى ستين داهية" وكان أكثر صراحة وجلافة من غيره الذين يلفون ويدورون، يبدون الغضب

نفاقــاً للشارع، وينتظرون لمسة الرضا من سيدهم شارون ونظرة العفو من "ماما أمريكا".

نعم، فليس شارون وحده هو الذى يريد هدم المسجد الأقصى، بل الحكام العرب شركاء أصلاء فى الجريمة بـــ "الصمت الجنائى".

٢٩ يوليو ٢٠٠١

الجهل النشيط

قراءة أنيس منصور أشبه بارتكاب جريمة ماسة بالشرف العقلى.

وتكـــاد لا تجد كاتباً يشبه أنيس منصور، كاتباً مقروءاً جداً، وفارغاً جداً فـــى الوقـــت نفســـه، لا قيمة ترتبط باسمه، ولا موقف فى حياته، ولا توجه فكـــرى معيـــن، ولا غير معين، مجرد وشى وزخارف بالألفاظ، وهيئة نقل عـــام عن بطون الكتب أو الأغلفة" وكلمات راقصة عابثة فى الهواء العفن، وادعـــاءات بالجملة، يصور نفسه فيلسوفاً فيدفعك لاحتقار الفلسفة، ويصور نفســـه أديـــباً فلا يحفل به الراسخون ولا العابرون من قراء الأدب ونقاده، ويتصـــور نفســـه صـــحفيا فيبلغ قمة الفشل، وقد أتيحت له – بفضل مواهبه النفاقـــية – رئاســـة تحرير عدد من الصحف والمجلات، وأثبت باقتدار أنه "حـــانوتى الصحف" الأول بامتياز، مغسل وضامن جنة النوم للقراء من أول سطر، ما يكاد يتسلم صحيفة حتى ينزل عدد قرائها إلى أقل من عدد كتابها، وقد اخترع له السادات حلاً يفرض به مجلة "أكتوبر" – أيام كان أنيس رئيساً لتحريرها – على المصالح الحكومية ومخازن الأرشيف، ومع فشله الظاهر تـــراه يتـــبجح، ويتصور نفسه كبيراً، وهو كذلك بمعنى ما، فهو كبير السن وبلـــغ أرذل العمـــر، وإن كـــان لابد من مجال يكون أنيس كبيراً فيه، فهو موجود ومحجوز لسعادته شخصياً، فأنيس – بلا منافس – هو أستاذ الأساتذة فى مدرسة الجهل النشيط.

قـــد يصـــلح أنيس ككاتب تسالى، أو لرواية حواديت يعرف قارئها أن أولهـــا مكذوب وآخرها مثقوب، وقد يصلح لأداء دور المهرج فى بلاط ملك أو حاشـــية رئيس. وقد لعب هذا الدور بالفعل فى معية السادات، وأثبت أن شـــهاب الديـــن أزرط مـــن أخيه، وتكاد تتفجر قرفاً حين يفتعل أنيس لنفسه تاريخـــاً يوحـــى بشبهة احترام، هو يريد أن يقول لك: إنه كاتب شجاع جداً، وأنـــه خـــاض المعارك تلو المعارك ضد ما يسميه "طغيان عبد الناصر"، لا

بـــأس، إذن ما هو الدليل يا سيد أنيس؟، يجيبك باستعادة حكاية سخيفة رواها ألـــف مـــرة، فقد كتب مرة عن علامة زرقاء فى ساق عارضة أزياء(!) يا ســـلام، أهـــذه آية شجاعة كاتب أم رذالة مذيع فى عرض أزياء، أما أعظم معاركـــه علـــى الإطـــلاق فهـــى احتقاره للشعب المصرى، وصف الشعب المصـــرى، كما يقول مفاخراً – بأنه كالحمار، ووصف القاهرة بسكانها فى مـــرة أقرب بأنها حديقة حيوان، لا نقول إن هذه سفالة وانحطاط، فهذه هى القمـــة وسدرة المنتهى فى أدب السيد أنيس، أدب لا تملك أن تجاوبه إلا بقلة الأدب، ورمـــى ما تقرؤه فى سلة زبالة هى المحل المختار لأغلب ما يكتبه أنيس منصور.

وتعجـــب لإصـــرار أنيس على اللت والعجن والاستعادة والاستزادة من تاريخـــه المثير للقرف، فأنيس – على حد علمنا – مسلم فى بيانات البطاقة الشخصية، ويدعى أنه كان من الإخوان المسلمين فى شبابه، والإسلام يدعو أتباعه للتستر والتخفى بالبلاوى، وأنيس يفعل العكس، ويعيد ويزيد فى نشر غســـيله المعجـــون بصابون الطين، ويصنع بكتاباته أهراماً من قمامة، ولا يـــبالى بشـــعور دينى ولا بوازع وطنى، ولا يهمه المسلم ولا المسيحى، ولا المصـــرى ولا العربى، واليهود فقط هم موضع رعايته واعتباره، إسرائيل عـــنده هى "أم الدنيا" وليست مصر، وأمريكا هى أبو الدنيا وأخوها ووارثها وربهـــا الأعلـــى، اقرأ – على سبيل العينة البينة – ما كتبه فى "الأهرام يوم الأربعاء الماضى ٢٠٠١/٨/٢٩، يقول لك فى نهاية مقاله "قلت ورزقى على الله"، وهى خاتمة توحى بمقال شجاع واستثنائى جداً، وتتخيل أن أنيس مهدد بالفصل أو المنع من الكتابة، أو أنه قال الكلمة التى لا يجرؤ عليها أحد ضد الحكومة المفترية، وتقرأ فلا تجد غير الخيبة بالويبة، فأنيس لديه حل عبقرى لقضـــية فلسطين، الحل: وقف النار والحجارة والانتفاضة، والبديل: "أصابع أمـــريكا" والنصيحة: ترك أمريكا تفعل بنا ما تشاء وبشروط إسرائيل، وهو كـــلام قد يليق بتنظيم الشواذ وبالكتاب الشواذ، وكان الأجدر بأنيس أن ينهى مقالـــه بعـــبارة "قلت ورزقى على أمريكا" لا على الله، فأمريكا هى الله عند أنيس، والله هو أمريكا (!!).

إنها الكتابة حين تتحول إلى لعنة وجريمة ماسة بالشرف.

٢ سبتمبر ٢٠٠١

الفعل أولاً

المظاهـرة الـتى تعـتزمها القوى الوطنية فى مصر غداً بالقرب من السـفارة الأمريكية نقطة اختبار حاسم لمدى المقدرة على الانتقال من خانة الكلمـات إلـى فضـاء الفعـل، فلا يكفى أن ندعم الانتفاضة بالبيانات، ولا بحمـلات التـبرع المالى والعينى، الأهم: أن يصل صوت الشعب المصرى للعـالم، ولا يهـم أن تكـون المظاهرة كبيرة أو صغيرة، لا يهم من يتخلف الآن، فسـوف يلتحق بها غداً، وتظاهر مئة نشيط سياسى أهم من ألف بيان، أهـم مـن مقـالات الصحف والمانشيتات، فالتظاهر هو خروج من سجن العجـز، الـتظاهر تخصـيب للأرض بروح المقاومة، التظاهر يحول دعم الانتفاضـة إلى مقاومة للقهر فى مصر، وحين تتحرك مصر، حين يتحرك المصريون فسوف تقوم قيامة العرب.

ولا أحـد يملك أن يحجب الحقيقة، فالشعب المصرى هو أكثر الشعوب العربية تجاوباً مع نداء الانتفاضة الفلسطينية وليس من الإنصاف أن ننكر أو أن نتـنكر لمجهـودات شـعبية ملموسـة فى دعم الانتفاضة، جماعات من المجتمع الأهلى قامت بأدوار مميزة كالهلال الأحمر والجمعية الشرعية، كذا جماعـات مـن الناشـطين سياسـياً فى دعم الانتفاضة والمقاطعة ومقاومة التطبيع، ومن الحق أن يقال إن الجهود تجاوزت الطابع النخبوى إلى حد ما، وتمـددت فى أحياء مدن كبرى وإلى قرى بعيدة، الملاحظة: أن الجهود تبدو مـتفرقة جـداً، وطبـيعى أن الـتفرق يهـد الحيل، ويهدر الطاقة الممكنة، فالانتفاضة واحدة واللجان عشر، وهذا التعدد قد يكون قابلاً للفهم، لكنه ليس قـابلاً للـتفهم، بعض التعدد يعود إلى اختلاف مواقيت المبادرات، وبعضه يعود إلى الركود السياسى العام، وبعضه يعود إلى منافسات شخصية تنتحل لهـا أعـذاراً سياسية، ونظن أن ذلك كله مما يجب أن يتوقف، ولعل تشكيل لجـنة تنسـيق للجماعات يكون فاتحة خير، والمطلوب: أن يشتد عود لجنة التنسـيق، وأن تصبح هى الأصل لا الظل، وأن تشمل الكل بلا استبعاد ولا

نـــزعة تهميش، ولا نظن أن حوار الغرف المغلقة يجدى وحده فى التنسيق والتوحـــيد، الأهـــم: الـــتحول مـــن مبادرات العمل المكتبى إلى الحركة فى الشـــارع، فقد يكون بوسع، جماعة واحدة – مثلاً – أن تنظم لقاء فكرياً، أو أن تصـــدر بـــياناً، وبالمقـــابل: ليس بوسع جماعة واحدة أن تنظم مظاهرة ناجحـــة، فالـــتقدم إلى الأمام بالأفعال هو الذى ينهى ظاهرة التنافس السلبى، وطـــرح الـــتحدى الأعلـــى يطـــرد ويهمش الطفيليين، والمتسلقين وطلاب المصـــالح الصغيرة، طرح التحدى الأعلى يسمح بفرز طبيعى لقيادة جماعية توحـــيدية مقتدرة، فليس من معنى لأن نواصل التنافس بالبيانات، والأجدى: أن يتنافس المتنافسون فى تنظيم مظاهرة الغد، وأن يتحول التظاهر إلى تقليد مـــتكرر ومـــتواتر، أن يتحول التظاهر إلى قارعة توقظ الغافلين، أن يتحول دعم الانتفاضة الفلسطينية من مبادرات متفرقة إلى حركة شعبية جامعة، أن يـــتحول دعم الانتفاضة الفلسطينية فى ذاته إلى انتفاضة مصرية، فقد كسرت الانتفاضـــة الفلســـطينية حاجـــز الخـــوف من بطش الاحتلال الإسرائيلى، والمطلـــوب: أن نتقدم نحن لكسر حاجز الخوف من بطش السلطة المصرية المفرطة الجائزة، القاهرة.

نعم، تظاهروا تصحوا، فالفعل – دائماً – هو الأصدق إنباء من الكتب، والفعل – فى لحظة اليأس – هو الكتاب الوحيد المقدس.

إشارات

* سفالة ميشيل ويلبيك، الفرنسى – ضد القرآن والإسلام، وسفالة مارى روبنســـون – الأيرلندية – ضد العرب والمسلمين، وانسحاب أمريكا الهزلى خلـــف إســـرائيل مـــن مؤتمر دربان، ثلاثة عناوين على حقيقة واحدة هى الانحطـــاط العنصـــرى لـــثقافة الغرب، ولا عزاء للحكام التابعين والمثقفين المتغربين.. عندنا هذه المرة.

* صـــدق أو لا تصـــدق: إيمان القدوسى زميلة صحفية تقدمت بأوراق الالـــتحاق بـــنقابة الصحفيين منذ ثلاث سنوات، والنتيجة: أنها لم تدخل جنة الـــنقابة حـــتى تاريخه ودون إبداء الأسباب، وتشكو – وهى المحجبة – من ظلـــم وعســـف الإخـــوان وتحيز صلاح عبد المقصود عضو مجلس نقابة الصحفيين.

* هل نطمع فى أن يتكلم السيد النقيب أو رجائى الميرغنى رئيس لجنة القيد أو يحيى قلاش السكرتير العام؟. دعونا ننتظر.

٩ سبتمبر ٢٠٠١

فراش مبلول

نكــتة الأسبوع أن سلطات الأمن فى دولة عربية ألقت القبض على مواطنين فرحوا بإعصار الرعب الذى هز أمريكا، وحسناً أن السلطات إياها توقفت عن المزيد، فليس بمقدورها أن تعتقل غالبية المواطنين فى البلد المعنى، ولا بمقدور نظائرها فى البلدان العربية الأخرى أن تفعل، فالغالبــية العظمــى مــن الشعب العربى عبرت عن الفرح العارم، لم يفرحوا من باب الشماتة، فاللهم لا شماتة، بل كان الفرح تعبيراً وتنفيساً عن مخزون عميق من الكراهية لأمريكا الطاغية المستبدة، والكراهية – كالتعاطف – شعور إنسانى، ونحن لا نكره أمريكا من الباب للطاق، لا نكــرهها لأنها أغنى، ولا لأنها أقوى، بل نكرهها لأنها تكرهنا، نكرهها لأنها أذلتنا، نكرهها لأنها حاصرت أحلامنا فى النهضة والتقدم، نكرهها لأنهــا عارضت بناء السد العالى جدار مصر الحارس، نكرهها. لأنها تحارب بسلاحها وأموالها مع إسرائيل، نكرهها لأنها شاركت فى تشريد الملاييــن وقتل مئات الألوف من المصريين والفلسطينيين والسوريين، والعــرب عمومــاً، نكرهها لأنها شريك أصلى فى مئات المذابح التى نفذتها إسرائيل، نكرهها لأنها قتلت مليونى عربى فى العراق بحصارها الجائــر الكافر، نكرهها لأنها العنوان الراهن للحضارة الغربية فى قمة انحطاطها العنصرى، نكرهها لأنها وقعت فريسة السيطرة الصهيونية، نكرهها لأنها تقود حملة العداء والكراهية للعرب والمسلمين لمجرد أنهم كذلك، نكرهها ونفرح ليوم ذلها وتداعى هيبتها المصنوعة وسقوط الحلم الأمريكى الذى صار حطاماً.

وفضيحة الأسبوع هى ما فعلته وسائل الإعلام العربية المملوكة فى أغلــبها للحكومــات، تحول الإعلام العربى فى أغلبه إلى ملاحق باهتة للإعــلام الأمــريكى، الصــوت هــناك، والصدى هنا، كأننا لسنا إزاء

أصـــوات حكومـــات تنتمى للعرب ولو بالاسم، وكأن حكومة الولايات المـــتحدة انتقلت للإقامة فى القاهرة أو الرياض أو الرباط، وسواها من العواصـــم، كأن حكومة الولايات المتحدة اخطبوط بألف ذراع عربى، التلـــيفزيون المصـــرى أخذهـــا من أقصر الطرق، واكتفى بنقل إرسال محطـــة التلـــيفزيون الأمريكـــية "سى. إن. إن" وكان المقصود بسيادة وريـــادة الإعـــلام المصـــرى هـــو السيادة للـــ "سى. إن إن"، والهدف واضـــح، أنـــه محاولـــة التأثـــير على نفوس المشاهدين لصالح السادة الأمـــريكان، كأن لا مصيبة تستحق إلا مصائب الأمريكان، كأن نفوس الأمـــريكان لهـــا وحدها الحرمة، وكأن دم الأمريكى من النوع الملكى الأزرق، ودماءنا من مياه الصرف الصحى، والأغرب: أن تليفزيونات وصـــحفاً عربـــية بالغـــت فـــى التزوير، وادعت أن أغلبية المصريين والعـــرب فـــى حـــزن عميق، بينما الفرح والسبب مفهوم، فالحكومات العربـــية فى ذهول أعظم من الذهول الأمريكى، أمريكا هى السيد، وهم الأتباع والخدم، أمريكا هى القوة التى لا يغلبها غلاب، وقد ضربت من حيـــث لا تحتســـب، وغلبـــت كالـــروم فى أقصى الأرض، واجتاحها الإعصـــار الجوى المسلح، ووضع أنفها فى الركام، فقوة أمريكا ليست فـــى قـــوة السلاح والاقتصاد فقط. قوتها الأعظم فى فوائض الصورة المصـــنوعة، قوتهـــا الأعظـــم فى الإيحاء الهجومى القاهر، والضربة العـــبقرية المبهرة حطمت رموز القوة الأمريكية الأكثر بريقاً، حطمت آلهـــة الاقتصـــاد فى مركز التجارة العالمى، وحطمت آلهة السلاح فى البنـــتاجون، وحولت الرئيس الأمريكى إلى فأر مذعور يبحث عن شق جـــدار يختبئ فيه، وطبيعى أن يصطحب الذعر الأمريكى ذعر التابعين فى قصور الحكم عندنا، وطبيعى أن يفهموا أن كراهيتنا لأمريكا غيض مـــن فيض كراهيتنا لهم، ويكفى أن يتخيل أحدهم أن يحدث له ما حدث لرئيسه الأعظم فى أمريكا ليموت بالصدمة العصبية فى فراشه المبلول.

نعم، من حقنا أن نفرح، فقد بدأت الخطوة الأولى فى مشوار الألف ميل لهزيمة أمريكا وعيالها بالضربة القاضية.

١٦ سبتمبر ٢٠٠١

سياسة عبد الفتاح القصرى

لـــم أكـــن أحب أن تصح الشكوك بهذه السرعة، فقد رحبنا فى حذر بـــالغ بمـــا بدا موقفاً مصرياً رسمياً ضد الانضمام للتحالف الأمريكى، وعبرنا عن شكوك تستند لعلاقة التبعية لأمريكا، ولم يكد يمر يوم حتى انقلـــب الموقـــف على عقبيه مع زيارة الرئيس مبارك لباريس، وجرى الـــتراجع كلـــياً، وأصـــبحت أمـــريكا على حق فى الخطاب الرسمى، والانضـــمام لـــتحالفها واجـــب، وإرسال قوات مصرية وارد بعد تهيئة الـــرأى العام "نفسياً" والعرض على البرلمان، وقد بدأت التهيئة "النفسية" بـــالفعل بخـــنق الأصوات المعارضة فى الصحف القومية، أما البرلمان فحـــدث ولا حـــرج، إنه جاهز دائماً بأغلبية الحزب الحاكم الميكانيكية للبصـــم بالعشـــرة علـــى كل رغبة رئاسية، فما بالك لو كانت مشفوعة بضغط الحذاء الأمريكى الثقيل.

وقـــبل أن يصـــل الرئيس مبارك لباريس بساعات، كانت أمريكا قد قالـــت رأيهـــا، وتطوع د. عبد المنعم سعيد – ممثل جماعة كوبنهاجن التطبيعـــية – بإعلان الانقلاب فى الموقف المصرى، كتب سعيد – فى أهرام الاثنين الماضى – مقالاً بعنوان "أيام عصيبة قادمة" وفى لهجة لا تخلـــو مـــن إشفاق قال "إن المرء لابد أن يتعاطف مع الرئيس مبارك والمؤسســـات والأفـــراد المســـاهمين فى عملية صنع القرار"، وقبل أن ينخلع قلبك يخبرك سعيد بالسبب الذى يبطل العجب، ويقول لك ببساطة "لأنهـــم يستعدون لاتخاذ قرارات مصيرية"، وقد يتعجب القارئ الطيب لأنـــه فهـــم وقـــتها أن الرئيس اتخذ القرار المصيرى بالفعل، ورفض الانضـــمام للتحالف الأمريكى، وهذه سذاجة وحسن نية يرد عليها سعيد بغلظـــة أمريكـــية مألوفة، ويقول – ما معناه – لا مناص من الانضمام للتحالف الأمريكى، وعلى نسق مقارب لما جرى فى حرب الخليج، ولا

تســأل: لماذا؟، فهو يرد عليك بطريقة لا تخلو من استظراف واستعباط بقوله "لأن التحالف فكرة مصرية لا ينبغى أن يسرقها أحد"، يا الله، إلى هــذا الحــد بلغ عمى الألوان السياسى، وأصبحت رغبة أمريكا مشيئة مصــرية، الأغرب: أن رغبة سعيد – الأمريكية بالطبع – تحققت على طــريقة "شــبيك لبــيك" وانقلبت السياسة الرسمية بعد نشر مقال سعيد بســاعات، وتحولــت التصــريحات الرسمية من ميل محسوس لانتقاد أمــريكا إلى "كورس حماسى" للتحالف الأمريكى، وثبت أن عبد المنعم سعيد من أولياء الله الصالحين، ويعرف دبة النملة تماماً كالست أمريكا، وبوســعه أن يحول النملة إلى فيل، وينفخ فى البوق فيحول العظام إلى رمــيم، ولــم لا؟، وقــد تحول مقاله – فى غمضة عين – إلى سياسة رسمية، وأطلق رياح العصف بالمعارضين مهما بلغ المقام، وجرى منع نشــر مقال صلاح الدين حافظ مدير تحرير الأهرام لمجرد أنه تساءل "لماذا تورطنا أمريكا فى حروبها؟"!.

وبالطــبع، فإن مقال عبد المنعم سعيد ليس هو المسئول الأوحد عن تحويــل السياسة المصرية إلى رماد، إنه – فقط – مجرد شاهد أعجوبة على طغيان الحضور الأمريكى فى بنية النظام المصرى، وكلما بدا أن الــنظام قد يستمع إلى صوت الشعب، ولو لأسباب موصولة بالإحساس بــتداعى معانى الشرعية والقبول العام كلما بدا ذلك سارعت جماعات الأمــركة والأســرلة: المســيطرة فى الاقتصاد والسياسة والثقافة إلى اســتعراض قــوة، وكشرت عن أنيابها، ولوت عنق الرغبات المشوبة بحــس وطنى، وحذرت من سوء المآل وبؤس المصير، وغالباً ما تجد الاســتجابة جاهــزة، والرغبة فى خدمة أمريكا حاضرة، ولا مانع من ابــتلاع الألســنة والتزام الصمت عند اللزوم، من هنا تتولد المفارقات العجيــبة، مصر الرسمية رفضت فكرة الاستعداد لحرب ضد إسرائيل، ومصــر الرسمية – ذاتها – لا تمانع فى الدخول لحرب لصالح أمريكا، وتذكــروا أن مصــر الرسمية فتحت مجالها الجوى لــ ٣٥ ألف طلعة طيران أمريكية فى حرب تدمير العراق، ولن تصدمنا المفاجأة لو تبين – ولو بعد سنوات – أننا فتحنا مجالنا الجوى لطلعات مماثلة فى حرب أمريكا الجديدة ضد العرب والمسلمين.

يـــبقى، أن التراجع المصرى الرسمى له سوابقه، تذكروا أن مصر الرســـمية قالـــت إنهـــا لـــن توقع على المعاهدة النووية إلا إذا وقعت إســـرائيل، بعدها جرى التراجع المهين بتوقيعنا دون أن توقع إسرائيل، وهـــى حكايـــة لطـــيفة تســـتعيد عنتريات الكوميدى الراحل عبد الفتاح القصـــرى، كـــان القصـــرى كثيراً ما يردد – فى فيلم "ابن حميدو" – لازمته المشهورة "كلمتى ما تنزلش الأرض"، وتزغر له زوجته البدينة العفية فى غضب مصنوع، ويرد القصرى متراجعاً "خلاص تنزل المرة دى"، النتـــيجة: أن كلمـــة القصرى كانت "تنزل" فى كل المرات وحتى نهاية الفيلم، وهذه السياسة القصرية لا تصح فى إدارة الأوطان والأمم، وإن كانـــت تصح فى مقام جلب الضحك الذى هو أحر وأمر من بكاء الرجال.

٣٠ سبتمبر ٢٠٠١

بدون ماكياج

فـــى بـــرنامج تليفزيونى مصرى سألته المذيعة "التى هى زوجته" عن الفـــرق بيـــن المقاومـــة والإرهاب، وأجاب الدكتور أسامة الباز – مستشار الرئيس مبارك – بدون ماكياج ولا تصنع دبلوماسى، قال الباز: إن المقاومة مشـــروعة بمقتضـــى القانون الدولى، وهو كلام معقول، المشكلة: أن الباز أضـــاف تفســـيرات من عنده تكاد تبطل حق المقاومة، وتكاد تلحق المقاومة الفلســـطينية بالإرهـــاب، فهـــو يقول: إن أى عمليات تستهدف المدنيين هى الإرهاب بعينه، والإشارة واضحة إلى العمليات الاستشهادية الفلسطينية ضد الإســـرائيليين، الأغـــرب: أن الباز يطالب الشعب الفلسطينى بالهدوء ووقف المقاومـــة مادامـــت هـــناك دعوة للمفاوضات، والمعنى: أن المقاومة أقرب لمفارقة التعقل والجنوح المرضى إلى الإرهاب!.

وقـــد لا تكـــون تصريحات الباز مهمة فى ذاتها، لكنها تكشف المخبوء على أى حال، فهو ينتصر للمقاومة فى العنوان، ويهدر دمها فى التفاصيل، ودعوته – شبه الرسمية طبعاً – تشبه فرية أطلقها كوفى عنان فى مناقشات الأمم المتحدة الأخيرة عن مفهوم الإرهاب، عنان – سكرتير الأمم المتحدة – يساير المفهوم الأمريكى الإسرائيلى للإرهاب، ويريد – هو الآخر – وصف المقاومـــة بالإرهـــاب، ويتحدث عن تجريم استهداف المدنيين "الأبرياء"، فى نـــزاعات وحـــروب الـــتحرير، والإشارة لصيقة – عند عنان كما أسامة – بالعملـــيات الاستشهادية الفلسطينية، وهذا الكلام ليس بريئاً، وإن تحدث عن "الأبرياء"، وهو إن انطبق بتعسف على حالات احتلال لا ينطبق على الحالة الإســـرائيلية بـــالذات، فالاحتلال الإسرائيلى – بالبداهة – ليس مجرد جيش اســـتعمار يتحكم ويستبد بشعب وأرض، والكيان الإسرائيلى ليس فيه أبرياء مـــن أصـــله وصـــاحب الـــزى المدنى مجرم كما صاحب الزى العسكرى، الســـبب: فى طبيعة الكيان الإسرائيلى كاستعمار استيطانى إحلالى، كل فرد

فيه مستعمر ومغتصب لحق الشعب الفلسطينى المطرود أو المحاصر، وكل فـرد فيه عضو أصيل فى ثكنة عسكرية استيطانية، وكل عملية تستهدف أى إسرائيلى – بالزى المدنى أو بالزى العسكرى – هى عملية مقاومة مشروعة بأعراف السماء والبشر، وتصل الحالة إلى ذروة وضوحها فى المستعمرات الإسرائيلية، حيث كل فرد بالزى المدنى يحمل السلاح فى الوقت نفسه، ومن ثـم فالحديـث عـن "أبـرياء إسـرائيليين" أقـرب للاستهبال والاستعباط، والإسـرائيلى يمكـن أن يستعيد "براءته" فى حالة واحدة لا غير، أن يهجر إسرائيل، ويتخلى عن إسرائيليته، أن يترك ما اغتصب لأصحابه الأصليين، أن يـترك فلسطين لأهلها وشعبها، ويمكنه أن يفعل بإرادته أو رغماً عنها، والسـبيل الوحـيد هـو المقاومة بكل درجاتها، المقاومة بالحجر والتظاهر والمقاومـة بالرصـاص، واقـتحام المستعمرات والثكنات وعمليات الفداء الاستشـهادى، وكل إسرائيلى يسقط – بالزى المدنى أو بالزى العسكرى – هو خطوة ليوم النصر والتحرير.

ولا يخفـى أن إسـرائيل – ومعهـا أمـريكا – تـريد وقف العمليات الاستشـهادية بـالذات، والتفسيرات "البازية" تقترب من الهدف نفسه، وليس صـعباً أن تفهم السبب، فإسرائيل تريد وقف الانتفاضة، والنظم العربية فى أغلـبها تمـيل للموقف نفسه، إسرائيل تريد وقف الانتفاضة بالقمع والتلويح بالمفاوضـات، والنظم العربية تريد وقف الانتفاضة بالخذلان ودعوى تجنب الإرهـاب، ربما الفرق: أن النظم العربية لا تقولها بصراحة، وتفضل اللف والـدوران رفعاً للحرج من غضب الشارع، ولا بأس عندها بخلط الأوراق علـى طريقة أسامة الباز، وافتعال مساواة بين تفجيرات قد تنعت بالإرهاب وتفجـير قلب إسرائيل بالعمليات الاستشهادية، الهدف الظاهر: تجنب وصف المقاومة بالإرهاب، والهدف الخفى: تسهيل مهمة إسرائيل من قمع الانتفاضة دون خوف ولا انتظار للعقاب الاستشهادى.

وقـد لا يهـم أن نرد على الباز لفظاً بلفظ، فالانتفاضة ذاتها ترد على طريقـتها، تقوم دائماً من الرماد، وتهزأ بتفسيرات الباز وأصحابه، وتضعها حيـث تستحق تحت أقدام المنتفضين، فانتفاضة الشهادة المؤمنة لن تلدغ من جحر المفاوضات مرة أخرى.

٧ أكتوبر ٢٠٠١

تظاهروا تصحّوا

الفعـــل أصـــدق إنباء من الكتب، هذه حكمة صالحة لكل الأوقات، وفى وقت كالذى نعيشه يصبح الفعل فى ذاته هو الكتاب المقدس.

الفعـــل هـــو كلمـــة الخلق، وهو الذى يحيى، وغيابه مميت، وقد عادت الجـــبهة الشعبية لتحرير فلسطين إلى الحياة، عادت لأنها فعلت، عاد نجمها للصـــعود مجـــدداً، ودخلـــت فـــى سباق التنافس المقدس مع حركات الفعل الإســـلامى فـــى "حماس" و"الجهاد" و"حزب الله"، عادت للحياة لأنها أبرزت ســـيفها المغمود، ونفذت عدداً من العمليات البطولية النوعية، وحازت شرف الســـبق باغتيال غير مسبوق لوزير إسرائيلى هو السفاح رحبعام زئيفى، ولا تـــنخدع – مـــن فضـــلك – بحكاية أنه كان وزيراً للسياحة، فهو ليس رقيقاً وناعمـــاً إلى الحد الذى تغرى به مواصفات وظيفته الأخيرة، فقد كان زئيفى جـــنرالاً وســـفاحاً محترفاً، وكان إسحق رابين – رئيس الوزراء الإسرائيلى الشهير المغتال بأيد يهودية – يصف زئيفى بأنه "رجل جميع المهام"، وهو – أى زئـــيفى – رجـــل "عملـــية المكنســـة" الـــتى "كنست" قطاعاً كبيراً من الفلســـطينيين إلـــى خارج أراضيهم فى حرب ١٩٤٨، وعاش إلى آخر نفس يحلـــم بـــيوم "تنظيف" الضفة وغزة من ملايين الفلسطينيين. واغتيال الجبهة الشعبية لزئيفى ضربة معلم هائلة، فقد أثبتت أن بوسع الفلسطينيين أن يثأروا للشهداء، وأن الرؤوس الإسرائيلية الكبيرة أقرب لرصاص الفدائيين من حبل الوريـــد، وأنهـــم يقدرون أن يعيدوا الأرض بفيض الدم لا بزجاجات المياه المعدنـــية على موائد التفاوض الذليل، وجاءت عملية اغتيال زئيفى كافتتاح درامـــى صـــاخب لعام الانتفاضة الثانى، فقد نهضت الانتفاضة من الرماد، وأســـقطت كـــل الـــرهانات على إماتة الانتفاضة بالتواطؤ، وجرائم التنسيق الأمنى الفلسطينى مع الإسرائيليين، ووعود بوش وعياله العرب.

عـــاد نجم الجبهة الشعبية للصعود مجدداً بعملية اغتيال زئيفى، وعادت الجـــبهة موئلاً لعشرات ومئات من الشباب الفلسطينى الراغب فى الشهادة،

عــادت للحياة بالأفعال لا بالأقوال، كانت الجبهة فى الستينيات والسبعينيات تثــير الاهتمام وتشغل الخلق، وكان مؤسسها الأول جورج حبش أكثر شهرة مــن الرئيس عرفات، واشتهرت الجبهة - ذات الهوى اليسارى - بعملياتها الخارجية المتقنة المثيرة، وفى الثمانينيات توارت الجبهة عن الضوء الباهر، وفى التسعينيات كاد يعلن موتها، وتركها جورج حبش نفسه، وبدت مع قيادة أبــو على مصطفى - الشهيد فيما بعد - كأنها تتحول إلى اليمين السياسى، وباتــت أقرب إلى حضن عرفات، ولم ينقذها من مصير الذبول النهائى غير اســتعادة الــدور الطلــيعى القديــم فى الكفاح المسلح، فقد خلقت الجبهة مع الانتفاضة خلقاً جديداً، ووصلت المفارقة الدرامية إلى أعلى ذراها باستشهاد أبو على مصطفى أمينها العام، المفارقة: أن أبو علـى - وكان ميالاً للتسوية بالتفاوض - مات بصواريخ التسوية ذاتها، وتحول بموته الجليل من شخص موضــع انتقاد إلى رمز فوق كل اعتقاد، وهكذا يطهرنا الفعل ربما إلى الحد ذاته الذى تدنسنا فيه الأقوال المفارقة للأفعال.

درس عــودة الجــبهة الشــعبية للحياة ملهم لنا فى مصر بالذات، فليس خافــياً ما نحن فيه، أزمة شاملة خانقة، ومعارضة ذابلة متهافتة، وأحزاب لا تصــلح حــتى لأداء وظيفة الديكور السياسى، وسياسة ماتت على السطح، وتفــاعلات صــاخبة فى الأعماق، وعجز متزايد عن إنقاذ وطن يسير إلى الهاويــة باندفــاع صــاروخى، ويأس مقيم فى الشارع، ورفض محتج على الحكــم والمعارضة سواء بسواء، وهى دائرة لعينة مفرغة لن يكسرها سوى الفعل، لا نطلب من أحد - لا سمح الله - أن يطلق رصاصة، ولا أن يغتال عــنواناً مسيئاً، فقط نطلب الفعل الذى هو أوسط الإيمان، فالأحداث تتلاحق، والدنــيا تكــاد تندك فوق رؤوسنا، ومع ذلك لا تجد حساً ولا خبراً، اللهم إلا بيان يصدر من هنا، أو صحيفة تلمع من هنا، ولا حياة لمن تنادى، وما أنت بمســمع من فى القبور، فلا أحد يتظاهر إلا باتفاق مع جهات الأمن، لا أحد يجــرؤ على الفعل خارج فكرة "اللعب مع النظام"، لا أحد يتظاهر لوجه الله ولا لوجــه الوطن، بحت أصواتنا ونحن نقول لهم "تظاهروا تصحوا"، وهم يمتنعون عن دفع ضريبة العودة للحياة على طريقة الجبهة الشعبية.

٢١ أكتوبر ٢٠٠١

تحت الخنق

لا يخفـى أن هذه الجريدة تتعرض لضغوط، ومحاولات خنق متصلة متعددة الأطـراف، وكل عدد يصل ليديك مفاجأة سارة فى زمن لا يرحمنا من كآبته وغلظته ورذالته ودمامة سيادته.

ولـيس صـعباً أن تعـرف السبب، فهذه الجريدة لا تصدر على مزاج رئيس ولا وزير ولا رجل أعمال، ولا تتغنى بأفضال تخطئها عين الشمس، ولا تطلـب نعمـة ولا ثروة، ولا تستجلب البركات، ولا تخاف حد السيف، وهواهـا الوحـيد هـو سيدنا القارئ، وحقه الأصيل فى المعرفة، وحقه فى الرؤية الكاشفة، وحقه فى إدراك الحقيقة بلا تلوين ولا رتوش ولا تواطؤ، لا تزين القبيح، ولا تقول للقرد أنت ملك الغابة.

هذه الجريدة تصدر عن حزب، نعم، لكنها ليست جريدة حزبية بالمعنى الضـيق، وقاومـت دواعـى الموت فى زمن ماتت فيه الأحزاب، ونهضت كجريدة وطنية جامعة، نهضت بسرها الناصرى الظاهر، فالناصرية لا هى فـرد، ولا جماعـة بذاتهـا، ولا تعليمات من غرف مغلقة، الناصرية هى الوطنـية المصرية بامتياز، الناصرية هى القومية العربية فوق كل اعتبار، الناصرية هى الإسلام الحضارى ثقافة الأمة بملسميها ومسيحييها، الناصرية هـى الحرية لكل الناس، الناصرية هى نداء التغيير، وليست قبيلة من السلف الصـالح أو الطـالح، الناصرية هي المعارضة الجوهرية الجذرية الناصعة للمشـهد الراهن كله، لا نستثنى أحداً، إلا من يقاوم، أو يموت شهيداً، ونشهد – رغـم كل شيء – أن ضياء الدين داود لم يسلك مع هذه التجربة المهنية الفـريدة كغيره من رؤساء الأحزاب، لم يفرض من نفسه رقيباً، ولا صادر رأيـاً، وفضـل مبدأ الحوار على شهوة إصدار الأوامر، هذه شهادة إنصاف نقولهـا حـتى لو كنت – والزميل عبدالله السناوى – نغلق الأدراج ونطوى القلـوب على أحزانها، ونحمل مفاتيحنا إلى حيث تلقى بنا الدنيا، وأرض الله

فـيها مـن البراح ما يكفى للناجحين الموهوبين، فالصحفى أو الكاتب الذى يصنعه المنصب يذهب مع زواله إلى سلة مهملات صاحبة الجلالة.

هـذه الجـريدة صـحيفة مـبادئ، نعم، لكنها أثبتت أن المبادئ تصنع الصحف الأفضل، وأن توهج الفن الصحفى صنو لا يفارق وضوح الرسالة وعدالتها، وأن الالتزام ليس سجناً للروح، ولا تثاؤباً مملاً، بل حيوية متدفقة، وتألقـاً مهنـياً، له سخونة الرغيف الطازج الخارج من الفرن البلدى لا من فرن البوتاجاز، وكم من صحف مبادئ ماتت لأنها فضلت العيش فى الظل، وخافـت الاصـطدام بعسـكرى المرور، وبشياطين الإنس والجن، ودخلت توابيت فراعنة ليسوا عظاماً ولا رميماً(!).

هـذه الجريدة هى مفارقة الخلق الصحفى، قبل ١٨ شهراً كانوا يمشون فـى جـنازتها، كانت تموت دون أن يهتم أحد، تلفظ أنفاسها دون جلبه، ولا شـروع فـى بكاء، ولا نعى فى الأهرام، المفارقة أنها قامت من القبر، لم تدخل غرفة الإنعاش، ولا مدوا لها الأنابيب الصناعية، ولا نقلوا إليها أكياس الـدم. ولا تلقـت قرشـاً حراماً ولا حلالاً، ولا حتى ورقة دشت، ولا أدنى الشـروط الماديـة المتعارف عليها لصناعة الصحف، المفاجأة: أنها نهضت وقوفـاً، وكأنهـا عـادت من عالم الغيب، فارقت سنين النوم دون إذن، ولا ميعاد، وانطلقت كصاروخ سماوى يزأر ويرعد ويبرق ويعصف.

باختصـار: هـذه الجـريدة تحاصـر، وتخنق، لأنها نداء الحياة لأهل الكهف.

إشارات

* نصف أحزابنا فى ثلاجة التجميد، والنصف الآخر تحت التحنيط.

* أسـخف نكتة: شارون يريد التفاوض مع الفلسطينيين على موائد الدم (!).

* والأسـخف: أصـوات فـى السلطة الفلسطينية ترحب بالتفاوض مع شارون، وتكرر خطيئة وضع أغصان الزيتون فى فوهة البندقية الإسرائيلية (!).

٤ نوفمبر ٢٠٠١

اقرأوا الفاتحة

كل سنة وأنتم كما أنتم من سنة كبيسة إلى سنة تعيسة.

وأعـــتذر مقدماً – للمرهفين المتبلدين – عن قلة الذوق المنافق، ودعونا نسأل: هل من معنى مفرح لانتقالنا فى مصر إلى عام جديد مع بقاء أحوالنا علـــى مـــا نعلـــم؟!، هل من معنى مفرح للحياة فى بلد فقد البوصلة، وافتقد الرشـــد، هل من معنى مفرح للانتماء إلى أمة تداعت عليها الأمم ويحكمها الـــرمم، هـــل مـــن معنى مفرح لأن تظل أحوالنا فى الصباح هى ذاتها فى المساء والظهر والعصر، وأحزاننا فى عام ١٩٩١ هى ذاتها فى عام ٢٠٠١ ، ومخازينا فى نهايات القرن العشرين هى ذاتها فى الألفية الثالثة، فأسوأ ما يحـــدث فـــى مصـــر – مع أمتها العربية – ألا شيء يحدث على الإطلاق، وكأنـــنا لا نـنـــتمى إلـــى هذا العالم الموار بالمخاضات والتحولات، أو كأننا نحتمى من صخب الحياة بهمود الموت، أو كأننا أهل كهف لا ينتظرون يوم القيامة، أو كأننا جعلنا بيننا وبين الأمل سداً عالياً، وبيننا سوراً كسور الصين – لكـــنه لـــيس عظـــيماً – يحجـــب عنا الهواء، ويتركنا نختنق فى الزنقة والـــزحمة، وتحولنا من مواطنين إلى رعايا، ومن رعايا إلى سبايا، تنزل بنا الكـــوارث وتحل القوارع، فلا ننفعل ولا ننتفض، لا نسأل عن الحقوق التى تـــداس، ولا المقدســـات الـــتى تنـــتهك، ولا نســـأل حكامنا مرة: لماذا نحن أســـراهم؟، ولماذا هم فوق الرقاب؟، وبأى حق، أو بأى شرعية، فلا شرعية الإنجـــاز التاريخى تسند الحكم اليوم، ولا شرعية الدستور، فالدستور مرفوع من الخدمة طول الوقت، والبلد كلها تعيش فى الحرام الدستورى، ولا نعرف بالضـــبط: هـــل نحن جمهورية أم ملكية أم ملهبية؟، كل ما نعرفه أن الدولة نخـــرها السوس، ونهش أباطرة الفساد لحمها وعظامها، وحولوها إلى دولة ممالـــيك أو دولـــة عصابات، فلا فرق، كأن مماليك ما قبل دولة محمد على يتقاسمون الجغرافيا ومماليك اليوم يتقاسمون الصفقات، مماليك للخصخصة،

ومماليك للمعونة الأمريكية، ومماليك للإعلام، وخصيان للثقافة، وأغوات تحولت بهم مؤسسات الدولة إلى عزب وتكايا، وقوانين المافيا صادرت أثر القانون العام، ولم يعد يهم أن تتوقف عند شخص بعينه، لم يعد يهم أن تنتقد عاطف عبيد المسمى رئيساً للوزراء، ولا أن تلعن كمال الشاذلى أو يوسف والى، ولا أن تهزل مع فاروق حسنى، ولا أن تطارد مليارديرات الكسب الحرام، فليست العلة فى سياسة، ولا فى شخص، ربما لأنه لا توجد سياسة من أصله، وربما لأن كل شيء قد اختلط بأى شيء، وربما لأن الثروة والسلطة والإعلام تداخلت جميعاً على نحو مفزع وخطر، ولم يعد يجدى الإصلاح بالقطعة، ولا التوقف عند سياسة بعينها، ولا لوم شخص ولا عائلة ملكت بيدها المقادير والمزامير، فالسياسة المصرية اليوم - كمفردات وشخوص - أشبه بجثة متعفنة متحللة فى الطريق العام، لا تجد أحداً يزيحها ويريحنا من تنفس الروائح العطنة الكريهة.

لا أريد أن أفسد عليكم رأس السنة، ولا رقصها، فكلوا واشربوا، وتأملوا صورة عاطف عبيد فى منتصف الليل الفارق بين سنة كبيسة وأخرى تعيسة، واقرأوا الفاتحة علينا وعليكم، وصلوا صلاة مودع.

إشارات

* بعد أيام: حصار باكستان بتحالف هندى - أمريكى - إسرائيلى، وبعد أسابيع: تدمير العراق بتحالف أمريكى - إسرائيلى - عربى، والبقية فى حياتكم(!).

* الآن - فقط - عرفت أن الملائكة تموت، فقد مات حمدى صباحى.

* الضاحك دائماً يوسف الشريف دبر لنا مقلباً، تظاهر بالمرض، وذهب للمستشفى، وخلع قلوبنا خوفاً على رجل تحبه الحياة وتستدفئ بروحه المرحة الذكية المتفائلة.

سلامتك يا أستاذ يوسف.

٣ ديسمبر ٢٠٠١

انتظروا القيامة

فيضـــان الغضب فى بورسعيد أول الغيث، وانتظروا قيامة مصر التى تخلع الخشب المسندة على عصا أكلها النمل.

لا نتوقف عند السبب المباشر لانتفاضة بورسعيد، فبديهى أننا مع حماية الصـــناعة الوطنية، ومع ترشيد الاستيراد السفهى، وربما مع إيقافه كلياً فى مجـــالات بعيـــنها، ومـــن المضحك أن تصور الحكومة نفسها وكأنها تحمى صـــناعاتنا الوطنـــية، فهـــى – مع سوابقها ولواحقها إن أتت – مسئولة عن تدمـــير الصـــناعة الوطنية، وتفكيك القلاع الصناعية الكبرى، وبيع مصانع القطـــاع العام برخص التراب، والتورط فى أكبر عملية نهب شهدها التاريخ المصرى بإطلاق عهوده وقرونه، وحكومة كهذه مكانها الطبيعى فى محاكم الجـــنايات لا فـــى مجلس الوزراء، فهى بضاعة فاسدة من يومها، لا يستمع لنصائحها، ولا يوثق فى قراراتها، ولا تلحظ لها بقايا من شرعية، فهى بنت السياسات اللقيطة، والاختيارات اللقيطة، والثروات اللقيطة، والعهود اللقيطة، ولا علاقة لها بحرارة التفاعلات المحلية، فهى حكومة مستوردة، ووزراؤها الـــنافذون مجرد وكلاء وسماسرة للأجانب فى صندوق النقد الدولى.. أو فى واشنطن.. أو فى تل أبيب.. فلا فرق.

وقد حذرنا مراراً مما يحدث، وقلنا: إن أسوأ ما يحدث فى مصر أنه لا شـــىء يحـــدث علـــى الإطـــلاق، ولم نجد من رد فعل غير البلادة، وموت الضمائر، والإصرار على التمادى فى الغباوة السياسية، والعنجهية المفرطة، تصـــوروا أن مصـــر ماتـــت، وأن عصا القمع تكفى، وتناسى هؤلاء عبرة الـــتاريخ، أغـــراهم موت السياسة على السطح، وتداعى الأحزاب، وتدجين الصـــحف، وتحويـــل صحافة المعارضة – باستثناء "العربى" – إلى نشرات باهتة، فهناك صحف حكومية تصدر عن الحكومة، وصحف حكومية تصدر عـــن أحزاب توصف بالمعارضة، وهوامش مضافة من "صحف بيزنس" لا

تهـش ولا تـنش، أغـراهم أن الـبلد تـبدو كأنها بلا أحزاب ولا صحف، وتصوروا أن بوسعهم البقاء على قلبها لطالون، فلا توجد قوة سياسية بعينها تقـدر على تحدى الحكم، وضعوا نصف الأحزاب – المرخص بها – تحت التجميد، وتركوا النصف الآخر تحت التحنيط، وظنوا أن الساحة خلت، وأن المعارضـة انتقلت إلى رحمة الله، وظواهر الحال تغرى بالأوهام، فالسطح بـارد، والأفـواه مغلقة، وشهادات الزور أكثر من الهم على القلب، خدعهم الهـدوء الـبادى، ونسوا أن العاصفة فى الطريق، وأن جمرات النار تحت الـرماد، وأن العمـق يغلى، وأن فيضان "السياسة الجوفية" مقبل لا محالة، فحين تتعطل قدرات مجتمع فى التعبير الطليق، فلا يجد الأحزاب التى تحمل هومـه، ولا الصحف التى تنطق باسمه، ولا الانتخابات التى تترجم إرادته الحـرة، ولا الحكـم الذى ينتمى إليه، حين يحدث ذلك – وغيره – لا يتبقى غـير الذهـاب لأقرب مأذون سياسى لإتمام إجراءات الطلاق، والحادث أن الشـعب المصـرى طلـق الحكومة والأحزاب، والصحف بالثلاثة، ولم يعد يـنوى اللجـوء لأحد، وقرر – على ما يبدو – أخذ مصيره بيديه، وانتزاع حقوقـه، ونـيل حريته بالحناجر والأظافر، وهزيمة حكم القمع على طريقة "كش ملك" فى لعبة الشطرنج.

نعم تذكروا انتفاضة بورسعيد جيداً، فهى فاتحة الغضب المصرى على الطريقة الأرجنتينية.

إشارات

* قـل: تعديـل الأسـعار، ولا تقـل: رفع الأسعار، ملحوظة: براءة الاختراع اللغوى محفوظة لصحف الحكومة.

* مانشـيت "العربى" وصف حكومة عبيد بأنها "حكومة خراب مصر"، وبعـد ٤٨ سـاعة كـان المتظاهرون فى بورسعيد يرددون الهتاف "أحلف بسـماها وبـترابها.. عاطف عبيد اللى خربها"، ولا عزاء لنواب الانحطاط النفاقى.

* إذا أتتك مذمتى من سمير رجب فهى الشهادة لى بأنى "معارض".

* الانتفاضة الفلسطينية تنهض من الرماد قريباً.. هذه ليست نبوءة.

٦ يناير ٢٠٠٢

كفاكم يأساً

نـــتذكر جمال عبد الناصر لأنه البدر المفتقد فى الليالى الظلماء الأسود من قرن الخروب.

نـــتذكر جمـــال عـــبد الناصـــر، لا حنيـــناً إلى الماضى، بل شوقاً إلى المستقبل، فالماضى لا يعود، ولكن تستعاد دروسه وعبره وعظاته، نستطيع أن نعدد ألف إنجاز وملحمة لجمال عبد الناصر، نستطيع أن نتحدث عن سد مصـــر العالى، وعن معركة السويس، وعن التحولات الاجتماعية الكبرى، وعـــن معجزة إعادة بناء الجيش الذى حقق نصر أكتوبر، وكل إنجاز لوحده يكفـــى لجعـــل عبد الناصر بطل أبطال التاريخ العربى الحديث والمعاصر، بطـــلاً أسطورياً من لحم ودم، بطلاً ينتصر وينهزم لكنه لا ينكسر أبداً، ظله أخضـــر، وســـيرته كالأنبياء، ونقاوته من معدن عمر بن الخطاب، وعمره القصـــير كأبـــناء الموت، وصرخته فى براح التاريخ تخلع القلب، لكن قيمة عـــبد الناصـــر العظمى الباقية ليست فيما فعل، إنها فيما أوحى به حضوره وعصـــره، فى قيامة الأمة بعد هوان الرقاد، فى اكتشاف المقدرة على الخلق والـــتجديد الإنســـانى، فى الثقة المنسوبة لفيضان الروح، فى التفجير النووى لطاقـــات وقـــدرات نملكهـــا، لـــو أردنا، فى الإرادة البانية لمجد الأمم، فى التصـــميم علـــى فك أطواق الحصار، والتحليق فى آفاق العصر، فى تقديس الثوابت والتفاعل الكفء الواعى مع تغيرات الدنيا من حولنا.

نـــتذكر جمـــال عـــبد الناصـــر، لأنه عنوان التغيير، وما أشد احتياجنا للتغيير، فالأمة التى تتوقف عن الخطو للأمام لا تظل فى مكانها محلك سر، إنهـــا تتقدم إلى الخلف، تفقد الثقة فى الذات، وتكف عن غريزة الحلم، وتلتهم الأحـــزاب بقاياها، تتحول إلى أشلاء يتناوشها قطاع الطرق، وباعة الأوهام وجـــنرالات الـــيأس، وقد كان اليأس عاماً مسيطراً يوم فكر عبد الناصر فى التغيير، يوم عاد من حصار "الفالوجا" الفلسطينية مرهقاً مهموماً، وبرقت فى

ذهـــنه "عاصـــفة الضوء"، أدرك أن السلاح الفاسد – وحده – ليس هو الذى صـــنع هـــزيمة الأمة فى فلسطين، بل الحكم الفاسد هو الأصل والعلة، وبدأ حربه الأولى ضد الذئاب التى ترعى فى القاهرة، كان المشهد على ما نعلم، ملك فى قصور اللهو، والمندوب "السامى" فى قصر الدوبارة يحرك بإصبعه "عـــرائس الماريونيـــت"، وأحـــزاب شائخة مترهلة، وصحف تنافق غالباً، وتصـــرخ أحـــياناً، وشعب مستندل بتحالف الفساد والثروة وسلطة الاحتلال، ومماليـــك الأحـــزاب، وعـــالم جديد يتخلق مصهوراً بنيران الحرب الغربية الثانـــية، باختصـــار: لم تكن من ثغرة تبدو مفتوحة على عوالم النور، لكن جمـــال عـــبد الناصر فعلها، ووجه الضربة القاضية فى لحظة ذهول، وأيقظ الأمة الذاهلة، وما أشبه الليلة بالبارحة، أحزان فلسطين تدق الأبواب، وتيار الـــيأس يـــبدو جارفـــاً، والمـــندوب السامى – الأمريكى هذه المرة – يحكم ويـــتحكم، وأغـــوات الفســـاد ومماليك السلطان يوزعون الغنائم، والأحزاب شـــائخة ومـــوءودة، والأقلام جفت، والصحف طويت. إلا من عصم الرب والشـــعب، والســـخط الصـــامت جامح، وأحلام التغيير كأنها العنقاء والخل الوفى، ونحن نعرف يقيناً أن العصر تغير، وأن ثورة الطلائع العسكرية فات أوانهـــا، لكن درس عبد الناصر يبقى ملهماً، كأنه يقول لنا من وراء الحجب "كفى يأساً" وابحثوا عن ثغرة تنفذون منها إلى شلالات الضوء.

نعـــم، نـــتذكر عبد الناصر لأننا نحتاجه، فعبد الناصر ليس ضريحاً فى كوبـــرى القبة، ولا يريدنا أن نبكى عليه، فالدموع حيلة العاجزين، والتغيير صنعة القادرين عليه.. ولو بدا مستحيلاً.

إشارات

* لو كنت من كمال أحمد – نائب العواصف – لوضعت هجوم رؤساء تحرير صحف الحكومة عليه حيث يستحق.. تحت الحذاء بالضبط.

*أختلف فكرياً – بالطبع – مع الدكتور محمد السيد سعيد الليبرالى الذى كـــان ماركســـياً، لكنه نطق بكلمة الحق فى مقال بـــ "الأهرام" يوم الثلاثاء الماضـــى، وقـــال بالحرف: "خمسينيات وستينيات عبد الناصر هى العصر الذهبى للوطنية المصرية وأحلام التقدم".

* الانتفاضة نهضت من الرماد بعملية حماس، فهل يلحق بها عرفات؟، أم أنه يفضل بؤس الإقامة فى سجن شارون؟.

١٣ يناير ٢٠٠٢

قل يا شعب

انتفاضة يناير ١٩٧٧ آخر نفس جماعى غاضب لمصر.

لـــم تكن غضبة الشعب المصرى "انتفاضة حرامية"، كما تقول السادات وزبانيته، بل كانت هبة وثورة شعبية كاملة الأوصاف، وكادت تصل لهدفها فـــى الانقلاب على انقلاب السادات، لولا أنها افتقدت التنظيم السياسى القادر على الوصول برغبات التغيير إلى غايتها ومنتهاها.

كـــان المشـــهد وقـــتها على ما نعلم، السادات مشغول بترف التنقل بين اســـتراحات الرئاسة، وصحف الحكومة – كالعادة – تشيد بالرئيس المؤمن!، وصـــور النفاق الفاجر فى افتتاحيات الصفحات الأولى، والبلد فى حالة قلق، فقـــد انتهت حرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى عكس مرادها التاريخى بالضبط، حقق جـــيش عبد الناصر نصره الباهر، ولم يبخل الشعب الصامد الصابر بأعظم التضـــحيات، وقضـــى ألوف الشهداء نحبهم تحت علم مصر الثورة، كانت الدمـــاء الطاهـــرة ساخنة لم تجف بعد فوق رمال سيناء، تحررت مصر من عـــبء نفســـى ثقيل للهزيمة الخاطفة فى ١٩٦٧، هزمت الهزيمة، ولم تكد تفرح بنصرها حتى وجدته وقد اختطف، وتداخلت مشاعر الزهو بالنفس مع طـــوارق الحســـرة على النصر المخطوف، وتوالت سطور الخديعة، توقف إطـــلاق الـــنار على جبهة العدو الإسرائيلى فى سيناء، وبدأ فتح النار على ثـــورة عـــبد الناصـــر فى القاهرة، لم يكن القصد – بالطبع – هو النيل من شـــخص جمال عبد الناصر، فقد مات عبد الناصر واقفاً قبلها بسنوات، كان القصـــد: إعدام ثورة باختياراتها وإلهاماتها، كان القصد: إطلاق قنابل كثيفة مـــن الدخـــان تحجـــب الرؤية، كان القصد: نشر ضباب كثيف من التضليل تجـــرى تحـــت جنح ظلامه أبشع عملية اغتيال لأحلام شعب، وتوالت نذر الـــزمان الشؤم، وجرى التبديل الانقلابى خطوة – خطوة، أغلق ملف التنمية المستقلة تحت شعار "انفتاح السداح مداح"، وجرى استبدال السياسة المستقلة

بالـــركوع على عتبات أمريكا، واستبدال الدور القومى العربى لمصر بسلام المهانـــة مع إسرائيل، وبيع لحم ثورة مصر قطعة قطعة على طريقة التاجر الـــيهودى شـــيلوك، وكانـــت مصـــادفة بلـــيغة أن كيسنجر وزير الخارجية الأمـــريكى – الـــيهودى الأشهر وقتها وهو الذى تولى عملية المقايضة مع "صـــديقه" السادات، كأن المطلوب ببساطة: مقايضة ثورة مصر برضا العم ســـام و"أولاد العـــم" فى تل أبيب، كانت تلك كلها ظواهرتتلاحق على نحو صـــادم وعنيف، ولم يكن أمام السادات – بطبيعة اختياراته – إلا أن يمضى فـــى الشـــوط إلـــى نهاياته المقدرة، وأن ترهن السياسة الاقتصادية بنصائح صـــندوق "الـــنكد" الدولى المحكوم بالتوجهات الأمريكية، وصدر قرار رفع الأســـعار الذى كان مجرد شرارة أشعلت الجمر المستعر تحت الجلد، وهكذا هب الشعب كله تلقائياً، كأن المدن كلها تواعدت على ساعة الغضب، وكأنها لحظـــة الصـــفر جاءت بعد العد التنازلى المرهق والمثير، كانت الهبة نبيلة جلـــيلة، وإن شـــابتها تجـــاوزات بحكـــم التحرك التلقائى الخالى من التدبير والقصـــد المـــنظم، حققت الهبة هدفها المباشر فى إلغاء قرار رفع الأسعار، وأثبتـــت حـــيوية شعب يستهين بصبره الظالمون، لكن ريح الهبة تبددت مع العجـــز عن تحقيق هدفها الجوهرى الباطن، ولم تنجح الثورة على الانقلاب بســـبب غياب التنظيم القوى القادر، ومن يومها بدا الشعب المحسور كما لو كـــان قد غاب عن المشهد، وبدت مصر كأنها مجرد تكوين جغرافى قد تراه على خرائط الورق، لكنك لا تحس لفح أنفاس ناسه، كأنه لا شعب ولا خلق، فانفســـحت الســـاحة لحكـــم تـــورط فى الخطأ إلى حد الخطيئة، تتالت النذر والكـــوارث والقوارع دون أن يغضب الناس، وكأن شعور الغضب قد جرى مســـحه "باســـتيكة" مـــن القاموس النفسى بالشعب المصرى، هل هى نفس "الأســـتيكة" – المشـــهورة شعبياً – التى مشى بها السادات على طريق عبد الناصـــر، ربما، فما أشبه الليلة بالبارحة، أو قل: ما أسوأ الليلة التى تركتها لـــنا الـــبارحة، هـــل نقول: اللهم قد بلغنا اللهم فاشهد، قل: يارب، أو قل يا شعب.

إشارات

* خطـــأ تلقـــى التمويل الأجنبى أقصر طريق لخطيئة التطبيع، أحدث دلـــيل: بـــيان لجماعـــة حقوقـــية مصـــرية يديـــن العملـــيات الاستشهادية الفلسطينية(!).

* يـــبدو أن السياســـة المصرية دخلت فى منافسة مع غناء شعبان عبد الرحيم، أبلغ دليل: لغة المقامات السامية (!).

٢٠ يناير ٢٠٠٢

٤

عجز يسبق الإعجاز

كلما أمعنت إسرائيل فى قتل الفلسطينيين دقت ساعة النهاية للحكام العرب، ونزلت جثث أصحاب الجلالة والفخامة والسمو إلى ذات القبر الذى ستنتهى إليه سياسة شارون إله الحرب الإسرائيلى.

ودعك مما يبدو على المشهد من ثبات، وما يدعو إليه من إحباط، وما يجلبه للنفوس من أحاسيس العار، فلا بديل سوى أن نتجرع كأس الهوان بالتمام، وأن تدهمنا الكوارث والنوازل والقوارع علنا نصحو ونفيق، ونتوضأ بالدم الفلسطينى الزكى المبارك، ونمسح عن العيون ظلامها، وننظر فى عين الشمس، ونكتشف كم نحن مستذلون، وكم نحن عراياً عن كرامة البشر الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً، فاستذلهم حكام الخشب المسندة، واستذلهم شارون مع حكامهم وشعوبهم، وصار الكل عبيداً فى سوق النخاسة الأمريكية، هذه هى الحقيقة التى لا تحجبها صرخات تصدر هنا أو هناك، ولا يحجبها الضجيج والتزييف ونمر السيرك الإعلامى، ولا ينقضها سوى دم الشهيد الفلسطينى وحيداً فريداً فى إعتراضه العفى على مشهد القبح كله.

نعرف أن التاريخ لا يعيد نفسه، ولكن قوانينه ودروسه تبقى صحيحة ملهمة، ففلسطين ليست بعيدة وراء الحدود، إنها الجرح الأقرب إلى كل عربى من حبل الوريد، مع نكبة ١٩٤٨ دقت ساعة التغيير فى العواصم العربية، وتفتحت العيون الدامعة الذاهلة على ذئاب القصور، وبدأت موجة تغيير كانت بنت زمانها، وصعد المد القومى العربى فى الخمسينيات والستينيات، وقت النكبة الأولى كانت الأنظمة تخفى بؤسها بسلام الهدنة، ومع نكبة اليوم تخفى الأنظمة بؤسها بسلام الخيار الاستراتيجى، مع أنه لا سلام هنالك، ولا خيار، ولا استراتيجية بالمرة، بل هى النهاية لا أقل، فالأنظمة لا تنتهى حين تسقط قلاعها الأخيرة، إنها تنتهى حين تفقد مشروعيتها، وتتداعى مبررات بقائها، تنتهى حين تستنفد طاقاتها على الخداع، وفى شمس الدم الفلسطينى سقطت الأقنعة، وتبين أن ما يريده

شـــارون بحـــد الســـلاح، هـــو ذاته ما يريده الحكام العرب بدعوى السلام، شـــارون يريد الهزيمة النهائية للفلسطينيين، والحكام العرب يتصرفون على أن الهـــزيمة النهائـــية وقعت، وانتهت القصة، ولم يبق إلا أن تسقط الفتات، و"التوســـل" إلـــى أمـــريكا المحســـنة ليظل بيتها "الإسرائيلى" عماراً، وزير خارجية عربى قالها بصراحة: لم يبق إلا "التوسل" (!)، ورئيس عربى قالها – قـــبلها – "يـــروح المســـجد الأقصى فى ستين داهية". (!) وفضل هؤلاء وأمـــثالهم – إن كان من فضل للخزى – أنهم قالوا ما تواطأ الآخرون على كـــتمانه، وهكذا سقطت آخر أوراق التوت، وانكشفت العورات، وربما تكون حالـــة الرئـــيس عرفات هى الاختصار الرمزى لأحوال أشباهه فى قصور الحكـــم العربية، رئيس مرمى فى بدروم الخدم، ويفضل أن يظل خادماً بلقب رئـــيس، لـــم يقصر فى تنفيذ الأوامر الأمريكية والإسرائيلية، ولا فى تلبية الطلـــبات، ولا فـــى رعايـــة مزاج الزبائن المتقلب، وهم مع ذلك يعنفونه، ويضـــغطون رأســـه بالأحذيـــة الثقـــيلة، ويفقـــد ما تبقى من عطف شعبه، فالفلســـطينيون يديرون له الظهور ويعدونه شريكاً جنائياً فى مذابح شارون، ويقصـــفون قلب إسرائيل بقنابل الرعب البشرية، وكل قنبلة بشرية فلسطينية تنفجر فى رأس شارون، تنفجر فى رأس عرفات، ومن حوله ملوك ورؤساء وأمراء النهاية العرب.

نعـــم، لا تـــبدو أحوالنا مما يسر، ولا صمتنا مما يرضى، لكنه الهدوء الـــذى يسبق العواصف، والعجز الذى يسبق الإعجاز، فالدم الفلسطينى يحيى مواتنا ويعجل بيوم القيامة.

إشارات

* خـــيل نابليون داست مصاحف الأزهر، وتصريحات الشيخ طنطاوى تدوس كرامة الأزهر.

* كفـــى إطلاقـــاً لنيران الأقلام على عاطف عبيد رئيس الوزراء، فهو مجرد موظف كبير فى ديوان الظلم.

* رئـــيس تحريـــر صحيفة قاهرية كتب بلاغ تحريض للسلطات ضد "العربى" ظهر فى نشرة حزبية بتوقيع سيدة مغمورة، ملحوظة: السيدة إياها من كراكيب اليسار إياه.

٢٧ يناير ٢٠٠٢

على حافة المحرقة

دعك من حكاية قطار الصعيد المحترق، فالذى احترق هو مصر، والجثث المتفحمة مفقودة الملامح هى مصر فى مرايا اللحظة البائسة، مصر التى طمسوا وجهها، وقصوا لسانها، وقطعوا يدها، ويجلسون على قلبها لـ "طالون".

وليس من باب المصادفة أن يحترق قطار الصعيد، وأن تنهار عمارات دمياط والمنصورة، وأن يسقط ضحايا الموت على الأسفلت، كل هذا فى أسبوع، وكأنها حرب منظمة لإبادة الشعب المصرى، أو لتحقيق هدف خفض النسل الذى قصرت فى بلوغه برامج تنظيم الأسرة، فهذه حكومة كوارث بامتياز، وهذه أصدق إنجازات العهد السعيد البليد، هذه هى الإنجازات التى لن يرد ذكرها فى خطابات الرئاسة، ولا فى بيانات الحكومة، ولا فى مطولات النفاق الصحفى، ولا فى برامج "الهنك والرنك" التى نؤكد بها على دوام التفوق والسيادة والريادة التليفزيونية، فلن نطالع وجوه الشهداء، ولن نبكى عند أقدامهم، ولن نسألهم عن آخر حسرة ماتوا بها كمدا، فقد عاشوا فى البؤس ودفنوا فيه، تحول الدم إلى ماء عطن، والقلوب إلى كومة تراب، والشرايين إلى حبال من ليف، والأصابع إلى أقلام من فحم، وانفكت الأسماء عن الأجساد، وانفصلت المعانى عن المبانى، وضاعت الحقائق فى خبر المبنى للمجهول، هم شهداء، نعم، شهداء بحتف الأنف، شهداء بلا شهود، شهداء بلا اختيار، فشرف الشهادة وقدسيتها فى الموت الاختيارى النبيل، ولو سألناهم لقالوا: لا نريد الموت، ربما لأنهم عاشوه مثنى وثلاث ورباع وعشرات من السنوات، عاشوه وهم على قيد دفاتر السجل المدنى، انتقلوا من الموت إلى الموت، من الموت بالدهس إلى الموت بالحرق، عاشوا بالتجاهل وماتوا فى المجهول وتعامل معهم العهد السعيد كأنهم أطلال من النفايات، بقايا من البقايا، كسرات موائد لا بأس أن

تذهـب إلى أقرب مقابر المهملات، وكومة جثث توارى التراب فى هدوء، فلا داعى للحزن، ولا لعتاب الأقدار، ولا حتى لأسئلة الاستفهام المعلقة على الـرؤوس كطـيور الصدى، لا داعى للسؤال عن الرقم الحقيقى للضحايا أو الشهداء، وهم أضعاف أضعاف الرقم المعلن، ولا داعى للسؤال عن السبب، فكل إلى ساعة هو ملاقيها غدراً أو عفواً، لا داعى للتدقيق فى سيناريوهات الحـريق العبـثى، حدثوك عن أنبوبة البوتاجاز، وانتهوا – مع تقرير لجنة الأكابر الهندسية – لاتهام "وابور الجاز"، ونجت كابلات الكهرباء بقدرة قادر مـن المسـئولية، والخلاصة: أن الضحايا احترقوا بأخطائهم، وأن الحكومة بريئة من جثث الفحم براءة الذئب من دم ابن يعقوب، والحكومة بريئة فعلاً، بريـئة مـن الاتهام بأنها حكومة من أصله، بريئة منا بقدر ما نحن متهمون فـيها، فقـد لا يسـتحق المصـريون حكومـة بهذا القدر من البؤس، لكن المصـريين هـم المسئولون عن بقاء العهد السعيد البليد، فكيفما تكونوا يول علـيكم، والذى يقبل الموت حياً لا بأس أن يعاجله الموت حرقاً، فقد تحولنا إلى أمة من جثث، أمة من ضحايا على حافة المحرقة، وهذه أنسب الظروف لبقاء حكومة "وابور الجاز" (!).

إشارات

* مبادرة الأمير عبدالله تغليف جديد لبضاعة الهوان القديمة.

* الـذى ورط ولـى العهـد السعودى فى مبادرة الاعتراف الجماعى بإسرائيل يستهدف رأس الأمير عبدالله أولاً.

* الهـدف الأول لمـبادرات السـلام – إياها – إنقاذ إسرائيل من ثأر الشهداء.

* كلما دقت ساعة الهزيمة فى "إسرائيل" انخلعت قلوب الحكام العرب، واقتربت "لحظة نهاية" لن تنجيهم منها مبادرات "الروبابيكيا السلامية"!.

٣ مارس ٢٠٠٢

أمة من الخصيان

أنـــا وأنـــت وهـــو وهـــى محض أشباح وتهيؤات منام طويل طويل، والاستشـــهاديون وحدهـــم هم الأمة فى أبلغ معانيها، أمة من بللور تستغنى بحضورها العفى الشفاف القدسى المذهل عن ركام الأموات.

٣٠٠ ملـــيون عربى ميت بامتياز، تراهم يأكلون، ويشربون، ويمشون فى الأسواق، ويملأون الشوارع كغثاء السيل، ويذهبون إلى الفراش كالبعير آخـــر الليل، أحياء كالموتى، أو موتى يقلدون تصرفات الأحياء، كائنات من ورق دشـــت، لا تكاد تسمع لأحدهم نفساً، ولا ذرة صوت، كأنهم مومياوات فى متاحف، أو شواهد حجرية فى مقبرة آثار، لا تقولوا إنها قلة الحيلة، ولا تلومـــوا الحكام الذين يغلقون الطرق، ولا تصدقوا أن إشارات المرور دائماً حمـــراء، فـــالخوف لـــيس فى بندقية عسكرى، ولا فى الهراوات. والعصى المكهـــربة، ولا هو يسكن السجون وأقسام الشرطة، الخوف أقرب من حبل الوريـــد، الخـــوف مركوز فى طبائع النفوس، الخوف فى القلب، والجبن فى الـــرأس، والصـــمت كـــالدم فى الشرايين، فنحن الأسرى بلا حراس، وبلا أسوار. ضاقت علينا الدنيا بما رحبت، وهبطنا بالسماوات إلى حافة الأرض، وانحشرنا فى خيمة الذل، وأصبح العجز خيارنا الاستراتيجى (!!).

قد نفهم أن يذل الحكام، وأن تميل الرقاب، وتندهس الرئاسات، وتتوالى المـــبادرات، ومـــا من عجب، ولو فعلوا غيرها لانكرناهم، فقد حسم الحكام اختـــيارهم، ليس هو السلام إياه بالطبع، بل سلام القصور، سلام البقاء على الكراســـى كالخشـــب المســـندة، والاحتماء ببيت الطاعة، يقال لهم اصمتوا فيصـــمتون، وتكلمـــوا فيـــتكلمون، وبادروا فيبادرون يخلعون برقع الحياء، ويخونـــون وهـــم فى كامل اليقظة والوعى، ومع سابق الإصرار والترصد، يعرفون مصالحهم كأسمائهم، ويحفظون الأبجدية عن ظهر قلب، يستعجلون

"الـــياء" قـــبل أن نـــنطق الألف، تكفيهم إشارة إصبع، أو تقطيبة جبين، فلا ينطقون عن الهوى، وإن هو إلا وحى أمريكا الموحى (!).

نعـــم، نفهم أن يهون الحكام، لكن أحداً لا يفهم أن تهون الشعوب فتهان، وأن تتحول أمة إلى قبضة رماد، وأن تحتفل بالمهانة فى قناعة الكنز الذى لا يفـــنى، وتستعذب الضعف، ونمد فى حبال الصبر، وننتظر الفرج من عوج، وندعو برجاء العفو والصلاح، بينما نغلق دوننا أبواب الصباح، ونضع بيننا وبيـــن التغيير سداً، وتغيض أشواقنا ورغباتنا كـــ "بنى آدمين"، ونتحول إلى رعايـــا وســـبايا، ونلف وندور، ونفتعل الأعذار، ونصحو وننام على صلاة القعـــود، فـــلا تصدر عنا آهة ألم، ولا صرخة احتجاج، ولا نرميهم بأحجار الغضب.

هـــل تحولنا إلى أمة من الخصيان والأغوات؟، أمة من العميان والصم والبكم؟ أمة من غبار، ربما، إلى أن نتوضأ بدم الاستشهاديين فتقوم القيامة.

إشارات

* مصر ضغطت على عرفات لاعتقال قتلة الوزير الإسرائيلى رحبعام زئيفى، ومصر قدمت لأمريكا معلومات مخابرات لا تقدر بثمن، الاعترافان للرئيس مبارك فى أحاديثه الصريحة للميديا الأمريكية (!).

* مذيـــع بتلـــيفزيون السيادة والريادة وصف زيارة مبارك بأنها توثيق للعلاقات (الأخوية) بين مصر وأمريكا، وليس لذلك سوى واحد من معنيين، فإمـــا أن أمـــريكا صارت بقدرة قادر دولة عربية، أو أن مصر تحولت إلى ولاية أمريكية، ويمكنكم الاختيار الآن على طريقه "أخونا" جورج قرداحى.

* أنـــا ضـــد استقالة عاطف عبيد رئيس الوزراء، فلا يوجد أفضل من الرجل تجسيداً بالصوت والصورة لـــ "كوارث" السياسة المصرية.

١٠ مارس ٢٠٠٢

وقت القطاف

لا تنــتظروا خــيراً من القمة العربية، فهى ليست قمة من أصله، إنها القاع بامتياز، فلم يحدث أن وصل التناقض بين الأمة وحكّامها إلى هذا الحد مــن التــناقض فى نصف القرن الأخير، وكلهم يحكمون بعصا سليمان التى أكلها النمل منذ زمن.

لا تســمعوا كلامهم، فهم لا يقولون كلاماً يفهم أو يتفهم، إنه الهذيان لا أكــثر، وجنون "الزهايمر" فى سن الشيخوخة، لا يتذكرون بل يذكر لهم، ولا يبادرون بل يؤمرون، ومبادراتهم المزعومة ليست غير تعريب باهت لنص أمــريكى باللغــة الإنجلــيزية، يقولون لك: إن السلام خيار استراتيجى ولا تعــرف عــن أى سلام يتحدثون، وهم أيضاً لا يعرفون، فهم يرددون الكلام كالببغاوات، ويتنفسون الهوان فى امتنان، يقولون لك: السلام مقابل الأرض، وتســأل: أى أرض؟، يقولون: الأرض المحتلة فى عدوان ١٩٦٧، وهو ما يعــنى – بالبداهة – قبولاً بمبادلة الأرض، بالأرض، استعادة أرض ١٩٦٧ فــى مقــابل التســليم باحتلال أبدى لأرض ١٩٤٨، وكأن حقوق الأمة غير القابلــة للتصرف بضاعة فى سوق النخاسة، وكأن كيان إسرائيل الاغتصابى ســقطت صفته الاستعمارية بتقادم الزمن، وجرب أن تجاريهم فيما يقولون، قل لهم "حسناً" من وراء قلبك، واسألهم فى براءة الأطفال، اسألهم: وماذا لو رفضــت "إسرائيل" الانسحاب طوعاً من أراضى ١٩٦٧؟، ماذا لو رفضت الانســحاب مــن غــزة والضفة والقدس والجولان ومزارع شبعا، وهى قد رفضت وترفض بطبائع الأشياء، وموازين القوى، فماذا أنتم فاعلون يا سادة ليســوا كراماً؟، لا جواب؟، بل هو الصمت الذليل، فهم لا يريدون الحرب، ولا يقــدرون علــيها، ولا يريدون حتى الاستعداد لها حين تفرض، قل لهم "حســنا" مــن وراء عقلك هذه المرة، واسألهم: فهل تقدرون – فقط – على مقاطعــة إسرائيل؟، لا جواب، بل هو الصمت الزنيم، فهم يعشقون إسرائيل

كصـــورهم فى مرايا القصور، دماء الفلسطينيين تسيل أنهاراً، وهم يفتحون السـفارات، والهمـس فـى التليفونات، وتكثيف الزيارات فى السر والعلن، يبـيعون ويشترون، تذكر - مثلاً - أن الحكومة المصرية تصدر لإسرائيل ١٤ ملـيون برميل بترول سنوياً، تذكر - فقط - أن وقود الصناعة والسلاح الإسـرائيلى يـأتى ربعــه من مصر، تذكر - فقط - أن أياديهم ملوثة بالدم الفلســطينى، تذكـر واحـزن ما شاءت لك الدموع، فإن كان ذلك بعض ما تورطــت فيه أكبر دولة عربية، فما بالك بما تورط فيه الصغار، ويحدثونك رغمهـا عن السلام الذى هو "خيار" و"استراتيجى"، وكأن لهم الخيار أو كأن لهم علاقة بالاستراتيجية من بابها وهم يعرفون الحقيقة كما نعرف، يعرفون أنه لا خيار، بل هو الإكراه بالضبط، ويتحدثون عن السلام الذى هو الهزيمة الاســتراتيجية بالضــبط، ســلام الخضوع سلام البقاء على الكراسى وعلى رقابـنا وقلوبـنا لطالون، رغمها يواصلون الهذيان، ويتوهمون أن الكلام - الـذى وضـع فـى أفواههم - قابل للتصديق، وهذا طبيعى جداً، فقد وصل التـناقض إلـى غايـته، وعجلت الانتفاضة التى تحولت إلى حرب تحرير بالاقـتراب من ساعة الحساب، ساعة تستيقظ فيها الأمة على أمل فى نصر، ويـنام فـيها الحكـام علـى وسائد الهزيمة، إنها ذات الساعة التى عصفت بالمشهد العربى قبل نصف قرن، ذات الساعة التى أطاحت بحكام العفن بعد حـرب النكـبة الأولى، ربما الفرق: أن النكبة من حظ إسرائيل هذه المرة، ومـع كـل عملـية استشـهادية فلسطينية يتحسس الإسرائيليون مؤخراتهم، ويتحسس حكامنا رؤوساً أينعت وحان وقت القطاف، إنه الإحساس الغريزى باقتراب نهاية لن تنجيهم منها مبادرات الروبابيكيا ولا قمم القاع.

إشارات

* "مصـر مـع إسـرائيل"، حليفان رئيسيان لأمريكا من خارج حلف الأطلنطى، الخبر نشرته جريدة "الأهرام" شبه الرسمية على صفحتها التاسعة يوم الأحد الماضى ١٧-٣-٢٠٠٢، ولا حاجة لتعليق.

* اقـرأوا تقريـر التزوير الأمريكى النهائى فى حادث البوينج لتعيدوا اكتشاف حقيقة أن "آخر خدمة الأمريكان علقة".

* "خرج ولم يعد"، فيلم سياسى مرشح لبطولته ياسر عرفات - لا يحيى الفخرانى هذه المرة - لو ذهب إلى قمة بيروت بإذن شارون.

* إلـــى وجوه الإسكندرية المضيئة: فيض عواطفكم الكريمة – فى لقاء سيدى جابر – دين فى عنقى إلى أن ترفع الأقلام وتطوى الصحف.

٢٤ مارس ٢٠٠٢

لا كلام ولا سلام

لا تنتظروا فعلاً ولا رد فعل من الحكام العرب، فهم جماعة من الشواذ سياسياً على طريقة تنظيمات "الشذوذ الجنسى".

لا تنتظروا خيراً من الحكام، فقد باعوا أرواحهم فى سوق النخاسة الأمريكية، كلامهم صمت، وصمتهم هوان، وقصورهم قبور، وقمتهم فى بيروت "علامة نهاية" للغائبين جسداً مع الغائبين حضوراً، قمة بيروت كانت قمة القاع، وقراراتها استقالة من التاريخ، وشهودها حفنة تراب وقبضة هواء.

وهؤلاء الحكام ليسوا أقوياء إلا بضعفنا، ولن تستطيع أمريكا ولا إسرائيل حمايتهم لو تحركنا، لو اشتعلت الأرض بالغضب الإنسانى النبيل، لو قاومنا بسن الحجر وصدور البشر، لو تظاهرنا، فلم يعد من معنى لكلام ولا لسلام، والتناقض وصل إلى ذروته، حسم الحكاء اختيارهم، أو حسم لهم، فالبقاء الذليل على الكراسى هو خيارهم الاستراتيجى، والانتفاضة الفلسطينية – بالمقابل – نذير بيوم القيامة، فهم يخافون أن تنتقل العدوى، وأن نتعلم دروس الغضب، وأن نخرج عليهم شاهرين الأرواح كالاستشهاديين، وما مبادرات الروبابيكيا السلامية إلا محاولات للالتفاف على الانتفاضة، وعلينا، فلا قيمة لهذه المبادرات فى موازين اللحظة، إنها مجرد شعارات سقيمة سخيفة، ولغة فات أوانها، وتآكلت إغراءاتها، وسقط زمانها، وهم يخافون السقوط مع اللغة المتقادمة وزمانها الهارب من جيوش التاريخ، وينطقون كلمات "السلام" و"التطبيع" كأنها الشهادتان قبل الشهقة الأخيرة، ويتعلقون بأذيال ماما أمريكا، يتوسلون ويستعطفون، فلا يتلقون إلا الصفعات، وليس بوسعهم أن يبكوا، فهم من كائنات "الروبوت" بلا مشاعر وبلا أعصاب وبلا دموع، ولا بوسعهم أن يغضبوا، فالغضب يأخذهم إلى النهاية رأساً، ويعجل بساعة الحساب، والبديل: أن يواصلوا قهرنا ونهبنا

علهم يعلموننا الهوان بالنسيان، ويتكئون إلى حائط صمتنا المائل، فالوطن العربى على الخرائط يبدو كأنه "الربع الخالى" مجرد فراغ جغرافى يخلو من حس بالتاريخ، ويخلو من صخب وأشواق البشر، أو قل: كأنه لا بشر من أصله، ولا نفس من غضب.

نعم، لا أمل إلا أن يتحرك الشارع، لا أمل إلا أن تقوم قيامة الغضب، لا أمل إلا أن ننتفض كما انتفض الفلسطينيون، ولا قيمة لألف بيان ولا لمليون اجتماع فى غرف مغلقة، فمظاهرة من عشرة أشخاص أفضل من برامج مئة حزب، والكلمة الآن للناس، الكلمة لمصر أولاً، الكلمة لمصر التى تداس بأحذية الأمريكان ودنس الإسرائيليين وجثث الحكام، الكلمة للشعب القادر على الخروج فى مظاهرة مليونية تتنفس هواء الكرامة النقى وتهوى بعروش العفن.

نعم: اغضبوا الآن، أو اشبعوا موتاً.

إشارات

* آيات الأخرس – بطلة عملية القدس الاستشهادية – آية غضب لأمة الخرس.

* لو كانت آيات ابنتى أو ابنتك لكنا فى مقام الأنبياء.

* أتعاطف مع ياسر عرفات – رغم ركام أخطائه – فى لحظة الخطر، ولو استشهد الرجل لتحول إلى أسطورة.

* شارون أسير شارون.. وأسير الانتفاضة أيضاً.

* هى مصادفة بليغة أن يذهب رئيس الوزراء عاطف عبيد لتمثيل مصر فى قمة بيروت، فليس أفضل من الرجل تجسيداً بالصوت والصورة لكوارث وهوان السياسة المصرية.

* كمال الشاذلى عنوان لسياسة مصابة بانتفاخ البطن.

٣١ مارس ٢٠٠٢

أول الدم

لن يكون استشهاد رمز الغضب المصرى محمد السقا هو آخر الدم، ولا سحل القيادى الناصرى كمال أبو عيطة هو آخرة عنف جهول صدرت به الأوامر من مستويات أعلى وأجهل.

إنها بالكاد افتتاحية غضب يتحول إلى انتفاضة وعى تفتح البصائر على المصائر، فالذى يغتصب السلطة كالذى يغتصب الأرض، وشارون الذى هناك أخو شارون الذى هنا، وشهداء الدم الفلسطينى إخوة لشهداء الدم المصرى، فلحمهم من لحمنا والعظام من العظام على حد التعبير الجميل المؤثر لقداسة البابا شنودة بطريرك الوطنية المصرية، والمعركة واحدة تسمع طلقاتها هنا وهناك، وأشواق فلسطين هى أحلام مصر، وحرية مصر صنو لتحرير فلسطين، وانتفاضة التحرير الفلسطينى تدق نواقيسها فى قلب مصر، وتوقظ أهلها من نومة أهل الكهف، وتستعيد الروح، وتعجل بانتفاضة مصرية تزيح ركام الخطايا فى الاختيارات والسياسة.

نعم، ليست مصادفة أن غضب الشعب المصرى الفلسطينى تحول إلى غضب لمصر، وفجر سجالاً هو الأعنف ضد اختيارات العار الموروثة عن السادات، فكامب ديفيد لم تكن معاهدة تنهى حرباً وتحل السلام، بل كانت وقفاً لحرب ضد إسرائيل، واستئنافاً للحرب ضد مصر، أعادت سيناء فى الظاهر إلى مصر مقابل وضع القاهرة تحت احتلال من الباطن، أعادت سيناء منزوعة السلاح فى أغلبها مقابل رهن مصر فى سوق السلاح، والعجز الذى يشعر به أهل الحكم هو الحصاد المر لاحتلال قرارنا السياسى والاقتصادى والثقافى، لم تعد سياستنا تصنع فى القاهرة، بل تنتظر الأوامر من واشنطن، ولم يعد اختيارنا الاقتصادى مشفوعاً باعتبارات النهضة وأولويات العدالة، بل تحولنا إلى "مريض اقتصادى" ينتظر دائماً روشتات الصندوق والبنك الدوليين، ولم يعد لنا اختيار ثقافى من أصله، وتحولت

الحكايـــة كلهـــا إلـــى مهـــرجانات وحلقات زار لجماعات الشذوذ الثقافى، وبالجملـــة: تداعـــى استقلال مصر الوطنى، وتعرضت بلادنا لإيدز سياسى وانكشـــاف مريع، واكتشفنا عند لحظة الخطر أننا فى خبر كان، وأن شرف مصر ضاع فى حادث اغتصاب للتاريخ، وأن أوراق التوت لم تعد تستر ولا تـــزيغ العيـــن، وأننا ضحية قهر مزدوج، قهر الأجانب الذين اخترقونا حتى الـــنخاع، وقهر الفساد المحلى الذى يحكمنا فى الحرام الدستورى، فلا توجد مؤسســـة واحـــدة فى مصر منتخبة على نحو شرعى، والدستور فى إجازة طويلة، وقانون الطوارئ والتعذيب والتطليش هو الحاكم بأمره، وهى أسباب تكفـــى لنفى شرعية ألف نظام حكم، والجديد مع انتفاضة فلسطين أننا نغادر ملاجئ الصمت، ونخرج من تحت الأرض إلى خيمة الشمس، ونكتشف أننا صـــبرنا علـــى مـــا لا يطـــاق احتماله، وأن التغيير هو منتهى الحق وأول الواجـــب، التغيـــير بالغضب السلمى الجامح، التغيير بقوة الناس لحكم يستند فقط إلى عنف الحراس.

نعم مصر فى احتياج إلى ثورة تحرير، وغضب الناس هو أول الغيث، ودم الشهيد محمد السقا أول البشارة.

إشارات

* كمال أبو عيطة.. أبانا الذى فى ملكوت الغضب.

* عملـــية القـــدس الاستشهادية أفضل رد على بذاءات شارون وتابعه كولين باول.

* أحمد ماهر – وزير الخارجية – ذهب ضاغطاً على الرئيس عرفات بتأشيرة إسرائيل، وأدان العمليات الاستشهادية بالتأشيرة الأمريكية.

* سؤال: أيهما أطول.. إقرار الذمة المالية لإبراهيم سعده أم مقاله على ثلاث صفحات بـــ "أخبار اليوم"؟!

١٤ أبريل ٢٠٠٢

راعى بقر

قلـــة أدب بـــوش هى الدليل الأعظم على انحطاط أمريكا، وتحولها إلى بلطجـــى فقد عقله، فشخص مثل بوش لا يصلح رئيساً لبلاد تركب الأفيال، وإن كـــان يصلح راعياً لـــ "بقر" هم السادة الحكام العرب الذين ليسوا كراماً ولا آدميين من أصله.

فقـــد تجاوز الرئيس الأمريكى بوش كل حد مقبول أو معقول فى طريقة خطابـــه للعـــرب، وصـــار يتصرف كأنه إله، يحيى ويميت، ويأمر وينهى، ويفتى فى شئون الإسلام والمسلمين، وهو الجاهل بكل دين وشرع، والجهول فـــى كـــل سياسة، بل إن طريقة نطقه للكلمات تدل على خبل ظاهر وغباء قاهر.

السيد بوش يريد من الحكام العرب إصدار بيان جماعى بإدانة العمليات الاستشـــهادية، ولا ينســـى أن يحـــدد أسماء الدول والحكام الذين يتوجه لهم بالخطاب، وكأنه ينادى عليهم فى سوق "الكانتو"، ويضع الحذاء فى حلوقهم، ولا يتيح لهم فرصة تنفيذ الأوامر على طريقتهم، بل يتطوع بتحديد الطريقة، ويملـــى علـــيهم الكلمـــات التى قدمها له مستشاروه اليهود، يقول لهم: قولوا ورائـــى مـــا يلى بالنص، قولوا إن الاستشهاديين قتلة، وأن كل أنثى أو ذكر يقدم على عملية استشهادية ليس "شهيداً" بل مجرد قاتل، وهكذا ينصب السيد بـــوش نفسه مفتياً للديار وإماما لمكة وشيخاً للجامع الأزهر وأية عظمى لله فـــى "قـــم" مـــرة واحدة، ويحتكر لنفسه رخصة فرز الحلال من الحرام فى الإسلام، وهو المسيحى الذى يعرف بالكاد صورة السيد المسيح، ولا يعرف عـــن الإسلام سوى اسمه، ولن نعجب لو زاد بوش فى تطاوله، وطلب إلى حكامـــنا أن يأتمـــروا بما هو أعجب وأنكى، كأن يصدر لهم مصحفاً مزوراً يطلـــب الالتزام برجسه، أو كان يطلب تغيير قبلة المسلمين، أو التوقف عن صـــوم رمضـــان، أو اختصار عدد صلوات المسلمين من خمس مرات فى

الـــيوم إلـــى مرة، أو التوقف عن الصلاة كلياً، وربما تكون حجته وقتها أن الصلاة لله تلهى عن التسبيح لأمريكا!!.

نعلـــم أن جهالة بوش ليست وحدها الدافع وراء تماديه فى الخبل، فمن تهـــون علـــيه نفســـه يهون على الناس جميعاً. ومن يول وجهه شطر القبلة السياســـية فـــى البيت الأبيض يفقد عملياً إيمانه الدينى بقبلة المسلمين، ومن يـــرى الـــدم الفلســـطينى يسيل أنهاراً، فلا يفعل غير أن يغلق عينيه حتى لا يـــرى، فهـــو أثـــم القلب حتى لو تظاهر بأغلظ الإيمان، وهذه حال حكامنا للأســـف، الحـــال الـــتى تغرى أمثال بوش بقلة الذوق وقلة الأدب، ووصف الاستشهاديين بالقتلة والإرهابيين، بينما لا تعرف الدنيا كلها إرهابياً أسوأ من بـــوش مع سابقيه ولاحقيه فى البيت الأبيض، وبينما ظفر أى استشهادى أو استشـــهادية برقـــبة ألـــف بوش وبرقاب مليون "بقرة" فى قطيعه.. من عينة حكامنا العرب.

إشارات

* تحذيـــر: لا تتفاعلوا بموقف حاكم فى وضع "الركع السجود" لشارون وتابعيه بإحسان فى البيت الأبيض.

* وســـام: محمـــد العبيســـى – أول شـــهداء المصريين فى الانتفاضة الفلسطينية – هو الممثل الشرعى الوحيد للشعب المصرى.

* اعتراف: إبراهيم سعدة فى آخر عدد من "أخبار اليوم" قال بالحرف: "لا أفـــتى فيما لا دراية لى به"، الموضوع: معاهدة الدفاع العربى المشترك، المفارقـــة: أن ســـعدة ملأ ثلاث صفحات عن المعاهدة ذاتها فى عدد "أخبار اليوم" الأسبق بـــ "ركام فتاوى" عاد ليعترف بأنها كانت كلام الذى لا يدرى (!).

* سؤال: هل تم تكليف "جماعة الإخوان" "أمنياً" بمنع خروج مظاهرات الغضب من الجامع الأزهر؟.

* قرف: تعقيب السفارة الأمريكية على دهس رجلها العسكرى الغامض لطبيب مصرى شاب أشبه بردود هيئة المجارى التى تنكر فى العادة علاقتها بانفجار مواسير الصرف الصحى!.

٢١ أبريل ٢٠٠٢

فساد فى الرأس

أثـق فى النزاهة الشخصية للسيد النائب العام، لكنه فى البدء والمنتهى رجـل شـريف يتصـور أنـه دخل حرباً مقدسة ضد الفساد، ويخرج من الأضـابير المتربة قرارات اتهام يقدمها للقضاء، ويغالى البعض فيصور أننا فـى موسم لصيد الحيتان، بينما المتهمون على الأغلب من نوع "البيساريا"، وإن كان بعضهم يشبه الحيتان، وأرقام الرشاوى والمخالفات مروعة، وتقادم العهـد علـيها مقبض للنفوس، ويصير ألف سؤال وسؤال مع الوجود النشط للهيـئات الرقابـية وانتظام تقاريرها، لكن المحصلة تبدو بليغة المغزى، فلا يقـدم للمحاكمـة سوى "أكباش فداء"، وضحايا لا أضحيات، وفى غير عيد، والهـدف: مـزيد من التواطؤ على فساد الكبار ومد الأجل لسلطات الثروة الحـرام، وقـد كـان ملفتاً أن القاضى فى محاكمة "قطار الصعيد المحترق" خرج عن هدوئه واقتضابه المعهود، ووجه اتهاماً مباشراً بالمسئولية لرئيس هيـئة السـكك الحديدية السابق ونائبه، ولم يكن الرئيس والنائب مع غيرها سوى شهود طلبوا فى الدعوى، ولم ترد أسماؤهم ولا اسم وزيرهم فى لائحة الاتهـام، والسـيد القاضى يعرف، لكن ضميره لا يحتمل - فيما يبدو - أن يـبقى بعـض صـغار الكبار خارج قفص الاتهام، وأن يمضى فى محاكمة وعقـاب الموظفين الصغار المساكين وحدهم، والقاضى - فيما نظن - يملك أن يوقـف سـير الدعوى ويطلب إعادة التحقيق، وربما يفعل، المهم - فى السـكة الحديـد وغـيرها - أن الكبار فى "الفرقة الناجية" دائماً، وحتى فى قضـية شـخص كالدكتور أسامة عبد الوهاب المتهم الأول فى قضية فساد المسـبوكات، تجـد أن عبد الوهاب يشبه الحوت بركام التهم المنسوبة إليه، لكـنك لا تجـد فى الأوراق ذكراً للحيتان الكبار من رتبة الوزراء ورؤساء الـوزارات، وهكذا فى كل عنوان، حتى فى فضائح الفياجرا، لا تعلو العين علـى الحاجـب، ولا النائم على الراكب، ويسلم "القرف الرفيع" من الأذى،

صـــدر القرار المريب بمنع إنتاج وتداول الفياجرا لسنوات، وتكدست ثروات الفياجرا الحرام، وظهر أن قضايا ضبط تهريب الفياجرا كلها ذرَ للرماد فى عــيون الحساد، وبشرتنا جريدة "الأهرام" شبه الرسمية أمس – وفيما أسمته انفــرداً صحفياً – أن "مليماً واحداً لم يدخل خزانة الدولة" من الملايين التى قيل إنها فرضت ثمناً للتصالح مع كبار المهربين، ولا تسأل عن السبب الذى هــو أبطل من العجب، يكفى أن تنظر حولك، ودعك من التفاصيل المسكونة بشــياطين الهــوى، فالفساد فى مصر ليس مجرد تفاصيل ولا حكايات قبل الــنوم، ولا هــو مجــرد انحــراف أشخاص، ولا محض ظاهرة توحشت بالطناش، ولا هو نظام مواز لنظام يحكم بالقانون وصحيح الدستور، فالفساد هــو المؤسسة الحاكمة بالضبط، مؤسسة أشبه بعائلة مافيا وعصابة إرهاب، مؤسسة لها قانون خاص وقواعد لعب، والخارج عن القواعد مفقود، والداخل فــيها مولــود عفى يزاحم على الكعكة، والتصفيات الدورية واردة، ونوبات الغسيل معلقة على المشاجب، ويخطئ الكبار لو تصوروا أن "نوبات الغسيل" تخــزى العيــن، أو أنهــا توحى بتنظيف بقع سوداء فى الثوب الأبيض، فلا شــىء أبــيض هنالك، وعلم الفساد أسود كما علم الجماجم، فالفساد ليس فى الــثروات الحــرام وحدهــا، الفساد فى السياسات والاختيارات من الأصل، الفســاد فى مؤسسة كنبات الهيدرا فى الأسطورة الإغريقية، كلما قطعوا لها ذراعاً ظهرت بديلاً لها ألف ذراع.

باختصار: الفساد فى الراس قبل الكراس.

إشارات

* ليس عندى سبب واحد للإعجاب بتاريخ سعيد عبد الخالق ولا بذوقه المهــنى، ومع ذلك أدافع عن حريته – وحرية الزميل وليد الدرمللى – لأنها حــرية الصــحافة، المناســبة: ضجة لا معنى لها بعد نشر صورة السادات مغتالاً.

* كلمــا هــوى توزيع "روز اليوسف" هوى رئيسها محمد عبد المنعم بمطارق التنكيل على رؤوس كتابها وصحفييها الأكثر كفاءة ورفضاً لسياسة تحرير عنوانها "الاحتلال التطبيعى".

* أخشــى أن السياسة الرسمية تبحث عن دور لا يليق بمصر فى لعبة واشنطن الفلسطينية.

* د. أســـامة الـــباز – مستشار الرئيس مبارك – التقى شارون وبيريز تطبيقاً لقرار وقف الاتصالات السياسية مع إسرائيل!.
* آآآآه.. من طعنة الغدر فى كبد الصديق.

٢ يونيو ٢٠٠٢

بنصف جنيه!

نظـــن أنه لا يليق بمصر أن تتحول إلى "سفرجى" على موائد شارون، وأن ينحصـــر دورهـــا فى تلبية الطلبات وإعداد الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين وتسليك زور السيد شارون تسهيلاً لمهمته فى ابتلاع ما تبقى من الحق الفلسطينى بالسم الهارى.

ومـــن العبـــث أن يقال إن ثمة مبادرة أو اقتراحات مصرية ذهبت إلى واشـــنطن، فليس فى المطروح شيء مصرى على الإطلاق، كل المطلوب: دور مصر بعينه، استعادة لدور الوسيط الضاغط على الفلسطينيين لقبول ما لا يقـــبل، ولـــيس فـــى الحكايـــة سر واحد، فاللعب يجرى على المكشوف، والهـــدف: تجديـــد نصف أوسلو الأول، ونسيان الباقى، ووضع العربة أمام الحصـــان، بل وربما ترك الحصان وحيداً لمصائره التى قدروا أنها بائسة، العـــنوان: دولـــة فلســـطينية منزوعة السلاح والسيادة على ٤٢% من غزة والضفة الغربية، وتذكر أن هذا – وبالنص – هو اقتراح شارون حين صعد لحكـــم إسرائيل، وما يحدث حالياً هو مجرد "تعريب" لنص شارون العبرى، أضـــف: أنهـــا نفس قصة اتفاقات أوسلو وأخواتها وخالاتها وعماتها، قصة مـــنطوقها: خذ الفتات وانتظر الباقى إلى يوم القيامة، وقد سقط خداع أوسلو بـــدم الانتفاضة، وطلق الشعب الفلسطينى أوسلو مرتين، وثلاثا، وقع الطلاق البائـــن، والحـــل: إيجـــاد "محلل عربى" – يبدو شرعياً – يمهد لإعادة عقد القـــرآن، وتـــزويج شـــارون من أوسلو فلسطينية تستدعى من القبور، ومن المؤســـف أن تـــتقدم مصـــر للعب دور المحلل غير الشرعى، وأن تزعق الأبواق بأحاديث ملوثة عن مبادرة مصرية، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا، وكـــان القـــدر الـــذى كُتب علينا أن ندخل دائماً من باب الخدم، ولن يجدى الـــتظاهر بغـــير الحقـــائق الـــناطقة، فقد طلب من مصر الرسمية أن تدين العملـــيات الاستشـــهادية وجرت الاستجابة للأمر الأمريكى الإلهى بالنص،

فإدانة العمليات الاستشهادية مصرياً تتواتر كأنها الفرض والسنة، ولا يتخلف الحكم وصحفه عن طقوس الإدانة بانتظام وفى مواقيت الصلوات الخمس، وبالمقابل تبدو الإدانة خجولة خافتة باطراد لوحشية جيش الاحتلال الإسرائيلى، وهذا هو ما يطلبه شارون بالضبط، أن تبدو المشكلة كلها فى العمليات الاستشهادية التى تخلع بالرعب قلوب الإسرائيليين، وألا يبقى من ملجأ سوى ما يعرضه من فتات لبؤساء فلسطين التائبين عن ذنب الانتفاضة، هذه بضاعة شارون التى تقدم لنا الآن فى تغليف مصرى: والمفارقة: فى رداءة التغليف على عادة الصناعة التيك أواى، يقولون لك: نريد إعلان دولة فلسطينية فى بداية العام المقبل، تقول لهم: حسناً.. وماذا عن الحدود والقدس واللاجئين والمستوطنات وهلم جرا؟، يقولون لك: سوف يجرى التفاوض فى برنامج زمنى يمتد لسنوات، تقول لهم: وما هى الضمانة لأن تلتزم إسرائيل وقد ضربت عرض الحائط بمواعيد أوسلو؟، يقولون لك: لا بأس بالتفاوض فهو خير من الانتفاض، وهنا مربط الفرس، فهم يريدون خلع المقاومة وهى الوتد الباقى لخيمة الكرامة العربية، يريدون خلع الخيمة ونصب الخيبة!.

إشارات

* لا تعليق: رشوة ماهر الجندى حلال بنص الحكم القضائى وفتوى دار الإفتاء المصرية (!).

* لا تعليق: متر الوطن بنصف جنيه فى بورصة حكومة عاطف عبيد (!).

* لا تعليق: عرفات رسم بأصابعه "علامة النصر" بعد عجزه عن تنفيذ قرار المحكمة الفلسطينية بالإفراج عن المناضل أحمد سعدات المنتصر بحق و"حقيق" (!).

* تعليق آخر: المرأة التى تأسر قلب رجل يغار من ظلها القمر.

٩ يونيو ٢٠٠٢

ملك الغابة

بعـــد ٥٠ سنة على الثورة ونهاية الملكية يحق لنا أن نتساءل: هل زال حقـــاً خطر عودة الحكم الوراثى فى مصر؟، لا يبدو الجواب مطمئناً، وثمة ظواهـــر توحـــى بالخطـــر، وسيناريوهات مقلقة تدور فى أوساط جماعات البيزنس وقيادة الحزب المسمى حاكماً، نعرف أن الرئيس مبارك نفى – فى غـــير مـــرة – أن يكون هناك اتجاه لدور سياسى محورى لابنه جمال، وإن كان الجواب النهائى لا يزال معلقاً إلى الآن.

وقـــد لا نعترض على دور سياسى لجمال مبارك كمواطن مصرى قبل أن يكون ابناً للرئيس، الشرط: أن يكون الدور ذاته متاحاً لعموم المصريين، وأن تـــتوافر الفـــرص متكافئة بعيداً عن خرافات البيوتات وألوان الدم، ولا يـــزعم أحـــد – عـــاقل طبعاً – أن الأدوار متاحة والفرص متكافئة، ولا أن الســـباق السياســـى – ولا الاقتصـــادى – طليق من قيود وأصفاد ضاغطة للأيدى خانقة للأفواه، فمن حق جمال مبارك – عضو الأمانة العامة للحزب الوطـــنى – أن يســـعى لموقع الأمين العام كما تكهنت بعض الصحف، قبلها نتصور أن يتحول الحزب الوطنى إلى حزب أولاً، لا أن يبقى كما هو مجرد إدارة تســـلط تحـــتمى بســـلطان الرئيس، وأن يترك الرئيس مبارك منصب رئاســـة الحـــزب، وأن تطلق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف، وأن يـــرد الاعتبار للدستور الغائب فى إجازة طويلة، وأن يجرى تعديله وتخفيف صـــلاحيات الرئاســـة، وأن تجـــرى انـــتخابات رئاسية يتقدم لها كل راغب يتصور فى نفسه القدرة على حيازة الثقة، وأن يجرى فحص قضائى مستقل لذمم المرشحين فى الانتخابات الرئاسية والنيابية والمحلية، ولا نتصور وقتها أن الســـيد جمـــال مبارك سوف يواصل الطريق إلى آخره، ربما السبب: أن الحـــزب الوطـــنى سيختفى وبدون احتياج لجرة قلم، وسوف تنشأ – أحزاب حقيقـــية – لا ديكورية – ترسم خريطة التفاعلات المصرية على نحو أكثر أمانـــة وتلقائية، فليست المشكلة – إذن – فى طموح السيد جمال مبارك، ولا

الحــل فى ترقب موازين المحبذين والمعارضين، فالمسألة أكبر من بالونات الاختــبار وترتيــبات الكوالــيس، ومصر - على ما يبدو على ظاهرها من ركود بليد - فى أزمة مستحكمة تطلب الحل، وليس ممكناً أن نواصل إلى ما لا نهاية لعبة الأقنعة الهزلية، يتحدثون عن أزهى عصور الديمقراطية، بينما الانــتخابات تزور بانتظام، وبينما إرادة الناس فى الأسر، وبينما فى سجون مصــر أكــبر عــدد مــن المعتقلين فى المنطقة كلها، ويتحدثون عن حرية الصحافة والكلام، بينما شرف الكلمة يجرى تلويثه إلى حد التعهير الجماعى، ويــتحدثون عــن نهضة اقتصاد لا يغلبها غلاب، بينما معدلات النمو تهوى حثيــثا إلى حد الصفر، وبينما البطالة صارت خبز شباب المصريين، وبينما الفســاد يتوحش ويصبح ملك الغابة، وبينما يدور المشهد التالى تحت قبة ما يمســونه "مجلــس الشعب"، النائب زكريا عزمى - رئيس ديوان الرئاسة - يسأل د. عاطف عبيد رئيس الوزراء عن مصير ١٥ مليار جنيه ضاعت من قــروض البنوك لرجال الأعمال، ويرد عبيد في لامبالاة "الرقم ليس مخيفا"، وكــان الملــيارات صارت مليمات تسقط سهواً من خرم جيب السيد رئيس الوزراء(!).

تحدثــوا - إذن - ما شئتم عن مهازل الملك فاروق وقصوره، وقد كان بــالفعل "ملك الكوتشينة"، وملك العجز الجنسى والسياسى، لكن فاروق يبدو مــثالاً هــزيلاً لــو قورن برجل بيزنس من زماننا، فما بالك بأمراء ممالك البــيزنس وحملــة المفاتــيح، هذا هو نذير الخطر الحقيقى، وهذا هو صلب الــتحول الردىء للمعنى الجمهورى فى حياتنا إلى ملكية مقنعة، ونخشى أن اعتياد الأقنعة قد يشجع على السفور.

إشارات

* أطلقــوا ســراح المهــندس على عبد الفتاح ورفاقه سجناء انتفاضة الإسكندرية، نداء لا أتوجه به لأحد سوى الضمير الوطنى.

* "قطــر الندى" مجلة أطفال مصرية لها هوى فلسطينى، ترقبوا حادث اغتيالها قريباً.

* لا أعــرف مــن أيــن يأتى المنافق بمداد كلماته.. ربما من مواسير الصرف الصحى.

١٦ يونيو ٢٠٠٥

زواج بالإكراه

لا تنظر فوقك فى غضب، ولا تأخذ زفيراً بأعلى ما فى عزمك وتبصق على صور كل الحكام العرب فى كل الصحف والتليفزيونات، فقد رأيت لك حلماً يفك عقدتى وعقدتك، ويخلصنا من بلاويهم بأسهل طريقة، وما عليك إلا أن تفعل مثلى، وتستلقى على ظهرك فى سنة نوم تقوم بعدها القيامة.

فقد رأيت فيما يرى النائم أن الحكام العرب تنادوا إلى قمة جماعية طارئة، ولم يستمر الاجتماع سوى خمس دقائق. وأصدروا. على غير العادة - قراراً مشفوعاً بالتنفيذ الفورى حال وصول أصحاب الفخامة والجلالة والسمو والعظمة إلى عواصمهم، القرار من سطر واحد يقول "تعلن التنحى وتدعو الشعوب لانتخابات عامة تختار فيها ممثليها"، وفى التفاصيل: تتحول الملكيات العضود إلى ملكيات دستورية، وتستعيد الجمهوريات معناها الجمهورى الرئاسى أو البرلمانى، وتطلق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف، ويجرى الفصل بين السلطات، وينفذ قانون من أين لك هذا؟، وتصادر الثروات الحرام، ويتساوى ابن الوزير مع ابن الغفير، وابن الرئيس مع ابن البواب، وتنتزع الحكومات وصايتها عن وسائل الإعلام، وتتوقف الحروب العبثية بين الإسلاميين والعلمانيين، ويطلق سراح المسجونين والمعتقلين السياسيين، ويلغى القضاء الاستثنائى، ويكفل لكل مواطن حق اللجوء والمحاكمة أمام قاضيه الطبيعى، وكل هذه التدابير والقرارات لا تلزمها سوى جرة قلم من الحكام، ولحظة إخلاص يرضى فيها كل حاكم بما حكم، وبعض حكامنا - ما شاء الله - ظلوا فى السلطة لأكثر من ثلاثين سنة، دخلوها شباباً أجيالا وراء أجيال لا تعرف الفرق بين اسم الرئيس واسم الوطن.

هل يمكن أن يتحقق مثل هذا الحلم؟، وهو فى أوطان كثيرة من عالمنا ليس حلماً من أصله، بل أسلوب حياة مألوف ومستقر، هل يمكن أن يعامل

العــرب مــن الحكــام – ولو مرة – كمواطنين لا كرعايا وسبايا، دعونا لا نــتورط فى الجواب بالإيجاب حتى لا نتهم بالجنون، مع أن ما تقدم هو قمة العقل، وهو الموقف الوحيد الذى يقلب الموائد فى المنطقة على رأس أمريكا وإســرائيل، ويطلق طاقات الشعوب لمواجهة خطر يدهس أصحاب الكراسى المسنودة على عصا أكلها النمل.

نعــم، يمكــن أن يتحقق الحلم بشرط ألا نحلم، فالأحلام تفقد ألقها ما لم تــتحول إلى أهداف فى التاريخ والجغرافيا، والأحلام تفقد إلهامها لو سكنت فى غرف النوم، والمطلوب: أن نحلم بعيون مفتوحة، وأن نستيقظ من نومة أهــل الكهــف، وأن نثبــت – ولو مرة – أننا جديرون بنعمة أن خلقنا الله آدميين، نسمع ونحس، نحب ونكره، ونعقل ونثور، وتلتهب أعصابنا، وتتشق حــناجرنا، وتــتحرك أياديــنا، فليست المصيبة فى خطة بوش ولا فى ألف شارون.

المصــيبة الأعظــم فى حكامنا الذين حولوا قوتنا ضعفاً، وذهبنا تراباً، وريحنا بدداً، وجعلونا كالعصف المأكول، وقد لا يفيد أن نبصق على صور الحكام، ولا أن نلعنهم فى السر من وراء جدران الخوف، فلا أقل من "خطة خلع" ننهى بها زواج الغصب، لا أقل من "خطة خلع" ينتقل بعدها الحكام من قصور الرئاسة إلى ظهر حمار يركبونه بالمقلوب فى تشريفة "التجريسة".

إشارات

* الحكــام العرب هم الاستثناء الفريد على قاعدة تقول إن الإنسان هو الحيوان "الناطق".

* نعــارض سياسة الرئيس عرفات، ونرفض خطة خلعه على الطريقة الأمريكية، فسياسة "الانخلاع" هى التى تسهل خطة "الخلع".

* ربمــا لا يوجــد ولــد يطيع أباه كطاعة "بوش الابن" لشارون والده الروحى.

* توقعــوا عاصفة كسر أقلام للقلة المحترمة فى الصحف القومية بعد أوامر بوش للحكام بمنع التحريض على المقاومة فى الإعلام الرسمى.

* تزويــر انــتخابات "دائرة الرمل" جعل دعاوى الديمقراطية بيوتاً من الرمل.

* إن لـــم تكـــن مستعداً للذهاب إلى "خط النهاية" فلا تمش فى الطريق العام.

٣٠ يونيو ٢٠٠٢

وثائق محجوبة

هــل أخطأ الأستاذ هيكل بحديثه عن رسالة سرية من الرئيس السادات إلى الرئيس الأمريكى كارتر مؤخرة فى ١٧ ديسمبر ١٩٧٨؟، وهل صحيح أنــه ليســت هناك وثائق سرية فى كامب ديفيد، وهل صحيح أن السادات لم يــتعهد أبداً بدور أمنى مصرى فى سياق تسويات كانت مطروحة وتتجدد – لغزة والضفة الغربية؟

الرئيس مبارك – فى حديثه الأخير لإبراهيم نافع – وصف حديث هيكل بأنه نوع من "التشويش" ونفى أن يكون الرئيس السادات تعهد بإرسال قوات أمــن مصــرية فى الضفة وغزة عند الحاجة، ونفى الرئيس – أيضاً – أن تكــون هــناك وثائق محجوبة فى اتفاقات كامب ديفيد، ويلفت النظر إلى أن الرئــيس أكد أنه اطلع على "غالبية" الوثائق، ولا يبدو أن تعبير "غالبية" ورد كخطــأ مطــبعى، والأغلب أنه جاء من باب التحفظ وتحرى الدقة، فالرئيس بحكــم صــلاحياته الواسعة – وقد كان نائباً للرئيس السادات – بوسعه ومن واجــبه الإطلاع على جميع الوثائق، وهذه نقطة جديرة بتوقف ونقاش نتركه الآن جانــباً، ونعود لسؤال الخلاف الظاهر، نعود لوثائق كامب ديفيد العلنية لا السرية، وأمامى مجموعة الوثائق المشفوعة بالخرائط، وكلها صدرت عن جهــة رســمية تابعــة للدولة، وفيها الجواب المباشر عن سؤال "التعهدات الأمنــية" فقــد تعهد الرئيس السادات – دونما لف ولا دوران – بدور أمنى لمصــر فى الضفة وغزة، وتعالوا نقرأ النصوص معاً، أول مجموعة وثائق تصادفك معنونة بــ "إطار السلام فى الشرق الأوسط المتفق عليه فى كامب ديفــيد" الفقــرة (أ) معنونة بــ "الضفة الغربية وغزة" وتتحدث عن ترتيبات انتقالــية لفــترة خمس سنوات، وعن مجلس إدارى لحكم ذاتى للسكان – لا الأرض – لا تتأخر إقامته عن العام الثالث بعد بداية الفترة الانتقالية، وعلى طــريقة أوســلو – فــيما بعــد – جرى الاتفاق فى كامب ديفيد على إطار

للترتيبات الأمنية في الضفة وغزة، وجاء النص على الدور المصرى بوضوح، ودعونا هنا نرجع إلى نص البند (د) فى اتفاق غزة والضفة، تقول السطور ما يلى بالحرف "سيتم اتخاذ كل الإجراءات والتدابير الضرورية لضمان أمن إسرائيل وجيرانها خلال الفترة الانتقالية وما بعدها.

وللمساعدة على توفير مثل هذا الأمن ستقوم سلطة الحكم الذاتى بتشكيل فرق قوية من الشرطة المحلية. وتتشكل هذه القوة من سكان الضفة الغربية وغزة. وستكون قوة الشرطة على اتصال مستمر بالضباط الإسرائيليين والأردنيين والمصريين المعينين لبحث الأمور المتعلقة بالأمن الداخلى"، انتهى نص البند الذى يشير للتعهد بدور أمنى يشارك فيه المصريون، أضف: ما جاء فى البند (ب) من الاتفاق نفسه، وقد جاء فى نصه ما يلى ".. وسيتم تشكيل قوة بوليس محلية قوية قد تضم مواطنين أردنيين. بالإضافة إلى ذلك ستشترك القوات الإسرائيلية والأردنية فى دوريات مشتركة وفى تقديم الأفراد لتشكيل مراكز مراقبة لضمان أمن الحدود"، ولاحظ أن هذه الوثيقة وقع عليها الرئيس السادات مع مناحم بيجين رئيس الوزراء الإسرائيلى وقتها، ولم يوافق عليها حسين ملك الأردن وقتها، وعارض الصفقة كلها لأسباب رآها مفيدة فى مناورات التقية السياسية، وهو ما يعنى – بالبداهة – انتقال وإضافة التعهدات المنوطة بالأردنيين إلى مسئولية المصريين، وهو ما كان موضع تأكيد لاحق فى رسالة الرئيس السادات إلى الرئيس كارتر مؤرخة فى ٢٢ سبتمبر ١٩٧٨، وجاء فى نص الرسالة بالحرف "أنه من أجل ضمان تنفيذ البنود المتعلقة بالضفة الغربية وغزة (...) فإن مصر ستكون على استعداد للاضطلاع بالدور العربى الذى تحدده هذه البنود".

المعنى: أن تعهدات السادات بدور أمنى وإرسال قوات أمن مصرية لا لبس فيها بنصوص الوثائق العلنية لـ "كامب ديفيد"، وربما دون احتياج لوثيقة هيكل السرية الأكثر خطورة، وعلى من يريد التأكد أن يعيد قراءة هذا المقال من أوله.

إشارات

* الذى يقرأ مقال صافيناز كاظم الأخير – فى جريدة "صوت الأمة" – يحس أنه ذهب بالغلط فى زيارة لمستشفى الخانكة.

* لــو كان الأمر بيدى لأعطيت الكاتبة إياها "جائزة ثروت أباظة" مع مرتبة القرف.

* قيل لى إن سمير رجب هاجمك فى "مايو" ولم أجد بائع جرائد واحداً يتذكر صحيفة بهذا الاسم.

* بعــد إعلان فضائح الوكيل: عد أصابعك ورموشك قبل وبعد مشاهدة ضيوف برنامج "صباح الفساد يا مصر".

١٤ يوليو ٢٠٠٢

جوائز صفيح

يـبدو أن السـيد سمير رجب نصب نفسه رئيساً للجمهورية، ويبدو أننا انتقلنا – دون سابق تنبيه – للإقامة الجبرية فى مملكة سمير رجب.

السـيد رجب هو الصحفى الوحيد (لا حيلة فى الصفة فهو عضو نقابة الصـحفيين للأسـف) الذى يجمع بين رئاسة تحرير إدارة وتحرير مؤسسة "قومـية" ورئاسة تحرير صحيفة حزبية، تماماً كما يجمع الرئيس مبارك بين رئاسـة الـبلد ورئاسة الحزب الوطنى (!)، ويبدو أن هذه المشابهة الشكلية أغـرت السـيد رجب بتقمص الدور إلى آخره، وجعلته يتفضل بمنح "درع الجمهوريـة" للوزراء والنافذين فى شبكات السلطة والبيزنس، ولم يكلفه ذلك إلا قلـيلاً، مجرد حذف كلمة "تحرير" ليصبح رئيس "تحرير" الجمهورية هو رئـيس الجمهوريـة، ومجـرد حـذف كلمة "جريدة" ليصبح درع "جريدة" الجمهوريـة هو "درع الجمهورية" على سبيل الاختصار الكثيف الإيحاءات، وهذه ليست نكتة، فقد شاءت لى الأقدار الكئيبة أن أشاهد المهزلة بأم عينى، أقصـد بـأم النظارة الغليظة الضاغطة على أرنبة الأنف الضحية، فلساعات طويلـة، ظل التليفزيون الرسمى ينقل – بالمجان غالباً – حفل سمير رجب ومجلـته "حريـتى" علـى خلفـية ثابتة تصدم العين الإعلانية، وفى مقدمة المسرح سمير رجب يتفضل بالابتسام المخلوط بأى كلام، ويمد يده الكريمة – أحـياناً – تلامـس أيادى الوزراء والكبراء الفائزين بأسده الذهبى ودرع جمهوريـته الملاكـى، وكاد حجر النظارة ينفلق حين شاهدت السيد صفوت الشـريف وزيـر الإعلام يتسلم جائزته الصفيح، لم يندفع فى وصلة إعلان طلـيق عن سيادة وريادة سمير رجب، وحلاوة وطلاوة مجلة "حريتى" التى هـى "حريتـنا" علـى حد التعبير السامى لمعالى الوزير، وتدافعت عناصر الإثارة والتشويق مع صعود السيد كمال الشاذلى لتسلم الدرع الصفيح فالسيد كمـال الشـاذلى يـنافس شـارون (فى ضخامة الجسد فقط)، وعينك – مع

نظـــارتى – لا تشـــوف النور مع امتلاء الشاشة بالحضور المنتفخ المترامى للســـيد كمـــال الشاذلى وما هى إلا ثوانٍ حتى أتحفنا كمال الشاذلى بوصلته الإعلانـــية الممـــتعة، وأثبت أنه أبو الإعلانيين لا أبو البرلمانيين، وهتف – علـــى طـــريقة فـــتى الإعلان المدرب – واصفاً مجلة "حريتى" بأنها "أميرة المجـــلات العربية" ولولا أنك تعرف مثلى أن "حريتى" هذه ربما تكون مجلة لوقعت فى الخطأ بإغراء المشهد وتداعياته، فقد كان كمال الشاذلى يعلن عن مجلـــة "حريـــته" وكأنها علبة سمن بلدى، ما علينا، فما من داع لأحكى لك المزيد من التفاصيل، يكفى أن تعرف ما حدث للسيد الأستاذ الدكتور الوزير حســـين كامل بهاء الدين، فقد تحول المربى الفاضل فى حضرة سمير رجب إلـــى تلميذ "فرحان" بنجاحه وحصوله على شهادة الصفيح، ويكفى أن تعرف أن مســـئولاً كبـــيراً واحـــداً فضل أن يحترم نفسه، فقد امتنع النائب زكريا عـــزمى – رئيس ديوان رئاسة الجمهورية – عن حضور مهزلة "السلطانية" وجوائـــز الصـــفيح، ولم يوفد أحداً لتسلم درع جمهورية سمير رجب، ربما الســـبب فـــى أزمات دبلوماسية خفية ومشاكل دولية معقدة بين الجمهوريات والممـــالك، أو ربما يكون السيد عزمى غاضباً من صفة "نائب النواب" التى ألصقها به سمير رجب، وهى الصفة التى تقطر ركاكة لا يقدر عليها إلا من أتعســـه زمانـــه واكتســـب فصاحة رجب، فنائب النواب تعبير يشبه مهندس المهندســـين ونجـــار النجارين ووزير الوزراء وصحفى الصحفيين وراقصة الراقصات إلى آخره من هلوسات الألفاظ، ولم يخل الأمر – مع ذلك – من لطشـــات طراوة منعشة ترطب الجوف الحران، فأنت لا تشاهد كل يوم نبيلة عبـــيد بلباس هندى، ولا ترى رأى العين حرب الصدور المشتعلة بين نادية الجندى وندى بسيونى وليلى علوى.. إلى آخر قوائم البط البرى.

والحـــق أنـــنى لا ألوم سمير رجب، فهو عنوان على عصر هانت فيه الصحافة، وهان الرجال، ضاعت فيه الحدود بين قدسية المال العام وشهوات المـــنافع المخصوصـــة، وتحـــول فـــيه الناس إلى رعايا وسبايا، فقدوا "حق المواطـــنة" فى جمهورية مصر، وعلى المتضرر أن يلجأ لقضاء الله، أو أن يطلب تأشيرة إقامة وجائزة صفيح من جمهورية السيد رجب.

إشارات

* لـــو قدر لشيمون بيريز أن يكتب متضامناً مع إبراهيم نافع لما وجد أفضل من مقال عبد المنعم سعيد.

* وبالمناسبة: لماذا لا يأمر إبراهيم نافع – وهو رئيس تحرير "الأهرام" – مركزه الاستراتيجى بإصدار تقرير سنوى عن العنصرية الإسرائيلية.

* سلطة عرفات تقع للمرة الألف فى خطيئة غزة أولا.. وأخيراً (!).

* حـــرب أمريكا لاحتلال العراق قادمة قادمة.. حتى لو استقال صدام حسين.

* ليســت نكــتة: ربما يدخل الشيخ أحمد الطيب مفتى الديار المصرية كتب التاريخ كأول مفتى لا يفتى(!).

١١ أغسطس ٢٠٠٢

أوان الرعب

هــل صــحيح أن حملــة الابــتزاز الأمريكى ضد النظامين المصرى والسعودى تهدف – فقط – إلى المزيد من التطويع، وتعكس – فقط – ضيقاً بــتردد القاهــرة والــرياض فى إعلان التأييد الجارف لخطة أمريكا وشيكة التنفيذ بغزو العراق؟.

الجواب بالإيجاب فيه قصور ظاهر، وربما يعكس رغبة مرضية بإخفاء الــرؤوس فــى رمال الأوهام، والتعامى عن مطارق الرعب الأمريكية التى تعــيد تشكيل المنطقة بالحديد والنار، فأمريكا لم تعد بحاجة إلى حلفاء ذوى أصــول محلية جرى تطويعهم لرغبات واشنطن، فقد استنفد هؤلاء أدوارهم، وقضــت أمــريكا مــنهم – وفــيهم – حاجتها، وصاروا مثل خيل الحكومة العجــوز يســتحق رصاصة الراحة، ولا أحد يدعى – بالطبع – أن النظام المصرى يعاند أمريكا، ولا أن النظام السعودى تحول إلى المعارضة، كل ما هــنالك أن أمريكا ضاقت بتابعيها المتقادمين، ولم تعد تريد صفة مصرية – ولــو بالجنسية – فى حكم مصر، ولا صفة سعودية – ولو بالدشداشة – فى حكم السعودية، وتتصور أمريكا أن مهمتها سهلة، فهذه الأنظمة بلا حسنات تغــرى شــعوبها على التمسك بها، ووقت أن يحين القضاء فلن نفلت دمعة، ولــك أن تحــدث بــلا حرج عن ديكتاتوريتها وعجزها التاريخى وتداعى شــرعيتها ومواهــبها القيادية، وكلها وجوه للضعف جعلتها صيداً سهلاً فى شــبكات الــتحالف التــبعى لأمريكا، ووجوه الضعف ذاتها هى التى تغرى أمــريكا علــى الــتلويح بيد المكنسة، فهذه أنظمة عارية من غطاء العطف الشــعبى، وتصــورت فــى أمريكا غطاء سابغاً، وتصحو فجأة على وضع الكاســيات العاريات، وأمريكا لا تتردد فى إتقان أصول اللعبة الممتعة، فهى ليســت فــى عجلة من أمرها، ولا تريد إنهاء خدمة هذه الأنظمة حالاً بالاً، وتكتفى – فى الدور الأول – بعملية خض ورج وخلع من بقايا دور ملتصق

بجلـد مصر والسعودية، وتكتفى - إلى حين - بصدمات المكانس الكهربية، والنتـيجة: أن صـحت السياسـة المصـرية كالملسوع على صدمة اتفاق الانفصـال فـى الجـنوب السودانى، وصحت السياسة السعودية على حقيقة الهـدف البترولى فى خطة غزو العراق، صدمة الجنوب أطارت آخر برج فـى عقل السياسة المصرية التائهة المكبلة فى الشرق الإسرائيلى، وصدمة الاسـتيلاء المـتوقع لأمـريكا علـى خزان البترول الهائل تهدد السعودية بالإفلاس المالى الشامل، فقد دخلت أمريكا الحرب مع مصر على خط الماء، ودخلت الحرب مع السعودية على خط البترول، وطبيعى أن تبدى السياستان المصـرية والسعودية امتعاضاً مع التغيير المفاجئ الخشن فى قواعد اللعب، والخـروج عن نص "قانون التبعية" إلى مواد "قانون الخلع"، لكن القاهرة مع الـرياض - بتداعـيات الهوان - فقدت حاسة النطق الفصيح، وهنا راحت أمـريكا تـتكفل بما تبقى من حشرجات اعتراض دبلوماسى متهالك، وبدأت دورة فـتح الـنار بحمـلات الصحافة وضغوط السياسة، ضغط على مصر بخفـض المساعدات المالية، وضغط على السعودية وصل إلى الذروة برفع دعوى قضائية تطلب ١١٦ تريليون دولار (١١٦ ألف مليار دولار لا غير) من وزير الدفاع السعودى (!).

باختصار: اقتربت لحظة الحسم، وجاء أوان الرعب، ولم يعد من ترف فـى اختيار، فإما أن ترث أمريكا هذه النظم، أو أن تتحق المعجزة، وتصحو الشعوب الغائبة فى نومة أهل الكهف.

إشارات

* بعد حجب أمريكا ١٣٠ مليون دولار مساعدات لمصر من أجل سواد عـيونه، لـن يعجب أحد لو طالبت واشنطن بتنصيب المحبوس سعد الدين إبراهيم رئيساً للحكومة (!).

* سـؤال لعـاطف عبـيد: لماذا لا تقبل تحدى عدلى حسين - محافظ القليوبية - وتحيل ملفه مع سمير رجب للجهات الرقابية؟!.

* وسؤال لصفوت الشريف: نريد أن نعرف من دفع ومن قبض فى نقل حفلة سمير رجب على هواء التليفزيون الحكومى؟.

* ســمير رجــب: رحلة صعود للهاوية من تلال الأرشيف الأسود إلى قاع الصحافة الصفراء.

* إهــداء عــبد العال الباقورى كتابه الجديد "ناصريون وبعثيون" إلى محمد عودة لمسة وفاء لضمير الصحافة المصرية.

١٨ أغسطس ٢٠٠٢

حروب المماليك

الفســـاد هـــو الحـــزب الحاكم الحقيقى فى مصر، والحزب الوطنى هو حـــزب الأغلبـــية بهذا المعنى وحده، وتداخل السلطة والثروة والإعلام بلغ حـــدوداً مخيفة، وقوانين المافيا حلت محل قوانين الدولة، وربما كان هذا هو ســـر فـــتور الرأى العام وذهوله - فى الوقت نفسه - من حجم الفساد الذى يتكشف وتظل رؤوسه الأكبر بمنجاة من الملاحقة والاتهام.

دعونا نقل من الآخر، إن اللعبة مكشوفة حتى للعميان، فقد لا يعنينا أن يجـــرى "تهويش" عبيد إفساحاً لسكة زيد، قد لا يعنينا إضعاف يوسف والى تهيـــئة لصعود جمال مبارك فى الحزب الوطنى ومركز السلطة معاً، قد لا تعنيـــنا قضايا رشوة كبرى أو صغرى ليوسف عبد الرحمن ومحمد الوكيل، ولا مخالفـــات لعبدالله طايل رجل كمال الشاذلى، ولا ابتزازات لسمير رجب صـــوت الذين يسمون الآن بالحرس القديم فى الحزب الحاكم المتحكم، قد لا يعنيـــنا أن يحقـــق مع هؤلاء أو يحاكمون إلا بقدر ما يوحى به اتجاه الريح، وهـــل القصـــة تنطوى على نية حقيقية فى التطهير وتصفية الفساد؟، أم أنها مجـــرد صـــراعات أجنحة فى جماعة مافيا لها ذات السلوك ونفس الرائحة، للأســـف.. لا يـــبدو الاتجاه كذلك، فلم تكن قصة فساد واحدة مطروحة الآن مجهولة فى أى وقت، واختيار الوقت له مغزى لا يخفى، ونخشى أن تنتهى الـــزوبعة مع وصول لعبة الكبار على الكراسى غير الموسيقية إلى غايتها، وهـــذه هى الكارثة الأعظم، الكارثة: أن يتم تقديم أوراق اعتماد للفساد نفسه، وبثـــياب تبدو جديدة ونظيفة، وأن تجرى التضحية بأكباش فداء صغيرة فى عملـــية تمويه وإخفاء وحماية لفساد الرؤوس، فهذه أصول اللعب مع الكبار فى مناخ توحش فيه الفساد وسيطر، ولم يعد مجرد نزوة أخلاق، ولا انحرافاً بالســـلوك، ولا تراخـــياً فـــى الرقابة، ولا ظاهرة تفشت فى ظلام، فكل هذه الأوصـــاف والأوضاع كانت نقاط البداية، كلها تفاصيل بالجملة، الفساد الذى

تحـــول إلـــى مؤســـة حكـــم، الفســـاد الكامن الظاهر فى صلب الاختيارات والسياســـات، فساد الأصل قبل فساد الصور والشخوص، خراب الرأس قبل تيـــبس وتعفـــن الأطـــراف والمفاصل، وهو ما يجعل قضية مواجهة الفساد مســـألة سياسية لا دعاوى فى محاكم الجنايات، ودعونا نتخير مثالاً واحداً لا غـــير، قدرت الحكومة حجم القطاع العام المراد بيعه أوائل التسعينيات بقيمة ٥٠٠ ملـــيار جنـــيه، ومـــع توالـــى عمليات البيع نزلت الحكومة فى نهاية التســـعينيات بقـــيمة القطاع العام نفسه إلى ٢٨ مليار جنيه لا غير، والفرق: ٤٧٢ مليار جنيه ضاعت فى الجيوب والثقوب، ولا أحد - بالطبع - حوكم، ولا أحـــد - بالطـــبع - سوف يحاكم، إلا لو تصورنا حدوث تغيير سياسى شامل فى مصر يذهب بالحزب الحاكم إلى سلة مهملات التاريخ.

باختصـــار: نحـــن مع تصفية جذرية حقيقية للفساد الحاكم، وهذه قصة مختلفة عن مناورات التلاعب بورقة الفساد فى "حروب المماليك".

إشارات

* هـــل تتذكرون مذبحة المماليك فى قلعة محمد على؟، ليس هذا سؤالاً فى التاريخ.

* ســـوف يســـجل الـــتاريخ نهاية عصر يوسف والى برصاصة صفيه يوسف عبد الرحمن.

* السياســـة المصرية تعاملت مع تهديدات واشنطن بقطع المعونة على طريقة ضرب الحبيب الأحلى من أكل الزبيب (!).

* على جدول أعمال وزراء الخارجية العرب بند عن تهديدات مجهولة المصـــدر لدولـــة عربية غير مذكورة بالاسم، هذه ليست نكتة، فلا أحد يريد ذكر العراق ولا أحد يجرؤ على الجهر باسم أمريكا.

* الأنظمة العربية فى حالة "موت إكلينيكى"، اقرأوا الفاتحة من الآن.

١ سبتمبر ٢٠٠٢

لو ذهب يوسف

هل تتغير مصر لو ذهب يوسف والى؟، أم أن والى مجرد طبعة هوان سياسى تلحقها طبعات أخرى لأولياء الزمن الردىء؟.

يوسف والى – كشخص – لا يبدو استثنائياً على أى نحو، رجل يظهر صامتاً مغلق العينين فى أغلب الأحوال، اختار ألا يتزوج بامرأة، أو اختارت له الأقدار الغامضة، وتزوج السلطة والنفوذ على مدى ربع القرن، وبنى مملكة الشهوة للفساد فى سياق ملائم تماماً، دولة تتحلل مع تضخم الجسد، وارتباط هجين باختراقات أمريكية وإسرائيلية صارت لها الكلمة الفصل فى الكواليس، وإعلام محترف فى تزييف الحقائق، وثروات تتراكم وتتفتح لها مغارات على بابا، ومعايير للترقى الطبقى والوظيفى مشروطة – غالباً – بشهادات سوء السير والسلوك، واندفاع بالغرائز المنفلتة لالتهام كعكة النهب العام، وتقديم لذكر الأشخاص على الأوطان والوظائف، فلم يعد أحد يذكر اسم وزارة الزراعة، بل صار اسمها وزارة يوسف والى، ولم يعد والى محصوراً فى وزارة، بل تمدد النفوذ – بانتشار العدوى – إلى وزارات وصحف، لم يعد والى فرداً، بل مملكة لـ"القرع" العام، القرع – فى المذاق المصرى – أسوأ الأطعمة بإطلاق، وهو المرادف الخضرى لأسوأ طبخات النفاق والكذب اللزج، وفى مملكة يوسف والى "يطلع القرع فى ثوانى" على حد التعبير التهكمى اللافت لشاعر العامية المصرية أحمد فؤاد نجم، ولم تكن مصادفة أن مملكة والى لعبت دور الحاضنة الجاذبة لأطفال المعجزات الأكثر فساداً وثراء، ولا هى مصادفة أن وزارة والى هى التى سبقت لاختراع بدعة "الصفحات المتخصصة" فى الإعلام الحكومى، صفحات مدفوعة الأجر منزوعة الضمائر، صحافة لـ "القرع" العام، تجعل من السلحفاة صاروخاً عابراً للقارات، وتنسب للحمير بيض النعام (!).

فهــل إذا ذهــب والــى تذهب ممالك الفساد و"القرع" العام؟، ليس هذا صــحيحاً، فيوســف والــى ليس وحيد العصر، قد يكون له دور الريادة لا القيادة، وليس أسوأ من السيد والى إلا السادة الآخرين على رقعة الشطرنج، ومصر لن تتغير بحروب مماليك لا تنتهى بعبارة "كش ملك".

عنوان الضمير

لا يكفــى أن تصــف محمد عودة بالأستاذ، فهو الأستاذ بلا منصب ولا ثروة ولا أمر سلطانى، ولا أنه المؤرخ، فهو العاشق لمصر كأنها الأعصاب ونوبــات الشــهيق والزفير، ولا أنه الكاتب المرموق، فليس أسلس منه فى العــبارة الساحرة ولا أطلق أسلوباً، فعودة نسيج وحده، وحياته الشابة العفية ليســت ككــل السير، إنه الضمير الذى يمشى على قدمين، ودفقة الدم التى تحيى القلوب.

إشارات

* ليست قضية رشوة ولا إثراء حرام، إنها حرب إبادة للمصريين.
* يوســف عبد الرحمن، وكل يوسف مثله، يستحقون الإعدام فى ميدان عام.
* شارون الإسرائيلى ألغى كامب ديفيد الفلسطينية، فهل ننتظر "شارون مصرى" لإلغاء كامب ديفيد الأصلية؟.
* شــعبية شــارون زادت مــع توقف العمليات الاستشهادية، فهل فهم الأغبياء الدرس؟.
* الذين عصفوا بأمريكا فى ١١ سبتمبر لهم ملكوت الدنيا والآخرة.
* قرارات وزراء الخارجية العرب "بيان إبراء ذمة" لحكام بلا ذمة.
* جفــت الأقــلام وطويــت الصــحف ودقت ساعة الحرب الأمريكية لاحتلال العراق.
* طلعت إسماعيل.. مزيج ملائكى من كفاءة المهنة واستقامة الأخلاق.

٨ سبتمبر ٢٠٠٢

جماعة البيزنس

أسوأ ما فى تغييرات الحزب الحاكم الأخيرة أنها توحى بخطر التوريث وتسلم قيادتنا لجماعة بيزنس لا تخفى ولا تتخفى بهواها الأمريكى النكهة.

نعـرف أن الرئـيس مـبارك نفى – أكثر من مرة – نيته فى توريث الرئاسـة لابنه الأصغر جمال، لكن الشواهد مثيرة للقلق، ونحسب أنها ليست محل رضا كامل عند الرئيس شخصياً، وأياً ما كانت ميول النفوس الملتبسة بحقـائق النصوص، فإن جمال مبارك – بتغييرات الحزب الحاكم الأخيرة – صـار فـى موقـع نفـوذ أعلى من رئيس وزراء وأدنى من نائب رئيس جمهوريـة، وتصـريحات صفوت الشريف – الأمين العام المفاجئ للحزب الحـاكم – تكشـف وتشـف، فـلا حديث عن القيادات إياها إلا عن أمانة السياسـات ولجـنة السياسـات وهـم معاً تحت رئاسة جمال مبارك، أمانة السياسـات تنظـيم مبتدع أريد به فى الأغلب وضع قناع شفاف على حقيقة صـعود جمال إلى المركز الأول المتحكم فى حزب الحكم، ولجنة السياسات دائرة استقطاب للمستوزرين والمشتاقين، وهو ما يعنى أن جمال قد وضعت فـى يده المفاتيح لمطابخ الوزراء ومصانع تفريخ رؤساء الحكومات المقبلة، وقد لا يكون بوسعنا الاعتراض على أى تغيير لو كنا بصدد تفاعلات فكرية أو جيلـية فـى حـزب حقيقى، وهذا وضع ليس قائماً من أصله، فالحزب الوطـنى مجـرد إدارة انـتفاع سياسـى ملتصـقة بجهاز الدولة، وحظوظ الصـاعدين والهابطين لا تنزل من السماء، بل تصدر بالأمر السامى، وهنا تتكشـف خطـورة قـرارات التبديل والتعديل الاصطناعى للموازين، فقد لا يأسف أحد على ذهاب يوسف والى وتفتيت إمبراطورية كمال الشاذلى، لكن لا أحـد – عـاقل – يفـرح لتغييرات يبدو معها جمال مبارك وكأنه محور الكون المصرى، فليست للسيد جمال مبارك خبرة حزبية ولا تاريخ سياسى، ويصـعب اعتـباره مفكـراً أو "جمالاً للتطوير" على حد تعبير صحيفة شبه

رسـمية عرفت باحتشامها النسبى، وإن كنا نعترف لجمال بدوره فى عوالم البـيزنس، فلـه علاقات متشابكة تبدأ بالمجلس الرئاسى المصرى الأمريكى ولا تنتهى عند المليارديرات الجدد، وهو بهذه الصفات أقرب لمعبر ظاهر عن صعود النفوذ السياسى لجماعة البيزنس، وهنا نتفهم المعنى الحقيقى لإصرار جمال على تعبير "حكومة الحزب" بدلاً من صيغة "حزب الحكومة"، فمهموم أن يكـون الحـزب ظلاً للحكومة بمعايير تسلط الجماعة البيروقراطية، وقد تحولـت بقايـا الجماعة البيروقراطية إلى خدمة جماعة البيزنس من زمن، وربمـا كان كمال الجنزورى آخر رؤساء الوزارات البيروقراطيين، وكان الـتحول إلـى رئاسـة عاطف عبيد مؤشراً على تحلل النفوذ البيروقراطى، ولعبـت تداخـلات السلطة والثروة والإعلان دورها فى تسريع التحول عند قمـم سـلطة مغلقـة مشغولة بحروب المماليك، وجاء تصعيد جمال مبارك كـنهاية للشـوط، تحـول من حكومات تخدم جماعة البيزنس إلى حكومات يصـنعها حـزب البيزنس، ومكمن الخطورة فيما جرى ويجرى أنه يتم فى غيبة عن الناس وعناصر التكوين المصرى الكبرى، فجماعة البيزنس طافية علـى السـطح بملـياراتها الحـرام، وتـبدو بلا جذور وبلا قواعد إنتاجية واجتماعية، وتريد أن تحتمى بمظلة القرب العائلى من الرئيس لإتمام انقلاب تسـيطر بـه علـى الحكم بعد نهب الثروة، ودعك مما يقال عن فكر جديد للحزب الحاكم، فهو أقرب لتغليف متعجل لبضاعة رديئة مهربة من الخارج على طريقة الفراخ الفاسدة والمبيدات السرطانية.

وطبـيعى أنـه لا علاقة للتغييرات إياها بنذر الخطر المحدق بمصر، خطـر الخـنق عـند خط الوجود فى الشرق، وعند خط الماء فى الجنوب، وخطـر الاختـناق بـتداعى الإنتاج وتوحش الفساد والبطالة وسطوة الكبت العـام، خطر الخنق عند الحدود، وخطر الاختناق فى الداخل، الخطر الذى يسـتدعى ربما يستعجل – تغييراً شاملاً بكل معنى الكلمة، فمصر فى أمس الاحتياج إلى تداول سلطة لا إلى تداول للفساد.

إشارات

* نـرجو ألا يستعيد عرفات المحاصر مجدداً صيحته "شهيداً.. شهيداً.. شهيداً"، فلا أحد يصدق.

* مجد الدنيا والآخرة للاستشهاديين فرسان المقاومة الإلهية.

* نعم.. أمريكا سوف تغزو العراق حتى لو استقال صدام حسين.

* نشـــر وقاحـــات الســفير الأمـــريكى فـــى "الأهرام" إهانة للصحافة المصرية.

* محمـــد عـــودة لـــيس فى مستشفى، إنه – فقط – يستريح قليلاً على سرير القلوب.

٢٢ سبتمبر ٢٠٠٢

عصا النبى

جمـــال عـــبد الناصـــر ليس رفاتاً فى كوبرى القبة، ولا ذكرى طواها الزمـــن، وهـــذه ليســـت سلفية ولا يحزنون، فنحن نتصاخب فى اختلافنا أو اتفاقـــنا على جمال عبد الناصر، وكأنه حل عنا أمس، أو كأنه لم يرحل بعد، وهـــذا هـــو معـــنى بقاء جمال عبد الناصر الممتد فى حياتنا، وسر الحنين الطـــاغى لصورته وصوته وسيفه، فلم يكن عبد الناصر رئيساً وذهب، ولا هو من الأبطال الذين تلمع بيارقهم، وتخطف النصر الموقوت، لم يكن بطلاً عـــند الحدود، بل كان بطلاً للوجود، انتصر وأخفق، وأحبه الناس فى لحظة الضعف ربما أكثر مما تعلقوا به فى ذروة المجد، كان بطل الذى تحقق وهو يشـــبه المعجـــزة، وظل بطل الذى لم يتحقق وهو أشبه بكلمة الخلق، وسره الـــباقى، إنـــه بطـــل الحلم المفتوح على أشواق وأجيال طلعت وتطلع، بطل الدرامـــا التى تتوالى فصولها الساخنة، ولعلها ليست مصادفة بمواقيت الزمن أن تتفجر انتفاضة التحرير الفلسطينية فى ذكرى رحيله الثلاثين، بل قل إنها مصـــادفة الأقـــدار، ذات الأقدار التى ألهمت عبد الناصر فكرة الثورة وهو محاصـــر فى "الفالوجا" الفلسطينية، كانت الجملة التى برقت فى ذهنه وقتها هـــى "أن المشـــكلة فى الذئاب التى ترعى فى العواصم"، وهى الجملة ذاتها الـــتى تضـــىء الـــنفوس مع حصار الانتفاضة، فالأمة المحاصرة تستدعى وتتذكر جمال عبد الناصر، الأمة المحاصرة تستدعى صورته التى هى العَلم علـــى حلم التغيير، الأمة المحاصرة ترفع عن الأبصار غشاواتها ببركة الدم الفلسطينى، الأمة المحاصرة تدرك أن الذين زيفوا عليها طريقها، وزينوا لها العـــيش كالديدان فى طين المذلة، وأرادوا تحطيم ذكرى، ومعنى جمال عبد الناصـــر، تدرك الأمة المحاصرة أن ذهاب هؤلاء إلى سلة مهملات التاريخ هو الاختيار الوحيد إن كانت لنا قيامة بعد طول القعود.

نعـــم، نعرف أن التاريخ لا يعيد نفسه، وإن كانت دروسه الكبرى تبقى ملهمـــة، وقت حصار عبد الناصر فى "الفالوجا" كان المشهد على ما نتذكر، اســتعماراً يصنع القرار فى عواصمنا، وثروات تنهب، ويأساً يقبض الروح، وأنظمـــة تداعت قوائم شرعيتها، وما أشبه البارحة باليوم الذى تحاصر فيه الانتفاضة فى فلسطين، فلم تعد من ورقة توت تستر العورات، والأنظمة فى حالـــة "مـــوت إكلينيكى"، وربما تستدعى للوجدان صورة النبى سليمان الذى مـــات وهـــو يتكئ على عصاه ولم يدرك الناس أنه مات إلا بعد أن تهاوت عصـــاه الـــتى أكلهـــا النمل، وليست لحكامنا اليوم – بالطبع – قداسة النبى ســليمان، كـــل مـــا تبقى لهم هو عصاه التى يأكلها النمل، نعم – يا سادة – حكامـــنا ماتوا وإن لم ينشر نعيهم بعد، وما من داع لخوف من عصا نخرها الـــنمل، فقـــد علمتـــنا الانتفاضـــة أن نكسر حاجز الخوف، تماماً كما تعلم عبدالناصر فى الفالوجا أن يكسر حاجز التردد، وأن يجعل من فلسطين اسماً حركياً لخطة الثورة، وأن يحاصر حصاره فى "الفالوجا" بثورة مصر.

نعم، نتذكر جمال عبد الناصر لأننا نحتاجه، فلم يكن عبد الناصر دوراً لفرد، بل كان بعثاً لأمة.

إشارات

* تحذيـــر: لا تـــأملوا خـــيراً فى أنظمة تجعل الإرادة الأمريكية فوق المشيئة الإلهية

* أمـــل: لـــيس غـــير الاستشهاديين ننتظر منهم "افتتاحية ساخنة" لسنة الانتفاضة الثالثة.

* حزن: لم أكن أعرف أنها آخر مرة أصافح فيها "فنجرى التايه" الذى خطف قلوبنا برحيله الصادم المفاجئ.

٢٩ سبتمبر ٢٠٠٢

قصورهم قبور

ما الذى جعلنا هكذا.. صماً بكماً فعمياناً لا يفقهون؟!..

مـــا الـــذى جعلنا أمة من غبار، وأصابنا بالعته والخبل وجذام الروح، وأفقدنا كرامة البشر وحس الآدميين؟!.

الدافع للسؤال الاستنكارى معروف، فأمريكا تجيش الجيوش لاحتلال بلد عـــربى بالكـــامل، وأمريكا - أيضاً - داست على أعصابنا، وتضامنت مع إســـرائيل فى ابتلاع القدس، رغمها ظلت الشوارع العربية على حالها، بينما الشـــوارع فى عواصم غربية وآسيوية تصخب بالتظاهرات الكبرى الرافضة للعدوانية والوحشية الأمريكية، فى لندن - وحدها - خرج إلى الشوارع ربع ملـــيون متظاهر يهتفون "فلتسقط أمريكا ولتسقط إسرائيل"، بينما ظل الشارع العـــربى ســـاكناً تائهاً إلا من ظاهرات "برو عتب" لبضع مئات فى عاصمة عربية أو أخرى، وكأن الشعوب تواطأت مع الحكام فى خذلان قضايا الأمة، أو كأنـــه توزيع للأدوار بالاتفاق الضمنى، للحكام لعبة القصور، ولنا تراب القـــبور، الحكـــام لهـــم الـــدور المرسوم الموصوم، دور التدجين والتزييف الإعلامـــى، والـــتظاهر بالدفاع عن قضايا الأمة فى العلن، وتقديم الخدمات المطلوبة لأمريكا فى الكواليس، فلا تصدق أبداً أن حكامنا ضد غزو أمريكا للعراق، ولا تصدق أبداً أنهم يحفظون "شعرة معاوية" مع عذاب الفلسطينيين، فأمـــريكا عـــندهم أهـــم من القدس، والبيت الأبيض أكثر قداسة من المسجد الأقصى، وكنيسة القيامة، وملك البحرين - وقد لا يعرف سوى "ملك اليمين" - قالهـــا أخـــيراً بصـــراحة "نحن عاجزون"، ورئيس "أهوش" قالها من قبل شـــهور "المسجد الأقصى فى ستين داهية"، والرئيس مبارك أعلنها "لن نقطع العلاقـــات مـــع أمـــريكا فى أى وقت"، ملاحظة: كلهم قالوا فى قمم متتابعة "ســـنقطع العلاقـــات مع أى دولة تعترف بالقدس عاصمة لإسرائيل"، وعند التطبـــيق: نفضـــوا أيديهم وغاضت الأصوات، بل قل إن لا أيادى لهم ولا

أصوات ولا وجوه، فكلها مؤخرات محترقة، قصورهم قبور ووجودهم عدم، المؤسف: أنهم أحالونا معهم إلى مخازن الاستيداع التاريخي، فالشعوب تبدو خارج الموضوع، كأن شعوبنا كفت عن أن تكون شعوباً كبقية خلق الله، كأننا تحولنا إلى رعايا وسبايا لا نطلب من حكامنا غير الخدمات البلدية، فقدنا عضوية الوطن، وسلمنا بتطابق موهوم بين الأوطان وأنظمة الحكم، واسترحنا إلى موات نكتفى فيه بالأكل والشرب والمشى فى الأسواق، وجلسنا على أبواب "السجل المدنى" ننتظر شهادة وفاة الأمة، وضاع فينا كل حس بالكرامة أو النخوة الوطنية والدينية، ولا تسأل: ما الذى جعلنا هكذا مستأنسين كالخرفان نساق إلى الذبح بلا همهمة اعتراض؟، إنها الأنظمة المستندة التى فشلت فى كل شىء إلا اغتيال الأوطان، فشلت فى كل شىء إلا إدمان النهب والقهر، فلا نهضات اقتصادية، ولا اختراقات تكنولوجية، ولا حريات ديمقراطية، ولا جيوش تسد عين الشمس، ولا شرعية بالتاريخ ولا بأصوات الناس، فالنجاح الوحيد الذى حققته هذه الأنظمة هو إخصاء الشعوب ودفنها فى أكفان الصمت.

إشارات

* الرئيس مبارك قال أخيراً "إن اللصوص نهبوا المليارات"، لاحظ: أننا كنا نقولها فنتهم بتشويه سمعة مصر (!).

* وبالمناسبة: من يحاكم عاطف عبيد على إهدار ٤٧٢ مليار جنيه فى مزاد بيع القطاع العام.

* النهب بالمليارات ثمرة تحول من دولة القطاع العام إلى دولة النصب العام.

* تبرئة الصغار فى كارثة احتراق القطار تؤكد أن القضاء المصرى هو حزب المعارضة الوحيد.

* د. هدى عبد الناصر – رغم أى خلاف فى الرأى – قيمة رفيعة و"بنت أبوها" خالد الذكر إلى يوم يبعثون.

٦ أكتوبر ٢٠٠٢

مندوب مبيعات

لا حــل إلا أن تخلع دماغك، وتلف علم أمريكا على وسط سيادتك. إذا أردت الــتماس عــذر أو تفهــم لانتكاســات السياسة المصرية تجاه الغزو الأمريكى الوشيك للعراق.

الرئيس مبارك بدا مرحباً بخطاب الرئيس الأمريكى بوش عشية صدور تفويــض الكونجــرس بغزو العراق، الرئيس قال: "إن خطاب بوش أعطى العراق مساحة للاستجابة"، ومع كامل الاحترام لمنصب سيادته فلست تعرف ما هو الموضوع بالضبط؟، ما المقصود بحكاية مساحة الاستجابة الممنوحة للعراق، العراق – كما هو معروف – قبل عودة المفتشين بلا قيد ولا شرط، بــل وبلغ العراق فى الاستجابة – حد المقامرة – بإعلانه التجاوب مسبقاً مع أى قــرار جديــد يصــدر عن مجلس الأمن، وأمريكا – من جهتها – تريد بــترول العــراق ورأس صدام حسين معا، فلا يبقى إلا أن يكون المقصود بالاســتجابة أن يعلــن العــراق استســلامه بلا طلقة حرب، أو أن يخرج العراقــيون إلى الشوارع ترحيباً بحكومة عسكرية أمريكية يترأسها الجنرال تومـــى فرانكس على حد نص خطة البنتاجون التى نشرت "نيويورك تايمز" تفاصــيلها أخيراً، أرجو أن يكون كلامنا خفيفاً على القلوب إياها، وأن يكون تصورنا للاستجابة المقصودة مجرد "شطحة تفسير"، لكن ألف فأر يلعب فى عــب الــبرج الباقى من العقل المصرى وليس كل الظن إثما على أى حال، فالســيد أحمــد ماهر وزير خارجيتنا "الرصين" قال فى تصريح مقتضب "لم ننصـــح أحــداً بالتخلى عن الحكم"، وهو ما يدفعنا لمطالبة صريحة بإعلان حقيقة النصائح المصرية لحكم بغداد، وقد لا نحب أن نجازف بتصديق كامل لأقــوال جـــاك ســترو وزيــر الخارجية البريطانى بعد لقاءاته فى القاهرة وعواصـــم عربــية أخرى، سترو قال إن كل الزعماء العرب الذين التقاهم يوافقون على ضرب العراق، بينما الموقف المعلن فى القاهرة إلى الآن ضد

الضـــرب، وهو ما يثير قدراً متزايداً من الشك والالتباس مع وضوح وحسم النـــية الأمريكـــية فـــى غزو واحتلال العراق، يلفت النظر هنا ذلك التحول الملحـــوظ فى لهجة الإعلام والصحف الحكومية، فقد خف الميل التلقائى إلى لـــوم أمـــريكا، وبدأت موجة لوم العراق تطغى على نحو يبدو مقصوداً فى صـــحيفة "الأهرام" شبه الرسمية، إحدى إصدارات الأهرام - مجلة "الأهرام العـــربى" - حســـمت الموضـــوع مبكراً، وجعلت من صفحاتها فيالق تبرير وتشـــجيع لخطة الغزو الأمريكى، وتعليقات إبراهيم نافع شبه الرسمية عادت لاتهـــام صدام حسين، وعبد المنعم سعيد - مدير مركز دراسات الأهرام - تدخـــل فـــى الوقت المناسب، ولاشك عندنا - بالطبع - فى ولاء عبد المنعم ســـعيد، وحرصه "العلمى" الزائد على تطابق موهوم للمصلحة المصرية مع مصلحة أمريكا.. وإسرائيل إن أمكنا، والرجل - للحق - لا يلف ولا يدور، ويطالب الإدارة المصرية بسرعة الحسم حتى لا تفوتنا الفرصة فى اغتنام ما تيســـر من عوائد الحرب، ويحذر من نفاد الوقت لأن قوة إقليمية رئيسية - علـــى حد وصفه - هى "إسرائيل" سبقتنا إلى التكيف المطلوب، ولا يتركك عـــبد المـــنعم تخمـــن كثيراً وقليلاً فى تحديد ماهية المطلوب، فهو يقول فى وضوح "لا يسهل الدفاع عن الموقف العراقى"، ولا تفكر فى أن تسأله: لماذا يـــا أخ سعيد، فالجواب حاضر وفى بساطة الماء، والحقائق - عند سعيد - تثبـــت أن العراق لديه خطة لتصنيع قنبلة ذرية، وإياك أن تغامر برفض أو اســـتهجان، فالفارق فى الإمكانات العلمية شاسع جداً، والأخ سعيد لا ينطق عـــن هوى أو هوية، وحقائق مخابراته الكونية لا يأتيها الباطل، والحق الذى عند أمريكا هو الأحق بأن يتبع فى مصر (!).

نعـــم. فكر فى أن تستعيد دماغك إلى رأسك، وأعد قراءة النص مرتين، وســـوف تكتشف أن مصر تنحدر إلى هوة اللا دور، وأن السياسة المصرية قـــد تكـــتفى - فى لعبة السوبرمان الأمريكى - بدور الكومبارس، وقد تميل إلى لعب دور "مندوب المبيعات" بالعمولة (!).

إشارات

* قـــدر شـــارون أن يمضـــى فى لعبة الدم إلى آخرها، وقدر المقاومة الفلسطينية أن تنتصر فى النهاية.

* نعم.. صدام حسين ديكتاتور، لكن: من هو الحاكم العربى الذى ليس كذلك؟!.

* اللهم إنا نرفع إليك صلاة القلوب لإنقاذ "المريض" بعشق مصر.

١٣ أكتوبر ٢٠٠٢

العب غيرها

ربمـــا يصـــح أن نعطـــى نبيل زكى - رئيس تحرير الأهالى - جائزة أغرب مقال فى الصحافة المصرية لهذا العام، فالمقال - فى العادة - يعرف مـــن عـــنوانه، وعنوان مقال زكى "نحن وهيكل وقضية الخلافة والتوريث"، وتقـــرأ المقـــال فـــلا تجد من صلة تشفع للعنوان الملىء بـــ "واوات" توحى بالتلكؤ لا العطف، وإن كنت - للإنصاف - لا تجد صعوبة كبيرة فى تخمين مـــا يقصـــده الأخ نبـــيل بكلمة "نحن"، فهو يدافع بحرارة مكيف هوائى عن حزب التجمع وحزب الوفد، لا بأس، وإن كنت لا تعرف - بالضبط - محلاً للدفـــاع المتزايد عن أحزاب لم تكن موضع هجوم ولا انتقاد ولا التفات فى محاضـــرة الأستاذ هيكل بالجامعة الأمريكية، وكأنه - أى الأخ نبيل - أراد أن يفـــتعل معركة فى غير ميدان على سبيل التمويه الساذج، فقد فجر هيكل قنـــبلة توريث السلطة فى مصر الآن، صحيح أن هيكل لم يكن الأسبق إلى إدارة الموضـــوع الملغوم بالمخاطر، لكن صوت هيكل - بطبقاته الداوية - أعطـــى شـــجاعة الاعـــتراض على التوريث مدى صاروخياً عابراً مخترقاً لجـــدران الـــتواطؤ بالصـــمت، ولا يخفى على الأخ نبيل أن ضغوطاً ثقيلة الوطـــأة تدافعـــت محمومة لوقف توابع زلزال هيكل عند حد، وأن صحفاً - حزبـــية وبيزنســـية - رفعـــت محاضـــرة الأستاذ هيكل عن صفحاتها فى اللحظـــات الأخـــيرة قـــبل الطـــبع، وبالطـــبع لم تجرؤ "الأهالى" على كسر المحظور، وإن لجأت إلى حيلة الأخ نبيل، ولا داعى لأن نلاطف الأخ نبيل علـــى طريقة "العب غيرها" فقد سبق بالفضل الفكاهى، ولعب فى البعيد الذى بـــدا له مأمونـــاً، تـــرك وهج المباراة الكبرى فى ميدان التحرير، ولعب فى "حـــارة حـــرنكش"، حيث لا حكم يضبط ولا جمهوراً يتحمس، ترك قضية جمـــال مبارك ليهاجم جمال عبد الناصر، وراح يفتى فى التاريخ على هوى عـــبد العظيم رمضان، فلا شرعية تاريخية - عند الأخ نبيل - لحكم جمال

عبد الناصر، والشرعية الدستورية – التى لا شرعية غيرها عنده – كانت موجودة إلى أن ألغت الثورة دستور ١٩٢٣، والمعنى: أن ثورة عبد الناصر كانت انقلاباً على الشرعية، مع أن أغبى تلميذ فى كلية حقوق يعرف الفارق الظاهر بين إجراءات الدستور وشرعية نظام يحكم بالدستور، ومع أن أبسط قارئ للتاريخ يعرف أن إجراء دستورياً – كالانتخاب النزيه – لم يحدث قبل الثورة سوى فى الاستثناء النادر، وأن حزب الوفد – صاحب الأغلبية وقتها – لم تصل له الفرصة لتشكيل وزارة سوى فى سبع سنوات على مدى الثلاثين سنة، وأن وصول حكومة وفدية – فى مرات الاستثناء – لم يحمل معه تغييراً يعتد به فى هيكل النظام ولا فى مراكز القوى المتحكمة بقراراته، وأن الحكم الموصوف بالشرعية الدستورية – على طريقة الأخ نبيل – ظل خالصاً فى الأغلب لقصر الملك وقصر المندوب السامى بالتبادل وبالتوافق، وكل هذه بديهيات حقائق لا نشك أن الأخ نبيل قد اتصل علمه بها، ولا نظن أن الأخ نبيل من الذين تستحب معهم رخص "العذر بالجهل"، لكنه يبدو معذوراً على أية حال، معذوراً بالرغبة الباطنة فى التجاهل وإيثار السلامة، وجد نفسه فى الورطة، وأراد الهروب من سؤال ومأزق اللحظة إلى براح العبث بالتاريخ، وكان الأفضل له – فى ظنى – أن يرفض ورطة التكليف بكتابة المقال، والبديل: أنه كتب كلاماً بغير الحروف، ونطق صوتاً طاش بعيداً عن صناديق التصويت.

إشارات

* نخشى – مع ميوعة مجلس نقابة الصحفيين – أن نصحو ذات يوم فنجد سمير رجب رئيساً لتحرير "الأهرام".

* "الأهرام" شبه الرسمية وصفت سمير رجب بأنه "سلطة فوق كل سلطة" فهل هذا هو سر التردد فى إجراء تحقيق جنائى معه إلى الآن؟.

* وبالمناسبة : اسألوا كل رئيس لصحيفة حكومية "من أين لك هذا".

٢٧ أكتوبر ٢٠٠٢

قطار الهوان

لا نــريد – ربمــا لا يجوز – أن نعقب على قرار النائب العام بالطعن على حكم جنايات الجيزة فى قضية احتراق قطار الصعيد، وإن لفتت النظر لهجة الطعن الموغلة فى الزراية بالقاضى وهيئة المحكمة الموقرة، ووصف الحكــم بأنــه تدخل فيما لا يعنيه، والمعروف أن الحكم المطعون عليه أثار دويــاً هائلاً فى أوساط الرأى العام، واستثار موجة عارمة من الفرح العزيز عــند المصريين هذه الأيام، فبقدر ما كان حادث الاحتراق الجماعى لمئات المصــريين – ربمــا الآلاف – مأتماً للحزن الجماعى، جاء الحكم التاريخى المثــير مناسبة لهتاف تلقائى بحياة العدل لهجت به قلوب المصريين المثقلة بظلــم تجــاوز الحدود، وكان الحكم القضائى شجاعاً عادلاً بتبرئته لأكباش الفــداء الصــغيرة المتهمة، وكان الحكم جريئاً نافذاً بإلقاء اللوم على الكبار خــارج الأقفاص، تجاوز الحكم المعنى الفنى البحت للنظر بصحيح القانون، ووضــع الموازين فى نصابها الاجتماعى والسياسى بطلب محاكمة الفاعلين الأصــليين فى مقاعد الحكومة، وجاءت حيثيات الحكم كأنها "شكوى القاضى الفصــيح" و"عيــن زرقــاء اليمامة" المحذرة من قطار هوان يدهس أرواح المصــريين قــبل أن تحترق الجثث، وبدت الحيثيات كأنها "وثيقة معارضة" جامعة من منصة القضاء الأعلى.

نعــرف أن القضــاء – بطــبائع الدور – لا تصح معه فلتة انتقاد ولا شــروع فى الثناء، وإن كان دور القضاء فى حياتنا الآن مما يستحق التوقف عــنده، فللقضاء المصرى تراثه الجليل، وحصونه الأشد مناعة تقاوم إلحاح الغــزو بفيروسات الفساد والتدهور العام، فقد انتهى نظام الحكم السياسى إلى حافة القبر، وأحزاب المعارضة شبعت موتاً بالخنق من خارج والاختناق فى الداخــل، وصار الرأى العام يتيماً عارياً من كل سلطة تفعل أو تؤثر، وتلك ظروف تحول معها القضاء المصرى إلى ناطق وحيد – ربما – باسم سلطة

الرأى العام، وقضية احتراق قطار الصعيد تصلح مثالاً، فقد بحت الأصوات المنتقدة لهزل تصريحات الحكومة، ووصلنا إلى قاع المسخرة بتحميل "وابور جاز" مجهول وزر احتراق المئات، ومع هول كارثة الاحتراق الجماعى تفتحت العيون الدامعة على ضوء الحقيقة، تقرير - محجوب - للجنة تقصى حقائق برلمانية طالب بمحاكمة الكبار، والحكومة تصورت أنها كفت على الخبر "ماجور" بدفع وزير النقل لإعلان استقالته، وكانت صدمة الرأى العام فادحة مع انتهاء التحقيقات، فوجئ الجميع بإحالة صغار للمحاكمة فداء لكبار المتورطين، عندها جاء دور القضاء الذى انتصر لسلطة الرأى العام المغيبة بالعمد، فلو كان عندنا أحد يسمع أو يحس لانتقل مجلس الوزراء إلى "ليمان طرة" فور وقوع الحادث، فلا يعقل أن يعلق دم المئات فى رقبة وابور الجاز، ولا يعقل أن تقيد جرائم القتل بالإهمال مع سبق الإصرار والترصد فى خانة المجهول، وأن ينجو الهاربون بالدم مع الهاربين بالمليارات من مقصلة الحساب الغائب، فإذا كان المال السائب يعلم السرقة، فإن الدم المتروك - بغير القصاص - يغرى بالتوحش، والحاصل أن "حكم المافيا" قد تحالف مع "حكم الغابة" فى مصر التى كانت محروسة.

نعم، لم يعد من أمل فى غير القضاء قبل أن يعاجلنا القدر.

إشارات

* لا نتصور أن قداسة البابا شنودة يطلب التمثيل البرلمانى العادل للأقباط خصماً من حساب وحدة التكوين المصرى.

* ربما يكون مأمون الهضيبى - الجاهز لخلافة مصطفى مشهور - آخر مرشد للإخوان من جيل حسن البنا.

* لا بأس أن تنسحب ليبيا احتجاجاً على بؤس الجامعة العربية، والسؤال: ماذا يفعل القذافى للعرب.. غير الكلام طبعاً؟!.

٣ نوفمبر ٢٠٠٢

وعود دشت

قـد تكون تصريحات أسامة الباز - المحجوبة فى الصحف المصرية - أول استجابة رسمية توحى بشروع فى انفراج، فالباز هو المستشار السياسى للرئيس مبارك، وربما لا يجوز أن نستهين بتأكيداته - لوكالة أنباء "رويترز" - عـن نية مبارك فى عدم البقاء رئيساً مدى الحياة، وأن الرئيس مبارك قد لا يفكر فى الترشيح لولاية خامسة، وأنه لا توريث رئاسى لجمال مبارك.

التصـريحات تبدو لافتة، لكنها لا تزيل القلق، ومستقبل بلد بحجم مصر لا يصـح أن يـبقى موقوفاً على وعود مؤجلة إلى نهاية الرئاسة الحالية فى العـام ٢٠٠٥، ويكفـى أن تفرد خريطة المنطقة أمامك، وتتأمل حالة مصر المحجـوزة فى "جراج" التاريخ، فلم تعد مصر محلاً لإلهام، ولا يصدر فيها صـوت، ولا تـبدو مـن حـركة، وكأننا انتقلنا إلى مخازن الاستيداع، فلا ديمقراطية تخطف البصر، ولا نهضة اقتصادية تؤجل إصلاح السياسة، ولا اختراق تكنولوجى أو نووى أو صاروخى، لا شىء بالمرة، فأسوأ ما يحدث فـى مصـر ألا شىء يحدث على الإطلاق، ولم تكن هذه طبيعة مصر، ولا هـى مـن طبيعة التفاعلات الفوارة من حولنا، لا نتحدث هنا - فقط - عن مخاطر الخنق عند خط الوجود فى الشرق وعند خط الماء فى الجنوب، ولا عـن اختـناقات الداخل المأزوم إلى حافة الانفجار، ولا عن الموات المرئى بالعين المجردة، فكل هذه تحديات بلا استجابات مقابلة، الأخطر: تحلل الدور المصـرى، وقد كان دائماً ريادياً وملهما، وهنا نلحظ توحش إسرائيل خصماً مـن حسـاب الـدور المصرى، أضف: ما يحدث فى إيران وتركيا، وهما الـثقلان الرئيسـيان فـى أصول المنطقة إلى جوار مصر، انظر إلى إيران وحجم الحيوية والصخب فيها، تفاعلات وصراعات لإصلاحيين ومحافظين، وصـياغة ديمقراطـية ودستورية فريدة تكتسح عقبات وضعت فى طريقها، ومشـروع نـووى وصاروخى بالغ التطور، وانظر إلى تركيا التى ألحقت

بالغـــرب قســـراً، فى تركيا دارت تفاعلات الهوية والديمقراطية، وصدامات الدبابـــات العلمانـــية مـــع الجمهور الإسلامى، ومضت التفاعلات على نحو عاصـــف، وبلغـــت الدراما ذروتها بالفوز الانتخابى المذهل لحزب "العدالة والتنمـــية" ذى الأصول الإسلامية، وهو الفوز الذى لم يرد على خيال أحد، فقـــد سيطر الحزب حديث النشأة على البرلمان التركى وبنسبة تناهز الثلثين، وهـــذه ليست مفاجأة انتخابية، إنها زلزال تاريخى بكل معنى الكلمة، وهو – بمعايـــير الـــتوتر الثقافى – أعظم انقلاب سلمى فى التاريخ التركى الحديث والمعاصـــر، وهـــو الرد المكافئ لانقلاب كمال أتاتورك أواسط العشرينيات علـــى بقايـــا الخلافـــة العثمانية، وهكذا تدخل المنطقة عصراً جديداً بإرادة الناس، بينما لا يكاد أحد يسمع أو يحس – ولا حتى المصريين – بما يجرى فـــى مصر، وكأننا انتقلنا – بالجغرافيا – من متن المتن إلى هامش الهامش، وكأنـــنا انتقلنا – بالتاريخ – إلى زمن مماليك ما قبل دولة محمد على، فليس اقتصـــادنا العليل المتخلف – فقط – هو الذى لا يصدر بكفاءة، إنها السياسة التى انتهت إلى الانحطاط وتقزيم الدور.

نعـــم، مصـــر فـــى أشد الاحتياج الآن – لا عام ٢٠٠٥ – إلى صدمة ديمقراطـــية تبعث فيها روح الإلهام، ونخشى إن انتظرنا أن يكون الأوان قد شبع فواتاً، وعندها قد لا تكون من قيمة للوعود المؤجلة أكبر من قيمة ورق الدشت أو مناديل الكلينكس.

إشارات

* مسلســـل "فـــارس بـــلا جـــواد" عملـــية استشـــهادية بقنابل الدراما التليفزيونية.

* لا تخـــافوا مـــن تشدد شارون، إنها رقصة إسرائيل الأخيرة التى قد تهديها الأقدار للرفيق نتنياهو.

* لا تقولوا إن روسيا وفرنسا والصين خانوا العرب فى مجلس الأمن، وانظروا فوق الرؤوس إن كنتم تبحثون عن "الخيانة الأصل".

١٠ نوفمبر ٢٠٠٢

عمى حيثى

نريد أن نعرف ماذا يجرى – بالضبط – فى كواليس السياسة المصرية الآن، فلدينا شكوك وتخوفات وألف فأر ينهش فى الرأس.

الموضوع: أن أمريكا طلبت من مصر – ضمن ٥٢ دولة مختارة حول العالم – تحديد الدعم الذى تتعهد به فى خطة غزو العراق، والموضوع: أن القاهـرة الرسمية استضافت لأربعة أيام حواراً بين "فتح" و"حماس" شاركت فـى الحـث إليه عناصر مقربة من "الموساد" الإسرائيلى، والموضوع: أن زيـارة الرئـيس مبارك الأخيرة المفاجئة لسوريا أحاطتها علامات استفهام تعلـق بعضـها بـإنذار أمريكى لسوريا يطلب إغلاق مكتب حركة الجهاد الإسـلامى فـى دمشق بعد عملية الخليل، عناوين تبدو متفرقة، وإن كانت همزة الوصل تخرق العين، فكلها تتعلق بنهايات دور قيادى كان لمصر التى كانـت عزيزة، والشكوك تشير إلى خلط أصول السياسة بطوارئ البيزنس، والأخطـر: قـبول مصـرى لتكليف أمريكى بأدوار وساطة ضاغطة على أطراف عربية بدعوى التكيف مع لحظة العصف المقبل.

مصادر مطلعة تميل لإعطاء تطمينات بالقطعة، وتقول: إن مصر ليست مسـتعدة لـدور فـى حرب العراق المقبلة على طريقة ما جرى فى حرب الخلـيج قبل عقد مضى، لا بأس، لكن لا أحد يضمن عدم الانزلاق لدور فى ظل سياسة مضطربة أشبه بغابة رمال متحركة، فقد مالت السياسة المصرية إلى تكيف ملموس مع مطالب أمريكا بتكثيف الضغوط على العراق، والحجة المـرفوعة: ضـرورة البحث – بالإفراط فى الاستسلام – عن طوق نجاة، وبديهى أن السياسة المصرية تعرف – يقيناً – أنه لا فرصة لنجاة مع فخاخ التفتيش المنصوبة، رغمها ظلت السياسة المصرية تضغط على بغداد، وتكاد تجـارى السياسة الأمريكية فى تحميل صدام المسئولية كلها، وكأن صدام –

ولــيس بــوش – هــو الذى يهدد بغزو العراق ويحشد البوارج والأساطيل والقوات بطول وعرض خرائط العرب (!).

والتعليقات المصرية الرسمية تتحدث عن "دور قيادى" باستضافة حوار "فــتح" و"حمــاس"، وهذا خلط للأوراق من حيث الشكل، وقلب للحقيقة فى المضــمون، فقد دعت مصر – باتفاق مع الإسرائيليين للأسف – إلى وقف العملــيات الفدائــية الاستشهادية لثلاثة أشهر، ومن حسن الحظ أن المحاولة الــتى تورطــت فيها مصر قد فشلت، وربما تعمدت "حماس" إعلان الفشل بالمشــاركة فى عملية الخليل الأسطورية، ثم أعقبتها بعملية القدس الجريئة نهايــة الأســبوع الماضــى، الأخطــر: ما نشرته الصحافة الإسرائيلية عن كوالــيس الحــوار الذى استضافته القاهرة، تقرير لصحيفة "معاريف"، كتبه مراســلها بــن كيسبيت – ذكر أن دور القاهرة كان مجرد قناع لمبادرة من الاتحــاد الأوروبــى، وأن عميلاً للموساد الإسرائيلى – بريطانى الجنسية – اسمه أليستار كروك – لعب دوراً نشيطاً بالخصوص، وربما يكون ما ذكرته الصحيفة الإسرائيلية مقصوداً لافتعال فتنة، وهو ما يدفعنا لطلب إعلان بيان مصرى يضع النقاط فوق الحروف الذاهلة.

لا نــريد أن نحــرج أحداً، فقط نريد الحقيقة، فالأفضل أن نتأمل هواننا بالعيون المفتوحة، والبديل: أن نتحول إلى أمة "العمى الحيثى".

إشارات

* لمــاذا ننشــر نص "بروتوكولات حكماء صهيون"؟، السبب: انحياز مهنى لحق المعرفة قبل التطوع بفتاوى السياسة.

* يســتحق الأربعاء الماضى أن يسمى "الأربعاء الأحمر"، فقد اشتعلت فــيه حــرب المقاومــة بالدم ضد الإسرائيليين والأمريكيين بالقدس ولبنان والسعودية والكويت فى ذات الصباح الأحمر.

* كــلام زكــريا عــزمى فى برلمان فتحى سرور أخطر وثيقة إدانة لسياسة نهب مصر، لاحظ للمفارقة: إن عزمى هو رئيس ديوان الرئاسة(!).

* توقعــوا انتعاشــاً لسوق التمويل الأجنبى للمثقفين إياهم من ميزانية الإصلاح العربى على الطريقة الأمريكية.

* اطلبوا الحكمة من الصين، واطلبوا الكرامة.. من كوريا الشمالية.

* فرحـت لصـوت على عبد الفتاح - عنوان انتفاضة الإسكندرية - المضـفور بهـواء الحـرية أخيراً، الذين يحتسبون عذاب السجن ثمناً لخلاص أمة يستحقون الفرح فى الدارين.

* مـبادرة تكـريم عبد العال الباقورى - وهو شاب فى الستين - دليل على أن عرق مصر الوطنى لا يزال ينبض.

٢٤ نوفمبر ٢٠٠٢

.. ع الباترون

إذا أردتـم أسـهل طـريقة لاكتشـاف زيف وعبث خطة كولين باول الديمقراطية فتأملوا رد فعل الحكم المصرى.

تعلـيقات رسمية صدرت عن أحمد ماهر وزير الخارجية ونبيل فهمى سـفيرنا فـى واشنطن، بدت التعليقات أقرب إلى التهتهة الدبلوماسية، حائرة خائـرة فـى المسـافة بين الحذر الخجول والتطوع بالتأييد الضمنى، الحذر لتجنـب اتهـام الحكـم المصرى - لا سمح الله - بعصيان لفظى أو تعقيب منفلت على أوامر ماما أمريكا، والتطوع بالتأييد لأن الحكم المصرى يعرف مـا نعرف، فأمريكا لا تريد تغييراً ديمقراطياً ولا يحزنون، ولا ترغب فى الإطاحـة بديكـتاتوريات الطاعة العمياء وتقبيل أقدام صاحب الجلالة السيد بـوش، هـى فقـط تـريد إنهاء خدمات "خيل الحكومة العجوز"، بالتعبير المصرى الدارج، ولا مانع عندها من مد خدمة من يثبت جدارته فى امتحان غـزو العـراق وإيران وهلم جرا، ولا مانع عندها - أيضاً - من التلاعب بعناويـن الاقتصاد والتعليم والإصلاح السياسى على نحو ما جرى فى خطة بـاول ومحاضرة ريتشارد هاس العقل المفكر للخارجية الأمريكية، حريات الاقتصـاد والـتجارة الموصى بها أمريكيا لا تعنى سوى إنهاء ما تبقى من صور المقاطعة لإسرائيل، وتطوير التعليم لا يراد به سوى تنشئة أجيال على محـبة "الآخـر" الأمريكى والإسرائيلى بالذات، والإصلاح السياسى - على الهـوى الأمـريكى - لا يـراد به سوى فتح الباب للعبة مقايضة مزدوجة، مقايضـة الكـرامة الوطنـية بالبقاء على كراسى الحكم، ومقايضة الإرادة الشعبية بديمقراطية حصار "التطرف" المنسوب للتيارات الإسلامية والقومية العربية، ولا يتبقى من معنى للإصلاح السياسى - بعد التهجين الأمريكى - سـوى ركام تختلط فيه اتجاهات السياسة بمصالح البيزنس، والمحصلة.. أن أمـريكا تـريد تغييراً "على الباترون"، وهو نفس ما يريده الحكم المصرى

بإيحـــاءات التوريث الرئاسى، فجمال مبارك – بنسب الدم – يوحى باتصال الـــركود السياسى وديمقراطية الإقصاء، وجمال مبارك – بنسب المصالح – يوحـــى بتوحش نفوذ جماعات البيزنس المولودة والنامية على حجر أمريكا، وربما يفسر ذلك ضعف ذبذبات القلق الرسمى من الخطة الأمريكية الجديدة، وربمـــا كـــان السفير نبيل فهمى مصيباً حين نبه إلى ثناء كولين باول على توجـــيهات الرئيس مبارك، وربما يتبقى – مع ذلك – هامش من الحذر من دوائـــر الحكـــم المصرى، السبب: أن أمريكا – بشهوة المصالح الأبقى – لا تلزم نفسها بشخص بعينه، ولا مانع عندها من "نزوة تحرش" أو "نذالة تخلى" – وكـــل شـــىء نصيب – فى لحظة الخطر، وأن تفسح لنفسها مجالاً أوسع للمناورة، فهى فى حالة "زواج رسمى" مع الحكم القائم، ولا بأس أن تضيف "زواجـــاً عرفياً" من وراء ستار التمويل النشيط لجماعات عمل أهلى، فذلك أدنـــى إلـــى تلبـــية الرغبة فى الاستكشاف المبكر لنذر الخطر، وأجدى فى ضمان سرعة التصرف بإلحاح الظروف القابلة للتغيير، وفى اللعبة ازدواج ظاهـــر، وتبدو فيها أمريكا ضد أمريكا، التفسير ببساطة: أن أمريكا تريد أن تـــرث أمريكا، استولت على حاضرنا وتريد حجز المستقبل، تماماً كما تريد الاتجاهـــات إياهـــاً بحجزنا وتوريثنا الرئاسى، والمغزى فى الحالين: تغيير على الباترون، تغيير ضد التغيير، واتفاق على الخديعة بلعبة تغيير الأقنعة.

باختصـــار: أمـــريكا ضـــد ديمقراطـــية تســـتجلى إرادة الـــناس تماماً كديكـــتاتوريات الحكم القائم، وعمليات التجميل وصبغ الشعر لن تخدع أحداً، واســـألوا الشـــعوب التى تريد لأمريكا ونظم الحكم إياها أن تذهبا معاً.. إلى أقرب جهنم.

إشارات

* إلغـــاء مؤتمـــر حملة مناهضة العدوان على العراق "كوز محبة.. . انخرم" للمندوب الأمريكى السامى.

* غســـيل "الأهرام" لصورة السادات معناه – فيما نخشى – أننا ننتظر مبادرة مصرية – على طريقة صدمة القدس – للذهاب مع أمريكا فى رحلة غزو العراق.

* إذا كـــان رأيكـــم - ذهـــب فضلكم - أن "وابور جاز" أحرق قطار الصـــعيد، و"عُقــب ســـيجارة" أحـــرق القلعة، فانتظروا حرق مصر "بعود كبريت".

١٥ ديسمبر ٢٠٠٢

شوكة فى الحلق

سـوف تظـل هـذه الجـريدة شوكة فى حلق الذين أكلوا لحم مصر، ومصمصوا العظام، ويرمون البقايا فى الطريق العام.

سـوف تظل هذه الجريدة وفية لشرط الضمير، لا تعرف البين بين، لا تصالح ولا تهادن، لا تضيع فى ركام الرماد، لا تحتمى من بطش بالاختباء فـى الخـنادق، ولا تطلب الراحة فى حياة الفنادق، لا تخاف من ظلم، ولا تخرس عن علم، لا تنحنى لتدخل من الأبواب، ولا تخشى أن يرتطم الرأس بالسـقف، فسقفنا السماء، والصحيفة تفقد قيمتها لو تصرفت بحس الفريسة، والكاتب أبقى من الحاكم، والجريدة الحرة - حقاً - بألف مما تعدون.

سـوف تظـل هذه الجريدة عنواناً على الناصرية كما ينبغى أن تكون، ناصـرية العصـر لا ناصرية الحصر، ناصرية الوعى لا ناصرية الوحى، ناصـرية الـتجديد لا ناصرية التبديد، ناصرية الحركة الوطنية لا ناصرية الشوطة السلفية، فالقيمة الكبرى لجمال عبد الناصر أنه وعى عصره ودوره فـى التاريخ، قرأ الكتاب وأدرك الواقع، عرف النصوص والتقط الفصوص، صـنع الناصرية كقمة نامية لتراث الحركة الوطنية، لم يبدأ من أول السطر ولا توقـف عند آخره، أعطى الأولوية للتناقض الوطنى، ولم تغب عينه عن التناقضـات الطبقية والثقافية، المميز: أن هدف الاستقلال الوطنى والنهوض القومـى كـان البوصـلة المرشدة دائماً، لا نريد الدخول فى تفاصيل، فقط نـتوقف عـند الجوهرى، فالناصرية حركة إلى يسار المجتمع، والأهم: أنها حركة إلى الأمام، والمعنى: ذهنية متألقة ومقدرة فائقة على إدراك المشترك الوطـنى الجـامع، وهـذا هو الدين الذى نقبض عليه وإن اشتعلت أصابعنا بالجمر.

سـوف تظـل هـذه الجـريدة صوتاً للديمقراطية كما تستحقها مصر، ديمقراطـية التغيـير لا ديمقراطية التعهير، ديمقراطية الناس لا ديمقراطية

الحـــراس، ديمقراطية التأسيس لا ديمقراطية التوريث، فقد خلقنا الله أحراراً، ولســـنا عقاراً ينقل أو يورث، وكأنه لا يكفى أنهم باعوا الكرامة الوطنية فى سوق العبيد، وباعوا ثروة مصر وضيعوا قلاعها الإنتاجية فى سوق النهب، أورثـــوا دولـــة القطـــاع العام لعصابة النهب العام، أذلوا الرقاب وأخضعوا العـــباد، واستمســـكوا بعـــروة الفساد الوثقى، وجعلونا عجباً بين الأمم، فلا صـــوت ولا حـــس ولا خبر، لا أحزاب طليقة السراح ولا صحف تعارض بجـــد، لا شـــارع يصحو ولا تظاهرات فى عين الشمس، جثث وراء جثث، وشعب بأكمله فى صلاة الجنازة.

ســـوف تظل هذه الجريدة هى الاستثناء الفريد النادر، كلمة الاعتراض فـــى جملـــة الهوان، العنقاء التى قامت من رماد، المعجزة المصنوعة بذوب القلـــوب واحـــتراق الدم، صوت الذين لا صوت لهم، ولا نخشى أن يختنق الصـــوت وينكتم النفس، فالشهداء وحدهم هم الأحياء عند ربهم – وشعبهم – يرزقون.

إمام الليبراليين

لـــم يمت محمد عصفور فقيه القانون الدستورى، فالقيم الجليلة لا تموت أبداً.

لا نـــتحدث عـــن الكفاءة والعبقرية المهنية لمحمد عصفور، فهو عميد المحامين المصريين بشهادة القاصى والدانى، لكنه – أيضاً – عميد الليبرالية الوطنـــية بامتـــياز، اختلف عصفور مع ثورة عبد الناصر فى الشكل، واتفق معهـــا فـــى المضـــمون، اختلف فى واقعة أو أخرى مما يزول، واتفق مع المـــبادئ التى تبقى، وكم كان امتناننا عظيماً لانحياز محمد عصفور – بكل هيبـــته وجلالـــه – إليـــنا فـــى معارك "العربى" المتلاحقة، فقد أعطانا الثقة بليبراليته تماماً كما أعطيناه الثقة بناصريتنا.

نعـــم نقولهـــا – ونحن الناصريين – لقد فقدنا جيشاً وعزوة برحيل إمام الليبراليين.

٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢

اغضبوا مرة

ثلاثة أطفال فلسطينيين غاصت السكاكين الإسرائيلية فى لحمهم البرىء، الأطفال كانوا قد استشهدوا قبلها، واحتضنت الأرض أجسادهم المثقوبة بالرصاص، لكنه الإمعان فى التنكيل وشهوة الانتقام الحيوانى، والناجون من القتل لهم مصائر ليست أقل قسوة، طوابير من الفلسطينيين عند الحواجز العسكرية الإسرائيلية، والاختيارات ثلاثة لا رابع لها، إما كسر الرجل أو كسر اليد أو كسر الأنف، وما من دليل أبلغ على طيب العيش ونعيمه "الحضارى" فى دولة "الرفاه" الوحشى (!).

هذه ليست حواديت أمنا الغولة، إنها المشاهد الأخف فى دفاتر البطش اليومى بالفلسطينيين، والمشاهد الأعنف تسيل على وجوهنا بالدم، اعتقالات بالآلاف، ومخيمات احتجاز تذكرك بفظائع معتقل "الأنصار" فى الجنوب اللبنانى، وتصفيات منتظمة لشباب المقاومة ورجالها ونسائها، وهدم روتينى للمنازل بالبلدوزرات، وجرف لحقول المزروعات، واقتلاع لأشجار الزيتون، محرقة هائلة لشعب بأكمله، كل ذلك يحدث فلا ينبض فينا عرق ولا يشعر عصب، كأننا كائنات روبوت، نستلقى على القفا، أو نفتح عيوننا كالبلهاء، ونتلقى أرقام قتل الفلسطينيين كأنها نتائج لمباراة فى كرة القدم، أو كأنها زاد الهوان الذى تقر به الأفئدة وتشبع الحواس.. وتنام.

لا تقولوا ماذا نفعل وحكامنا على ما تعرف؟، فهذا هو العذر الأقبح من الذنب، كأنكم تقولون إننا على مقاس الحكام، كأننا الأحذية فى الأقدام، كأن بيوتنا أقفاص حيوانات بيد الحكام أقفالها، كأن قلوبنا غلف تيبست شرايينها، كأن أفواهنا مقابر، وعيوننا حفائر، وأيدينا كبائر، كأننا حذفنا من قاموسنا الأخلاقى – إن كانت بقيت لنا أخلاق – معانى الشرف وكرامة الإنسان، كأننا رضينا بالذل قدراً مكتوباً، وودعنا عزة النفس عند الزمن الذى لم نعد نذكره، تحولنا من شعوب إلى سكان، مخلوقات لها صورة الناس، تأكل

وتشـــرب وتمشى فى الأسواق وتختنق فى الزحام، جيف نتنة تكدست كأنها فوائــض الـــركام البشرى، لا أحد يصرخ فالألسنة مقطوعة، ولا أحد يرفع أصـــبعاً فالســـكون مـــن كمال الأدب، لا نحترم إشارات المرور، ونصطف وقوفـــاً عـــند إشارات القبور، عجزنا خبزنا، وحضورنا غيابنا، وحياتنا هى المـــوت، ولا يكـــاد يعرف التاريخ أمة مثلنا من النفايات والرمم، نفيق من ســـكرة الـــنوم على فكرة العجز، يومنا خمر، غدنا ليس أمراً، شلل رباعى، وعطـــب فى المخ، وهمود فى الروح، وجثث وراء جثث فى صلاة الجنازة الجماعية.

لا تقولـــوا مـــاذا نفعـــل؟، بـــل استذكروا أولاً من أنتم؟، إن كنتم شعباً فاغضـــبوا مـــرة، إن كنـــتم بشـــراً فلا تخافوا خيالات المآتة، فالحكام الذين ترهـــبونهم مجـــرد أوهـــام، لا حـــاكم عـــربى - حتى لو حقت عليه صفة الديكـــتاتور - يستحق وصف الحاكم، فهم ليسوا أكثر من مقالب قمامة، وإن شـــئت الـــتحفظ فهم مندوبو مبيعات، أو رؤساء بلديات، فلا اختيارات، ولا سياســـات، ولا مهابـــة، والعصا التى فى أيديهم أكلها النمل، ولم يبق إلا أن يأكل عظامنا السوس.

لا تقولـــوا ماذا نفعل؟، فلم يعد من ترف فى اختيار، انفجروا أو موتوا، فالرعب الأكثر من هذا سوف يجىء.

إشارات

* اختصاص شيخ القضاة المستشار يحيى الرفاعى لـــ "العربى" بوثيقة اعتزاله التاريخية شهادة تكريم لجريدة شعارها "حرية تكفى ألف صحيفة".

* توقعـــوا نباحاً من حكامنا المحكومين يطالب صدام حسين بالاستقالة، الســـبب: أن أمـــريكا نصـــحت بدفع صدام للجوء سياسى، وأحلام سيادتها "أوامر".. عند العبيد طبعاً.

* ماكدونـــالدز الأمريكى فى المنصورة أغلق أبوابه، الحدث هو الثانى مـــن نوعـــه فى مصر، والعقبى لإغلاق دار المندوب السامى الأمريكى يوم نقوم من موتنا.

٥ يناير ٢٠٠٣

الحجّ إلى "أوشفيتز"

لا أعـرف لماذا تذكرت – وأنا أتلقى تفاصيل القصة المريبة – جماعة ظهـرت أخـيراً فى حى المعادى القاهرى باسم (مبادرة الحقوق الشخصية) لـتدافع عن حقوق الإخوة اللواطيين والأخوات السحاقيات، ربما لأن القصة أقرب لشذوذ عقلى يستدعى صدمة الشذوذ الجنسى، فهى قصة عرب – ولو بالاسم – لم يعد لهم من همّ فى الدنيا ولا فى الآخرة سوى تبنى ما قد تصح تسميته بـ "مبادرة الحقوق اليهودية".

عناويـن القصـة بـدت بريئة فى الظاهر، ثلاثة أشخاص من الأرض المقدسـة فى زيارة للقاهرة، أهلاً وسهلاً، ثم يبدأ الشك بداخلك عندما تتبين أنهـم يـزورون القاهـرة بتنسيق مع جهة رسمية، إذن فالقصة لها علاقة بالسعى المصرى المدفوع لوقف العمليات الاستشهادية الفلسطينية، ما علينا، الأغـرب: أن الـثلاثة ألحـوا على لقاء مباشر بجهات منسوبة للمعارضة، وجـرت اتصالات لترتيب اللقاء فى نقابة الصحفيين، وتهربت النقابة خشية الوقـوع فى فخ، وبدا شعور الاسترابة فى محله، فقد ذهب الثلاثة للقاء فى مركـز الأهرام للدراسات الاستراتيجية بالإيحاءات إياها، وهنا أسفر الثلاثة عـن الوجـوه، إمـيل شوفانى قس كاثوليكى من الناصرة المحتلة ذو هوى فرنسـى، وأحمد عفيفى ملياردير له حضور غامض، ونظير مجلى صحفى من حزب "راكاح" اليسارى ذى القيادة الصهيونية، قد لا تهم الأسماء، وقد لا يتوقف أحد كثيراً عند الجنسية الإسرائيلية التى يحملونها لأعذار قاهرة، فثمة عـرب بالجنسية الإسرائيلية أخلص من عرب بالجنسيات العربية، ولا يبدو الثلاثة من هؤلاء، فميولهم أقرب إلى التسليم بفكرة "الأسرلة" وتذويب العرب فـى كـيان الطابع اليهودى، وهم – على أى حال – لم يتركوا لأحد فرصة للـرجم بالظـن، فـبعد كـلام شـائع فى الوضع الذائع، دخلوا مباشرة فى الموضوع، فهم ثلاثة رسل من ستين عربياً "إسرائيلياً" يعتزمون إصدار بيان

مشـــترك مع ستين يهودياً إسرائيلياً. الموضوع: إعلان محبة العرب لليهود وبراءة المسلمين من العداء للسامية، ولأن اللفظ لا يشفع لغياب الفعل، ولأن الإيمـــان ما وقر فى القلب وصدقه العمل، فهم يعتزمون الحج الجماعى إلى مـــتحف "أوشـــفيتز"، وأوشـــفيتز – لمـــن لا يعلـــم – كانت موضعاً لأكبر معســـكرات الاحـــتجاز النازى لليهود فى الحرب العالمية الثانية، وقد حولته الحركة الصهيونية إلى متحف تذكير دائم بفظائع النازى ضد اليهود، وتجديد "عقـــدة الذنـــب" عند الأوروبيين والغرب بعامة واستجلاب مئات المليارات اللازمـــة لصـــناعة وتسليح ودعم دولة الاغتصاب الإسرائيلى فى فلسطين، وأن يذهـــب الأوروبـــيون للبكاء عند حائط "أوشفيتز" فهذا مفهوم، أما ذهاب عـــرب للـــبكاء هـــناك فهـــذا هو الشذوذ العقلى والوجدانى بعينه، وعلامة الانفصـــال التام عن هموم الأمة، ودليل الذوبان التام والتماهى المرضى فى هموم الآخر الغربى – الإسرائيلى، ويصعب الزعم – ولو على سبيل التبجح – بـــأن هـــذه نزعة إنسانية، فالإنسانية ليست انخلاعاً من الجذور وجاذبية الأرض والســـياق الـــثقافى، الإنسانية بلا انتماء أصلى إفقار لأبجدية التنوع البشـــرى، والإنســـانية بلا وجود ذاتى سباحة فى مناطق "انعدام الوزن"، فلم يكـــن أحـــد من العرب أو المسلمين أو مسيحيى الشرق عضواً فى الحزب النازى، ولم نكن بالجغرافيا ولا بالسياسة بعضاً من الغرب بتواريخه الدامية المـــثقلة بالخطايا، ولم نكن نحن الذين عذبنا اليهود فى "أوشفيتز" ولا قتلناهم ولا أحرقناهم، لم نكن فى القصة من أصلها، وقصتنا ببساطة: أن الغرب هو الـــذى اســـتذلنا وسرق ثرواتنا وقتلنا بالملايين، وأن يهود إسرائيل – بدعم الغـــرب – هـــم الذين قتلونا وعذبونا وأحرقونا وطردونا واغتصبوا ديارنا وأهلكـــوا ويهلكـــون الحـــرث والنسل، ومذابح النازى لليهود – فى أوشفيتز وغـــيرها – لعـــنة أطفال لو قورنت بمذابح "يهود إسرائيل"، للعرب مسلمين ومسيحيين، فلماذا نذهب إلى "أوشفيتز" إذن؟، أيذهب الضحايا لالتماس العذر للجـــناة؟!، الطـــريف: أنهم ينتحلون صفة "المبادرة الثقافية" لفكرة الحج إلى أوشـــفيتز، والوصـــف الشاذ يذكرك بتسمية شباب "الروشنة" لشريط الشذوذ الجنسى بأنه "فيلم ثقافى" (!)..

بقيـــت نقطـــة أخطر، وهى أن الصحفى حسين عبد الرازق – القيادى بحـــزب التجمع – لعب دور الرفيق الدائم لجماعة الشذوذ العقلى والوجدانى

فـــى رحلة القاهرة، وهو الذى رتب اللقاءات، وسعى لاستدراج آخرين إلى مـــبادرة "التطبـــيع علـــى طريقة أوشفيتز"، وهنا نتوقف عن الكلام المباح، ونضع نقطة ليست فى آخر السطر.

١٢ يناير ٢٠٠٣

.. إنّا ها هنا "ميّتون"

دقت ساعة الحرب، ولم يعد من ترف فى اختيار.

لم يعد للعراقيين سوى أن يقاوموا بما ملكت الأيدى من سلاح، حتى لو قـاتلوا وحدهـم، نعرف أن توازن القوى مختل، وأن خناجر الخيانة تخترق ظهـر العراق من كل صوب، وأن التخويف والحروب النفسية ضد العراق، غير مسبوقة، وأن الناصحين المزيفين يريدون استسلاماً شاملاً مهيناً للعراق بـلا طلقـة رصاص ولا نفس مقاومة، وكل هذه الظروف مما يقبض القلب ويظلم الروح، لكنها ساعة الحرب حين تدق، لا تترك من خيار لشعب سوى المقاومـة، فالمستهدف ليس نظام حكم بعينه، المستهدف ليس صدام حسين، وكاتـب السـطور قومـى عربى، ويرى فى صدام حسين ديكتاتوراً عربياً كغيره، ولا مانع عندى من الانضمام لدعوة لاستقالة جماعية للحكام العرب، لكـن دعـوة صدام حسين وحده للاستقالة مشبوهة فى توقيتها مفضوحة فى الأهـداف، فـلا علاقة لها بدعوى تجنب الحرب الوشيكة، بل هى جزء من المجهـود الحربى الأمريكى، فأمريكا تريد إزاحة حجر عثرة عن طريقها، تريد تفكيكاً مفاجئاً سريعاً لنظام محوره هو الحضور الفردى لصدام حسين، تريد إشاعة الفوضى لتسهيل مهمة السلاح، تريد للطلعة الأولى أن تكون هى ذاتهـا الطلقـة الأخيرة، تريد نزهة سلاح تنتهى فى أقرب وقت، فقد تملك أمـريكا أن تقصـف العراق من الجو لأسابيع أو شهور، وقد تستطيع تنظيم غـزو برى سريع، لكنها تعرف أن المعركة الأصعب تنتظرها فى الشوارع وعلـى حـواف المـدن، وتتخوف من ضرائب دم ثقيلة لا تستطيع تحملها، والخـيار الأسلم لها أن ينتهى كل شىء قبل أن يبدأ القصف الجوى، وإزاحة صدام كسب رمزى للحرب قبل أن تبدأ، وكما أن دعوى استقالة صدام الآن لا علاقة لها بتجنب الحرب، فلا علاقة لها – أيضاً – بطلب الحرية للشعب العراقى، فليس مطروحاً على العراقيين – الآن – اختيار بين صدام الحاضر

والديمقراطية الغائبة، المطروح الآن – فى الجوهر والمظهر – إزاحة حكم عراقى ديكتاتورى وإحلال حكم أجنبى له سلطة الاحتلال العسكرى، المطروح الآن مقايضة بين صدام والاحتلال، والشعوب الحية لا تقع فى الخية، الشعوب الحية لا تخضع لاحتلال حتى لو وعدها بأنهار اللبن والعسل، الشعوب الحية تعرف أن مقاومة الاحتلال هى طريقها للحرية، الشعوب الحية تعرف أن حريات الإنسان لا تنفصل عن حريات الأوطان، والشعب العراقى ليس فى عداد الموتى، وليس من خيار أمامه سوى أن يكسب حريته واستقلال وطنه معاً، ليس من خيار أمامه سوى أن يقاوم قوات الغزو الأمريكى ودمى المخابرات الأمريكية المنسوبة لـ "المعارضة العراقية" بالزور والبهتان.

لم يعد للعراقيين سوى الاستعداد لقتال طويل مرير، قد يهزمون مرة، وقد يدفعون إلى تراجع، وقد تضربهم الكثرة، وقد تبدو لهم مقابر اليأس أقرب من فرج الأمل، لكن العراقيين – بطبع أمتهم النبيلة – لن يهزموا إلى النهاية، وقد يخسرون معركة لكنهم – فيما نثق – سوف يكسبون الحرب، فلم يسبق لقوة احتلال مهما تجبرت أن هزمت شعباً، وحرب العراق هى حرب شعب لا معركة نظام، وليس بوسع أمريكا أن تحكم العراق بالريموت كنترول، ولا بوسعها أن تنهب بتروله بحكومة عملاء، وليس بوسعها سوى أن تهبط بقواتها إلى الأرض وشوارع المدن، وهذه نقطة الضعف الظاهر فى الخطة الأمريكية كلها، وتذكروا أن قوات "المارينز" الأمريكى هربت مذعورة كالفئران بعملية استشهادية واحدة، وبغداد ليست أقل كرماً بالدم من بيروت، وكلاهما من الحواضر المضيئة لأمة القنابل البشرية.

لم يعد للعراقيين سوى أن يقاتلوا، وهم سوف يفعلون، لكن عقدة الذنب سوف تظل تخنقنا إلى يوم يبعثون، ذنب أن عقدنا أيدينا المشلولة على الصدور المقهورة، ذنب أن قلنا للشعب العراقى: اذهب أنت وربك فقاتلا.. إنا ها هنا "ميتون" (!).

إشارات

* قومى يا مصر، نداء – ليس أخيراً – لكل المصريين مع هبة ريح ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧.

* هــل نحتاج إلى "فرق تفتيش" تبحث عن ذرة كرامة مخفية فى خبايا الرؤوس المهانة.

* سياســة "عــبد الفــتاح القصرى" فى الأزمة العراقية خيانة لمصالح الشعب المصرى.

* الفقر كان زمان، كذبة لعاطف عبيد تثبت أنه يدير حكومة خواجات.

* هــل صــحيح أن الحكومة السودانية بعثت وفوداً لتعلم الزراعة فى إسرائيل؟!. الخبر الصدمة نشرته "معاريف" الإسرائيلية.

١٩ يناير ٢٠٠٣

كنس السيّدة

لا يلـــيق بالقاهرة أن تلعب دور المقاول السياسى فى فراغ الوقت، ولا أن يـــنحط دور مصـــر إلـــى مجرد دواء مسهل وملين يشتريه شارون من صيدلية الضغوط الأمريكية.

الله ســبحانه وتعـــالى يأمرنا بالاستتار مع عموم البلوى، لكن السياسة المصـــرية لا تتســتر علـــى خطاياها، بل ويصل بها التبجح إلى حد تحويل الخطايـــا إلـــى أمجـــاد، والكوارث إلى إنجازات، وافتقاد الدور الأصلى إلى شـــراء دور فصـــلى حسب تقلبات الطقس، وتتعامل مع الرغبات الأمريكية على طريقة "شبيك لبيك"، ولسان حالها البيروقراطى يقول للراعى الأمريكى "أحـــلام سيادتك أوامر"، أمريكا تقيم الدنيا ولا تقعدها حتى تتوقف العمليات الاستشـــهادية الفلسطينية، وشارون يخبط ويرزع ويقتل ويقتلع ويدمر لوقف العملـــيات والانتفاضـــة برمتها، والسياسة المصرية – ولا داعى للعجب – تقول هذا هو عين العقل، وتسعى لتوصيل البضاعة لحد البيت. الأبيض (!)، وتبـــيع الوهـــم الذى اشترته للفلسطينيين، ولا مانع من إضفاء دور رسولى علـــى المهمة الفضيحة، كأن تقول القاهرة إنها تحاول لم الشتات الفلسطينى، أو أنهـــا تـــنهض بما عجزت عنه السلطة الفلسطينية من جمع الفرقاء على مـــائدة حـــوار، ولا أحد يمانع – بالطبع – فى حوار فلسطينى شامل، المهم طبـــيعة الحوار وأهدافه، وهنا لم تدع القاهرة من فرصة لتخيل استعادة كرم ضـــيافة بالمجان، ولا بدوافع الدور الوطنى والقومى، فهى تريد شيئاً محدداً بعناية، تريد دفع الفلسطينيين لتوقيع بيان جماعى يوقف الانتفاضة، أو ينهى المقاومـــة المســـلحة على الأقل، تريد أن تثبت لأمريكا أنها فى الخدمة، ولا تخفـــى الصحافة شبه الرسمية حقيقة الهدف، وإن حاولت تغطية الخيبة بكلام فـــارغ عـــن مـــزايا التهدئة المطلوبة على الجبهة الفلسطينية، والدعوى: أن الهدوء الفلسطينى ربما يدفع أمريكا إلى تهدئة السيد شارون، وهذا خبل – لو

حسـنت نـياته – يذكـرك بطمع إبليس فى الجنة، فصحيح أن أمريكا تريد الـتهدئة الفلسيطينية، تريد إطفاء نار الانتفاضة الفلسطينية فى سياق مختلف بالجملـة، تـريد لفـتح النار على الجبهة العراقية أن يجرى فى بيئة ألطف فلسـطينياً، ولا مـانع عـندها من نثر الزهور والوعود بدعوى البحث عن تسوية ما، بينما لا تسوية ولا يحزنون، فالتسوية الوحيدة التى تريدها أمريكا – لحسـاب شـارون – هى تسوية الفلسطينيين بالأرض، ويصعب تخيل أن السياسـة المصرية لا تفهم، فهى – على الأغلب – تفهم وتطنش، والأهم – عـندها – تلبية طلبات الزبون الأمريكى، وتطمع فى أجر المحسنين لا جعل الله بـيوتهم عماراً، ولا مانع من التضحية بالبقشيش لو جاءت "الطبخة" أقل مـن المقـام السامى، المهم أن يبقى الخط الساخن مفتوحاً لتسهيل الاستدعاء عند الحاجة، وأن يتواصل الدور المصرى – فى طبعة البؤس – بالاستعداد النشيط لتوصيل الطلبات للمنازل.

ولا حاجـة لكنس تراب "السيدة زينب" على رؤوس الساعين لاستدراج مـنظمات الفداء الفلسطينى إلى الخية المنصوبة، فلن تتوقف الانتفاضة حتى لـو ركبـت السياسـة المصـرية أعلى ما فى خيلها، ولن تتوقف العمليات الاستشـهادية فـى أى وقـت، إلا أن تعـود الـنجوم لمداراتها، والساعات لمواقيـتها، وأن تعود مصر إلى مصر لا أن تظل فى الخدمة على رصيف محطة التشهيلات الأمريكية.

دينا وأخواتها

الراقصـة اللهلوبة دينا تحولت – بقدرة قادر – إلى أهم خبر فى مصر الآن، وشـريط دينا الجنسى مع ملك القروض المنهوبة حسام أبو الفتوح أهم مـاتش كـروى وأحسـن فيلم فى السوق السوداء، و"صحافة دينا وأخواتها" دخلت فى سباق صاروخى مع جنون الدولار.

فهـل المبالغة فى حواديت دينا مجرد مصادفة؟، أم أن فضح الراقصات أهـون خطـراً من انفضاح السياسات؟، والراقصات لا مؤاخذة على قفا – وبطن – من يشيل.

بابا نويل

يـــبدو أن السفير الأمريكى ديفيد وولش أصابه الدور فى ترقية مفاجئة، وانتقل من دور المندوب السامى إلى مرتبة حاكم عموم "الزير" المستر ديفيد يتجول على راحته فى مدن قبلى وبحرى مصحوباً بالتشريفة الرسمية، وينثر الـــبركات والمـــنح، ويتلقى طلبات التوظيف، ويحذر الولاة – المحافظين لا مؤاخـــذة – مـــن عواقـــب إهدار أموال دافع الضرائب، ويتدافع الفقراء إلى عطف ومعطف سيادته كأنه "بابا نويل".

اللهـــم لا اعتراض، فقط – من فضلكم – انشروا خبر ترقية وولش فى "الوقـــائع الرسمية"، أو انشروا خبر نهاية استقلال مصر فى صفحة الوفيات بـــ "الأهرام".

٢٦ يناير ٢٠٠٣

سياسة بالدولار

كأننا بالجغرافيا انتقلنا إلى واشنطن، بالسياسات، بالهموم، بالمصالح، بالشخوص التى تدافعت بالمناكب - لا بالمناقب - فى موسم الهجرة لواشنطن.

لا تجد أحداً رسمياً فى عنوانه بالقاهرة، اتصل الآن فى واشنطن، جمال مبارك وأسامة الباز ويوسف بطرس غالى هناك، وبعثة "الأهرام" ذهبت إلى هناك برياح السياسة لا بحساسية المهنة، والذين ظلوا فى القاهرة بالجسد، انتقلوا بالروح والقصد والقرار إلى كعبة البيت الأبيض، جولات الرئيس مبارك فى الخليج انتهت إلى الكويت حيث حشود القوات الأمريكية المتأهبة لغزو العراق، وجهات أخرى معنية بصراعات الكواليس أخذتها من بابها، وتكفلت باستدراج الفلسطينيين إلى الخية المنصوبة، وتعهدت - لتسهيل اعتماد الأوراق - بتسليم الاستشهاديين الفلسطينيين أسرى مقيدين فى العجز الذى هو الراية المرفوعة، ولا مانع من الكذب وتصديق الأوهام، لا مانع من تهنئة شارون بالفوز لعله وعساه يحن علينا ويتفهم الحاجة لافتعال دور، وكان لابد من إطلاق دخان ساتر وصواريخ تلهى بالضجيج، كان لابد من فرح ظاهر فى حفل زفاف مصر إلى المنتصرين على الأمة، وتقدم عاطف عبيد للدور "لابس مزيكا"، ولعلع الدولار - بأزيز الرصاص - فى سماء القاهرة وأسواقها، وربما لم تشهد الدنيا رئيس وزراء يعلن وقائع موت عملة بلاده، وهو ممتلئ بكل هذا الزهو، ربما لم تشهد الدنيا انتحاراً كهذا بدا كأنه أحلى اختيار، وبالطبع لم ينزل الوحى السماوى على عاطف عبيد، ولم يك فى المهد نبيا ولا صبيا، ولم يك فى القصة كلها رسالة ولا رسول إلا البنك الدولى وكتبه، وملائكته فى واشنطن، هبط رسل البنك الدولى إلى مصر قبلها بأيام، واجتمع الرئيس بوزرائه وعاطف عبيد على يمين الطاولة فى اليوم الموعود، ولم يصدر بيان "موت الجنيه" عن الاجتماع الرئاسى، كان

لابــد من ممثل له ملامح الشخصية الكارتونية، وكان لابد من مسرح ظليل بالـــرعاة الأجانب الذين هم "أهل الحل والعقد"، ونهض عاطف عبيد بالدور على مسرح المؤتمرين المتنمرين فى اجتماع "الإيكونومست"، وهكذا انتهت لعبة "الخض والرج"، واكتملت مراسم الجنازة، فلا بلد يهم، ولا برلمان، ولا حكومة، ولا عافية اقتصاد، ولا قواعد إنتاج، ولا موازين أسعار، ولا شعب من أصله، المهم: عملية الإسراع بالدفن، ولا تسأل – أكرمك الله – عن مآل الجنـــيه المصـــرى، فـــالخطوة المقبلة قد تكون اعتبار الدولار عملة مصر الرسمية، وهذه هى الجرأة الاقتصادية وإلا فلا، فالعملة تكثيف نقدى لكرامة وطـــن، العملة رمز جغرافيا وعنوان تاريخ، وما يجرى على الوطن يحدث للجنـــيه، وإذا كانت السياسة فى بلدنا بالدولار، فلم لا يصبح الاقتصاد كذلك، وموســـم الهجرة لواشنطن هو ذاته موسم الهجرة للدولار، والبركة فى ماما أمريكا التى وعدتنا بالمصروف مقابل ذهابنا معها بالصمت أو بالتواطؤ فى رحلة غزو العراق.

ونحـــن – لا ســـمح الله – لا نلوم أحداً، فأحاسيس الكرامة لا تباع فى صـــيدليات الطغـــيان، فقط نقول: افعلوا ما شئتم، ودعونا ننتظر – معكم – ساعة حساب، ترونها بعيدة ونراها أقرب من رمش العين.

ليس باسمى

"الأستاذ..

كـــنا نعيش فى عصور الجاهلية فرزقنا الله بالنبى محمد صلى الله عليه وســـلم فـــتلاه بأبى بكر الصديق فالأسطورة عمر بن الخطاب فعثمان فعلى، ولأنـــنا أمة لا تجيد رقصة الفوز أتانا اليزيد، ولأن الله يحبنا جاءنا بعمر بن عـــبد العزيـــز وبعـــد أن رشـــفنا العسل رضينا بعده بالهوان وهكذا يمضى تاريخنا العربى الإسلامى ما بين ناصر ويزيد!!.

لقـــد ســـئمت مـــن أخبار ضربة قد تأتى أو تغيب ضد العراق، كرهت صـــور شـــهداء فى فلسطين يمنحونا دماء لا نستحقها، تآلفت مع صور عدم عدالة التوزيع فى كل شيء. مع اختلاسات البنوك، مع بيانات الحكومة، مع سقوط منظم لأوراق توت نظامنا الاجتماعى.

أحـــاول جاهداً أن أتحلل من خطب عبد الناصر ومقالات هيكل وأشعار محمود درويش، لكن هذا الضمير الكلب يأبى.

لقــد باع الكثيرون فلماذا نتشبث بمحاولة أخيرة للموت كشرفاء، ولماذا تذهــب كفــى إلى حافظتى وقدمى لبائع الجرائد وعينى لحروف عبد الحليم قنديل وهو يكتب لوجه الوطن فأكتشف أننا لا نصلح للهزيمة ونحن الغارقين فيها!!.

لوجــه الوطــن أســتحلفك – سيدى – أن تظل تكتب فأنا لا أرى الآن سواك يكتب باسمنا جميعاً. لا أدرى لماذا أكتب لك.. ربما لشعور خفى بأن نبضك بدأ يخبو. فماذا إن قلت لك إننى نبتك وهناك – مؤكداً – من يسعدون بك ومن يحاربون حتى لا يعود اليزيد مرة أخرى.

اكتب حتى يستقيم تاريخنا مرة أخرى وأخيرة".

مهندس محمد على إبراهيم

مصنع السبائك الحديدية – العطوانى – إدفو

إشارات

* كنــت أتمــنى لو انشقت الأرض وابتلعتنى، ولا أرى رئيساً مصرياً يهنئ شارون بالفوز كما حدث هذا الأسبوع!.

* أشــعر بعظيم الامتنان لعطف – لا أظننى أستحقه – جعلنى موضع تكــريم مع نور الشريف ومحمد صبحى وحمدى قنديل وسميحة دحروج فى حفل قومى لاتحاد الأطباء العرب.

* العزيز المهندس أحمد حمادة: نثق أن عناية الله لن تخذلنا فيك.

٩ فبراير ٢٠٠٣

بصرك اليوم حديد

دون حاجة لعين زرقاء اليمامة، أتوقع أن تتفجر آبار الغضب فى مصر، وكما لم يحدث عبر خمسين سنة مضت، لا أعنى – بالضرورة – أن تثور مصر، بل قد تتقيأ غضبها المحبوس الممرور فى دفعة صاخبة هادرة، فالهدوء الظاهر على السطح يخفى احتشاداً وامتداداً يجرف النفوس، وخلل السياسة وصل إلى نقطة اللا عودة، والبلد على شفا انهيار دراماتيكى، وسيناريوهات الانقلاب أو حريق القاهرة أو هبة يناير ١٩٧٧ واردة جداً.

قد يرمينا البعض بتهمة التفاؤل، ونحن والله أبرياء، فقد رزقنا – منذ نزع الحبل السرى – بتشاؤم فطرى، ثم إن هذه هى لحظة الحج الجماعى إلى بيت التشاؤم، وسيناريو الغضب المصرى المتوقع لا يدعو بالضرورة إلى تفاؤل، فالوجود المصرى يبدو سائلاً رجراجاً، والسياسة الجوفية – بمخزونات الغضب العشوائى – هى سيدة المسرح المرئى المخفى، والجماعات المنظمة ثلاثة لا غير، جماعة الجيش – التى نقدر وزنها التاريخى – بدورها المنظور غير القابل للتراجع بإشارات الخطر عند الحدود وفى داخلها، وجماعة الإخوان المسلمين الساكنة فى خندق الاحتجاج دون مقدرة على التقدم إلى مبادرة تغيير مقبول وطنياً واجتماعياً وثقافياً، وجماعة البيزنس المتربصة – بدعم أمريكى لا يخفى – وراء سيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك، هذه هى الجماعات المؤسسية بالمعنى المفهوم، وباقى ظواهر المشهد أقرب إلى التفاصيل وركام الرماد، الأحزاب والكنيسة – وأضف ما شئت – تبدو مرشحة لأدوار الكومبارس، وربما تذيبها حرارة الصهر فى صدمة الانفجار العشوائى، أو قد تولد على نحو مختلف لو احترقت القيود، وغياب الناصريين – بالذات – يبدو جارحاً فى لحظة الذل القومى وزمن النهب العام، فالشارع المصرى – بالظهور الإخوانى فيه – يبدو مشدود البصر إلى عناوين اليمين، وافتقاد التنظيم

الجـامع الكـفء للناصريين يجعل اليسار خارج الخدمة، وهذه هى المأساة الأفـدح مـن المأساة، فأن تنسد الطرق فى وجوهنا فهذا يحدث، وأن تنزلق الأقـدام إلـى هوة جحيم فهذا وارد، لكن الحذر - على أى حال - لا يمنع القـدر فلحظـة الانفـلات العـام مقبلة، ودراما الدم والنار والدموع حانت مواقيتها، وربما لا يكون العيش ممتعاً على رصيف الشهور القلقة المتدافعة إلى يوم القيامة.

والمؤكـد - رغم كل المخاطر - أن قيامة الشعب المصرى أفضل من رقـاده، وأن بـركة الـدم الفلسـطينى والعراقى - مع انهيارات الاقتصاد والمجتمع - سوف تفتح الأبصار وتزيل الغشاوات، وأن أكثر اللغات شعبية سـوف تردد بالصوت الحيانى ذلك السؤال الذاهل: ماذا فعلتم بمصر؟، وأن المصـرى سـوف يقـول للمصرى: ارفع رأسك يا أخى فإن بصرك اليوم حديد.

إشارات

* تخويـن الحكـام العـرب إهانـة للخيانة ذاتها، وسياسة عبد الفتاح القصرى أعظم إهانة لمصر.

* توزيـع أدوار: أمـريكا تحـارب للسيطرة على آبار النفط، والنظم العربية مكلفة بالسيطرة على آبار الغضب.

* للتأمل: الرئيس المصرى كان يجيب غالباً عن أسئلة الإعلام الألمانى بقوله "الرئيس بوش قال.. " (!).

* للتذكر: أول ترحيب بتصريحات الرئيس مبارك فى ألمانيا صدر عن البيت الأبيض (!).

* للـتذكر - أيضـاً- حـريق الأسعار - ببركة سيدنا الدولار - يهدد بحرق مصر.

* وتذكروا - ثالثاً - أن رسائل العالم المنتفض لم تصلنا فى البريد لأن "العالم العربى" ليس على عنوانه.

* وللـتاريخ: كلـنا نسـتحق الـذل، ربما الشهداء وحدهم هم "الفرقة الناجية".

٢٣ فبراير ٢٠٠٣

قصف للعقول

كولين باول فضح جماعة المتنطعين – لا المثقفين – الذين أصدروا بياناً يطالب بتنحى صدام حسين بدعوى تجنب الحرب، البيان ملوث وأمريكى بلا شبهة، وقد يكون البعض تورط فى التوقيع عليه بحسن النوايا المؤدية إلى جهنم، وباول وزير خارجية أمريكا قالها بصراحة، ودعا العرب المعنيين – لتبنى دعوة إقالة صدام إن كانوا يريدون الحل السلمى أو الغزو السلمى.

هؤلاء يريدون لعب دور المحلل الشرعى لرغبات أمريكا، ولا مانع من وصف بيان الانزلاق إلى الخطيئة بالاجتهادات الخلاقة، شرط أن تسمى الأشياء بأسمائها، فهى اجتهادات خلاقة لكنها أمريكية المنشأ والهوى الغلاب، هى قصف للعقول قبل أن يبدأ القصف بصواريخ كروز، هى جزء لا ينفصل عن المجهود الحربى الأمريكى وسيناريو الغزو، فأمريكا لا تريد إحلال حكم ديمقراطى يخلف صدام حسين، أمريكا تريد إزاحة صدام لضمان كسب الحرب من أول طلقة، فهى تعرف – كما نعرف – أن ماكينة الحكم العراقى تدور على محور ارتكاز فردى، وأن صدام ببطانات نفوذه العائلية والحزبية والعسكرية هو قلب المشهد العراقى الراهن، وإزاحة صدام – بالإقناع والتخويف – أفضل وسيلة لإشاعة الفوضى والتعجيل بالانهيارات، وقتها يمكن لأمريكا أن تدخل العراق دخول الفاتحين الآمنين وبلا تكاليف دم مؤذية، وتدعى أنها دخلت لحفظ السلام وضمان الأمن واستعادة الاستقرار، والبيئة العراقية مواتية جداً لسيناريو التفكيك اللانهائى، فالعراق – بألوان الطيف العرقية والطائفية – أشبه بـ "بواقى" فساتين، المركز الشيعى فى الجوار الإيرانى له امتداده بالأغلبية السكانية فى العراق، والمركز السنى فى الجوار السعودى والسورى له امتداده فى العراق بأغلبية مواقع النقل والنفوذ السياسى والتاريخى، والمركز الكردى فى الجوار

التركى له امتداده الغائر كخنجر فى رأس العراق، وهكذا، تركيب فسيفسائى نافـر لا ينصهر بغير حرارة من عنف، وربما يفسر ذلك جانباً من التاريخ السياسـى الدمـوى للعـراق، وصدام حسين - بهذا المعنى - أعلى مراحل العـنف العراقى وما من بديل ديمقراطى ممكن بغير دمج العراق فى نطاق عـربى حاضـن، أو شفع السياسة العراقية بطموح قومى، وصدام حسين لا يعاقب على عنفه ودمويته، بل على الطموح.

وكاتب السطور قومى عربى، ويرى فى صدام حسين ديكتاتوراً عربياً كغـيره، ولا مانع عندى من الانضمام لدعوة استقالة جماعية للديكتاتوريين العـرب، فالمسـاواة فـى العدل عين العدل، وهذه طريقة أخرى فى طلب الديمقراطـية، تعطـى الأولوية لإحياء الشعوب لا لرغبات أمريكا، وتشفع الديمقراطـبة بـنداءات التغيير وأحلام النهوض بعد طول الرقاد، أما طلب إزاحة صدام فى لحظة الغزو فلا علاقة له بالديمقراطية ولا بالتغيير، فليس المطـروح مقايضة نظام صدام بحكم ديمقراطى قومى استقلالى، المطروح: مقايضة صدام بالاحتلال الأمريكى، وحين تكون القصة كذلك، فلا حيرة ولا يحزنون، فالأولوية بالقطع لمقاومة الاحتلال وهزيمة قوات الغزو، الأولوية لوضـع صدام فى اختبار ربما يكون أخيراً، ليس اختباراً ديمقراطياً بالطبع، فهو ليس كذلك، بل اختبار فى الطموح والصلابة، والكلمة الأخيرة - باليقين - للشـعب العراقى، وقد ننصح المتفيقهين الذين يدعون العكس بقراءة شىء من التاريخ، جاء نابليون إلى مصر فى غزوته الاستعمارية - أواخر القرن الثامـن عشـر - بوعـود التحرير من الظلام العثمانى والعسف المملوكى، واكتشـف الشعب المصرى - بفطرته النقية - ضلال الدعوى، وهزم حملة نابلـيون فكسـب اسـتقلال الوطن عن العثمانيين وذهب المماليك إلى سلة مهملات التاريخ.

هـى ليست - إذن - حسبة برما، إنها حكمة التاريخ وعظات الشعوب الحية، فاكسبوا حريات الأوطان تكن لكم حقوق الإنسان.

إشارات

* لـولا الإعاقات الأمنية لقفزت حشود الغضب فى استاد القاهرة فوق حاجز المليون.

---

* قمة شرم الشيخ مبادرة "إخلاء طريق" لقوات الغزو الأمريكى.
* مقـــال الـــــ "واشـــنطن بوست" عن جمال مبارك (منشور ص٧) لا يحتاج إلى تعليق إضافى.

٢ مارس ٢٠٠٣

.. والذى منه

التنطع – بلغة الفقهاء – هو التشدد بالحروف فى غير موضع، والترخص هو التساهل والانزلاق إلى أن تغادر النقاط حروفها، فتصبح اللغة عمياء خرساء، تدخل الجمل من سم الخياط، وتجعل أم الكبائر كأنها زهو البشائر، وبيان المثقفين إياهم – المطالب بتنحية صدام حسين لفظاً أو قصداً – مثال نموذجى للتنطع والترخص معاً، يتنطعون مع العراق فى ظروف غزو عسكرى، ويترخصون مع البيت الأبيض إلى حد التسليم بالرغبات الأمريكية، واعتبارها قرآناً وإنجيلاً ودستوراً للأسياد، وتنصيب السيد بوش – الذى هو أغبى رجل فى العالم – رسولاً للديمقراطية، واعتبار السيد كولن باول – ربما بخداع البشرة الملونة – أميراً للمثقفين العرب.

تنحية صدام حسين – في ظروف اللحظة – رغبة أمريكية لا تخطئها عين، السيد بوش قال أخيراً إنه "سيشعر بالغبطة" لو ذهب صدام، والسيد باول دعا المعنيين العرب لحمل صدام على الرحيل الفورى، وهؤلاء المتنطعون – لا المثقفين – لا يفعلون أكثر من تلقى الوحى وترجمته إلى العربية الفصحى، فى البداية صدر بيان من بيروت يطلب إقالة صدام بدعوى تجنب الحرب، ويبدو أن فجاجة البيان قطعت أرزاق المبادرين إليه، ومن ثم كانت الرغبة فى التحايل والالتفاف، وصدرت نسخة موسعة ومنقحة من البيان فى القاهرة، فى المسودة الأصلية تكرر ذكر الطلب بتنحية صدام على الطريقة الأمريكية، ولقيت الصيغة نفوراً بالفطرة، وكان لابد من خداع بالأيدى الخفيفة المدربة على سرقة الضمائر، جرى حذف اللفظ وتبقى القصد، وجرى الاتفاق على تقسيم أدوار، يبادر "مركز القاهرة" لإصدار البيان، وتتولى جريدة "القاهرة" مهام النشر والترويج والذى منه، وكأنهم قصدوا – بالوعى أو بالمصادفة – تلويث اسم قاهرة المعز والتشهير الجماعى بالمثقفين المصريين، وقد لا تتوقف هنا عند أسماء لها رنين قد

تكون وقعت بحسن النية، والأرجح أن غالب الأسماء المرموقة وضعت دون استشـارة أصـحابها، ما علينا، المهم هو الفاعل الأصلى، المهم هو الدور المثـير للريـب الذى يلعبه مركز القاهرة، ودعنا - حتى إشعار آخر - من اتفـاق "العلاقـات الخاصة" مع صلاح عيسى الذى تصادف أن يكون رئيساً لـتحرير "القاهـرة"، يتذكر المثقفون الوطنيون ضجة "مركز القاهرة" وقت التمهيد لمؤتمر ديربان المناهض للعنصرية، كان المركز - الحقوقى جداً - "يناضل" لقصر وصف العنصرية على ممارسات لإسرائيل، ويرفض وصف الصـهيونية بالعنصرية، ولعب المركز دوره المقدر - وبخفة يد لا بأس بها - فـى حملـة على النسق الأمريكى الصهيونى ضد مسلسل محمد صبحى "فارس بلا جواد"، ولم يكن غريباً أن يتصدى المركز هذه المرة أيضاً لأداء "المهام الأمريكية الخطرة"، ولا تجهد نفسك فى البحث عن خلاف فكرى ولا يحـزنون، بـل أبحـث ببساطة عن الذى يدفع، ومركز القاهرة - بأوراقه ووثائقـه - يتلقى تمويلاً غربياً وأمريكياً نشيطاً، والدولارات هى التى تتكلم، وأصـدرت البيان إياه، وهذا هو سر ثورة المثقفين المصريين الوطنيين ضد البـيان المريـب فى أصوله وإيحاءاته، هذا هو سر البيان المضاد "معاً ضد العـدوان الأمـريكى" الـذى بادرت إليه رموز ثقافية لا ترقى إليها شبهة، وتشرفت "العربى" بنشره، وحسمت موقف الجماعة الوطنية المصرية بجميع اتجاهاتها وحساسياتها، وتلقت وساماً بهجوم لصلاح عيسى تواقت مع حملة بـذات المعـنى لــ "رابطـة الدفـاع اليهودى" وجماعة عراقية مرتبطة بالمخابرات الأمريكية.

وقد يسأل البعض: هل تدافعون - إذن - عن صدام حسين؟.. والجواب بـالقطع: لا، فصـدام ديكـتاتور عربى كغيره، ولا مانع عندنا من انضمام لدعـوة استقالة جماعية للحكام العرب، فلا ديمقراطية ولا نهضة بلا تغيير حقيقى شامل، وهذه قصة أخرى مختلفة عن التغيير على الطريقة الأمريكية، فالتغيـير الـذى تريده أمريكا تنتهى ثماره - بالطبيعة - إلى حجر أمريكا، والتغيير الذى تريده الشعوب يشفع حريات الإنسان بكسب استقلال الأوطان، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.. من غير "المتنطعين" لا مؤاخذة.

إشارات

* إنشاء مجلس قومى لحقوق الإنسان "ديمقراطية للتصدير" على طريقة جمال مبارك.

* للمعنيين: دقت ساعة النهاية وظهرت علامات القيامة.

* حرب غزو العراق "حلبة أقدار إغريقية".

٩ مارس ٢٠٠٣

ديمقراطية للتصدير

لـــيس الجنيه المصرى وحده الذى يغرق، إنها مصر كلها تغرق، وربما تنتظر عابراً للتاريخ ينتشلها من بئر النبى يوسف.

لا شـــىء يبعــث على اطمئنان، إلا أن تقع – لا سمح الله – فى غواية مانشيتات الصحف الحكومية المتفائلة فى بلاهة، أو أن يكون لديك – لا قدر الله – فوائــض من صبر المستعدين لتصديق التصريحات الوزارية من نوع "كـــل شـــىء تمـــام"، فهذه "حالة فيها استحالة" مع الاعتذار لأغنية مشهورة لـــوردة الجزائرية، وهذه تصرفات حكم فقد ظله، يضرب فى بحر الظلمات ويتصـــور أنه عبر خط الشمس، يترك نفسه فريسة لرحمة الظروف ويتخيل أنه أقرب لرحمة السماء، اجتمعت عليه لحظة الذل القومى مع لحظة البؤس الاقتصـــادى، ولا يجد من مخرج إلا أن يمشى فى الحذاء، خطوة فى الهواء وأخـــرى إلى الجرف الهارى، ويستنفد الوقت الضائع فى ألعاب الأكروبات السياســى، ويغلق عينيه فلا يرى مد طوفان داهم يفيض معه ماء النيل بلون الدم.

لا شـــىء يبعــث علـــى اطمئنان، فكما أنه لا جريمة كاملة فى الأدب الجـــنائى، فـــلا خديعة كاملة – أيضاً – فى السياسة بالأدب أو بقلة الأدب، ودائماً تنتهى لعبة الخداع برقصة الغلطة الأخيرة، وقد وقع الحكم فى الغلطة إياهـــا بقرار تحرير سعر الصرف فى التوقيت القاتل، تذكروا تاريخ القرار جـــيداً، تذكروا ٢٩ يناير من العام الثالث بعد الألف الثانية، فلن تعود الأمور تجرى بعده كما كانت من قبل، باختصار: خرج الموقف عن السيطرة، أفلت الـــزمام وضـــاع اللجام، وتمرد المخلوق الوحشى على صاحبه فرانكشتاين، ووضـــعت اللعـــبة صانعها فى سجن أقدار بلا مهرب، ودعوكم من سلاسل التدابـــير الأمنـــية، ومـــن طوارئ القبضة الحديدية فى اقتصاد دولة رخوة تيبســـت أطرافها وديست أعصابها، فلا الأسعار سوف تنسحب إلى خطوط

٢٩ يناير، ولا الجنيه سوف ينجو بعوارض "شهقة النفس الصناعي" للغاطس الغـــارق، ولا الاقتصاد المنهك المهلهل سوف يستعيد عافية فات أوانها، فلا قواعد إنتاجية تبقت بعد خصخصة السداح مداح، ولا مقدرة تصديرية تؤخذ فـــي حســـاب عاقل، والباقي: مجرد عوائد ريعية قابلة للتآكل، ودورة فساد جهـنمي يسرق الكحل من العين، ويذهب بما تبقى من "أمان نفس" الهاربين من هلاك العصر الطامعين في ثواب الجنة.

لا شيء يبعث عن اطمئنان، فاختناقات الداخل لا تجد متنفساً في سياسة تقص جذورها من تربة الجغرافيا والتاريخ، قلب القاهرة في عقل واشنطن، لحـــن أساسي موصول الهوى بأولوية الرغبات الأمريكية، وتنويع احتياطي يظهـــر كأنـــه تذكـــر بالمصادفة لوجود شيء اسمه الشعب المصري، فتجد فرصـــة للتســـلية بألعـــاب أكروبات في لحظة خطر، "منطقة حرة" للتظاهر محكـــوم بعـــيداً عـــن دواعي ودواهي احتكاك بكتل سكانية ملتهبة بالسخط، ومبادرات "ديمقراطية للتصدير" على طريقة جمال مبارك، تحايل بالأصباغ وتســـتر بالـــرتوش على قبح سياسة جعلت حكم الطوارئ في مقام الدستور الدائـــم، وإزهاق لروح الدور المصري في المنطقة ومقايضات للحم الكرامة الوطنية بفتافيت كرم الأخ شيلوك، ومبادرة لقمة "إخلاء طريق" لقوات الغزو الأمـــريكي، ووفد يضل الطريق إلى بغداد لأنه أراد الذهاب مهتدياً ببوصلة واشنطن.

نعـــم، لا شـــيء يبعـــث عـــن اطمئنان، إنها النهاية تدق الأجراس، إنه المســـرح الخـــاوي بـــلا بقية من جمهور، إنها "آبار الغضب" تفور وتفض الأختام.

إشارات

* أبومـــازن "يهوذا فلسطيني" يبيع "سيده" عرفات مقابل منصب رئيس الوزراء.

* لـــيس أســـوأ مـــن "وكسة" بوش في مجلس الأمن إلا "خيبة" المستر صلاح عيسى في جريدة "القاهرة".

* ليس مجنوناً من يحلم بامرأة لها فتنة بلقيس وبراءة مريم.

١٦ مارس ٢٠٠٣

فضّ الأختام

كأن حرب أمريكا فى العراق انتقلت إلى مصر، كأن القاهرة استشعرت عمـــق جرحها مع تدفق الدم من جرح بغداد، هذا هو الدرس البليغ الموحى لانتفاضـــة ٢٠ و ٢١ مـــارس فى قلب ميدان التحرير، هبة الشعب المصرى التلقائـــية مع أول صاروخ سقط على رأس بغداد، إنها مواعيد الأقدار، فكل الأطـــراف على مسرح المنطقة كأنها فوق حلبة أقدار إغريقية، أمريكا، نظم الحكـــم، والشـــوارع العربـــية أيضاً، انتفى الحذر الذى يغالب القدر، أمريكا مشـــت إلى الخطيئة بالاندفاع الأقوى من الدوافع، فقد نفهم أن تكون لأمريكا "الأعظم" دوافع ومصالح اقتصادية وثقافية واستراتيجية، وقد نفهم أن علاقة أمـــريكا بإســـرائيل توثقـــت بصـــلات القربى وتراكمات الارتباط إلى حد الاندماج، كل ذلك – وغيره – مفهوم، وقد كان محققاً بالتمام والكمال دونما احتـــياج لطلقة طيش ولا لصاروخ كروز، فليس لأمريكا عبيد أدنى إلى بيت الطاعة من نظم حكم وضعت فوق رقابنا، لكن أمريكا تصرفت على طريقة الـــذى فقد عقله، تحركت كالثور الهائج فى متحف الخزف، ولم يكن لها إلا أن تفعـــل، وأياً كان الذى فعلها فى حوادث ١١ سبتمبر، فإن عواصف اليوم الـــذى لا ينســـى تواقتت – بمصادفة الرمز – مع تحول نزع الإطلاق شبه الإلهـــى عـــن القـــوة الأمريكـــية، كانت أمريكا قبل عواصف سبتمبر هى المرهوب المرغوب، الأقوى الذى تخشاه، والحلم الذى تهفو إليه، وفقدت مع المعـــنى الرمزى للعواصف كنزها الأثمن، فقدت البريق والجاذبية وفوائض القـــوة التخيلية، فقدت سحر "النداهة" بنداءات الخفاء إلى سابع أرض ووهج الضوء الباهر فى سابع سماء، نزلت عن عرش الإطلاق إلى أزقة وتواريخ القـــوة المادية النسبية المعرضة للتعرية والتآكل بقوانين الطبيعة، لم تعد لها غـــير قـــوة اقتصاد وقوة سلاح أعظم إلى حين، انتهت إلى مأزق الإحساس بدنو الأجل مع صعود حثيث لآخرين إلى خشبة المسرح، لم تعد لها صورة

ملكـــة الجمـــال بزخارف المساحيق الكثيفة التى تغشى العيون، ومشت فى طـــرقات الـــتاريخ - الذاهب عنها - باللحم العارى، تكشف الغطاء عن قبح مـــوروث بالخلقـــة، وصارت كراهية أمريكا الأقبح هى "لغة العالم" الأكثر شـــيوعاً، ولأنـــه يصـــعب إقـــناع وحش الغابة بافتقاده الجدارة للعب دور الدونجوان والفتى الأول، فليس لأمريكا إلا أن تصارع أقداراً تمضى بها إلى نهايـــات الـــدور الهوليوودى، وأن تتصرف كديناصور هارب من كواليس المـــنظر المفـــزع فى مرايا الجدران، والديناصورات قد تكون قوية داهسة، لكـــنها - أى الديناصـــورات - إلى زوال بطبائع التطور وسنن التبدل، إنها لعبة الأقدار فى دنيا الأمم كما فى حياة الأفراد، ولم يكن للنظم العربية - مع أمـــريكا - أن تتصـــرف علـــى نحو مختلف، لم يكن لها أن تتصرف بعقل قضـــت حياتها بدونه، أو قل: إنها وضعت عقلها فى حذاء أمريكا، فقدت مع نعمـــة العقل ما تبقى عالقاً من حواس الغريزة، فلو كانت فى النظم العربية بقـــية مـــن رشد وحس، لو كانت نظماً من أصله لعارضت همجية الاندفاع الأمـــريكى لو فعلت لاشترت مدداً من عمر بالسعر الأرخص فى أوكازيون اللحظـــة ولم يكن لها أن تفعل، فالأقدار لها منطقها الذى لا يرد، النظم إياها تعرف - كما نعرف - أنه لم يعد لها من ظل شرعية بأصوات الناس، وأن صـــندوقها الانتخابى باطل عاطل إلا من صوت أمريكا، ولم يعد لها إلا أن تكـــون رجعاً لصدى أنكر الأصوات، لم يعد لها إلا أن تحارب الناس الذين يكـــرهونها كراهـــتهم لأمريكا، لم يعد لها إلا أن تحارب فى القاهرة - وفى غـــيرها - كما تحارب أمريكا فى بغداد، سقط الحد الوهمى الذى بدا فاصلاً بخـــداع الرتوش، واجتمعت لحظة الذل القومى إلى لحظة البؤس الاقتصادى فى مرايا الذهول العام، سقطت غشاوات الأبصار بانكشاف الحضور الغليظ لعسكر الاستعمار، ذهبت أمريكا باندفاع الأقدار إلى قاع القاع فى آبار النفط وذهبت النظم العربية بركود القعود إلى حافة آبار الغضب، ذهبت إلى حافة نهايـــة لـــيس عنها رجوع، لم يعد لها إلا أن تدير حروباً مع غضب الناس الطـــافح تستعجل بها فض الأختام وفتح مظاريف التغيير، لم تعد تملك - فى اندفـــاع الأقدار - غير عصا القمع العارى، ولم يعد للناس - بحدوس الروح - غير استدعاء عصا النبى موسى.

إشارات

* كانت "الأهرام" – دائماً – جريدة مصر شبه الرسمية، وتحولت – فى لحظة الانكشاف – إلى جريدة أمريكا شبه الرسمية فى مصر (!).

* بـــيان المثقفين المعارض لموقف الرئيس مبارك إعادة تأسيس لحركة الضمير المصرى.

* الاقتحام الهمجى لمقره المركزى وسام على صدر الحزب الناصرى.

* إلى حمدين صباحى: الذين سحلوك فى دراما التنكيل بجيش الغضب وضـــعوا – مـــن حيـــث لا يشـــعرون – تاج الدم الأحمر فوق الرأس التى تستحق.

* إلـــى كمـــال أبو عيطة: سجنك مع المئات من طلائع الغضب قرار بتشكيل "برلمان كفاحى" للشعب المصرى.

٢٣ مارس ٢٠٠٣

ذئاب فى العواصم

جــريمة "هتك عرض مصر" هى حدث هذا الأسبوع بامتياز، فقد فشلت القــوات الأمريكية فى اقتحام بغداد إلى الآن، ونجحت قوات الأمن المصرية فــى هتك عرض المصريين والمصريات الغاضبين والغاضبات فى انتفاضة ٢٠ و ٢١ مارس.

هتك العرض بالمعنى السياسى حدث ويحدث، و"هتك العرض" بالمعنى الأخلاقــى أحدث الأثافى، الضحايا: فتيات متظاهرات فى براءة الندى ولون الــورد، والمجــرمون: عناصــر منسوبة لقوات الأمن، ولا تسأل: أمن من بالضــبط؟!، فهــذه هــى الــنهاية الطبيعــية لسيناريو الانحطاط السياسى والأخلاقــى، هــذه هــى الــثمار المريرة لسياسة لم تعد تملك غير الأنياب والأظافــر والعصــى المكهربة، وتجاوزت خط الإفلاس التاريخى إلى حد انفلات الخطاب بالجملة.

وتذكروا أن هتك عرض الأخلاق كان دائماً رفيق الطريق لهتك عرض السياســة، تذكروا نهاية العصر الملكى فى صحبة حراب الاستعمار، كانت ظاهرة العسكرى الأسود – المتخصص فى اغتصاب المعتقلين السياسيين – علامــة نهايــة، واستحضــار العســاكر الســود مجدداً، واستعادة نشاطهم الحيوانى، والتوسع فيه إلى حد التهديد باغتصاب فتيات جيش الغضب، كلها علامــات نهايــة لا تخطئها عين مصر المفزوعة، أما عن "هتك العرض" السياسى فحدث ولا حرج، فلم نعد نحكم بالسياسة الرديئة، ولا حتى بفوائض الخــداع والتزيــيف، ففــى لحظــة الخطر الساخن سقطت الأقنعة، وذابت مساحيق التجميل، الدستور الذى وضعوه على الرف أطلقوا عليه الرصاص وواقعــة اعــتقال النائبيــن حمدين صباحى وفريد حسنين لها المغزى الذى لايخفى، فقد ديست الحصانة البرلمانية بالأحذية الأمنية، جرى سحل النائبين فلــم يــنطق مجلــس الشعب – ورئيسه القانونى جداً (!) – بكلمة احتجاج،

وجـــرى خطـــف حمديـــن واعتقال فريد على سرير مستشفى، توالت وقائع العصـــف والتنكـــيل والتعذيب دون أن تشفع حصانة، وكأن أوراق الدستور والقـــانون مناديل كلينكس فى دورة مياه، وكأن دستور الغابة هو الذى نقسم علـــى احـــترامه ونحلف اليمين، وكأنهم حجزوا الشعب المصرى فى حديقة حـــيوان، كلمـــة العقد والحل لنواب النهب والقروض والمخدرات، وحظوظ الصـــفع والـــركل والحبس لنواب المظاهرات، وليس هذا شذوذاً عن قاعدة، فالشذوذ هو القاعدة المرعية من الآن فصاعدا فى دولة العصابة الميرى.

لا تقولـــوا لهـــم – مـــن فضلكم – إنكم تخطئون، ولا تنتظروا إصلاحاً بالإقـــناع، ولا عـــدولاً عـــن البطش بعصا القمع العارى، فلم تعد من نقطة تـــراجع أو رجوع، تحددت الخنادق، ودقت ساعة النار والدم والدموع وبدأ العـــد التنازلى، حرب الاستعمار الأمريكى فى حرب الحكام، ودراما الأقدار تـــتدافع فصـــولها، أمـــريكا تـــريد السيطرة على "آبار النفط"، وهم يريدون الســـيطرة علـــى "آبار النفط"، والدور التائه فى المنطقة يبحث عن بطل من مصـــر، مـــع نكـــبة ١٩٤٨ ظهر البطل فى حركة "الضباط الأحرار"، ومع اجـــتماع لحظـــة الـــذل القومى ولحظة البؤس الاقتصادى الآن، مع اندفاع "السياســـة الجوفية" إلى حافة آبار غضب فائر، لا يبدو أن المقبل – وقد لا يـــريد أحد – حركة للضباط الأحرار، بل هى اللحظة التى تولد فيها "حركة الـــناس الأحـــرار"، وهـــذا هـــو السبب الكامن الصريح وراء وحشية القمع الهســـتيرى لطلائع الغضب المصرى، فهم يريدون وأد الغضب بظن أنه لا يـــزال فـــى المهد صبيا، و"الذئاب التى ترعى فى العواصم" – بتعبير جمال عـــبد الناصـــر فى حصار الفالوجا – تعيش أيامها الأخيرة، والذئب الجريح المنهك تتزايد شراسته إلى حد نهش الأعراض.

قولـــوا لهم ببساطة: افعلوا ما شئتم، فلن تنام عين مصر، ولن يفلت أحد من عقاب حين يحل الأجل فى يوم الحساب.

إشارات

* إلى حمدين صباحى.. حصانة الولاء للشعب أبقى وأكرم من حصانة الانتساب لـــ "مجلس الشعب"!.

* سؤال للرئيس مبارك: هل الأجواء المصرية مفتوحة لعبور القاذفات الأمريكية؟!.

---

* مفاجـــأة الصـــمود العراقى المذهل "قطعت خلف" كتاب المارينز فى الصحافة المصرية.

٣٠ مارس ٢٠٠٣

انحطاط بالجملة

لا يصح لمصر أن تظل فى موقف المعتذر عن دورها بتعلات لا محل لهـا مـن الإعراب، كأن يقول الرئيس مبارك – مع كامل الاحترام لمنصبه الرفـيع – إنـنا لا نملك منع مرور سفن العدوان الأمريكى فى قناة السويس لالتزامـنا باتفاق القسطنطينية، ولا نستطيع وقف التسهيلات لأن اتفاقاتنا مع أمـريكا تمـنع، وليس بوسعنا سوى أن نطلق الكلمات فى الهواء مخافة أن يطلقوا علينا الرصاص فى القلب (!).

كـل ذلـك يبدو بلا معنى، وخارج عن سياق الموضوع تماماً، فليست الحكايـة فى مماحكات قانونية أو فى قيود التزام دولى، وعلة النقص – قبل أسـباب الـنقص – فى غياب الإرادة السياسية، والعجز عن إدراك التحدى، وشـيوع الهلـع فى لحظة الخطر العاصف، فليست لمصر مصلحة أبداً فى الانعـزال عمـا يجـرى، والصمت المصرى – مع المشاركة الضمنية فى العـدوان – ليس طريق السلامة، إنها سكة الندامة بكل تأكيد، فليست عروبة الطقس، عروبة مصر هى مصرية مصر، ومصر بلا دور عربى قيادى هى الحاضر الغائب، والأمن الوطنى المصرى هو الأمن القومى العربى بالنقطة والحـرف، ولـو لـم تكن القومية العربية حقيقة ظاهرة، لو لم تكن لخلقتها الوطنـية المصرية خلقاً، إنها دروس الجغرافيا والتاريخ، وعظات البصائر والمصائر، ودورات الآمال والآلام، درس مصر عبد الناصر وما قبلها وما بعدهـا، درس مصـر مـنذ محمد على الذى كان ألبانياً أمياً لا يقرأ حرفاً بالعربـية، وقدر له حكم مصر فى صحوة إفاقة من غفوات التاريخ، فلم يجد من فضاء يمتد فيه بالنفوذ المصرى أقرب من خرائط القومية العربية، وكان كـل صـعود مصـرى مشفوعاً دائماً بامتداد عربى، وكل انحسار مصرى مشـفوعاً بغل يد مصر عربياً، هذه هى مصر التى تعرفها حروف الأبجدية السياسـية، وكـل موقـف آخر ينحط بدور مصر وإن ادعى حرصاً عليها

وإشفاقاً على أهلها، وتبلغ الفجاجة - حدها الهزلى - حين يقولون لك: لا نريد الذهاب إلى حرب، قالوها حين دعونا إلى موقف مصرى أصلب فى مواجهة توحش الدور الإسرائيلى، ويقولونها الآن - بلا حياء - على سبيل التمويه وتغطية موقف المساندة الفعلية لعدوان أمريكا فى العراق، وهو كلام يثير العجب والرثاء معاً، العجب لأن الذين يقولونه هم المسئولون عن اختيارات الانحطاط فى السياسة والاقتصاد والثقافة، هم المسئولون عن إحلال عصابة النهب العام محل دولة القطاع العام، والرثاء لأن هؤلاء - الذين يخوفوننا بأهوال الحرب - هم قطع المدفعية وقوات المشاة فى أفظع حرب شنت على مصر بلا طائرات أباتشى ولا صواريخ كروز، فلم يسبق لمصر فى تاريخها الألفى أن انتهكت وسرقت ومصمصوا عظامها كما يحدث الآن، ولم يسبق لمصر - منذ سقط النظام الملكى - أن تحولت إلى عزبة أسرية كما يجرى الآن، ولم يسبق للقاهرة - منذ عهد المندوب السامى البريطانى - أن تلقت قرارات تصنع لها لا فيها وبهذه الغلظة والصفاقة الأمريكية، وطبيعى - مع ذلك كله - ألا تتذكر مصر الرسمية سوى "اتفاقية قسطنطينية" محنطة فى متاحف تاريخ غبى، وطبيعى - مع ذلك كله - ألا تتذكر مصر الرسمية اتفاقات تعاقدية أكثر إلحاحاً كاتفاقية الدفاع العربى المشترك، طبيعى - مع ذلك كله - ألا تتذكر مصر الرسمية قرارات لم يجف حبرها لقمة شرم الشيخ التى دعا لها الرئيس مبارك، وأكدت أن العدوان على العراق عدوان على كل الدول العربية، وهو ما يعنى - أن مصر - قانوناً فى "حالة حرب" مع قوات الغزو الأمريكى، اللهم إلا إذا كانوا قد قرروا سراً شطب عضوية مصر فى الجامعة العربية، وقرروا شطب عروبة مصر بجرة قلم.. أمريكانى (!)، فمن فضلكم قولوها بصراحة، ولا داعى للتخفى المكشوف، فقد هانت عليكم مصر وعزت أمريكا، وأنتم لا تدافعون عن مصلحة مصر.. بل عن مصلحة أمريكا.

إشارات

* لو أفلت صدام حسين - الديكتاتور بلا شبهة - فسوف يصبح بطل أبطال العالم، ولو نال جزاء الشهادة فربما تكون له ذكرى الإمام الحسين.

* مخاوف أمنية دفعت قيادة الإخوان للانزلاق إلى الخطايا السياسية.

* المظاهرات المحبوسة فى الاستادات الرياضية ظاهرة عك كروى لا فعل سياسى.

٦ أبريل ٢٠٠٣

أوطان الربع الخالى

ارفعــوا رؤوسكم، وادفنوا شهداءكم، واطلبوا الموت توهب لكم الحياة، فالأمــة المهانــة المســتذلة لــن تستعيد الكرامة بفوائض الدموع، فلا وقت للحــزن، لا وقت للبكاء، ولا خيار يليق سوى أن تنهض الأمة كالعنقاء من الرماد.

لــم تسقط الأمة، بل سقطت الأوهام، وسقطت أنظمة الحكام، ومع نكبة بغداد تكشفت الأقنعة، خيانة الجنرالات لبغداد ليست أول المطاف، إنها آخر طــريق الخــيانة الممتد عبر كل العواصم، فقد سقطت القاهرة قبل أن تسقط بغداد، وتم احتلال الكويت قبل أن يبدأ احتلال العراق، ولم يكن لغزو العراق أن يحــدث إلا بعــد أن تحولت عواصمنا إلى مستعمرات لأمريكا، لم يكن لغــزو العراق أن يحدث إلا بعد أن صارت مياهنا وأجواؤنا وقراراتنا ملكية خاصــة لأمــريكا، لم يكن لغزو العراق أن يحدث إلا بالتسهيلات والقواعد واتفاقــات الظلام، وقد لا يحب البعض أن يصف ذلك – وغيره – بالخيانة، حسناً، فالخيانة أشرف مما يفعلون، وليس صحيحاً أن النظم العربية تخاذلت عــن نصرة العراق كما خذلت فلسطين، الصحيح أنها انتصرت لأمريكا كما خضــعت لإســرائيل، ألقت بمعاهدة الدفاع العربى المشترك إلى أقرب سلة مهملات، وأخلصت العهد والود لمعاهدة الخيانة العربية المشتركة، وليس لنا أن نحزن على سقوط الأوهام والحكام، فقد هزمتنا الأسلحة الفاسدة فى نكبة ١٩٤٨، وهزمتنا الأنظمة الفاسدة فى نكبة بغداد.

لــم نخسر غير قيودنا، ولم نصدم سوى فى الحكام، ولم يعد من أمل إلا أن يكــنس هؤلاء جميعاً، لم يعد من أمل إلا بالتغيير واقتلاع شجرة البؤس، ولا تنخدعوا بوعود الإصلاح، فلن يستقيم الظل مع العود الأعوج، وكل يوم تــبقى فــيه هذه الأنظمة بخصم من كراماتنا دهراً، فهذه الأنظمة هى عارنا المجلــل بالســواد، ونحن لا نطلب شيئاً من الحكام، فلا يعقل أن نطلب من

الموتـــى نصرة الأحياء، وكل ما نطلبه لهم – لا منهم – سرعة الانتقال إلى رحمـــة الله، فلــيس لهم شبيه إلا فى عصور الحجر وحقب الديناصورات، وليس لأى منهم ظل شرعية، فلا يوجد حاكم عربى واحد منتخب من شعبه، كلهم وضعوا فوق الرقاب، كلهم لقطاء هاربون من ملاجئ التاريخ، صنعوا قوتهـــم مـــن ضعفنا، وعلت أصواتهم بصمتنا، وأغراهم أننا تحولنا إلى أمة الـــربع الخـــالى، فـــلا صوت ولا حس ولا حركة، ولا انتفاضة روح تزيح العفن، أسقطونا من الحساب لأننا خرجنا من جدول الضرب.

لـــم نهزم فى الحرب، وإن هزمنا فى معركة، فالحرب – بالكاد – تبدأ، حرب بالمقاومة المذهلة على جبهة العراق وفلسطين، وحرب بالقلب واللسان فى عواصم الهوان، لكن أحداً لن يبلغ النصر وحده، فإما أن ننتصر جميعاً، أو أن نهـــزم جمـــيعاً فـــلا يـــبقى أحد لقراءة الفاتحة على قبورنا، ونثق أن المقاومـــة قادرة على النصر فى بغداد والقدس، المقاومة بالسلاح قادرة على الانتصـــار فـــى معـــارك، لكن الأمة لن تكسب الحرب بغير استرداد مصر مركـــز الكـــون العـــربى، فكمـــا بدأ الفساد من الرأس، فإن التغيير يبدأ فى الرأس، والتغيير فى القاهرة هو أول الطريق لاستعادة بغداد وتحرير القدس.

إشارات

* فلنغير ما بأنفسنا حتى لا نظل أمة لا يستجيب الله لأتقيائها ولا يغتفر لمذنبيها.

* شـــكراً لـــــ"ســـلطة اللهـــو الخفى" التى وضعتنى على رأس قائمة الممنوعين فى تليفزيون السيادة والريادة.

٢٠ أبريل ٢٠٠٣

الحرية الآن

قــد نُهــزم فى ألف معركة، لكننا نكسب الحرب لو استعدنا مصر إلى مصر، وما من سبيل لاستعادة مصر بغير كلمة خلق واحدة هى: التغيير.

بلادنا ليست فى منأى عن خطر، إنها فى قلب الخطر، مصر لا تنتظر حــرباً، إنهــا ضحية حرب الثلاثين سنة الأخيرة، حرب أكتوبر كانت آخر نفــس فـــى الروح، بعدها توالت الحروب بلا طلعات أباتشى ولا صواريخ كــروز، حــروب مســح الذاكرة الوطنية، وحروب الانقلاب الأمريكى فى اختــيارات السياسة والثقافة والاقتصاد، طلقات دخان على مسرح الجريمة، وزحف لقوات المشاة دهس أعصاب الحس والوجدان.

بلادنـــا لا تتأهــب لحرب على الباب، إنها جسد فى مشرحة، تكسرت النصال على النصال، وليس لجرح بميت إيلام، والميت لا يسأل عن اسمه، ولا يبحــث عن بطاقته الشخصية، وقد أفقدوا مصر اسمها ورسمها، وفكوا "العروة الوثقى" بين مصرية مصر وعروبة مصر، وليس العرب من خارج مصــر هــم الذين يسألون: أين مصر؟، إنه السؤال التائه الحائر على شفاة العرب المصريين بالذات، وليس لوطن - نسى اسمه وانمحت أبجديته - أن يســأل عمــا يفعل، ليس لوطن جف ريقه وانسد طريقه أن يتوقى الخطر أو يمشـــى إلى خط النار، ليس لوطن ممدد على الصلبان أن يقوم بغير معجزة، والمعجــزة أن نصــحو ونفيق فلا نجد كل هذا الركام من خرائب الحروب علـــى جبهات الداخل، لا نجد هوان الحكام، ولا سياسة عبد الفتاح القصرى، ولا حكومـــة عــاطف عبيد، ولا تليفزيون صفوت الشريف، ولا بهلوانيات جمـــال مبارك، ولا سطوة البيت الرئاسى، ولا جماعة البيزنس التى اشترت أســـهمنا فى البورصة، ولا سلخانات التعذيب فى السجون وأقسام الشرطة، ولا دولة النهب العام، ولا أحزاب الزينة المعطرة بهواء الأسمنت، ولا موت المعارضـــة علـــى مذبـــح التواطؤ الخفى والظاهر، ولا صفقات التربح من

عوائـــد خصخصــــة السياســـة، ولا الكفر بالوطن الذى استباحوه فاستباحونا معه.. بالمرة.

بلادنا لن تنهض إلا بمعجزة من صنع الناس الذين لهم إرادة الله، مصر لن تنهض بغير عودة الغائب، وما من غائب فيك يا مصر إلا الشعب، وحين يغيـــب الشعب يبهت اسم الوطن، حين تنام النواطير تمرح الذئاب والثعالب، ويـــتحول الفضــــاء الإنســـانى إلــى غابة حيوان، ويصبح الضحك كالبكاء، ومواســـم الفرح كحوادث النهش، وضوء الشمس كهجمة الكوابيس فى آخر اللـــيل، فلا تنتظروا أحداً يخلصكم، فالخلاص لكم وبكم، لا تنتظروا عاصفة مـــن أســـماء ولا بـــركاناً فى أرض، ففى قلوبكم البراكين والعواصف عند أطـــراف الأصــــابع، لا تنتظروا "على بابا" يطرد الـــ "أربعين حرامى"، لا تنـــتظروا كلمـــة السر على طريقة "افتح يا سمسم"، ففى حناجركم المخنوقة كلمة الخلق، وفى دفاتر هوانكم سفر الخروج، فافعلوها مرة واطلبوا "الحرية الآن"، افعلوهـــا مـــرة أو انـــتظروا إلى أن يبدل الله قوماً غيركم فلا يكونوا مثلكم.

إشارات

* يســـألونك عن الولاء الأول؟، إنه – كالحب الأول – للأمة ولو كانت مهانة.. وللوطن ولو كان مهزوماً.
* نخـــتلف مـــع الســـلوك السياسى للإخوان، وندين اعتقالات الحكومة لقيادات الإخوان.
* قلـــبى مـــع الزميل أحمد الحصرى – رئيس تحرير "التجمع" – فى محنة الإحالة للقضاء العسكرى.
* تعذيب رامز جهاد وإخوته أسوأ إهانة لشرف المصريين.
* حســـن نصر الله ليس رمزاً للشيعة، إنه الرمز الذى جعل كل الأمة من شيعته.

٢٧ أبريل ٢٠٠٣

نريد رئيساً منتخباً

نعـم، نريد رئيساً منتخباً لمصر، لا نقصد المس بمقام أحد، بل الارتفاع إلــى مقــام مصر، فلا يليق بمصر أن تحكم بسلطة الأمر الواقع، ولا يليق بالمصــريين أن يظلــوا رعايــا لا مواطنين، قبل سنوات أصدرت المحكمة الدســتورية حكمهــا الــتاريخي بوجــوب الإشراف القضائى الكامل على الانــتخابات فى كل مراحلها وصورها، والمعنى: أن كل انتخاب أو استفتاء جــرى بــدون الإشــراف القضائى الكامل لا يعد دستورياً، وآخر انتخابات لمجلــس الشــعب جــرت فى ظل إشراف قضائى جزئى، والمعنى: أن كل مؤسســات الحكــم خارج الدستور، وأن مصر كبلد يعيش – للأسف – فى "الحــرام الدستورى"، ولا يعنى ذلك أن الدستور الحالى تمام التمام، ولا أن نصوصه هى غاية المنى الديمقراطى، ففيها ما يحتاج إلى التعديل والتغيير، وبالخصوص طريقة اختيار الرئيس وصلاحياته، وإجراء تعديل دون ضمان احــترام الدســتور يــزيد الطين بلة، والبديل: أن تتوافر إرادة جماعية على احــترام الدســتور، وأن نتوصــل لطــريقة شــعبية تكفل احترام الأصول والــتعديلات، وليكــن شعارنا: الدستور أولاً، فلم تنتهك وثيقة فى مصر كما جــرى للدســتور، وضع الدستور على الرف، ومنح إجازة طويلة، وتحول قــانون الطــوارئ – الســارى بــلا انقطــاع لربع قرن. إلى دستور للبلد، والنتــيجة: أن حدث الطلاق البائن بين نصوص الدستور وفصوص الواقع، والــبدء برد اعتبار الدستور وانتخاب رئيس هو حجر الأساس، وقد يعترض البعض على الفكرة، لا نلتفت – بالطبع – لاعتراض المنتفعين بسلطة الأمر الواقــع، ونــتوقف عند اعتراض المتشائمين القانطين من القصة كلها، بقول هــؤلاء: لا نستطيع انتخاب عمدة فى قرية فكيف نتحدث أو نطمح لانتخاب رئيس؟!، اعتراض غائص فى المرارة، وطافح بفقدان الأمل فى أى إصلاح أو تغيــير، وقد نتفهم نفسية الاكتئاب العام الكامنة وراءه، فأغلب الناس فى

حالـــة سخط، وأغلب الناس - أيضاً - فى حالة يأس، وهذا أخطر ما يمكن أن يـــتعرض له شعب أو أمة، أن نبقى فى حال الذهول، وربما يكون الحل فى صدمة كهربية وبدء التغيير من الرأس ديمقراطياً، والبديل: أن نغرق فى دوامـــة أحاديث لا تنتهى عن إصلاحات جزئية ربما تتوج بديمقراطية كاملة - وعليكم خيرفى الألف الرابعة بعد الميلاد!.

نعـــم، نـــريد رئيساً منتخباً لمصر، ونريد من الرئيس مبارك - فى يوم مـــيلاده الخامس والسبعين - إعلاناً صريحاً مباشراً بوقف سيناريو التوريث لـــنجله جمـــال مبارك، صحيح أنه لم يصدر إعلان رسمى بالتوريث، لكن الشكوك متزايدة، وتوالى الحوادث يثير الظنون، سبق للرئيس مبارك أن نفى غيره مرة، وأعلن أنه لن يسمح لنجله بغير دور يلعبه فى العمل الاجتماعى، ثـــم سارت الحوادث فى اتجاه آخر، وتحولت الحكومة الرسمية إلى حكومة ظـــل، فـــيها صارت لجنة السياسات - التى يترأسها جمال مبارك - أقرب للحكومـــة الأصـــل، والأجواء ملبدة بتوقعات عن حل مبكر لمجلس الشعب تمهـــيداً للقفـــزة الكـــبرى، وقد يقول البعض: جمال مبارك مواطن وله حق الترشيح للرئاسة، والاعتراض فى غير محل.. فالأصل: أن تطلق الحريات الديمقراطـــية لكـــى تتوافر حقوق المواطنة لكل الناس، ولو أطلقت حريات تكويـــن الأحزاب وإصدار الصحف وانتخاب الرئيس، لو حدث ذلك فلا مانع من تفكير جمال مبارك فى الترشيح، ونشك - وقتها - أنه سيفعل.

نعم، نريد رئيساً منتخباً لمصر، والسبب: أن مصر فى خطر، والتغيير فى مصر - الآن وليس غداً - هو أعظم أسوار التحصين.

إشارات

* وزارة "أبو مازن" حكومة حرب أهلية، ورفع السلاح ضدها وارد لو بدأت جريمة نزع سلاح الفدائيين.
* أحدث إعلان سياحى: زر أمريكا قبل أن تزورك!.
* ثـــلاث ســـنوات عشتها - أنا وتوءمى عبدالله السناوى - فى تجربة صناعة صحيفة الوطنية المصرية، والدرس: اكسب حريتك تقهر الخطر.

٤ مايو ٢٠٠٣

التغيير الآن

هــذه الصــحيفة حاصــرت الذيــن تصوروا أنهم حاصروها وجهزوا الأكفــان، لــيس بفوائــض فى المال ولا فى الأنفس، فحالنا كما تعرف، فلم تدخــل ورقة دشت واحدة إلى دار الجريدة منذ ثلاث سنوات، وإنما بامتياز الخط المهنى والسياسى، وبجهد وعناء الكتيبة الموهوبة المقاتلة التى صنعت معجزة اسمها "العربى".

لــم نكــن مغالين حين قررنا – رغم قسوة ظروف لا تصدر بها نشرة حــائط – أن نقدم صحافة مختلفة، ولا كنا مصابين بداء الغرور حين اتخذنا شعار "حرية تكفى ألف صحيفة"، فقد أثبتت الأيام أن "العربى" نسيج وحدها، جديــة وجاذبية وابتعاد بالعمد عن وصفات السوق السهل الرائج، وثبت أن إرادة الخلــق لا تعــرف المستحيل، وتكتسح ألف سد وألف حاجز وضع فى طريقــنا، ولــم تكن مصادفة أن جمال مبارك – الوريث المرشح للرئاسة – حــول ندوتــه الأخــيرة بالجامعة الأمريكية إلى فرصة للرد على "العربى" بــالذات، المناسبة: قيادة "العربى" لحملة "الحرية الآن" فى مصر، ولا نخفى ترحيبــنا المتشكك بنفى جمال مبارك – وبــ"صورة قاطعة" على حد تعبير اخــتارته الأهــرام شبه الرسمية – لنية الترشيح للرئاسة، فهذا أول مكسب ملموس تحققه "العربى" فى حملة انفردت بها على مدى سنوات ضد توريث الرئاســة، أضــف: أن جمــال مبارك – أمين السياسات بالحزب الحاكم – اعــترف لأول مرة بحق صحافة المعارضة فى انتقاد الرئيس، والمعروف: أنــه لا صــحيفة حزبــية – ولا موصوفة بــ "المستقلة" – تجرؤ، "العربى" وحدهــا هــى التى تفعل، وهو ما يعنى أننا على حق فى المجازفة باقتحام الخطــر وكسر الخطوط الحمراء على نحو غير مسبوق – ولا ملحوق إلى الــيوم – فى تاريخ الصحافة المصرية بإطلاق العصور والعهود، كان الكل يتصــور أنــنا نغامر فى غير حساب، أو أننا فصيلة مجانين تنسى المقاصل الــتى هــى أدنــى لقطــع الــرؤوس، وكان ردنا على آلاف المكالمات –

والشـــفهيات والمكاتبات – المحبة المشفقة واحدا فى ابتسامة تحفظ، كنا نقول دائماً: إن الله خير حافظاً: لم نكن نجهل الخطر، ولا انعزلنا فى برج عاجى، ولا خرجـــنا علـــى قانون، بل كنا نصنع القانون، ونبلور المثال العملى على صـــحة اعـــتقادنا فى اكتساب الحرية لا انتظارها، فالحرية التى تمنح تمنع، والحرية التى تكتسب تمكث فى الأرض وتنفع الناس، ونملك أن نقول الآن: حرية الصحافة تكتسب هكذا، وليس على طريقة صحف المماليك وجماعات البـــيزنس وغـــرف الـــنوم، وما نقوله لايعنى أننا فى نهاية الشوط، فنحن – بالكـــاد – نبدأ، لم نسع لاكتساب الحرية لـــ "العربى" بل نهدى ما كسبنا إلى الصـــحافة المصرية المستعدة لو توافرت لها إرادة الخروج عن النص، فنفى جمـــال مـــبارك لاتجاه التوريث كسب معنوى، لكننا نسعى إلى إنجاز مادى يقطـــع خـــط الرجعة، وما من سبيل سوى نزع القيود كافة، وإزالة كمامات البلاســـتر مـــن أفواه الناس، وتوحيد الأصوات الوطنية وراء شعار "التغيير الآن" فـــلا مســـتقبل لـــبلد لا ينتخـــب رئيسه بملء الحرية فى اقتراع سرى مباشـــر، ولا مســـتقبل لـــبلد يملـــك الرئـــيس فيه – بسلطة الأمر الواقع – صـــلاحيات مطلقـــة شـــبه إلهـــية، ولا مســـتقبل لـــبلد يتدهور فيه "المعنى الجمهـــورى" إلى "معنى ملكى" بسيناريو التوريث الرئاسى، ولا مستقبل لبلد تســـتأثر بمقدراته عصابات للنهب العام، ولا مستقبل لبلد تذوى فيه السياسة وتمـــوت الأحزاب، ولا مستقبل لبلد يصاب ناسه بوباء الخرس الجبرى، ولا مستقبل لبلد تتحول بيوت الأسمنت وشوارع الأسفلت فيه إلى ما يشبه أقفاص الســـجن فـــى حديقـــة حـــيوان، ولا مستقبل لبلد بلا صحافة حرة لا ترتعد فرائصها إن هى اقتربت من أنياب ملك الغابة.

إشارات

* جريدة الحزب الحاكم وصفت العربى بـــ "الصحيفة المارقة"، لاحظ: أن هـــذه الـــــ "مـــايو" صحيفة خارقة لا يقرؤها أحد غير فراعنة المتحف المصرى!.

* تهنـــئة الرئـــيس مبارك لإسرائيل – فى ذكرى اغتصاب فلسطين – إهانة لدم مئة ألف شهيد مصرى.

* د. إيمان جمعة.. سيدة أداء تليفزيونى ينعش الروح فى "خانة اليك".

١١ مايو ٢٠٠٣

عصر "بابا أوبح"

نتصـــور أنه لا يجب خلط أوراق مبادرتنا عن "التغيير الآن" فى مصر مـــع تلاعبات أخرى مثيرة للريب، بعض الأحزاب – للأسف – لا ترى فى بيانات المطالبة بالديمقراطية سوى فرصة للمساومة، تصدر البيانات، وتجمع التوقـيعات، وتعقـد المؤتمـرات، ثم ينقطع الصوت فجأة لأن أصحابه قد انشغلوا باتفاقات فى الكواليس من أجل "كوتة" أو "كبشة مقاعد" يطلب تأمينها فى ترتيبات انتخابية مشكوك فى أمرها، ولم تكن من نتيجة لهذه الممارسات المتكررة سوى فقدان الثقة المتصل للناس في الأحزاب، والأنكى: أن البعض يســتتر وراء بـيانات الأحزاب، ويسعى لعقد صفقات أكثر خطراً، صفقات بيزنس سياسى مربوطة بطرف خيط مع الأمريكان مباشرة، همزة الوصول: جماعــات تزويــر المجتمع المدنى الممولة أجنبياً، وقد تزايد الإغراء وسال اللعــاب مـــع تضـــخم الكعكة الدولارية، ورواج نجارة توصيل الديمقراطية للمـــنازل على الطريقة الأمريكية، لاحظ أن مبادرة كولين باول "الديمقراطية جداً" تزايدت موازنتها السنوية من ٢٩ إلى ١٤٥ مليون دولار، ولاحظ: أن طـــرفاً متواضـــعاً فى لعبة التمويل – كدولة الدنمارك – وضعت فى الكيس ٧٠ مليون دولار، والمبالغ الجديدة مضافة لمئات ملايين أخرى متاحة عبر "فـــورد" و"المعونـــة الأمريكية"، ومؤسسات رسمية أخرى متصلة بسفارات الغـــرب فـــى القاهرة وبقية العواصم العربية، الجديد: لعب على المكشوف، وحتى لا نقول: بل الخيانة على المكشوف، وحين تشفع الديمقراطية بالتمويل الأجنـــبى فهـــى لا تستحق غير اللعنة، وتفقد شرط ارتباطها بأحلام التغيير والنهضـــة، وتـــتحول إلـــى سيناريو "خض ورج"، ونوبات ابتزاز موسمى، ومشى فى الحذاء نفسه، وتفكيك للحصانة الذاتية، ودهس للحرمات الوطنية، وإفساد واسع للنخب وإلحاقها بفساد الحكم الاستبدادى.

نعـــم نحن لا نتطلع إلى الديمقراطية كمباراة لكرة القدم، بل نريدها أداة للتغيير، ووسيلة لاستنهاض الناس، وابتعاثهم من نومة "أهل الكهف"، وإنهاء وصاية الحكام ووصاية المثقفين معاً، وجعل الكلمة للشعب يخطئ ويصيب، ووضـــع حد لعهد "الحرام الدستورى"، ووقف فساد عصر "بابا أوبح"، وقطع دابـــر سيناريو التوريث الرئاسى، وبناء مؤسسات حكم بالشرعية الشعبية لا بسلطة الأمر الواقع، وأول الطريق:

انـــتخاب رئيس لمصر، أول الطريق من فوق لا من تحت، فنحن لسنا شـــعوباً "فـــى اللفة" حتى يطلبوا لنا التدرج، ولسنا قوماً من العميان حتى لا نرى ما آلت إليه أحوالنا، فقد تحولت مصر – بغياب الناس – إلى مستعمرة أمريكـــية، ســـلطة الحكـــم المســـتبد استعمار أمريكى مستتر، ودار السفارة الأمريكية هى بيت المندوب السامى، وجماعات المارينز – الممولة أجنبياً – رؤوس جسور ممدودة بين السفارة الأمريكية وقصور الحكم، وخط المرور المســـموح بـــه فى اتجاه واحد، وقد تتوالى جولات التضاغط، أو الخلافات علـــى حـــدود الأدوار، أو نوبات "جرّ رجل" أحزاب منسوبة للمعارضة إلى المستنقع المغطى بحشيش الديمقراطية الأخضر، لكن النتيجة دائماً: مزيد من التناغم وفرض سلطة الإكراه والتلاعب إلى أن نصحو ذات يوم على صوت الدبابات الأمريكية فى مفارق الطرق عند أبواب القاهرة.

نعـــم، نريد "التغيير الآن"، نعم نريد "الحرية الآن"، الحرية للوطن بطرد طلائـــع الاستعمار الأمريكى، والحرية للناس بالخلاص من حكم الاستبداد، نريد الحرية لمصر والمصريين.. لا الحرية لأمريكا فى احتلال مصر.

إشارات

* زيارة السفاح بوش لشرم الشيخ "شرم" لعفة مصر.
* لا يليق أن تتحول مصر إلى "طباخ سم" فى مطعم الوحش الأمريكى على ناصية الشارع العربى.
* عملـــية استشـــهادية واحدة هى "خريطة الطريق" لضرب قمة اغتيال المقاومة.
* حمدى قنديل ترك مقعده فى التليفزيون ليظهر على شاشات قلوبنا.
* عادل حمودة – رغم كل خلاف – قيمة أكبر من صِغار الصغار.

١ يونيو ٢٠٠٣

جائزة بوش

"جائزة بوش مناصفة بين الرئيس مبارك والملك عبدالله"، التعليق النافذ لصحيفة إسرائيلية بمناسبة قمتى شرم الشيخ والعقبة، والتعليق يبدو مهيناً على نحو غير مقبول، فليس من جائزة يصح أن تنسب إلى بوش إلا أن تكون جائزة للعار.

وليس هذا وقت البين بين، فالساكت عن الحق شيطان كبوش، وثمة جريمة جرى الشروع بارتكابها فى شرم الشيخ والعقبة، وهى إعلان الحرب ضد الفلسطينيين شعباً وقضية وفدائيين واستشهاديين.

ودعونا من كل هذا الهراء الذى ينسب لما يسمى خطة أو خريطة الطريق، فليس فى الخريطة – إياها – مشروع تسوية، إلا أن تكون تسوية للفلسطينيين بالأرض، وليس فى الخطة – بمراحلها الثلاث – سوى جملة إجراءات ينصرف أغلبها إلى إعلان الحرب ضد "الإرهاب" الفلسطينى، والإرهاب هو الاسم الكودى – أمريكياً وإسرائيلياً – لمنظمات الفداء والمقاومة المسلحة، المطلوب بالدقة: إعلان الحرب ضد "كتائب شهداء الأقصى" و"حماس" و"الجهاد" و"الجبهة الشعبية"، بنزع سلاحها أولاً، وتفكيك بنية هذه المنظمات ثانياً، وتجفيف منابع الدعم والتمويل ثالثاً، ثم بحظر نداءات المقاومة بحجة وقف التحريض، هذه – ببساطة – هى تسوية الفرصة الذهبية التى يحذرون من تضييعها، ولا تسأل عن المقابل!، إنها وعود فى هواء على طريقة اتفاقيات أوسلو وأخواتها وخالاتها وعماتها، فلا دولة فلسطينية بأدنى مقومات الدولة، ولا عودة للاجئين الفلسطينيين إلى "إسرائيل اليهودية"، والقدس والمستوطنات والانسحاب والسيادة والمياه كلها قصص معلقة إلى مفاوضات قد لا تنتهى إلى أن يرث الله الأرض، نفس الشراك الخداعية التى وضعت فى طريق الفلسطينيين خلال التسعينيات، ذات التضليل الاستراتيجى الذى انقطع أجله باندلاع انتفاضة الشعب

الفلســطينى، وتحــول الانتفاضــة – بــدم الاستشهاديين وعمليات المقاومة المســلحة – إلى حركة تحرير وطنى، وخوض حرب استشهادية هدت حيل القــوة الجهنمــية الإسرائيلية، وهى الحرب التى يراد إيقافها وتصفية قواتها بــــ"خــريطة طريق" لإنقاذ إسرائيل وإدامة الاحتلال معاً، وهذا هو الشىء الوحيد الذى نثق بجدية الرئيس بوش فى السعى من أجله.

وقــد نفهــم أن يأمــر بوش ويطلب شارون، الجديد: إعلان جهير عن رديف عربى فى الحرب ضد الشعب الفلسطينى، بوش – فى شرم الشيخ – وصــف الاستشــهاديين الفلســطينيين بالقــتلة والإرهابيين، سمح له أدبه – كــراعى بقر – بأحقر الأوصاف لأنبل ظاهرة فى حياة الأمة، بينما ظفر أى استشــهادى أو استشــهادية بــرأس بــوش، وبرأس أبيه رجل المخابرات والمخــدرات، وبــرأس جده عميل النازيين، وبرأس دولته "الطاعون" التى قتلــت ثمانــية ملاييــن إنســان فى القرن الأخير وحده، وبرأس كل الحكام المنســوبين للعــرب الذيــن تصــرفوا كــ"أطفال مهذبين" فى حضرة الأب الإمــبراطور، ولــم يــنطق أحدهم بحرف اعتراض، بل قالوا "آمين" للرب الأمــريكى الــذى يبقــيهم فــى قصور كالقبور، وصدر عنهم أعجب "بيان عــربى"، مجرد نسخة ركيكة بالنطق العربى لإنجليزية بوش الآمرة الناهية، إدانــة مطلقة لــ"العنف"، و"بجميع أشكاله وصوره"، و"فى كل مكان"، و"أيا كانــت التــبريرات والدوافــع"، ودون إيراد حرف أو التورط فى ذكر كلمة "المقاومــة المشــروعة"، بــل والتعهد بالمشاركة فى الحرب ضد منظمات المقاومة الفلسطينية، ودعك – هنا – من "أبو مازن" الذى ينافس شارون فى ولاء المحــبة لإسرائيل، وأحاديثه المشحونة بالعواطف عن "عذابات اليهود" وإعلان الحرب ضد "عسكر" الانتفاضة (!).

الخــنادق – إذن – تحددت بوضوح، بوش وشارون وحكام العرب فى خــندق، والأمة المهانة تحت الأقدام، و"خريطة طريقنا" من كلمة واحدة هى "المقاومة"، المقاومة المسلحة بهدف التحرير فى العراق وفلسطين، والمقاومة السياسة بقصد التغيير فى عواصم العار، ونقطة البدء فى القاهرة لا فى شرم الشيخ.

إشارات

* مـــن هـــو "العـــبقرى" المسئول عن تعليق أول ملصق مبايعة لجمال مبارك رئيساً لمصر؟!.

* حبس الزميلين مصطفى بكرى ومحمود بكرى تكريس لدولة المماليك ودهس لدولة الصحفيين.

* نـــرفض إغـــلاق مجلـــة "الـــبداية"، ولا عجب أن ندافع عن حقوق خصومنا، فنحن لا نطلب الحرية على "الباترون".

٨ يونيو ٢٠٠٣

حركة للناس الأحرار

هذه الأمة تفاجئ بحيويتها المذهلة كل الذين تصوروا أنها ماتت، ومشوا فـــي جنازتها، وصلوا خلف بوش صلاة مودع مطلق هازئ بالعروبة والذى تخطر سيرتها على باله.

فى أسبوع واحد، كانت الأمة تنفض الغبار، وتقوم كالعنقاء من الرماد، وتـــتقدم طلائعهـــا فى الأكفان على جبهات السلاح والتغيير، مقاومة قومية شرسة فى أقصى الشرق العراقى، وانقلاب ناصرى مسلح فى أقصى الغرب الموريتانى، وفداء استشهادى إسلامى فى القلب الفلسطينى، والمعنى: أن هذه الأمـــة تدخل القبر، بل الذين ماتوا هم سكان القصر، الذين ماتوا هم الحكام، الذيـــن ماتوا هم جماعات الحثالة الثقافية من "كتائب المارينز" وفرق "حسب الله النـــبى بـــوش"، وقد أتاح الاحتلال الأمريكى للعراق – متصلاً بدواعى الدرامـــا الفلســـطينية – فرصـــة هائلة للانكشاف والكشف، انكشاف المشهد الأمـــامى للصورة عن خواء مربع، وكشف طاقات مخبوءة فى عمق وجدان الأمـــة المتأهبة لليقظة، فلم يعد أحد يصدق – ولا حتى البلهاء – أن الأنظمة الحاكمة مما يرد عليه الترقيع أو التعديل أو الإغواء بحسن السير والسلوك، فهـــذه أنظمة مؤسسة على عقيدة لصوصية، ونظام الترقى فيها مشفوع دائماً بشهادات وسوابق سوء السيرة، وإنجازها الذى لا يمارى فيه أحد هو النهب العـــام، وبيروقراطيـــتها من نوع الكليبتوقراطية (حكم اللصوص)، هذا هو الجوهـــر والـــباقى تفاصـــيل، الكبـــت العـــام عرض لمرض النهب العام، والخضـــوع العـــام مجرد حيلة للإفلات بالغنيمة، وكراسى السلطة مزركشة بـــأوراق البنكـــنوت لا بريش النعام، والمحصلة: أن نظم اللصوص لا تعبأ كثـــيراً بالنصـــوص، نصـــوص الدســـتور عندها أقرب لمناديل الكلينكس، ونصـــوص التعاقدات العربية أقرب لورق اللحمة، ولذا لم تكن مصادفة أنها تصرفت بلا هوى يشد إلى وَطن ولا وازع يذكر بأمة، تصرفت على طريقة

"هــات مــن الآخر" مع إملاءات السيد الأمريكى، لا مانع من تسليم الأرض والــثروة والثقافة، المهم: أن يتبقى لهم فى "الطيب" نصيب، لا يهم إن ظلوا الأصــلاء أو تــراجعوا إلــى مرتــبة الوكلاء، الأهم: أن يبقى الحكام على الكراســى، فالكرســى هــو عدة الشغل، هو المفتاح والحبل والطفاشة ورقم الحســاب فــى البــنك، ففى عالم اللصوص يخضع الأضعف للأقوى دائماً، وغايــة ذكــاء الأضعف أن يبقى فى المهنة وإلا انتهى إلى جثة على أقرب رصيف، هذا هو حال الجيف والرمم المعلقة فوق الرقاب، ولم يكن غربياً - والأمر كذلك - أن تتطابق خرائط الطرق، "خريطة طريق" اللص الأمريكى الأكبر هى ذاتها خرائط طرق اللصوص الأصغر فى قصور العواصم، ولا مانع من جرة قلم فى أى وقت وعلى أية وثيقة، والتوقيع على وثائق الأوامر الأمريكــية أشــبه بالتوقيع على بوالص التأمين، خطأ بسيط وقع فيه الحكام اللصوص، فقد تصوروا أن أمريكا قدر لا يرد، وأن الشعوب وهم لا يعود، وأن الأمــة راحــت فــى خبر كان فلا تكون، وهنا فاجأتهم الأمة بحيويتها العفويــة المــتدفقة، فاجــأتهم بأنهــا تتلمس - بالغريزة - "خريطة طريقها" المدفــون فــى سابع أرض، طريق السلاح الاستشهادى الجسور فى العراق وفلســطين، وطريق الطرق العنيف لناقوس التغيير فى انقلاب موريتانى لم يكــتمل، إنهــا مشاهد الخروج من النكبة تقتحم الوجدان، عقب نكبة ١٩٤٨ كانــت "حــركات الضباط الأحرار" عند أبواب التغيير، ولدت النكبة تغييراً ومــداً بالحضــور فــى تاريخ الخمسينيات والستينيات، وهاهو الدرس ذاته يتلوعليــنا عظاتــه، ربما لا نريد - هذه المرة - حركات للضباط الأحرار، ربمــا ننــتظر باليقيــن - حركات للناس الأحرار، فأمريكا لا تهزم جيوشاً لجــيوش، بــل شعوباً لجيوش، وانتفاضة الناس هى شرط الهزيمة الأخيرة للصوص العواصم.

إشارات

* بوضوح: ندافع عن مبدأ مجانية التعليم.. لا عن سيادة وزير التعليم.

* أفضــل بعــث ممكــن لحزب البعث - فى العراق - أن يتحول إلى "منظمة مقاومة".

* الأردنية توجان الفيصل – فى رسائلها للطغاة – أجمل وأعقل وأذكى وأشجع امرأة – ورجل – فى السياسة العربية بإطلاق.

١٥ يونيو ٢٠٠٣

فخامة مبنى وخواء معنى

نخشى أن تنتهى سيرة نقابة الصحفيين إلى فخامة مبنى وخواء فى المعنى، أى أن تتحول إلى نقابة بلا صحفيين، ولا يتبقى من خالدة الذكر سوى "فندق خمس نجوم" يغرى بالبيع فى برامج خصخصة الضمير المصرى.

ولا نتصور أن هموم نقابة الصحفيين مما يصح قصره على الصحفيين وحدهم، ولا أن حل أزمة النقابة المتفاقمة ممكن بتفضيل زيد على عبيد، أو الحذر من نطاط الحيط، بل الحل الإجرائى فى شرطين لا ثالث لهما، الأول: احترام أحكام القضاء المشفوعة بمنطق نقابى، والآخر: التعجيل بانتخابات تنتهى لاختيار نقيب جديد ومجلس نقابة متوازن وفعال وبعيد عن فكرة الرضا بالقسمة والنصيب.

وقد لا تكون القصة ببساطة الإجراءات المقترحة للحل، فأزمة النقابة أعمق وأقدم من مظاهر تواترت وترددت فى الأسابيع الأخيرة إلى درجة الانحطاط السوقى، نقابة الصحفيين كانت – دائماً – على خط النار مع السلطات المتعاقبة، وصمدت النقابة فى معارك "كسر عظم" راكمت تراثاً مجيداً هو موضع اعتزاز كل صحفى يستحق الصفة، ولعل معركة قانون اغتيال الصحافة – أواسط التسعينيات – كانت آخر عهدنا بالصدامات ذات القيمة، بعدها دخلت النقابة فى حالة "زواج عرفى" مع السلطات، ووقع الصحفيون ضحايا لحروب التدجين الناعمة، كان الفقر والحبس هما أظهر أعداء الصحفيين، تردى الأجور – مع تزايد معدلات التضخم – هبط بالمكانة الاجتماعية للصحفيين، وحوادث الحبس – فى قضايا النشر والرأى – أهدرت كرامة الصحفيين، باختصار: تحول الصحفيون إلى ذوى حاجات وأرباب سوابق، ورغم وضوح التحدى كان النفاق الملتوى سيد الموقف، جرى التحايل على ضعف الأجور بابتداع "رشوة البدل" فى كل دورة

انـتخابات، وتحول المشهد الصحفى إلى أنفاس لاهثة تنتظر "منحة الريس"، ولأن خـريطة طريق المذلة مفهومة التضاريس، فقد كان طبيعياً أن تتوالى مشـاهد حـبس الصحفيين بلا رادع، اللهم إلا إذا تصورنا أن البيانات تريح الضـمائر، أو طقوس الاحتجاج بالتضامن من باب "برو العتب"، أو سواها مـن أصـول المشـى فى الجنازات والتمتمة فى سرادقات العزاء، أغلقت صـحف، وسـجن صحفيون، ولا تسمع فى النقابة غير رجع الصدى، ربما الجديـد: أن الصـدى المنهك بدا سجيناً مخنوقاً فى المبنى المترف المكيف، الكـل يطمئنك: نحن ضد إغلاق الصحف وحبس الصحفيين، رغمها لا تدير النقابة معركة، ولا تنظم إضراباً ولا اعتصاماً عاماً، ولا تطلب من الصحف توقفـاً رمـزياً عـن الصدور، ولا تلجأ إلى واحد من ألف أسلوب معروف ومجرب فى معارك الضغط الجدى بما يشكك فى توافر أضعف الإيمان.

هذه الرخاوة فى المعنى – مع فخامة المبنى – ليست من فراغ، فالسباق الـرخامى على أشده فى المؤسسات الصحفية الكبرى، ورؤساء المؤسسات فـى مناصـبهم لربع قرن، والنتيجة: أن تحولت المؤسسات العامة لملكيات مخصوصـة، حالـة مملوكـية فى السلطة الصحفية تداخلت بالطبيعة – مع "المـآل المملوكـى" الـذى انتهت إليه السلطة السياسية، النتيجة: أن مماليك "الملكـيات المخصوصة" يريدونها نقابة مخصوصة أو مقصوصة، وهذا ما حدث ويحدث بالضبط، قصوا أجنحة النقابة فعجزت عن التحليق، ويريدونها الآن نقابة مخصوصة مفتوحة لحرب التركات، ولا حل سوى البدء بانتخاب نقيـب جديـد لـيس من أهل المماليك ولا من سلالة الأغوات، فلا يعقل أن نـتحدث عن تداول السلطة مع بدعة "النقيب المؤبد"، ولا داعى للتخوف أو الـتخويف بمطامع الأستاذ "منير عزب" فى منصب نقيب الصحفيين، فنجاح الأسـتاذ "عـزب" ربمـا يكون وارداً لو أفلح إبليس فى حجز تذكرة لدخول الجنة (!).

٢٢ يونيو ٢٠٠٣

الخونة السبعة

مــع مصــرع كــل جندى أمريكى فى العراق ترتفع رؤوسنا من طين المذلــة إلــى عــنان السماء، وقد رفعت المقاومة العراقية رؤوسنا إلى الآن ســتين مــرة، ويــوم تــرتفع رؤوسنا للمرة الألف، لن تجد أثراً للاحتلال الأمــريكى، ولا لــ" كتاب المارينز"، فى العواصم، ولا لأنظمة الهوان من أصــدقاء بول بريمر حاكم أمريكا المذعور فى العراق، والذى صافح عبيده مــن "خونــة العرب" فى مؤتمر البحر الميت، وهو يرتدى القميص المدرع والحذاء الواقى من الرصاص (!).

لقــد بــدأت المقاومــة العراقية مبكراً، وربما كما لم يتوقع أحد، بدت المقاومــة الأســطورية على درجة عالية من التنظيم والاتقان، وظهر جهد التيارات والقوى الحية، قوميون وإسلاميون حملوا السلاح، وحولوا عواصم الوسط السنى إلى مقابر للأمريكيين، وربما لا يطول أمد التردد الشيعى، ولا دواعــى الــتلكؤ – ربما التورط – المنسوب لمراجع محسوبة على الشيعة، بعــض هــؤلاء – للأســف – موحول فى اتصالات خطرة مع الأمريكيين، وآخريــن – كآيــة الله باقــر الحكــيم – موصول النسب بالحذر الإيرانى، فالسياسة الإيرانية – على ما يبدو – لا تريد استثارة الثور الأمريكى الهائج المــتربص بإيــران، والنتيجة: أن يفقد هؤلاء "مرجعية" الانتساب لمقدسات الديــن وتــراب العراق العربى معاً، وربما بدأت النذر بـــ "انقلاب عربى" ظاهر فى الوسط الشيعى عبرت عنه ظاهرة الحضور الجامح للمرجع الدينى الشاب "مقتضى الصدر"، وأياً ما كانت مصائر التفاعلات، فالمؤكد أن التردد الشــيعى إلــى نهايــة قريــبة، وأن المقاومة العراقية سوف تغتنى بانضمام الشــيعة، وبــروحهم الاستشهادية البطولية، وقتها سوف يتحول العراق إلى مقــبرة جماعــية للأمريكييــن، وتنهض الوطنية العراقية الجديدة بدم وفداء التــيارات الحــية فــى السُــنة والشيعة، وتتكون سبيكة جديدة ملهمة نواتها

القوميون والإسلاميون، فليس من اختيار صحيح آخر، كل تردد فى المقاومة يهـدد بتفجير الجسد العراقى المدهوس تحت سنابك خيل الاحتلال، وتصعيد المقاومـة المسـلحة – وحـده – هـو الـذى يبنى العراق الجديد العربى الديمقراطى، والبديل: عودة إلى سيرة مقابر صدام المدانة بالتأكيد، عودة إلى دائـرة العـنف الداخلـى المفرغة، عودة إلى تفكيك النسيج العراقى متعدد الأطـياف، فـثقافة الـدم – للأسف – ظلت أبرز عناوين العراق الحديث، والمذابـح المتبادلة لم ينج منها أحد، وصدام نفسه ظل محكوماً بالإعدام إلى أن وصـل للسـلطة فتخصص فى إعدام الآخرين، ولا يعقل أن تغيب هذه الخـبرة الدامية عن الوجدان الوطنى العراقى، ولا أن يقع الفرقاء فى الخطأ نفسه إلى آخر عراقى، ولا أن ينتظروا مداولات فصائل "الخونة السبعة" فى غـرف نـوم "بول بريمر"، فقد سقطت مصداقية هؤلاء جميعاً، وطبيعى أن تحـول عمـلاء المخابرات إلى عملاء للاحتلال، وأن تحول المترددون إلى منتظريـن لفـتات موائده، وتكشفت الصورة فى العمق عن بشائر لنهوض وطـنى جديـد، لا يسـتبعد البعثيين، وإن استبعد تراث الدم المنسوب لحكم صدام.

نعـم، المقاومة المسلحة وحدها هى طريق الخلاص للعراق، والوطنية العراقية الجديدة فى لقاء البنادق عند ميدان الرماية، وحكومة عراق المستقبل هـى ائتلاف جماعى لمنظمات الفدائيين، وألف باء الديمقراطية هى هزيمة الاحتلال، وقتل المارينز الأمريكيين هو كلمة الخلق.

إشارات

* ألـف علامـة استفهام – حتى لا نقول أكثر – بمناسبة امتناع جمال مبارك عن نفى نية توريث الرئاسة فى "زيارة البركة" لأمريكا.

* مركـز النديم يرفض التمويل الأمريكى، ونجاد البرعى لا يعبر عن ناشطى حقوق الإنسان (إيضاح فى رسالة كريمة وصلتنى بتوقيع د. سوزان فياض).

* دعاؤنا – من صميم الروح – أن تقف العناية الإلهية مع عبدالله إمام فى غرفة العناية المركزة.

٢٩ يونيو ٢٠٠٣

حكم السلالة

بوضوح: لن تتوقف حملة "العربى" ضد سيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك إلى أن يصدر نفى رسمى بات وجازم ويعلن زوال الخطر.

لأسابيع، تصور مراقبون أن القصة طويت فصولها، وأن قدزاً من الرشد أصاب المعنيين وتوقف البعض – بالذات – عند تصريح لجمال مبارك فى ندوة بالجامعة الأمريكية ينفى نية التوريث، وسرعان ما تبين الخطأ، وظهر أنه لا تراجع ولا يحزنون، وأن ما جرى ليس أكثر من إحناء رأس عابر لعاصفة غضب يظنونها عابرة، أو استنقاذ موقوت لرأس من خبطة فى الرأس، أو الدوران بخطوة للخلف تمهيداً لخطوتين قفزاً للأمام فى السيناريو الخطر، فما بدا أنه أثير سراً فى الجامعة الأمريكية ظهر للعلن فى الديار الأمريكية، وتوالت وقائع زيارة البركة الأخيرة لأمريكا تصدم العين رسمياً: كان الوفد برئاسة أسامة الباز مستشار الرئيس مبارك، وواقعيا: قفز مبارك الابن إلى صدر الصفحات الأولى فى تغطيات الصحف الحكومية، ولم تتحرج الصحافة الرسمية فى نقل تصريحات جمال مبارك عن قصة التوريث، المفاجأة: أن جمال مبارك الذى نفى نية التوريث فى مصر لم يستبعدها فى أمريكا، وهو ما يعنى – ببساطة – أن الخطر تجدد، وأن ثمة محاولة لتسويق الفكرة فى أمريكا، وإغراء الأمريكيين بقائد "مدنى" جاهز فى مصر يبدو متجاوباً مع قوائم الطلبات والرغبات، وهذه هى ذروة الكارثة، ففيها تسليم ضمنى ظاهر بأولوية الاعتبارات الأمريكية فى صياغة المستقبل المصرى، وفيها تجاوز خشن لمعنى "مصرية السلطة" ناهيك عن وطنيتها، وفيها إقرار غليظ بغلبة المكون الأمريكى فى صناعة القرار المصرى، وهكذا تبدو مخاطر التوريث كامتداد – بطبائع الأمور – تضغط الهيمنة الأمريكية، والمحصلة: أن الاتجاه للتوريث يعكس تآكل المعنى الجمهورى والمعنى الوطنى معا، وبعيدنا – بالضبط – إلى ما قبل خمسين

سنة، يعيدنا إلى دراما قصر الملك فى "عابدين" وقصر المندوب السامى فى "الدوبـــارة"، وينقلـــنا – مـــع الوعى باختلاف الظروف – إلى حكم مزدوج لــــ"البيـــت الرئاســـى" و"البيـــت الأجنبى"، والقاسم المشترك: نفى الشعب المصـــرى مـــن الـــتاريخ، واستحضار فرق "الألعاب البلهوانية" إلى خشبة المسرح، والترويج لخليط هجين من العهر السياسى باسم لغة العصر الواردة لبر مصر، والتكريس السلالى لنخبة المماليك والأغوات وجماعات المارينز، وتحويل أحلام التغيير إلى كوابيس للتنفير.

ولا مـــانع – عـــندنا – من ابتلاع هواجس مرئية ومخفية، لا مانع أن نبصم بالعشرة بشرط النفى الرسمى – وعلى لسان الرئيس مبارك بالذات – لنـــية التوريـــث، وإعـــلان الرئيس عن نقل السلطة كاملة للشعب قبل نهاية ولايـــته الـــرابعة، والطريق معروف، إنهاء حالة الطوارئ، وإلغاء اتفاقات التبعية لأمريكا، ورد الاعتبار للدستور، وانتخاب جمعية تأسيسية، وصياغة جمهورية ديمقراطية لا تستبعد – بل تقنن – دور الجيش فى السياسة، وترك الأمـــر للناس بلا وصاية حكام ولا وصاية مثقفين، ففك "العروة الوثقى" بين الوطن والناس هو الذى انتهى بنا إلى القاع الذى ليس بعده قاع.

نعـــم، لا يغـــريكم صـــمت الـــناس، فقد زاد فيضان الغضب إلى حافة الحلقـــوم، فلسنا عقاراً يورث، ولا قطيعاً من الأنعام فى حديقة حيوان تركوا للسفير الأمريكى فيها "قفل الباب".

إشارات

* هـــل صـــحيح أن صـــحيفة "الصدى" أغلقت بأمر شفهى من وزير الداخلية؟!.

* إغـــلاق "الصدى" إنجاز إضافى لأزهى عصور الديمقراطية الذى لم يقصف قلماً ولا أغلق صحيفة (!).

* عـــبدالله إمام كان موضوعاً للاختلاف فى حياته.. وموضعاً للإجماع فى وداعه المهيب.

٦ يوليو ٢٠٠٣

لا لنقيب "المارينز"

ربمـــا تكون معركة نقابة الصحفيين أول اختبار جدى لرغبات وأشواق تغيـــير يـــبدأ من الرأس، فقد بات موقع النقيب موضعاً للتنافس، ولأول مرة مـــنذ ســـنين طويلـــة خيم فيها الركود، وبدا أن الموقع المهم محجوز دائماً لمرشـــح الحكومة، ولم يتغير الاسم إلا على طريقة لعبة الملك والكتابة، أو الـــتداول المحكوم فى لعبة كراسى موسيقية، وظل اللحن نفسه يصم الآذان، وكأن نقابة الصحفيين مؤسسة إضافية مملوكة للحكومة، المؤسسات الصحفية الحكومـــية لا يتغير رؤساؤها حتى صاروا أشبه بالملاك، ونقابة الصحفيين بـــدت كأنها عزبة فوق البيعة، ويكفى أن ينتدب واحد من الرؤساء لإدارتها فـــى فراغ الوقت، وهذه حالة بدت قابلة للتغير مع تجاوب إبراهيم نافع – أياً كانت الأسباب – مع المطالب المنطقية بعدم الترشيح، أضف: حالة الفوضى المملوكـــية فى دواوين السلطة بعامة، والسيطرة الفاشية لجماعات المارينز الصـــحفى اســـتقواء بالنفوذ الأمريكى، والمحصلة: أن ظهر مرشح للحكومة مـــن نوع مختلف، ليس واحداً من ملاك المؤسسات الذين تقادموا مع العهد المـــتقادم، بـــل موظف منتدب للدور على سبيل اختبار ما تبقى من صلابة الضمير الوطنى، مرشح كامل الأوصاف فى التعبير عن "جماعات المارينز" نامـــية النفوذ، علاقات عائلية بجماعة البيزنس الطافية بثراء مهول لا تسنده قواعـــد إنتاجـــية ولا اجتماعية، ووصل لا تخطئه العين بالهوى الأمريكى، وتاريخ طويل فى سجلات الخدمة التطبيعية، واسم مفروض – بسطوة الأمر الإدارى – ككاتـــب عمود يومى فى أكبر وأقدم الصحف، وتراث من العداء لكل ما هو وطنى مضىء فى دفتر الأحوال المصرى، وكلها – مع غيرها – مؤهـــلات جعلـــت صـــلاح منتصـــر منتخباً لدور قيادة فى "حرب الصدمة والترويع" داخل نقابة الصحفيين، لا يهم عند المعنيين إن كان صلاح منتصر بريئاً من سوابق اهتمام نقابى لافت، وهو برىء – كذئب ابن يعقوب – من

سوابق الفضيلة النقابية، وليست عنده سوى السوابق المخجلة للضمير المهني، ولا يهم – عند المعنيين أيضاً – إن كان صلاح واحداً من رموز الصحافة أو كبار الكُتاب، وليس من شاهد واحد على مكانة مميزة تصحح نسبتها إليه، ولا على قيم وأفكار وفنون صحافة يعتد بها، فالرجل – فى أفضل الظن – قارئ متابع يجهد فى سبعينيات عمره ليقنعنا بصفة الكاتب، وما يكتبه – فى غالب الأيام – ليس سوى إعادة نشر منسق لأخبار الصحف ومحطات التليفزيون، وربما يكون كل ذلك محتملاً لو كفى خيره شره، واكتفى بالظل المكيف الذى يؤنس وحدته المتعالية دونما سبب معقول، وللحق فقد فعلها صلاح منتصر، وقنع طويلاً بدور الداعية – أو المصلح الاجتماعى ضد وباء التدخين، أو رواية نكات مسلية تنشر فى الصحف أو تقال فى الصالونات، لكنهم أرادوه لدور ربما لا يناسب طبعه الرخى، أرادوه لدور "رجل المارينز" فى نقابة الصحفيين، وبدا ذلك مرتبطاً – بدرجة محسوسة – مع صعود "اللوبى الأمريكى" فى معية سيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك فالمعنى: أنهم يريدون تحويل انتخابات الصحفيين إلى بروفة "صدمة وترويع"، الصدمة ظاهرة فى طرح اسم صحفى تطبيعى – حتى النخاع – لقيادة نقابة الدور الطليعى فى رفض التطبيع، الصدمة ظاهرة فى طلب تطبيعى لنيل ثقة جمعية الصحفيين العمومية، وجعل قراراتها الإجماعية ضد التطبيع حبراً على ورق، بل وربما تحويل القرارات إلى مناديل كلينكس فى دور المياه الملحقة بمكتب سيادته، بل وربما تكليف الصحفيين بكنس أرشيف النقابة الوطنى ورميه فى أقرب مقلب زبالة، وكأنه يراد لنقابة الصحفيين أن تتحول إلى نقابة للزبالين، ولا قيمة – بالطبع – لدعاوى اعتبار التطبيع خلافاً فى الآراء، فالتطبيع خلاف فى الأوطان وفى الأديان، وصلاح منتصر ليس مجرد داعية للتطبيع، إنه ممارس محترف، وعلى مسئوليته الفردية أحياناً، وبوحى من "جماعة كوبنهاجن" فى الأحيان الأغلب، وجواز سفره غارق فى حبر الختم الإسرائيلى، وهو ليس فقط – مرشحاً لـ حكومة مماليك، تتهيأ "جماعات المارينز" لوراثتها، إنه – بالدقة – مرشح "جماعة إسرائيل" لمنصب نقيب الصحفيين.

٢٠ يوليو ٢٠٠٣

أبيض وأسود

التلاعب باسم الأستاذ هيكل لن يفيد صلاح منتصر، فلا يعقل – بالبداهة – أن يتحمس الأستاذ هيكل لمرشح تطبيعى نقيباً للصحفيين المصريين، ولا يعقل – بالوهم أو بالظن – أن يقف الأستاذ هيكل على طرف خصومة مع أشواق ورغبات التغيير، وهو صاحب التعبير الشهير "سلطة شاخت على مقاعدها"، وهو الذى عارض بشجاعة. تضاف لقيمته الجليلة – سيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك، وطبيعى أن صلاح منتصر لا يملك أن يفتح فمه بكلمة فى هذا الخصوص.

ومن الأفضل لصلاح منتصر أن يكف عن التمسح بأسماء وبأشخاص، كان يقول إن فلانا "طلب ترشيحى"، أو أن علانا قال له "على بركة الله"، وكأنه يخاطب جمهوراً من الجهلاء، أو كتلاً من الأتباع المنقادين بغير وعى، لا جماعة الصحفيين المتمتعة بالعقل وصواب التقدير، واستقلالية وسلامة التفكير، والمقدرة على الحكم المباشر بغير وساطة ولا حجاب حاجز، فالتشفع بأسماء وأضرحة – لها كل الاحترام – يحتمل شبهة التحقير لوعى الصحفيين، لكن صلاح منتصر – على ما يبدو – بفعل ما فى وسعه، فكل مهيأ لما خلق له، وقد نعذره من باب الفهم لا التفهم، فهو يختبئ وراء عناوين تبدو ساطعة، ويتخفى بعنوانه الشخصى المثير للعجب، فهو ليس كاتباً كبيراً، ولا نقابياً متمرساً، ولا كاريزما تخطف العين، وليس فى حياته الصحفية من قيمة يعتد بها، وعلاقاته العائلية والبيزنسية وشبه السياسية تضعه فى "خانة اليك"، والنتيجة: تخبط بلا آخر، وتصرفات مرتبكة أشبه بتقلصات فأر فى مصيدة، فهو يقول لك – على طريقة شجيع السيما – "ملعون أبو التطبيع"، ومد الجملة على استقامتها المنطقية يعنى أنه "ملعون أبو التطبيعيين" أيضاً، وصلاح منتصر – فيما هو معروف – تطبيعى محترف، ولا نريد أن نسايره فنتورط فى لعن آباء لا ذنب لهم فى جريرة

الأبـــناء، إنها – فقط – بعض المفارقات المغرية بالضحك الساخر، أضف: ثرثرات بلا فرامل تنتهى بالفكر أو بالروح للتيار القومى الناصرى فى مقام "تحســين الصـــورة"، وينســـى صلاح منتصر – أو يتناسى – أن الغلط فى الأصل لا فى الصورة، وأن القادر على الإقناع بشخصه لا يلجأ إلى مدد من فوائـــض قـــيمة الآخرين، وأن كلمة "الزيادة الكريمة فى البدل" العالقة بفمه تســـىء إلى شخصه كمرشح لمنصب نقيب الصحفيين، وتمتد بالأذى الفاحش لكـــرامة جموع الصحفيين، فالصحفيون ليسوا شحاذين على باب السيدة ولا علـــى بـــاب رئيس الحكومة، وزيادة أجور الصحفيين حق مستحق لا منحة كـــريمة، والتمســـك بموضة المنحة – لا مبدأ الحق – محاولة مبتذلة لرشوة ضمائر الصحفيين، وربما يكون أجدى لصلاح منتصر أن "يلعب غيرها" فقد بلـــغ السخط حافة المنتهى، وضاق الصحفيون ذرعاً بتكرار الإهانة ذاتها فى كـــل دورة انتخابات، فلسنا عبيداً يشترون، ولا متاعاً يورث، ولا رهائن فى جيب المملوك ولا وكيله المنتدب لوظيفة "نقيب بالقطعة".

ولا نـــبالغ لـــو قلـــنا إن اختبار الصحفيين، هذه المرة – موضع اهتمام وترقـــب الأمـــة كلهـــا، فهـــذه معركة كاملة الأوصاف فى منعطف خطر، والاختـــيار فـــيها قطعـــى حاد بين أبيض وأسود، والتطابق كامل بين شرط الضـــمير ورغبة التغيير، وكلنا أمل أن يقول الصحفيون "لا" لصلاح منتصر مرشـــح "جماعـــة المارينز"، وأن يقولوا "نعم" لجلال عارف مرشح الجماعة الوطنية، فقد دقت ساعة التغيير.

عنبر الأحزان

فقد الأب يُشعرك باليتم، وفقد الأم يجلب الشيخوخة، ومنذ ذهبت أمى – إلـــى حيـــث لا يعـــود أحـــد – أشعر بالتعاطف العميق مع من تموت عنهم أمهـــاتهم، وفـــى الأســـبوع الأخـــير وحده وجدتنى مع رفاق جدد فى عنبر الشيخوخة، العزيز رأفت بسطاً – مع رحيل أمه – ترك بهجة الطفولة رأساً إلـــى أصعب العمر، ورحيل أم الزميلتين سلوى سالم ومنى سالم كان بمثابة "عقد قران حزين" مع زوجيهما العزيزين عبدالله السناوى وجمال فهمى.

واللهم لا اعتراض.

٢٧ يوليو ٢٠٠٣

أشواق التغيير

لا نملــك عصا موسى، وإن أثبتت الحوادث – فى سياق مفعم بأشواق التغيير – أننا نقدر على إبطال عمل سحرة الفرعون.

ولا نــريد – بإغراءات النشوة الطاغية – أن ندعى لــ "العربى" دوراً بــلا شــريك فــى زلزال ٣٠ يوليو بنقابة الصحفيين، لا فى الفوز الساحق لجــلال عــارف مرشح الجماعة الوطنية، ولا فى الهزيمة الكاسحة لصلاح منتصــر مرشــح "مابعد الحكومة" و"جماعة المارينز" لنصف مقاعد مجلس نقابــة الصــحفيين الجديد تقريباً، أضف – بالطبع – فوز الكاتب الناصرى الــبارز جلال عارف بمقعد نقيب الصحفيين، أضف أيضاً: فوز المعارضة السياســية والمهنــية بثلاثة أرباع مقاعد مجلس النقابة، وكلها حوادث تخلع القلــب، وتضيف مدداً من ثقة، وتنشر روح التفاؤل بالغد، وتخترق الركود المخــيم على حياتنا الفكرية والسياسية والمهنية، وتحطم ما تبقى من هيمنة لحكومة المماليك، وتكشف زيف أوهام "الفكر الجديد" المجسد لتحالف حزب النهــب العام مع جماعات اللوبى الأمريكى، وعبث سيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك باسم فتح الأبواب للجيل الجديد، فهذه هى الأجيال الجديدة حقاً – لا المفــبركة والموصى بها – تخترق حاجز الصوت فى نقابة الصحفيين، دفقة عذبة من "ماء المحاياة" المصرى تتفجر بها آبار الغضب، وطبيعى أن ثمــة شــواغل تخــص الصحفيين، هموم كالفقر، والحبس وتداعيات الخطر بالــركود علــى استقلالية نقابة الصحفيين، وكلها دواع لعبت دوراً فى صنع انقــلاب ٣٠ يوليو مع توفر رمز نقابى مقتدر كجلال عارف، لكن الظاهرة أكــبر من نقابة الصحفيين، ودلالة التغيير الذى جرى أوسع من مبنى النقابة الفخــيم بــأدواره الثمانية عند سقف القاهرة، كانت قاعاته المكيفة تبدو كأنها ســجن "خمس نجوم" لأشواق الصحفيين، لكنه بدا – مع انقلاب ٣٠ يوليو – كأنــه "بــرج التغيير" وشاهد الثورة المقبلة، فعواصف نقابة الصحفيين هى

"ثقــب الــباب" الذى نرى منه مصر الحقيقة، وليس أفضل من حوادث نقابة الصحفيين – مع روابط "العروة الوثقى" بين الصحافة والسياسة – فى قراءة ملامح مصر الآن، بلد متعب منهك مثقل بسلطات شاخت على مقاعدها، بلد ممتلـــئ بالعظمـــة تحكمه العظام وقد صارت رميماً، بلد مقموع هادئ على السطح، جامح متمرد فى الأعماق، بلد "السياسة الجوفية" بآبار غضب تغلى وتفــور، وهنا تتكشف القيمة الحقيقية لدور "العربى" دون تزيد قد تغرى به أهواء النفوس فى معركة الصحفيين كانت "العربى" هى عنوان التغيير، كان المشهد الصحفى موحياً، تهتهات وعنعنات و"فهلوانيات" فى أغلب الصحف، وصـــحيفتان – بـــالذات – فـــى ميدان النزال الساخن، صحيفة "الأهرام" – بإمكانـــات دولة – وقفت وراء صلاح منتصر، وصحيفة "العربى" – بأحلام أمـــة – ســحقت صلاح منتصر وانتصرت لجلال عارف، والنتائج على ما نعلم، أنها – بلا مبالغة – ثورة مصر فى نقابة الصحفيين، العينة البينة وإن بـــدت فى صورة معركة تغيير صغرى، وفى معركة التغيير الكبرى نعقلها ونـــتوكل، فقـــد أثبتت "العربى" أنها الأعظم تأثيراً كلسان للتعبير عن أشواق التغيـــير، فالصـــحيفة الحقة لا تقنع بالمتابعة اليقظة للحدث، إنها – أيضاً – تصنع الحدث.

إشارات

* جـــلال عـــارف "أيوب النقابة" أصبح أخيراً "زعيم النقابة". درس فى الصبر.

* التـــيار الناصـــرى – رغم حظر السياسة – أثبت حيويته مجدداً فى معركة الصحفيين. العظة لمن يعظ.

* العزيـــز جمال فهمى هو الفائز الوحيد من مرشحى الصحف الحزبية والمستقلة فى انتخابات الصحفيين. وسام تستحقه "العربى".

٣ أغسطس ٢٠٠٣

آبار الغضب

نعـــم، معركة نقابة الصحفيين بأحداثها ونهاياتها المثيرة هى انقلاب فى الحـــياة المصرية بالمعنى بالكامل للكلمة، ليس المقصود - بالطبع - انقلاباً عســـكرياً كمـــا ذهبـــت تفســـيرات طيبة القلب، فلسنا فى معرض مقارنات مدرســـية بين كلمتى "انقلاب" و"ثورة" بل انقلاب على الركود، انقلاب على طـــرق التفكـــير البلـــيد، انقلاب على التواطؤ، انقلاب على خراب الروح، انقـــلاب علـــى معارضـــة النصف نصف، انقلاب فى السياسة يجعل الكلمة للـــناس، وإرادة الـــناس مـــن إرادة الله، انقـــلاب الناس ثورة، وثورتهم هى الانقلاب الذى لا يغلبه غلاب.

معـــركة نقابـــة الصحفيين أكبر فى معناها من المبنى المنيف فى ٤ ش عـــبد الخـــالق ثروت، وقد لا يكون الأشخاص الذين صاروا "حكومة النقابة" فـــى محـــل الاعتـــبار الأول، ولهم جميعاً كامل التقدير الشخصى. وعظيم الأمنـــيات بالتوفـــيق الـــنقابى، فقد انطوت المعركة على تفاصيل صغيرة، ودارت أساساً على منصب النقيب، وانتهت إلى الفوز الساحق لجلال عارف بتكويـــنه الشخصـــى والسياســـى والـــنقابى الـــذى لا تخطئ العين دلالاته وإيحاءاتـــه، وقد تكون الأقدار وضعته فى طريقها بأكثر مما قدر هو نفسه، وربمـــا تكـــون قصة معركة النقابة كلها محض ريشة طارت إلى القمة فى مهـــب ريح التغيير العاصف، فمعركة الصحفيين - بالدلالة والتوقيت الحرج - تتجاوز المعنى النقابى إلى السياسى، تتجاوز هموم الصحفيين إلى أوجاع عموم المصريين، إنها "غضبة بالعينة" من آبار غضب مصرى يغلى ويفور، وهـــذه هى القيمة الكبرى لمعركة الصحفيين الصغرى، قيمة أن نشق طريقاً للتغيير بالناس، لا أن نتوقف عند أضعف الإيمان، وتضييع الطرق فى ترف الاحـــتجاج بالبـــيان والكراس، قيمة أن يفعل الناس، وأن تفعل الديمقراطية، قـــيمة أن تنتزع الحقوق، لا أن ننتظر العطايا والمنح، قيمة أن تكون الغلبة للتـــيارات الأكـــثر حضوراً وجاذبية فى الشارع السياسى والثقافى، قيمة أن

يـتحول التغيـير من رغبة إلى نموذج قابل للاهتداء، والاقتداء به، والعمل علـى مـثاله، وهذا هو مربط الفرس، فما يجرى فى مصر يعود فيؤثر - بطـبائع الجغرافـيا والـتاريخ - على مزاج الوطن العربى باتساعه طولاً وعرضاً وعمقاً، ومعركة الصحفيين - بروابط "العروة الوثقى" بين الصحافة والسياسة - مؤشر على انقلاب بالتراكم فى المزاج العام، وتوافر بيئة ثورية بالدلالـة الحرفـية للكلمـة، فلـم يعد من شيء صالح للبقاء فى مصر، لا الحكومـة، ولا فرق النهب العام، ولا أحزاب الورق والغرف المغلقة، ولن تجدى محاولات الإصلاح أو الإنعاش الصناعى لجسد تعفن وتحلل، وزكمت الأنـوف روائحه، ولا حيل الالتفاف بالتوريث والتعهير توقياً لأقدار التغيير. وخلـق مصـر جديـدة لم يعد ممكناً سوى بتغيير ثورى وانقلابى الطابع، وتذكـروا أن انتفاضـة الصـحفيين سبقتها انتفاضة ميدان التحرير فى ٢٠ مـارس، وأننا قلنا إن العام الذى بدأ بغزو أمريكا للعراق لن ينتهى ومصر علـى ما هى عليه، وأن "العربى" - بحساسية مهنية وسياسية فائقة - قادت حملـة "التغيير الآن" و"الحرية الآن"، وقد لا ننتظر - ربما لا نرغب - فى تغيـير بحركات الضباط الأحرار، فقد أصبح العصر غير العصر، وصارت الكلمة الآن لحركات الناس الأحرار.

وطبيعى أن يثير نموذج "التغيير بالناس" فزع أمريكا، وأن تتفجر حملة "كـتاب المارينـز" ضد إيحاءات التغيير الذى بشرت به معركة الصحفيين المصريين، فقد سقط التبشير الملوث بالنموذج الأمريكى فى العراق، ونطق الشـعب المصرى الذى حبسوه فى حارة الخرس، وتحدثت مصر عن نفسها بلسان الصحفيين.

إشارات

* شـفيق أحمـد على - بتحقيقاته الممتازة فى حملة "العربى" - أسقط صلاح منتصر بالضربة القاضية.. المهنية.

* حركة المقاومة العراقية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب العراقى.

* رجل أعمال كورى انتحر - خجلاً من اتهامه بالرشوة - بإلقاء نفسه مـن الطـابق العشـرين، أدعو الله أن تخجل حكومتنا - مرة - فتعقد آخر اجتماعاتها فى مقابر الإمام الشافعى.

١٠ أغسطس ٢٠٠٣

الحريق الآتى

العمـــيان وحدهم هم الذين لا يرون مصر المقبلة على حريق اجتماعى وسياسى قد يدفع البلد إلى المجهول الخطر.

العميان وحدهم هم الذين لا يرون مصر كومة من القش لا ينقصها عود الكبريت، وقد لا تمضى شهور قبل اندلاع الحريق، كرة النار تجمع خيوطها الآن مـــن ارتفاعات فلكية فى الأسعار، وكل فرق مطافى الحكومة لن توقف اللهيب، لا اللجان التى تتشكل، ولا التطمينات الكاذبة، ولا الوعود الممنوعة من الصرف، فهم يوهمون الناس بأن كل شىء تمام، بينما الناس يعرفون – بلمـــس الأصــــابع – أن كـــل شىء إلى دمار، فنار الأسعار تحرق القلوب وتشـــوى الجـــيوب، وما من مهرب. فالدخول متآكلة، وقيمة الجنيه تنحط، و"الفـــرق الناجـــية" تخـــاف علـــى فرص عمل تنفلت من الأيادى، والبطالة تـــتوحش بالملاييـــن، ونـــوازل الفقر تهد حيل الطبقات التى كانت وسطى، ومجتمع المهمشين صار المكون الغالب فى المعمورة المصرية، والقفز إلى القـــاع صار الرياضة الاجتماعية الإجبارية لأكثر المصريين، وبطولة البقاء علـــى قيد الحياة تتحول باطراد إلى ما يشبه المعجزة المستحيلة، فلم يعد فى القـــوس مـــنزع لصـــبر ولا لدوام الركود الذى هو الصفة الوراثية الأسوأ للمصـــريين، فـــلا أحد ينتظر من المصريين غضباً عجولاً، بل الغضب هو الـــذى يداهمهـــم، ويدهس خلايا الأعصاب، ويخزق العين، ويملأ الصدور بالأنيـــن، وهم يرون كل هذا الاستفزاز الذى يفلق الحجر، أغلب المصريين تحـــت خط الفقر النسبى، أغلب المصريين لم يعد مستوراً، أغلب المصريين لا يجـــد سكناً ولا عملاً ولا دواء ولا طعاماً يكفى أو يليق، أغلب المصريين تحـــت عجـــلات قطار لا يرحم، بينما مصر – الفقيرة المنهكة – هى ذاتها الأعلـــى اســـتيراداً لسيارات المرسيدس الأغلى فى العالم، مصر الغارقة فى الحر والرطوبة وركام التراب هى ذاتها السفيهة المترفة فى الساحل الشمالى

والغـــردقة وشـــرم الشـــيخ، مصر المزدحمة بسكان القبور هى ذاتها المليئة بالقصور، ولو كان الملك فاروق حياً لمات خجلاً، وأسلم التاج – قبل الروح – لأول رجـــل أعمـــال – ســـارق للقروض – يقابله على أقرب رصيف، فقصـــور ملـــك الملذات كلها تساوى صفراً بالكاد لو قورنت ببذخ واحد من "جماعـــات البيزنس"، إنها – أى مصر – بلد المفارقات وانفصام الشخصية، فمصـــر مصـــران، بلد للأغلبية المسحوقة عند السفح، وبلد للأقلية الساحقة فـــوق الســـطح، أقلية من "مماليك النهب العام" و"جماعات البيزنس" و"فرق المارينـــز السياسى"، تحالف ظاهر قاهر جاوز فى الترف واللامبالاة كل حد مقـــبول أو معقـــول، تحالف شيطانى يشعل النار فى حطام ما كان مصراً، ويحـــزم "حقائب الدولارات" ليهرب بجلده عند نشوب الحريق، ولا نريد أن نظلـــم عاطف عبيد حامل أختام رئاسة الوزراء، ولا أن نحصر فيه التهمة، فهـــو لـــيس أكـــثر مـــن موظف كبير منتدب للدور، وضعوا فى يده "عود الكبريت" ليحترق فلا يكونون من الهالكين، ووضعوا على فمه – قبل شهور – قرار "تحرير سعر الصرف"، بينما القرار هو أول إنجازات جمال مبارك رئـــيس لجـــنة السياسات، وأول القفز فى سيناريو توريث الرئاسة، وقد دافع الرئيس مبارك الأب بحماس عن قرار مبارك الابن، وفاخر به جمال مبارك فى رحلات الحج للكعبة الأمريكية، والنتيجة المباشرة للقرار: جنون الدولار فـــانفلات الأســـعار، كان القرار استجابة مباشرة لإرادة مؤسسات واشنطن، ودعونـــا نتذكر أن الاستجابة الأولى – على عهد السادات – فجرت انتفاضة ١٨ و ١٩ يـــناير ١٩٧٧، وحوادث الانتفاضة متواضعة لو قورنت بالحريق الآتى فى مصر..

نعم، العميان وحدهم لا يرون مطالع الحريق، وقد لا نملك عين "زرقاء اليمامة"، وإن كنا نعرف – بالبصيرة قبل البصر – أنها محطة النهاية لسكة الندامة.

١٧ أغسطس ٢٠٠٣

صلاة الدم

بـــركة الدم الفلسطينى تمسح الغشاوات عن العين الضليلة، وتنطق أمة الخرس.

والـــذى تابع موكب الوداع المهيب، مشهد المائة ألف روح وجسد خلف أشـــلاء الشهيد إسماعيل أبو شنب، الذى تابع المشهد المزلزل للوجدان يدرك عظمـــة القـــيمة الاستشـــهادية، فالشـــهداء ليسوا – فقط – أحياء عند ربهم يُـــرزقون، بل هم يرزقون هذه الأمة حياتها وقوت الوجود، وهم قوة الخلق الـــتى تحـــيى العظام وقد صارت رميماً، فقد كان يوم استشهاد إسماعيل أبو شـــنب هـــو افتتاحـــية الألف الثانية فى عمر الانتفاضة، كانت فترة التوقف عارضـــة، فلـــم يصدق إلا البلهاء أن الهدنة – إياها – يمكن أن تدوم، وأن الشـــعب الفلســـطيني ســـيكتفى بتمثيل دور الضحية، وأن "خريطة الطريق" سوف تجد لها طريقاً، فكلها أوهام فات أوانها، وقصور على رمال، وسحب صـــيف محملـــة برطوبة العفن، وهوامش مقحمة على النص الأصلى، فقد عـــرف الشـــعب الفلســـطينى طـــريقه بخـــبرة الألف يوم الأولى فى عمر الانتفاضـــة، عرف أن اختيار المقاومة – لا الجنوح للمساومة – هو خريطة الطـــريق صحيح أنه طريق الآلام والتضحيات الجليلة، لكنه الطريق الذى لا طريق غيره، فلم يتحرر شعب دون ضرائب دم، والشعب الفلسطينى هو هذا النســـيج الفـــريد، خلقـــته المحنة خلقاً جديداً، أو قل: إنها أزالت عنه شوائب علقت، أزاحت الركام عن المعدن النقى فى نصاعته الأولى، وصار الشعب الفلســـطينى هو "الأمة مبلورة"، المرآة العاكسة لأمة الخيل والشهداء والجند والأغانى، أمة المحاربين دفاعاً عن شرف القيمة الإنسانية واكتساباً لها، أمة الأرض الموصـــولة بالمجد السماوى، ولو لم يكن الشعب الفلسطينى كذلك، لمـــا فعلها، فلم تحاصر قضية شعب كما حوصر العذاب الفلسطينى، تواطؤ دولى جامع، وخذلان عربى مانع، وتاريخ منكفئ يلعق ذيل الكلب الأمريكى، ســـياق محـــبط يميـــت الهمم ويدهس الروح، لكن الفلسطينيين لم يقولوا "يا

وحدنـــا"، ولا صاحوا – كما نصيح – "يا عجزنا"، بل قالوها ببساطة: نحن وحدنـــا نستطيع، قالوا: نحن وحدنا نغير خرائط عالم يريد إحالة قضيتنا إلى مـــتاحف الآثـــار، لـــم يقلهـــا الفلسطينيون بالصمت الشاحب، ولا بالصوت الحيانى، بل جعلوا الدم يكتب سيرة الخلق، نطق الدم، وقلب حسابات السلاح فـــى مـــناهج التاريخ، جعل الهامش متنا، وأحال المتن إلى عزلة الهوامش، فالكـــيان الإســـرائيلى – بحسابات السلاح – فائز بالضربة القاضية، والكيان الإسرائيلى – بحسابات الانتفاضة – إلى هزيمة لها قوة القدر الجبرية، وهذه هى المفارقة الفلسطينية، المفارقة التى تحول بها "الهامش المعنوى" إلى متن الـــنص الحـــربى، والمعنويات – هنا – ليست فقط فى المقدرة على الصبر واحـــتمال المكاره، فالشعب الفلسطينى هو "أيوب التاريخ" بإطلاق العصور، لكـــن العـــبقرية الفلسطينية ليست فى كنوز الصبر، إنها فى التحول الفذ إلى تفجير ينابيع القيمة الإنسانية، فك أقواس الخوف والحذر وأثرة الحياة الدنيا، والارتقاع بمعنى المقاومة الإنسانية صنفاً من المقاومة الإلهية، تحويل الجسد الإنسانى إلى قنبلة ذرية وصاروخ إلهى، وولادة هذا النوع السامى من البشر الذى نطلق عليه صفة الاستشهاديين والاستشهاديات، هذه القوة التى لا تهزم لأنها تثق فى نصر الله.

أيهـــا الفلسطينيون: كم نشعر بالخجل لأننا خذلناكم، وكم نشعر بالغبطة لأنـــنا ننتسب إليكم، نشعر بالخجل لأننا نقضى أعمارنا فى "صلاة الجنازة"، ونشعر بالغبطة لأنكم تؤدون عنا "صلاة الدم".

إشارات

* ٦٥٠ ألـــف جنيه – لا غير – راتب شهرى رسمى لرئيس مؤسسة صحفية، المصدر: تقرير لجهة حساسة على مكتب الرئيس!.

* و٢ ملـــيون جنـــيه – فقط – عمولة توسع عمرانى لرئيس المؤسسة الرخامية!.

* "تنكيس" مجلس الشعب ليس حلاً، "الهدم" هو الحل.

* "مجلس الحكم الانتقالى" عنوان الخيانة فى بغداد.

* الراحل أحمد حمادة.. كان رجلاً بقلب أم.

٢٤ أغسطس ٢٠٠٣

نسألك الرحيل

ربما لا يصح - بمنطق اللحظة - أن نطالب الرئيس مبارك بتغيير بالقطعة، فليست القصة فى فشل وزارة عاطف عبيد، ولا فى وزارة سبقتها، ولا فى أخرى تلحقها، والتغيير المطلوب يبدأ بالرئيس مبارك نفسه، التغيير المطلوب يبدأ من الرأس.

وليس فى ذلك شبهة ميل للمغامرة، ولا استطراد لجموح شخصى أتحمل مسئوليته وحدى، ولا طلب لمعركة كبيرة فوق طاقة الاحتمال، لكنها البداهات الدستورية فيما نظن، فالدستور يعطى الرئيس - مع كامل احترامنا لمنصبه الرفيع - سلطات شبة إلهية، فهو رئيس كل شيء فى مصر، هو المسئول عن الوزير وعن الغفير، هو المسئول الأول - والأخير - عن اختيارات السياسة والاقتصاد والثقافة، والوزراء ورئيسهم هم جماعة من الموظفين فى ديوان الرئيس، هو المسئول عن النجاح إن وجد، وعن الإخفاق الذى تحقق، فليست العلة الأولى فى "حكومة كليبتوقراطية"، أى "حكومة لصوص" بالمعنى الحرفى للكلمة، ليست العلة الأولى فى دولة النهب العام التى حلت محل دولة القطاع العام، بل هذه هى الثمرة المرة لاختيارات سلطة شاخت على مقاعدها، الثمرة المرة لركود طويل خيم على الحياة المصرية، فالرئيس مبارك - إلى الآن - هو صاحب أطول مدة حكم فى تاريخ مصر الحديث بعد محمد على، وقد بدأ الرئيس مبارك عهده بأحاديث طيبة عن "طهارة اليد" و "الكفن الذى ليس له جيوب"، ثم انتهت القصة إلى سرقة الأكفان ذاتها، ولسنا بصدد تحقيق جنائى فيمن أخد ومن سلم المفاتيح، ولا هذا هو دورنا، فالمحصلة - للأسف - تبدو صادمة، لنتذكر - فقط - مثالا واحدا للايضاح، فقد قدرت حكومات الرئيس مبارك قيمة القطاع العام المراد بيعه بأكثر من ٥٠٠ مليار جنيه، كان ذلك أوائل التسعينيات، ثم نزلت القيمة بما بيع وما لم يبع إلى ٢٨ مليار جنيه لا غير،

فرق التوقيت: عشر سنوات، وفرق القيمة: ٤٧٢ مليار جنيه، ولا تسأل: أين ذهب الرقم المهول؟، فهذه قصة طويلة متشابكة معقدة الخيوط قد تصح تسميتها بـــ "متاهة بلد"، فيها لصوصية قد تنسب لأفراد وجهات بالتأكيد، وفيها - وهذا هو الأهم - لصوصية السياسات المرعية، إلى هنا ونتوقف عن الكلام المباح، فمصر لا يطلع عليها صباح - هذه الأيام - إلا وقد نهبت كما لم يحدث فى تاريخها الألفى، والنهب العام مجرد جانب فى الصورة، فالكبت العام أوضح من أن يستدل عليه، والدستور فى إجازة طويلة، وقانون الطوارئ هو الدستور الموجود فى الخدمة، والبلد كله يعيش فى "الحرام الدستوري"، وكل الانتخابات والاستفتاءات التى جرت مطعون على شرعيتها بأحكام وتقارير وتفسيرات المحكمة الدستورية ومحكمة النقض، أضف: تآكل الدور المصرى إلى حد الانقراض بالخنق فى الشرق وبالاختناق فى الجنوب، وإلى حد باتت معه مصر تقارن ببوركينا فاسو لا بكوريا الجنوبية التى كنا نسبقها فى الستينيات، هذه هى الصورة بغير الأقنعة وبلا رتوش الزيف المعلب، هذه هى الصورة بلا خداع بصر ولا تضليل للبصيرة، هذه هى الكارثة الصاعقة التى سخطت مصر الكبيرة فحولتها إلى عزبة صغيرة، مجرد تركة مغرية بالطمع فى التوريث، وبوفيه مفتوح لعشاء اللصوص الذى ليس أخيرا، كنا فى أول التاريخ فلم تعد لنا فرصة للحاق بـــ "عربة السبنسة" (!).

ونتصور أن الرئيس مبارك يعرف أكثر مما يبدو لنا من جبل الثلج، نتصور أن الرئيس لا يرضيه ما حل بمصر، ويدرك أن الحل ليس فى تغيير رئيس وزراء ولا فى حل مجلس الشعب، فالحل الوحيد هو نقل السلطة كاملة للناس، ولو فعلها الرئيس لكانت هذه أعظم إنجازاته.

إشارات

* رفض "التجمع" - أخيرا - لتوريث الرئاسة انتصار جديد لسياسة "العربي".

* نختلف - بالطبيعة - مع رضا هلال ككاتب، ونفزع - بالطبائع - لاختفائه كمواطن.

* شيخ الأزهر يثبت - بمواقفه - أنه أصغر من تاريخ الأزهر.

٧ سبتمبر ٢٠٠٣

خطيئة السؤال

الأستاذ هيكل - مع عيد ميلاده الثمانين - هو رجل الحضور المذهل في عصر الغياب الذاهل.

وربما كانت مفارقة الرجل والعصر هى التى جعلت هيكل يمتنع - شاكرا - عن قبول دعوة لاحتفال بتكريمه، فقد لا يليق أن نشعل الشموع وعين الأمة تمتلئ بالدموع، وقد لا يليق أن نعد الأيام فى أمة تعيش بلا أيام، ولعل الأستاذ هيكل هو الأحق - فى زماننا - بهذه "العروة الوثقي" بين الذات والأمة المقهورة، كانت الأمة بالنسبة لجمال عبدالناصر هى "الأمة فى قلب رجل"، وبالقياس ذاته، ودون تزيد أو انتقاص لجهد الآخرين، فإن الأمة بالنسبة للأستاذ هيكل هى "الأمة فى عقل رجل"، ولعل هذه الرابطة الفريدة هى التى جعلت هيكل بالذات عقلا محاورا ومجاورا لقلب جمال عبدالناصر بالذات، وهذه هى القيمة الأعظم فى حياة الأستاذ هيكل، قيمة الإطلاق العابر لأثر المواهب والظروف وحدود التفاضل النسبى، فنحن نظلم الأستاذ هيكل حين نصفه بـــ "الصحفى الأول"، أو حين نحجز له مكانة "المحلل السياسى الأول"، أو حين نلتفت بالدهشة لحاسته الأدبية نادرة المثال، أو حين نتلقى صكوكه الفريدة كأنها "الوحى المنزل"، كل ذلك مما قد يصح فى تصفح ملامح جانبية للأستاذ هيكل، لكنه - فيما نظن - لا يرقى إلى صفته الأبقى، فلم يكن الرجل فرسا فى سباق، ولا موضوعا لرهان قد يصيب أو يخيب، بل ظل - على الدوام - نسيجا وحده، بالضبط كما كان جمال عبدالناصر، وكان تلاقى الرجلين هو الذى صنع هذه "القمة المتفردة" فى دراما أمة وصخب عصر، وبعد جمال عبدالناصر ظل هيكل هناك وحده، وربما كان ذلك هو السر فى شعور خاص جمع أجيال الناصريين الجديدة بالأستاذ هيكل، نقرؤه أو نصافحه فنحس أننا فى حضرة جمال عبدالناصر، نحاوره ونختلف معه كأب فوق أنه الأستاذ، وأذكر مرة واحدة يتيمة التقيت فيها

بالأستاذ هيكل فى مكتبه عند نيل الجيزة، كان الحضور من رفاق الطريق الذى بدا مسدودا، وكانت شمس ديسمبر الحانية - بدفئها المنعش - عبر النافذة كأنها عين الحارس المتأهب، وتقاطعات النور والظل على قطع الأثاث توحى بتوهج عقلى كأنه كلمة الخلق، نزل الأستاذ هيكل من مقعده إلى مقاعدنا، ودار حوار قد يأتى له وقت النشر، كاد الأستاذ هيكل يختنق من زحام الأسئلة وشغب المحاجاة، وكأنما أراد الأستاذ هيكل أن يقول لنا "إن الدرس انتهي"، فقص علينا واقعة الغضب الأخير للفيلسوف الألمانى نيتشه على تلميذه المحب، تعب نيتشه من إلحاح تلميذه الذى كان يتبعه كظله، التلميذ لا يكف عن السؤال، ونيتشه فى نوبة غضب منير لتلميذه: كن رجلا ولا تتبعنى، وقد يكون ذلك هو السبب الذى جعلنى لا أسعى للقاء الأستاذ هيكل بعدها، ورغم تواتر الظروف وسعة صدر الأستاذ التى تجعله لا يصد طالبا للقاء، ربما هو الخوف من أن تلتقى الأستاذ فلا تمنع نفسك - الأمارة برغبة الفهم - من "خطيئة السؤال"، ربما هو الخوف من أن تسأل فلا تكون رجلا يفكر لنفسه وبنفسه، أو ربما هو الشعور الداهم - مع تداعى السنين - بأننا جيل تاه منه الدور، أو ربما أن الدور هو الذى لم يجدنا بعد.

نعم، نحن لا نحتفل بعيد ميلاد الأستاذ هيكل، ربما لأننا ننتظر أن نحتفل - معه - بـــ "يوم ميلاد" للأمة التى هى فى عقله.

إشارات

* نختلف مع جماعة الإخوان، ونطالب بحقها فى تشكيل حزب سياسى.
* قلبى فى السجن مع جمال حشمت وإبراهيم الزعفرانى وعلى عبدالفتاح (من الإخوان) وأشرف إبراهيم (من اليسار الشيوعي).
* حقا.. عرفات "ملك المناورة" والقط الذى بـــ "سبعة أرواح".

١٤ سبتمبر ٢٠٠٣

فى انتظار جيوش الأسفلت

بوضوح: لا قيمة لمؤتمر الحزب الوطنى، فهو ليس حزبا من أصله، والتغيير المطلوب يبدأ بكنس "الحزب الوطني" من القاعدة إلى قمة الرأس.

ولا معنى للبقاء فى صالة "الترانزيت السياسي"، ولا لانتظار خطاب للرئيس مبارك، ولا لوعود "النجل" جمال مبارك، فكلها باطل وقبض الريح، ومصر المريضة إلى حد "طلوع الروح" لا تحتمل المزيد من "اللغوصة"، فلا حل مجلس الشعب سيكون علاجاً، ولا تغيير رئيس الوزراء، ولا تبديل النظام الانتخابى، فكل ذلك أشبه بـــ "المشى فى الحذاء" على طريقة عم أيوب الجواهرجى فى مسرحية "الجوكر" لمحمد صبحى، وربما ينخدع البعض بأوهام الإصلاح، أو بدعوات "الحزب الوطني" لحوار طرشان جديد، والحقيقة: أن الإصلاح فات أوانه، فلسنا بصدد خلل فى سياسة، إنما بصدد سياسة هى قمة الخلل، واختيارات مصابة بـــ "العمى الحيثي"، وسلطات شاخت على مقاعدها، ومؤسسات تعيش فى الحرام الدستورى، وعصابات للنهب العام تحكم وتعظ، وبعبارة أخري: نحن بصدد حكم تحول إلى جثة متعفنة منتفخة تسد الطريق إلى خلاص بلد، والحل: إزاحة العفن بتغيير يبدأ من الرأس، الحل: فى التغيير بالجملة لا الإصلاح بالقطعة، ويخطئ من ينتظر أن يرحل هؤلاء بالرضا أو بالإقناع، أو أن تنتقل السلطة كاملة للناس بمجرد المطالبات والمناشدات، فكلها أمنيات قد نتفهم دواعيها، لكنها بلا موقع من إعراب فى منطق التاريخ، فمن الإنصاف ان نعترف بالحقيقة كلها، وهى أن الأزمة فى مصر ليست – فقط – فى حكم ركدت مياهه وتصلبت شرايينه، بل الأزمة أيضا – فى معارضة شحب وجهها وغاضت ملامحها، ندرك أن حكم القهر سجن أحزاب المعارضة – المعترف بها قانونا – فى أقفاص دجاج، لكن هذه الأحزاب فى أغلبها لم تثبت – للأسف – أن بوسعها أن تشاكس أو تعافر، فقد ولدت كقطط أليفة بلا أنياب وبلا أظافر، وكان قدرها أن تموت ربما من لحظة الميلاد، وتحولت بسرعة من

دور ديكور الزينة إلى دور الأشباح وشواهد القبور، ومع "خصخصة السياسة" تحول أغلب هذه الأحزاب إلى مدد إضافى لفصائل اليأس العام، والنهاية: نصف الأحزاب تحت التجميد، والنصف الآخر تحت التحنيط، ونظن أن هذه هى أضعف حلقة فى سلاسل العجز المصرى، وربما تكون - بدوافع مناطحة العجز - هى ثقب الحرية المفتوح على مشهد التغيير، ربما تنطلق أحزاب حقيقية مع هبة شعبية عامة نتوقعها خلال شهور، فالعميان وحدهم لا يرون مطالع الحريق والانفجار المقبل بالانفلات الجامح لسباق الدولار والأسعار، وربما يستحق الأمر مبادرة جدية قبل أن نجد أنفسنا فى عربات المجهول، ربما يستحق الأمر مبادرة "إعلان أحزاب من طرف واحد"، نقطة البدء: تجمع شامل لكل الأحزاب والجماعات المحظورة بقيود القانون أو بعبث لجنة الأحزاب، وإعداد وثيقة دستورية وقانونية تؤكد الحق فى حرية تكوين الأحزاب، وعقد مؤتمر صحفى عالمى تعلن فيه أحزاب للقوى الحية على اختلاف التيارات من طرف واحد، وترك الحكم المأزوم فى خانة رد الفعل، ولن يجد الحكم غير العصا يتصور أنها تردع وتمنع، وقتها تكون هذه هى القارعة، وقتها تبدأ "معركة الحرية" بصخب الأصوات ورنين الأصداء، وتتوالى سلاسل تحطيم القيود بالتظاهر والاعتصام والإضراب السلعى، وتنشأ - ربما لأول مرة - حركات للناس الأحرار.

لنتذكر أن جمال عبدالناصر - باحثا عن ثقب للتغيير - وجد نفسه فى مأزق مماثل، وكان الحل - بظروف زمانه - فى حركات للضباط الأحرار، ودرس عبدالناصر واضح، ربما الفرق هذه المرة: أن التغيير من الرأس يبدأ بحركات للناس الأحرار، ربما الفرق: أن الدور هذه المرة لجيوش الأسفلت لا لجيوش الثكنات.

إشارات

* مهانة: السفير الأمريكى يخطب على "منصة السد العالي" فى ذكرى رحيل عبدالناصر!.

* حسن نصر الله - سيد المقاومة - هو أصدق خطباء العصر.

* تحية للزميل المشاغب محمود العسقلانى، المناسبة: حملته الصحفية الممتازة ضد فساد سياسة وزير الإسكان.

٢٨ سبتمبر ٢٠٠٣

تبديد لا تجديد

اختيارات السياسة والاقتصاد والثقافة فى مصر الآن هى "الخطيئة الأعظم" بحق انتصار السلاح فى أكتوبر ١٩٧٣.

بدأت القصة المحزنة بانقلاب السادات على مغزى انتصار أكتوبر، صحيح أن المقادير جعلت للرئيس السادات حق توقيع قرار الحرب، لكنه - فيما فعل - كان الوكيل لا الأصيل بحقائق التاريخ، كان السادات - حتى لحظة عبور الهزيمة - منتدبا لرئاسة نظام هو نظام جمال عبدالناصر، ومنتدبا لقيادة جيش هو جيش جمال عبدالناصر، وكانت الاختيارات - بما فيها خيار الحرب وخطتها وقرارها - هى اختيارات عصر عبدالناصر، كان السادات - حين وقع قرار الحرب بعد طول التلكؤ - أسيرا لأجواء التعبئة العامة الساعية للثأر من وقع الهزيمة الخاطفة فى ١٩٦٧، وكان النصر الذى تحقق ردا لاعتبار يوليو عبدالناصر باختياراتها وإنجازاتها، ومقدرتها الفريدة فى تفجير الطاقات الإنسانية، فالرجال الذين بنوا السد العالى هم الذين هدموا خط بارليف، وثورة التصنيع فى الخمسينيات والستينيات هى التى أقامت حائط الصواريخ العظيم، ومعدلات التنمية المذهلة - بقيادة القطاع العام - هى التى منحت مصر زاد القدرة على الصمود فى تحدى السلاح، فقد دخلت مصر بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٦٦ فى عصر التنمية الذهبى، كانت معدلات النمو الحقيقى تجرى وقتها بمعدل متصل يدور حول ٧% سنويا، وتلك هى أرقام البنك الدولى المعادى لتجربة عبدالناصر، وحتى حين وقعت الهزيمة الخاطفة فى ١٩٦٧، ذهب أغلب موارد البلاد للمجهود الحربى وإعادة بناء الجيش، فقد ظلت معدلات التنمية تجرى على نحو معقول، كان معدل النمو يدور حول ٤% سنويا بين عامى ١٩٦٧ و ١٩٦٩، وزاد معدل النمو السنوى إلى ٥,١٩% بين عامى ١٩٦٩ و١٩٧٣، هذه هى الحقيقة بالأرقام والتفاصيل، وفى الإجمال: كانت مصر

هى الأعلى فى معدلات التنمية والاختراق التكنولوجى بطول وعرض العالم الثالث وقتها، كانت مصر رأسا برأس مع كوريا الجنوبية التى هى الآن عاشر أقوى اقتصاد فى العالم، بينما مصر الآن ربما لا تصلح للمقارنة إلا مع دول من عينة "بوركينا فاسو"، باختصار: نزلت مصر - أو قل إنها هوت - من حالق إلى الفالق، ويكفى أن تنظر حولك، أصل الخطيئة فيما فعله السادات، وأبناء الخطيئة تصدم العين فيهم صور وكروش، الانزلاق للهاوية بدأ بخطف النصر وتزوير شرعية أكتوبر، بدأ بالسياسة التى خذلت - حتى لا نقول إنها خانت - حد السلاح، وشرعية أكتوبر - بسباق الملحمة المتصلة - كانت تجديدا لشرعية يوليو، وانقلب السادات على التجديد ليفتح الباب للتبديد، وهكذا انزلقنا - فى ثلاثين سنة - من عصر "خللى السلاح صاحي" إلى عصر "بابا أوبح".

رجل الجائزة المحجوبة

قد لا يجوز أن نكتب سيرة هذه الفترة من تاريخ الحركة الناصرية - حين يأتى الوقت - دون أن نتذكر الدور اللافت للمهندس أحمد حمادة.

لم يكن أحمد حمادة من الذين تغريهم رخاوة الكراسى فيتصورون أنفسهم وعاظا بغير حق فى فتوى، ولا من الذين يتزاحمون إلى مناصب يرفعون بها الرؤوس المحنيّة، فهو القامة المهيبة الطويلة فى زهو شجرة الصفصاف، الممتلئة كوجه القمر فى منتصف شهر عربى، المبتسمة فى تلقائية الأطفال، الحنونة كقلب الأم، صفات فريدة جمعت فى نسيج واحد بين عملقة الطبيعة وحساسية الطبائع، وأهلته الطباع الطيبة الذكية - مع سبق الفضل الكفاحى الدءوب - لدور بغير تكليف من منصب، كان حمادة يحلم بأن تكون الدنيا الناصرية غير الدنيا الواقعة، كان يلحظ الشتات بغير ضابط، والاختلاف فى غير محل، والضعف فى موضع القوة، وكان ظنه - وليس كل الظن إثما - أن الأفضل ممكن، وأن تأليف القلوب ربما يستدعى - بالتداعى - اجتماعا فى السواعد، كانت تلك قضية حياته فى سنواته الأخيرة بالذات، وقد أخلص السعى وإن لم يبلغ الحلم، وربما كان ذلك سببا فى التعجيل بأقدار بدا أنها من صنع سرطان الدم.

اللهم لا اعتراض، لولا أنك يا أحمد حمادة كنت تستحق أن يكون آخر نصيبك من الدنيا أن ترانا على غير ما نحن فيه من قلة الحيلة وهوان النفوس.

إشارات :

* ما يفصلنا عن انتصار أكتوبر ثلاثون حولا بحساب السنين، وألف ألف عام.. بدواعى الأنين.

* نفى جمال مبارك لخلافة والده فى الرئاسة ربما لا يغلق الملف.

* أحمد عز الدين ومحمود العسقلانى - فى محكمة الجنايات - دفاعا عن شرف أمة وردا لاعتبار مهنة.

١٢ أكتوبر ٢٠٠٣

أعيدوا مصر لمصر

فزعت لوصف الرئيس مبارك لعلاقة مصر بأمريكا بأنها "استراتيجية" فى نفس يوم استخدام واشنطن لحق الفيتو – للمرة الثامنة والسبعين – ضد الحقوق العربية لصالح إسرائيل، وفزعت أكثر لقول الرئيس – فى عيد القوات البحرية – "إن المواطن العربى ليس بينه وبين المواطن الإسرائيلى البرىء أى ضغائن"، مع أن كل المصريين – بمن فيهم شعبان عبدالرحيم – يكرهون إسرائيل أبا عن جد، ليس لأننا عنصريون لا سمح الله، فنحن أبعد ما نكون عن هذه الصفة البغيضة، بل لأننا آدميون، نحب ونكره، والكراهية – إن كانت فى محلها – عنوان على صحة النفوس، وشعور إنسانى نبيل تماما كعواطف التسامح، ولا يصح – فى موازين الحس البشرى – ألا يحمل شعب "أى ضغائن" للغزاة والمحتلين، وإلا كنا شعبا من القرود، وإسرائيل ليست – فقط – كيانا غازيا محتلا، إنها كيان استعمارى استيطانى إحلالى إبادى عدوانى، وهذه الصفات لا تسقط بالتقادم، ولا بتوقيع الاتفاقات ومعاهدات السلام، فهذه أوراق تخص أصحابها، ولا تعنى الشعوب فى الكثير ولا فى القليل، فلدى الشعوب محرماتها ومقدساتها، وإلا كفت عن أن تكون شعوبا لها ضميرها الجمعى، وتحولت إلى ركام من كائنات لها رؤوس البشر فى مزرعة حيوانات، وليس الشعب المصرى – ولا غيره من شعوب الأمة العربية – كذلك، أما الإسرائيليون فليسوا شعبا من أصله، ولا يوجد إسرائيلى برىء، فكلهم مذنبون مشاركون فى خطيئة كيان هو أعظم الكبائر، إنهم شعب الخرافة، وتجمّع لأحط صفات العنصرية الغربية، وقلعة تكنولوجية مسلحة وضعت كخنجر يشق قلب الخريطة العربية، ووجود إسرائيل فى ذاته غزوة متصلة، تهديد كاسح لأحلامنا فى التنمية والتقدم والتوحد واقتحام سباق العصر، وتهديد لمصر بالذات التى لا تقوم لها قائمة بغير قيادتها لخط المواجهة – بالمقاطعة دائما وبالسلاح أحيانا، مع الغزوة

الصهيونية، وهذه كلها بديهيات لا يصح - فيما نظن - أن تغيب عن بال رأس الدولة المصرية، خاصة أن إسرائيل لا تكف عن التحرش وتهديد مصر، فكما كانت غارة "عين الصاحب"، وقبلها اختراق طائرات إسرائيل لحاجز الصوت فوق منزل الرئيس السورى بشار الأسد، كما كانت هذه التطورات أقرب إلى إعلان حرب عدوانية جديدة ضد سوريا، كانت التطورات تتداعى أيضا على الجبهة المصرية، ولا يخفى أن ذلك هو المغزى الأساسى لاقتحام إسرائيل الوحشى لرفح الفلسطينية على خط التماس المباشر مع رفح المصرية، يحدث ذلك رغم معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، بل ربما بسبب قيودها ونزعها للسلاح فى غالب سيناء، وهو ما قد يغرى العدو - مع الخلل الفادح فى موازين القوى - بوضع مصر تحت حد السلاح الإسرائيلى، وطبيعى أننا نعتز بالجيش المصرى، ونثق بمقدرته على وصل ما انقطع مع انتصار السلاح فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، لكن الجيوش لا تحارب بطاقات النيران وحدها، إنها تحارب وتنتصر استنادا لأوطان مستقلة وشعوب حرة، ولا نظن أن أحدا يمارى فى أن مصر كوطن وشعب ليست على ما يرام، فليس للحكم من سياسة تنمية إلا أن تكون "عقيدة النهب العام"، وليس للحكم من صلة بالناس إلا أن تكون "عصا الكبت العام"، أما الاستقلال الوطنى فقد ودعنا زمانه مع خذلان السياسة لحد السلاح فى أكتوبر، ومنذ عادت سيناء إلى مصر على طريقة الذى أعادوا له قدما وأخذوا عينيه، بدا أن الاحتلال الإسرائيلى يرحل عن سيناء، فيما انتقل الاحتلال الأمريكى - مع قيود المعونة ومضاعفاتها - إلى القاهرة، وتداعت عناصر السيطرة بالتراكم على قرارات السياسة والاقتصاد والثقافة، وإلى حد تحولت معه مصر إلى ما يشبه "المستعمرة الأمريكية"، ولا معنى هنا لوصف علاقة مصر بأمريكا بأنها "استراتيجية"، وربما يكون ذلك صحيحا بـ "استراتيجية" المعانى الأمريكية، لكنه - باليقين - ليس كذلك بمعانى الوطنية المصرية، فافتراض التطابق - أو التقارب - بين المصلحة المصرية والمصلحة الأمريكية يوحى بما هو أخطر، أى افتراض ذات التطابق - أو التقارب - بين المصلحة المصرية والمصلحة الإسرائيلية، السبب ببساطة: أن ما بين أمريكا وإسرائيل هو - بالدقة - أعلى درجات "التطابق الاستراتيجي"، وما من خيار وطنى مقبول إلا أن تعود مصر إلى

مصر، لا أن تظل "رهينة استراتيجية" لإرادة السياسة الأمريكية وحد السلاح الإسرائيلى.

إشارات

* ربما يكون منع بث حديث الأستاذ هيكل - بسلطان المماليك فى مملكة البيزنس - هو الخيار الذى يليق بكرامة الاسم.

* انفجار عنف دموى عقب توريث الرئاسة من الأب إلى الابن.. فى أذربيجان!

* رحيل الزعيم الماليزى مهاتير محمد - باختياره - عن الحكم هو ذروة الدراما فى سيرة الصانع العبقرى لأعظم نهضة فى العالم الإسلامى اليوم.

١٩ أكتوبر ٢٠٠٣

ائتلاف من أجل التغيير

أحترم – بالطبع – دعوة المتنادين لحوار بين الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة المعترف بها رسميا، وإن كنت أرى – ربما أثق – أن الحوار إياه لن ينتهى إلى شيء ذى قيمة مؤثرة، سوابق الحوار – سنة ١٩٩٤ وبرئاسة مصطفى خليل – ربما تشى بمصير اللواحق، حتى لو تغيرت الأسماء وتلاحقت الصور.

وبالطبع، لا أحد يرفض مبدأ الحوار، وربما لا يليق أن تصد اليد الممدودة، لكن "الحوار الوطني" لن يكون جديرا باسمه بغير استدعاء الشارع الذى يبدو ساكنا، وتفجير طاقات التغيير من منابعها الفياضة، لا الانزلاق إلى ورطة المصادرة عليها، ولو بحسن النية، وقد نتفهم مطالب دعاة الإصلاح لو كان الإصلاح ممكنا أو جائزا، أو قد نتقبل دعوة التدرج لو كان فى الحالة المصرية بقايا من نفس، لكن الحالة المصرية – للأسف – تجاوزت خانة القابلية للإصلاح من زمن، وقد لا نبالغ لو قلنا إنه لم يعد من شيء فى مصر يقبل الإصلاح بالتدرج، فهذا بلد تحولت الاختيارات والسياسات فيه إلى ركام مأساة، وإلى جثة متعفنة متحللة تسد الطريق العام، والمعني: أن المطلب المباشر – فيما نظن – ليس الإصلاح بل التغيير، ولنتأمل سيرة الإصلاح بالتدرج فى ربع قرن مضى ويزيد، فقد بدأت الحياة السياسية التعددية مقيدة على طريقة الديمقراطية الساداتية بإيحاءات "المفرمة" وتداعى الأنياب والأظافر، وكان ظن دعاة التدرج أن القيود ربما تنفك مع الزمن، واعتادت الأحزاب المسموح بها أن تصدر "قائمة مطالب" زاد طولها سنة بعد سنة، فقد راحت القيود تتكاثف وتزيد غلظة، والأظافر والأنياب تخمش وتنهش، وما بدا استثنائيا – بأحوال الطوارئ – تحول إلى دستور بدوام العادة، تحول الاختناق – بالتدريج – إلى خنق، وكانت النهاية فى شنق السياسة، تجفيف بالتدريج للمنابع والشرايين، والنهاية: إجهاز بقطع

الرأس دون دم يسيل ولا صراخ فى وداع، وصار المشهد أقرب إلى الجنازة الصامتة، ماتت السياسة على السطح، وانسحبت حيوية المجتمع المخزونة إلى "آبار السياسة الجوفية"، وبالمقابل: تحولت ثروات الشعب المصرى ومقدراته إلى "أملاك غائبين" جرى استحلالها ربما على الطريقة الإسرائيلية، حلت دولة النهب العام محل دولة القطاع العام، وتكفلت عصا الكبت العام بمطاردة فصائل وفضائل التنبه العام، وسكنت مصر - منذ انتفاضة ١٩٧٧- إلا من تقلصات أقرب إلى تشنجات الذاهبين - بتوحش القصور- إلى وحشة القبور، ولم يعد من أمل فى غير صحوة الناس الأحرار، أما كيف يتيقظ الناس؟، فهذا هو السؤال الذى تكون به مصر أو لا تكون، صحيح أن الركود - فيما قد يصح أن نعترف به - هو أسوأ صفات الشخصية المصرية، وصحيح أن تراكم القهر جعل المصريين سكارى وما هم بسكارى، لكن الصحيح - أيضا - أن مصر تصبر كالجمل وتثور كالإعصار، وتنزع الأكفان فى اللحظة التى يتأهب فيها المؤمنون القانطون لقراءة الفاتحة على روحها، ونظن أن هذه اللحظة قد حلت أو تكاد، فقد ارتكب الحكم "غلطة الشاطر" المرابى بلحم المصريين، وأطلق - بقرار تحرير سعر الصرف - جنون الأسعار فالدولار، سعر الدولار وصل الآن إلى سبعة جنيهات ويزيد، وربما يقفز - على الأغلب - إلى ثمانية جنيهات مع مطالع عيد النحر، والنتيجة: دفع المشهد المصرى - فى مدى شهور - إلى انفجار نخشى أن يتحول إلى حريق، لهب مباشر بنار الأسعار المتصاعدة فلكيا، وبنزين وقش جاهز بركام الفقر والبطالة والذل القومى ومليارات المال الحرام، وهنا - بالضبط - مربط الفرس فى "الحوار الوطني" الفعلى لا الصورى، الحوار الوطنى باتجاه الناس، لا طلبا لعطف سلطات شاخت على مقاعدها، الحوار الوطنى مع الضحية لا مع الجناة، والقصد: تحويل فورة غضب تلقائى جامح إلى محطة تغيير سلمى جامع، وقد نقترح هنا أن تبادر العناصر الأكثر وعيا وحركة إلى تنظيم "ائتلاف وطنى من أجل الحرية"، ائتلاف يعترف فيه الكل بالكل، لا يستبعد أحدا، يضم كل ألوان الطيف السياسى المعارض، ولا يقتصر على أحزاب وتيارات، ويتسع لشخصيات عامة رفيعة الأقدار يقلقها المصير المجهول الذى تدفع إليه مصر، ويتقدم صفوف الناس إلى تظاهر سلمى منظم. والمطلب واحد وشامل، المطلب باختصار: نريد مصر ديمقراطية مستقلة،

باختصار: نريد الحرية الآن وليس غدا، باختصار: نريد التغيير الذى يبدأ من الرأس، وفى مواكب الحرية ألف فرصة وفرصة لتنافس المتنافسين.

لا تغضب يا فتحى

ربما تكون هذه الكلمات سببا فى غضب الصديق الأعز فتحى عامر، فهو لا يحب أن يكون - بشخصه - مقاما لكلام، ولا أن يكون موضعا لجزع أو هلع.

فتحى عامر هو مليونير الأخلاق النبيلة، ولم أر أحدا فى حياتى يكظم غيظه ووجعه عن الناس.. كما يفعل فتحى.

وفتحى عامر - دونما تزيّد - هو أفضل محرر ثقافى فى الصحافة المصرية بإطلاق، وهو ليس شاعرا فقط، بل قصيدة شعر تمشى على قدمين، له طلعة الفتى الأول على شاشات السينما الرومانسية، وفيه قلق "المتنبي" إمام الهائمين فى وحشة الليل والبيداء والقلم، وروح "ابن عربي" إمام السالكين فى مدارج الترقى الصوفى إلى سدرة المنتهى، مزيج عجيب نادر من قلق العقل وصفاء الروح، وابتسامة "الموناليزا" الغامضة.

إشارة

* الـــروائى صـــنع الله إبراهـــيم رفض جائزة المئة ألف جنيه، وكسب جائزة السبعين مليون مصرى.

٢٦ أكتوبر ٢٠٠٣

الوقت الأسوأ

مهاتير محمد صنع "المعجزة الكبري" فى ٢٢ سنة، وآخرون صنعوا "الخيبة الكبري" فى الزمن نفسه، مهاتير رحل باختياره وهو فى قمة المجد، وآخرون لا يريدون الرحيل بالاختيار ولا بإكراه العار.

انظر إلى ماليزيا التى تركها مهاتير واسكب العبرات على مصر، فيوم كانت مصر فى السماء السابعة، وتبعث حية على مسرح الدنيا بثورة ما بين قوسى نكبة ١٩٤٨ ونصر ١٩٧٣، وتحقق أعلى معدلات التقدم فى العالم النامى، وتعيش عصر التنمية الذهبى، عصر تأميم قناة السويس وبناء السد العالى وطفرات التصنيع والاختراق التكنولوجى، عصر "السلاح الصاحي" على جبهة النار وجبهة النهضة معا، يوم كانت مصر فى أول التاريخ، وتسبق كوريا الجنوبية التى هى الآن عاشر أقوى اقتصاد فى العالم، لم تكن ماليزيا كاسم مما يعلق بالذاكرة أو يقع عليه البصر، مجرد كيان فقير مهمل فولكلورى على الحد الشرقى البعيد للعالم الإسلامى، وفى نفس العام الذى اتشحت فيه مصر برداء المآتم، واستضافت أول سفير للعدو الإسرائيلى على ضفاف النيل، وباعت قرارها السياسى والاقتصادى والثقافى فى سوق النخاسة لقاء معونة الذل الأمريكية، فى العام ١٩٧٩ ظهر اسم مهاتير محمد فى فضاء السياسة الماليزية المنهكة بالفوضى وحكام العجز، مع ١٩٨١ صار مهاتير زعيما لماليزيا، لم يهبط مهاتير من السماء، ولا هو ابن الرب، بل الابن البار لأحلام النهضة بإرادة الاستقلال القومى والثقافى وحرية اختيار السبيل، كان الإطار العام لتجربة النهضة الناصرية الموءودة – فى مصر قلب العالم الإسلامى – ينتقل إلى ماليزيا المهاتيرية، كانت الدنيا التى قيل إنها تغيرت فجرفتنا إلى أسفل السافلين، كانت ذات الظروف هى التى نهضت فيها ماليزيا، فقد كان العالم يتغير بالفعل، ولكن إلى الأمام لا إلى وراء، فقد شهد ربع القرن الأخير أعظم تغيير دراماتيكى فى تاريخ القرون الخمسة الأخيرة، فمنذ سقوط غرناطة واكتشاف الأمريكتين، بدا العالم كأنه

الغرب فى المتن والباقى فى الهوامش، بدا الغرب وحده وكأنه حامل الأختام وقرص الشمس ومصدر الإلهام فى نظريات السياسة والثقافة والاقتصاد، بدا الغرب محتكرا لبضاعة النهضة المادية والتكنولوجية، وهى الصورة التى راحت تتغير بالمد والجزر على مدى القرن العشرين، وبلغ التغيير ذروته فى ربع القرن الأخير بالذات، فقد ولد عالم جديد راح يكتسب - فى زمن قياسى - فنون النهضة المادية والتكنولوجية، ولد عالم الشرق الآسيوى المنازع لقوة الغرب المادية والمفارق له ثقافيا فى الوقت نفسه، وفى قلب الصورة المضيئة لمع اسم مهاتير، فلم يكن الرجل مجرد أداة لتطور تاريخى يتداعى بالعدوى من محيط الجوار الناهض، بل كان يدرك ما يفعل بالضبط، فهو رجل الفكر والإنجاز فى آن، هو الطبيب الذى تحول إلى أفضل خبراء الاقتصاد، وهو الحاكم الذى تحول إلى أعظم مفكر وصاحب نظرية للطفرة الآسيوية، وزاد ألق مهاتير كونه الرمز الأول للمشاركة الإسلامية فى صحوة الخلق من عدم على الطريقة الآسيوية، وهنا مربط الفرس، فالوصفة الأمريكية توصى بالتخفف من أعباء وعباءات الإسلام كشرط للتقدم، ووصفة "جماعات المارينز" - الليبرالي(!) - توصى بالتوقف عن مناهضة التوحش الأمريكى والهمجية الصهيونية، والعكس - بالضبط - هو ما فعله مهاتير، فتيات الحجاب فى ظل أعلى ناطحات السحاب فى "كارت بوستال" ماليزيا المعجزة، والمحضر الأخير لمهاتير ناطق مقتدر بالعداء لإمبريالية أمريكا ومجلس حربها اليهودى معا، إنه الإلهام المتدفق من نهر كلمات مهاتير محمد فى خطبة الوداع.

مهاتير محمد رحل باختياره فى مشهد مهيب، مهاتير العظيم قال "لقد انتهى وقتي"، انتهى "الوقت الأعظم" فى ملحمة الإعجاز الماليزى، فمتى ينتهى "الوقت الأسوأ" فى دورة الخراب المصري؟!.

إشارات

* باختصار: نسألكم الرحيلا.
* نخشى أن تتحول دعوة الحكم لحوار الأحزاب إلى سيناريو رديء لمسرحية هزلية.
* المقاومة العراقية المذهلة تلاحق الأمريكيين بـــ "لعنة الدم".

٢ نوفمبر ٢٠٠٣

عند التمام يبدأ النقصان

غزت أمريكا العراق لتغير خريطة المنطقة، فإذا بها تستثير مقاومة عراقية مذهلة قد يكون بوسعها تغيير خرائط العالم.

"عند التمام يبدأ النقصان"، حكمة صوفية قديمة تنطبق على العلو فى السماء كما العلو فى الأرض، وقد توالت فى تاريخ العالم إمبراطوريات سادت ثم بادت، وبدت الإمبراطورية الأمريكية مختلفة، فقد خلت لها قمة القمة بعد الانهيار الدرامى المثير للسطوة السوفيتية، وجرى ربما أعنف صراع على مصائر العالم بين أشواق التجديد وجيوش التأبيد، أشواق التجديد بدت مشفوعة بتغيرات هائلة فى خرائط القوة المادية والتكنولوجية زحفت من الشرق الآسيوى بالذات، وبالمقابل: بدت أمريكا كأنها تريد أن تصادر على تحولات التاريخ، وتأبيد انفرادها بالقمة عبورا من قرن إلى قرن، وجاءت حوادث سبتمبر ٢٠٠١ - ودعك من هوية الفاعلين - كأنها الإشارة الرمزية لانفجار الصراع عنيفا صاخبا، كانت الحوادث العاصفة ذروة الدراما الإغريقية، بدت كأنها "ساعة الصفر" لمعركة أمريكا الأخيرة، قبلها بدت فرصة أمريكا لتأبيد انفرادها أكثر رجحانا، كانت أمريكا هى المرهوبة المرغوبة، المرهوبة بفوارق القوة الاقتصادية والعسكرية، المرغوبة بفوائض الجاذبية والسحر كفردوس أرضى وحيد بعد انهيارات الوعد بالفردوس الآخر، وبينما القوة المادية نسبية بالطبيعة، فإن القوة السحرية بدت أقرب لطابع الإطلاق السماوى، ومع المعنى الرمزى لحوادث سبتمبر فقدت القوة الأمريكية صفة الإطلاق، نزلت أمريكا على اللحم، تداعت عنها فوائض الصور التخيلية المصنوعة بإتقان هوليوودى، ولم يعد لها غير الصورة بالحجم الطبيعى، لم يعد لها غير جسد القوة النسبية المعرضة للتآكل بعناصر التعرية التاريخية، باختصار: تحولت أمريكا من "ندّاهة" إلى "ديناصور"، أو قل - بمفردات الكومبيوتر - أنها فقدت "السوفت

وير"، ولم يتبق لها من علامات القوة الكاسحة سوى بدن "الهارد وير"، وراح الديناصور يخبط ويرزع، يدوس ويسحق بمطامع البقاء وحدها، ربما دون تبصر بالعواقب وطبائع التطور التى تنتهى بالديناصورات إلى انقراض، أو ربما بظن أن فوارق القوة فى اللحظة قد تكفل التأبيد بالغصب مع تداعى علامات الرضا، وهكذا انزلقت أمريكا إلى مغامرة أفغانستان فغزو العراق، وبينما بدت دول العالم خائفة على الأغلب من فوارق القوة المتاحة لأمريكا فى لحظة طيش، بدت شعوب العالم - على العكس - وكأنها طلقت الحلم الأمريكى بالثلاثة، وهكذا تلاقت ذروة العصف الأمريكى مع ذروة الكراهية لأمريكا، الذى ينخطف بصره إلى العصا يظن أن لأمريكا العمر المديد، والذى يدرك مغزى الجنون الطائش يعرف أنه العشاء الأخير لأمريكا، فقد تجاوزت أمريكا حافة التمام ليبدأ النقصان فأمارات الزوال، ربما لذلك صارت كراهية أمريكا هى اللغة العابرة للغات، وفوق بحار الكراهية المكبوتة تسبح منظمات وآراء وصرخات غضب قد تصح تسميتها بـــ "الجناح المدني" لنبوءة الزوال الأمريكى، وقد تصح تسمية المقاومة العراقية المذهلة بـــ "الجناح العسكري"، ففى اللحظة التى بدا فيها أن السبل قد تقطعت بإمكانية هزيمة أمريكا فى ميادين النار، فى لحظة اليأس نبت الأمل عفيا قادرا بأكثر مما تصور أشد المولعين بغواية التفاؤل، صحيح أن المقاومة تتوالى ملاحمها داخل جغرافيا العراق، وبطبائعه البشرية الطافحة بالشراسة، لكنها - ربما بالمغزى التاريخى - ظاهرة فوق عراقية وفوق عربية، وربما لا نبالغ إن قلنا إنها - باليقين - ظاهرة العصر الأوثق اتصالا بمجرى الحرب على مصائر العالم، فهزيمة أمريكا فى العراق - إن اكتملت - هى هزيمة للقدر الأمريكى، وضرائب الدم التى تدفعها واشنطن فى العراق هى ذاتها "ضريبة الحياة" لفكرة تجديد العالم نقضا لقانون التأبيد الأمريكى.

لقد اندفعت أمريكا إلى تصفيات السلاح بظن أنها قد تعيش أبدا، فإذا بصور النار التى تتدفق من العراق توحى بظن أن أمريكا قد تموت غدا، فالذى يعيش بالسيف - وحده - يموت به.. ولو بعد حين.

إشارات

* أحمد ماهر يستحق وصف السفير الإضافى لأمريكا فى مصر، المناسبة: "تهتهة" وزير الخارجية المصرى فى تعقيبه على وقاحات السفير الأمريكى ديفيد وولش بحق الصحافة المصرية.

* قناة "المنار" - بعرضها لمسلسل "الشتات" - انفردت بخرق الحظر الأمريكى على الدراما العربية المعادية لإسرائيل.

* نعم.. نختلف مع جماعة الإخوان، ونعم.. نطلب الحرية لقيادات الإخوان جمال حشمت وعلى عبدالفتاح.

٩ نوفمبر ٢٠٠٣

بلد فى الجراج

نريد لمصر فرحاً من القلب باسمها الباقى له المجد فى العالمين، نريد لمصر مكانا تستحقه فى عين الشمس لا أن تظل بلدا محتجزا مهملا فى "جراج" التاريخ.

نريد لمصر تغييرا ديمقراطيا شاملا، نريد الحرية كاملة للناس، نريد رفع كل وصاية للحكام أو للمثقفين، نريد أن يعود السلطان لأهله، وأن يكون لهم وحدهم حق العقد والحل، نريد وقف تيار النهب العام، وكسر عصا الكبت العام، وإطلاق سراح كل المعتقلين السياسيين، ووقف سلخانات التعذيب فى السجون وأقسام الشرطة، والانتخاب الحر المباشر للرئيس من بين مرشحين متعددين، وإلغاء حالة الطوارئ التى صارت دستور مصر الدائم، وإطلاق حرية تكوين الأحزاب والجمعيات وإصدار الصحف، ورد الاعتبار للسلطة القضائية، وإلزام المرشحين للرئاسة والوزارة والبرلمان والنقابات – عند التقدم للمناصب ولدى مغادرتها – بتقديم إقرارات ذمة مالية تنشر فى الصحف والإذاعات وقنوات التليفزيون، وتنظيم مساءلات قضائية وشعبية – بحسب الأحوال – لوزراء الثلاثين سنة الأخيرة تحت عنوان "من أين لك هذا؟".

نريد لمصر استقلالا وطنيا حقيقيا، ووقف الاعتماد على ذل المعونة الأمريكية، وإنهاء دور "المندوب السامى الأمريكى"، والتصفية الجذرية للمكون الأمريكى فى صناعة القرار المصرى، وردع النفوذ السياسى لجماعة البيزنس ومليارديرات المال الحرام، وحظر التمويل الأجنبى لمؤسسات العمل العام، وتنظيم استفتاء – بضمانات نزاهة تامة – يعلن الرفض الشعبى لاستمرار ما يسمى معاهدة السلام المصرية مع إسرائيل، واستعادة السيطرة بالسلاح على كامل تراب سيناء، وإعلان موقف وطنى مؤيد – بلا تلكؤ – للمقاومة العربية على جبهات السلاح فى العراق

وفلسطين ولبنان، وإنهاء التزام مصر بالاتفاقات المقيدة لحقها فى اختراق المحظور على جبهات الذرة والفضاء وصناعة الصواريخ بعيدة المدى، وصياغة القرار الاقتصادى المصرى فى القاهرة لا فى مجالس خبراء صندوق النقد والبنك الدوليين.

نريد لمصر أن تعيد وصل ما انقطع مع "عصر التنمية الذهبى" فى الخمسينيات والستينيات وحتى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وقت أن كانت فى أول التاريخ لا فى "السبنسة"، وقت أن كانت تنافس كوريا الجنوبية - عاشر أقوى اقتصاد فى العالم الآن - لا بوركينا فاسو كما يحدث الآن، نعرف أن الظروف تغيرت، وأن الأساليب بدورها لها أن تتطور، ونقطة البدء: أن تكون العصمة بأيدينا، لا أن نظل "فئران تجارب" ثقافية واقتصادية عبثية، والنتيجة: أن تحول المشهد المصرى إلى "بواقى فساتين" ومزق من صور، والحل: قرار نهضة بتخطيط مركزى، ونظام تعليمى كفء وموحد، وإعادة تنظيم لمؤسسات تعبئة وحشد طاقات البحث العلمى، وبرنامج اختراق تكنولوجى بأفق عربى، وإعادة الروح للاستثمارات العامة، ووقف برنامج النهب بالخصخصة، وخلق تكتلات مالية قوية بدمج بنوك القطاع العام وشركات التأمين، وإحداث طفرة تضاعف معدلات الادخار الوطنى، ووقف سباقات الترف ومهرجانات السفه، وتشريع عقوبة الإعدام للصوص القروض وجرائم تجريف الأرض الزراعية، وتحقيق الاكتفاء الذاتى من الغذاء، وإعطاء الأولوية الحاسمة للتصنيع، وتنسيق خطط الصناعات العسكرية والمدنية فى مفاصل التطور الكبرى، ومنع تولى مزدوجى الجنسية لأى مناصب سياسية أو اقتصادية قيادية.

نعم، نريد لمصر نهضة تستحقها وتقدر عليها، نريد لمصر أن تجدد شبابها، نريد لمصر أن تعود إلى مصر، نريد لمصر دورِ الزعامة لا مصائر الإهانة، نريد لمصر أن تنطق لا أن تظل وطنا لأمة الخُرس.

إشارات

* مع كل الاختلاف السياسى.. نتمنى للرئيس مبارك نعمة الشفاء العاجل.

* ربما تكون هذه أول مرة - منذ زمن بعيد - نفرح فيها بعيد الفطر، ولا نقول مع المتنبى: "بأية حال عدت يا عيد؟"، المناسبة: استعادة الثقة بالذات مع النجاحات المذهلة للمقاومة العراقية.

* سعد الدين إبراهيم يركب حصان نابليون غازياً لمصر، هذه ليست نكتة، إنها رسم تصويرى ملون على غلاف أحدث نشرة لمركز سعد الممول أمريكيا على أقساط قيمة أحدثها ٢ مليون دولار فقط لا غير (!).

٢٣ نوفمبر ٢٠٠٣

خلية نائمة

لا أشك - طبعا - في ذكاء سعد الدين إبراهيم، وقد كان لى شرف كتابة أول مقال فى الصحافة المصرية - أوائل التسعينيات - فى كشف حالة إبراهيم المثيرة للريب، وشاءت الأقدار أن تغلق الجريدة التى نشرت تعقيبه وردى عليه فى عددها الأخير قبل العصف بها من قبل مباحث أمن الدولة.

وأظن أن ذكاء سعد خانه كثيرا فى مؤتمره الصحفى الأخير، وربما كان لسنن الطبيعة بتداعيات الوهن فى العقل دور، أو ربما يكون الغرور - المستقوى بالنفوذ الأمريكى - قد أدار رأس الرجل، وجعله يتصرف كحاكم بأمره، يأمر وينهى ويصرح ويقول أى كلام طالبا من سامعيه السلام، المناسبة: لجاج لا معنى له فى قصة المليونى دولار المخصصة له باقتراح فى الكونجرس الأمريكى، إبراهيم يقول: إن قرارا لم يصدر بعد، ولم يقل أحد إن المبلغ وصل بالفعل إلى جيبه، ونبيل فهمى سفير مصر فى واشنطن بعث برسالة نشرتها "الأهرام" قبل أسبوع بالضبط، وإن كان قد هبط بالمنحة المخصصة المقترحة لإبراهيم إلى مليون لا مليونين، وكأن الحكاية فى القيمة الرقمية للمبلغ، لا فى المبدأ المرفوض من أصله، وإن كان إبراهيم شغوفا بسباقات الأرقام، فله أن يتذكر - هو والسيد نبيل فهمى - أن أمريكا حجبت عن حكومة مصر - قبل حرب العراق - معونة إضافية قيمتها ١٣٠ مليون دولار لا مليونين، وكان القرار صريحا فى قصد التأثير الضاغط على مجريات محاكمة إبراهيم التى انتهت فجأة إلى تبرئته بعد إدانتين قضائيتين، المهم: أن خلافنا مع إبراهيم مقطوع الصلة بتداعيات الحبس والسجن، خلافنا فكرى وسياسى مع ظاهرة يعد إبراهيم علما عليها، ويذكر إبراهيم أننا طلبنا له محاكمة عادلة منصفة، ولدينا رسالة بخط يده يشيد فيها بـ "العربي" و"خصومه الشرفاء" فيها، فلا معنى - إذن - لخلط فى غير محل، لا معنى لخلط هجوم صحف حكومية - وشبه حكومية. عليه مع

حملة "العربي" المعارضة جذريا، وقد خص إبراهيم "العربي" بالذات فى بيان إعلامى، ربما لأنه يعرف أن مصداقية "العربي" مما لا يقبل التشكيك، فبوسعه أن يعزو هجوم الحكوميين عليه إلى تلاعبه أحيانا – على طريقة الكاوبوى بوش – بمفردات التغيير والإصلاح السياسى، وهذه حيلة لا تجدى بالطبع مع "العربي"، فنحن أصلب دعاة التغيير وحملة رايته الأكثر جسارة واقتحاما، ولا قيمة عندنا لرغبة سعد – المخترقة لمسلمات الضمير الوطنى – فى ربط المعونات الأمريكية بالإصلاح السياسى، فنحن ضد مبدأ المعونة الأمريكية والتمويل الأجنبى معا، بدأت القصة قبل ربع قرن تقريبا، ربما فى نفس الموعد الذى أوفد فيه إبراهيم إلى مصر عائدا من أمريكا، معاهدة العار مع إسرائيل ارتبطت شرطا – وبالتتابع – بتدفقات المعونة الأمريكية، وبعيدا عن الحساب الاقتصادى الذى انتهى بالمعونة إلى أن صارت معونة مصرية لأمريكا لا العكس، فقد لعبت المعونة دورها التخريبى فى خلق نقاط ارتكاز لتوحش النفوذ الأمريكى فى صناعة القرار المصرى، اصطنعت "قطاعا خاصا" بدأ بالتوكيلات، وانتهى بـ "جماعة بيزنس" طافية على السطح وناهبة للثروة المصرية وضاغطة فى سيناريو توريث الرئاسة، وكما جرى فى الاقتصاد جرى فى السياسة، "تكييف هيكلي" للاقتصاد وتكييف هيكلى فى السياسة، تكفلت المعونة الرسمية بـ "تكييف الاقتصاد"، وتكفل التمويل الأجنبى غير الرسمى بالدور فى تكييف السياسة، وهنا بالضبط يظهر دور سعد الدين إبراهيم، فهو أمير جماعة التمويل الأجنبى وناظر المدرسة، ٢٦ جهة أجنبية قدمت تمويلا لنشاطات إبراهيم، ولدينا أصول بخط يده يعترف فيها بالدور الجليل لمؤسسة "فورد" – وثيقة الصلة بالمخابرات الأمريكية – فى دعم شركته المدنية المسماة بمركز "ابن خلدون"، أضف: خطابات خاصة تحمل "احترام وتقدير" أحمد الجلبى – رجل الأمريكيين الأول فى العراق – لدور إبراهيم البارز والتأسيسى، إنها ذات الظاهرة التى تدار تفاعلاتها مركزيا على الأغلب من "لانجلي" مقر المخابرات الأمريكية قرب واشنطن، تكييف للسياسة ينتهى بإنشاء حزب لأمريكا وتنظيم "جماعة المارينز" فى كل بلد عربى، جماعة تنتظر كـ "خلية نائمة" إلى أن يحل الدور، حل الدور على العراق فظهر الجلبى ومؤتمره "الوطني"(!)، وتصاعد التحرش بدمشق، فظهر "التحالف الديمقراطى السوري" بأسماء مجهولة – لغير دوائر المخابرات – بإعلان

فى واشنطن، وفى السياق ذاته نفهم الرسم التصويرى المثير للظنون على غلاف أحدث نشرة بمركز سعدالدين إبراهيم، رسم يظهر إبراهيم راكبا حصان نابليون متأهبا لغزو مصر الموصوفة رمزا بأنها "بقايا وطن") ! (.

إشارات

* انقلابات "البنك المركزي" الأخيرة أظهرت مسئولية لجنة سياسات جمال مبارك عن دهس قيمة الجنيه المصرى وإشعال حرائق الأسعار.

* نعم.. تراجع سيناريو توريث الرئاسة، والمطلوب الآن: إنهاء رئاسة جمال مبارك للجنة السياسات بدواعى الاطمئنان لزوال الخطر.

* احفظوا اسم المهندس محمد بهاء الدين السيد ندا المحبوس بتهمة "ازدراء الحكم"، فهو المواطن المصرى الذى أشهر الرفض الشعبى لتوريث الحكم بتعليق لافتة اعتراض فى ميدان عام.

* حوارات سعيد شعيب عن "مصير مصر" مجهود مهنى ممتاز وعمل وطنى جليل.

* واشنطن بوست: "الديك الرومي" الذى حمله بوش فى رحلة التسلل لبغداد كان مزيفا، الخبر بليغ لأن الرئيس الأمريكى نفسه "مزيف".

٧ ديسمبر ٢٠٠٣

قرار النجل

ليس فى صحيح القانون امرأة اسمها زينب، ولا فى الدستور شيء اسمه لجنة السياسات وجمال مبارك، ولأن الدستور فى اجازة، فكل شيء جائز فى مصر المحروسة، لجنة السياسات هى الحكومة الحقيقية، وحكومة عاطف عبيد مجرد طيف باهت، جمال مبارك يرأس رئيس الوزراء عاطف عبيد فى اجتماعات لإعداد قرارات وقوانين، وقد كان جمال مبارك - لا عاطف عبيد - هو صاحب قرار تعويم الجنيه وإطلاق جنون الدولار، ولم يعد أحد يناقش فى الكارثة التى حلت بمصر مع قرار تشييع جنازة الجنيه، فقد الجنيه نصف قيمته فى عامين، وقرار التعويم يمضى بالجنيه إلى الهاوية، والنتيجة: ارتفاع فلكى للأسعار، وتفاقم اختلالات الاقتصاد المصرى، وزيادة عجز الموازنة إلى حدود مخيفة (٤٢ مليار جنيه إلى وقت المقال وزادت إلى الستين الآن)، ومضاعفة الديون الداخلية، واختراق المحظور بسلب الحكومة لمليارات التأمينات، وبيع التزام لهيئة التأمينات الى حد بات يهدد بوقف صرف المعاشات فى مدى منظور، وطبيعى أن اختيارات الحكم - قبل سياسات الحكومة ورؤساء الوزارات - هى التى مهدت الطريق الى الكارثة، وانتقلت بالزمن المصرى إلى مواسم الخراب العام، والى حد اعترف معه تقرير أخير فى مجلس الشعب بهروب ٩٠ مليار دولار لخارج مصر، كل ذلك معروف وتسأل عنه اختيارات الثلاثين سنة الفائتة، وهذا حساب سياسى تاريخى لم نصل بعد إلى أوان الحكم فيه، ويتعلق الأمر بالمقدرة على التغيير فى يوم حساب "تتعد فيه المظالم"، لكن قرار لجنة جمال مبارك - أوائل العام الذى تتفلّت أيامه - يظل عنوانا على تسريع عجلة الانهيارات، فقد ظلت السياسة المصرية تتمنع فى قبول وصفة تعويم الجنيه، وكان صندوق النقد الدولى - مسنودا بضغوط واشنطن - يلح ويتعجل، وكان الرئيس مبارك يرفض دائما فى تصريحات علنية ومانشيتات

صحف، وبعد ١٣ سنة من إلحاح صندوق النقد تحقق الهدف ببركات لجنة جمال مبارك، وجرى تقديم القرار - للأوساط الأمريكية بالذات - كدليل على ديناميكية الابن جمال مبارك فى سياق سيناريو توريث الرئاسة، وهكذا جرت المقامرة بمستقبل بلد لقاء طموحات لا تبدو مشروعة، ففكرة التوريث الرئاسى مرفوضة باليقين، والمعارضة واسعة لها فى مصر، وإن كان أغلبها صامتاً، ومبادرة مهندس الزقازيق بإشهار الرفض الشعبى حملت معها دلالتها الرمزية، والمصادر الرسمية - فى الأيام الأخيرة - تتنكر لفكرة التوريث، وليس سرا أن الرئيس مبارك نفسه هو الذى أمر بالافراج عن مهندس الزقازيق قبل انقضاء مدة حبسه (!)، والمعني: أن التسليم بازدراء توريث الحكم صار قدرا مقضيا، وهذا تطور إيجابى قد لا يقبل التشكيك، لكنه تطور جزئى على أى حال، ونتصور أن إنهاء رئاسة جمال مبارك للجنة السياسات مما قد يقطع حبال الشك بسيف اليقين، فظاهرة لجنة السياسات أقرب للشذوذ الدستورى، وهى بنت سيناريو التوريث الذى لا يوقف حقا بغير قص الجذور، ولا معنى لربط لجنة السياسات - بالممارسة الحالية - فى سياق عمل حزبى، فالحزب - حتى لو كان حاكما - هو مجرد مؤسسة خاصة بأعضائه، ولا يجوز للجنة حزبية أن تتحول الى سلطة تنفيذية، أو أن تصبح هى الحكومة الحقيقية المحصنة الناجية من مساءلة برلمانية أو فحص رقابى ولم يكن للجنة أن تتضخم فى الدور بغير رئاسة جمال مبارك، فلا يصح أن يسأل عاطف عبيد - بكل أوزاره - عن قرارات لجمال مبارك، وإلا صح وصف يوسف والى لنفسه أخيرا بأنه "ناظر الزراعة"، وكأنه موظف فى عزبة لا وزير فى حكومة، ما علينا، المهم: ان لجنة السياسات - بحشد جماعات البيزنس والأكاديميين والبيروقراطيين فيها - كانت قفزة فى سيناريو توريث يقال إنه جرى العدول عنه، والأهم: ان قرار تعويم الجنيه - لصاحبه الأصلى جمال مبارك - كان قفزة فى هواء، وليس عدلا أن تنكسر رقبة بلد بنوازع أشخاص لم يعد لها محل.

إشارات

* الحضور العالمى الرفيع فى مؤتمر "حملة دعم المقاومة فى العراق وفلسطين" انتصار للمجتمع المدنى الوطنى، وصفعة هائلة لــ"مجتمع تمويل أجنبي" يسرق ويزوّر عناوين المجتمع المدنى.

* سكينة فؤاد كاتبة باسلة تستحق دور البطولة فى دراما الحملة الصحفية لكشف فساد سياسات يوسف والى.

* اليتم الحقيقى هو موت الأم، وقد انضم العزيز طلعت إسماعيل هذا الأسبوع إلى "جمعية اليتامي".

١٤ ديسمبر ٢٠٠٣

رئيس "حواوشى"

لا نظن أننا نتعسف بالربط بين ظهور صور الاعتقال المزرية للرئيس صدام ونصائح الرئيس مبارك – فى نفس يوم وساعة الإعلان عن الأسر – للصحافة المصرية بالتوقف عن مهاجمة الرئيس بوش!.

ولا جدال فى مدى إتقان الصور التى ظهر عليها الرئيس الأسير، فهى مشهد هوليوودى بامتياز، ورسائله قاطعة صريحة لا تحتمل اللف ولا الدوران، فهى تصور الرئيس صدام مخدرا خارجا من نومة أهل الكهف، إنسان غابة بدا مستسلما ممتنا لمنقذيه المتحضرين، والإيحاءات لا تخفى، فهى – أولا – "لعبة صيد ثمين" وتنقيب فى الحفريات، وهى – ثانيا – رسالة حضارة وتمدين ظل كل استعمار واحتلال غربى يدعيها لنفسه، وهى – ثالثا – رسالة احتقار من الأمريكان المتفوقين لشعوب العرب المغيّبة فى "الحفر" و"النقر"، وهى – رابعا – رسالة تخويف وإرهاب بدراما الصدمة لأصحاب الفخامة والجلالة والسمو الحكام العرب، وكلمات الرسالة الأخيرة – وهى الأخطر – بسيطة بليغة غارقة فى لون "الفجر الأحمر" الاسم الكودى لعملية اعتقال صدام، تقول لهؤلاء – ومن الآخر – "أن افعلوا ما تؤمرون وإلا صرتم هكذا") !(.

وبعيدا عن طريقة الرئيس مبارك الحذرة التى قد تختلف فيها زوايا النظر، فقد بدا العقيد القذافى الأكثر فزعا من كارت إرهاب "الفجر الأحمر"، والرئيس القذافى معروف بغرابة أطواره، وربما بدت له خيمته الشهيرة كأنها حفرة صدام، مع أن القذافى ليس مطاردا من أحد غير هلاوسه الشخصية، ويكتفى بحرسه النسائى على سبيل الزينة، ويبدو أنه تفكر وتدبر واتعظ، وخرج علينا بمفاجأة مذهلة لا تصدر إلا عن رئيس ذاهل سابت منه الركب والعدّة العقلية، ولم يقل – لا سمح الله – أنه قرر التصالح مع شعبه المنكوب بحكم قراقوشى، ولا أنه ينوى التوبة النصوح عن استنزاف ثروة

الدولة البترولية الغنية، بل أقدم على تصرف عجيب يضاف لخوارقه التى يستحق عنها "جائزة نوبل" فى فنون العبط السياسى، قرر وضع ليبيا كهدية تحت أقدام الرئيس بوش، قرر وضع ليبيا ثروة وبشرا وأرضا وسلاحا تحت تصرف الأمريكان، استسلم بلا طلقة رصاص ولا إعلان حرب، قرر تدمير صواريخ ليبيا قبل أن تقصفه أمريكا بصواريخ كروز، ولعلها أعجب مبادرة استسلام فى تاريخ العرب المعاصر، بل وربما فى تاريخ البشرية الحديث بإطلاق، فقد قال مسئول ليبي: إن القذافى أمر - وأمره لا يرد - بتسليم وثائق وبرامج السلاح إلى المخابرات الأمريكية والبريطانية، وأمر بتدمير صواريخ بزيد مداها على المعايير الدولية (التى هى المعايير الأمريكية طبعا)، وأمر بفتح أبواب ليبيا لأى تفتيش مفاجئ وعشوائى عن أى سلاح دمار يشتبه بوجوده، كل هذا الكرم الدافق بلا شروط، الشرط الضمنى الوحيد - طبعا - أن يسمحوا له بالبقاء فى الخيمة، وربما أن يقبلوا أوراق اعتماده كحاكم منتدب على طريق جماعة "مجلس الحكم الانتقالي" فى العراق، والمقابل: بترول ليبيا للأمريكان، وربما - أيضا - عودة قاعدتى "طبرق" و"العظم" للأمريكان والبريطانيين الذين هللوا لمبادرة القذافى "الشجاعة نظريته العالمية الثالثة" فى انتماء الشعب الليبى، فقد سلم القذافى لسنوات بعروبة ليبيا الثابتة، وانتهى - بعد عقود من الملل وقضم الأظافر - إلى "أفرقة ليبيا" أبا عن جد، وكاد يدعو مواطنيها لطلاء وجوههم باللون الأسود، ولن يعجب أحد لو أعلن القذافى عن "أمركة ليبيا"، وأصدر "كتاب حواوشي" جديد عن الأصول الأنجلو - ساكسونية للأخوة الليبيين، ونصّب نفسه إماما للمذهب البروتستانتى "البوشي" على الطريقة الإسلامية (!).

وربما يكون القذافى - الذى لا يذهب عادة لميكانيكى عقول - هو الأكثر تلقائية وصراحة بين الحكام العرب، فالآخرون يفعلون ما يفعل دون مفاجآت تبدو هاربة لتوها من دور الأمراض العقلية، وكلهم يصدق عليهم قولة الأم لابنها الملك الباكى بعد ضياع الأندلس، فقد نهرته بقولها الخالد "تبكى اليوم كالنساء ملكا لم تحفظه كالرجال"، المثير المؤسي: أن هؤلاء لا يبكون، إنهم يضحكون.. علينا طبعا.

إشارات

* الخلاف معه جائز وضرورى احيانا، لكن الاختلاف لا يصح على القيمة الوطنية الجليلة لاسم الفريق سعدالدين الشاذلى.

* الرئيس صدام وقع أسيرا فى يد الأمريكان، والرئيس بوش ظل أسيرا فى قبضة المقاومة العراقية.

* "يبقى الحال على ما هو عليه.. وعلى المتضرر الذهاب فورا لقاع النيل الذى يسع من الحبايب ٧٠ مليونا"، التعليق النافذ إلى عمق الإحباط المصرى لمذيعة التليفزيون المثقفة "دينا ونس".

٢١ ديسمبر ٢٠٠٣

تصريح للرئيس

نعم نجحت حملة "العربي" وانتصر النظام الجمهورى.

نجحت أطول حملة مهنية سياسية فى تاريخ الصحافة المصرية، وأكثرها اختراقا للمحظور وكسرا لحواجز الصمت، بدأت الحملة قبل ثلاث سنوات ونصف السنة مع تداعى مخاطر "الجمهورية الوراثية" على الطريقة العربية، لم نكن نستهدف شخصا بعينه، بل رد الاعتبار للنظام الجمهورى، لم نكن نحرث فى البحر، ولا نحارب طواحين الهواء، ونجحنا رغم مصاعب ثقيلة فى توليد رأى عام قوى معارض لسيناريو التوريث الرئاسى، ورصدت "العربي" قبل أسبوعين فى مانشيت بالصفحة الأولى "تراجع فكرة التوريث بضغط الرأى العام فى مصر"، ولم نكن ندارى رغبتنا فى صدور نفى بات ونهائى على لسان الرئيس مبارك، واستجاب الرئيس قبل يومين لنداء الرأى العام، وصدر تصريحه القاطع بأنه "لا توريث للحكم فى مصر.. ونظامنا جمهوري".

ولسنا ممن تلهيهم نشوة النصر، ولا نخفى اعتزازنا بالنجاح فى تأسيس غير مسبوق لحرية الصحافة المصرية، فقد انتصرت "العربي" لمصر قبل البحث عن مجد مهنى، لا نتجاهل بالطبع مخاوف حقيقية باقية، ونعتقد أن أشواطا أخرى يتوجب خوضها لتجديد النظام الجمهورى على نحو لا يقبل الانتكاس، ونعتقد أن تصريح الرئيس خطوة أولى مشجعة، وأن تغييرا دستوريا ديمقراطيا شعبيا بات لازما وملحا، ونقطة البدء: انتخاب رئيس مصر فى اقتراع شعبى مباشر بين مرشحين متعددين، وإنهاء عادة الاستفتاء على مرشح وحيد يفوز بالأغلبية الجاهزة فى مجلس الشعب (!).

ولسنا ممن يرون فى الإصلاح أو التغيير السياسى مجرد مطالب معلقة فى فراغ، ولا أن هذه المطالب وحدها هى الحل السحرى، فمصر فى أشد الاحتياج لتغيير وطنى وسياسى واقتصاى معا، تغيير وطنى يسترد الحصانة

للاستقلال السياسى ويقتلع ركائز النفوذ المستشرى لـــ "جماعة إسرائيل" وجماعة أمريكا" فى صناعة القرار المصرى، وتغيير سياسى يرد العصمة للشعب، ويطلق حرية تكوين الأحزاب وإصدار الصحف والاجتماع والاعتصام والتظاهر والإضراب السلمى، ويوفر الضمانات الكاملة للانتخابات نزيهة حقا، وتغيير اقتصادى يضع نهاية لدولة النهب العام، وقد نشير هنا إلى تصريح للرئيس فى حديث نفى التوريث عن أوجاع الاقتصاد المصرى، قال الرئيس مبارك: إن حروب مصر كلفتنا مئة مليار جنيه، وأن هذا هو السبب الذى جعلنا الآن فى غير مصاف الدول المتقدمة، وليسمح لنا الرئيس بالاعتراض، فحقائق التاريخ الثابتة تنطق بالعكس، نعم خاضت مصر حروبا دفاعا عن أمنها وترابها كان آخرها معركة ١٩٧٣، وكلفة السلاح فى هذه الحروب موثقة بالأرقام، تقرير معهد "سيبري" السويدى عن تجارة السلاح فى القرن العشرين يروى القصة كلها، فبين عامى ١٩٥٥ و١٩٧٥ اشترت مصر سلاحا روسيا فى غالبه بقيمة ١٤٠٠ مليون دولار، لاحظ أن الدولار وقتها كان يساوى أربعين قرشا مصريا، وفى زمن الحروب ذاته كانت مصر تعيش عصر التنمية الذهبى، حققت مصر بين عامى ١٩٥٦ و١٩٦٦ بأرقام البنك الدولى معدل تنمية متصلة تجاوز حاجز الـــ ٧% سنويا، واقترب المعدل فى بعض السنوات إلى سقف العشرة بالمئة، ورغم توجيه موارد ضخمة للمجهود الحربى بعد هزيمة ١٩٦٧، تواصلت معدلات التنمية المقتدرة، بين عامى ١٩٦٧ إلى ١٩٦٩ كان معدل التنمية ٤% سنويا، وبين عامى ١٩٦٩ إلى ١٩٧٣ زاد معدل التنمية إلى ٥.١٩% سنويا، ولم تزد جملة ديون مصر حتى لحظة رحيل عبدالناصر على ١.٨ مليار دولار، والرقم مسجل فى وثيقة مودعة برئاسة الجمهورية، كانت تنمية مصر حتى حرب ١٩٧٣ تمضى رأسا برأس كوريا الجنوبية التى هى الآن عاشر أقوى اقتصاد فى العالم، بمعنى آخر: كانت مصر زمن حروبها فى أول التاريخ، وبعد ثلاثين سنة بلا حروب انتهينا إلى نفق التنمية شبه الصفرية، ولا تسأل عن السبب، إنه فى التحول من اقتصاد الدولة إلى اقتصاد محجوز وموروث ربما لجماعات المافيا، خذ عندك مثلا رقما ورد فى تقرير أخير للجنة الاقتصادية بمجلس الشعب، فى التقرير: إن ٩٠ مليار دولار هربت من مصر فى السنوات الأخيرة، لاحظ أن الرقم المهول يساوى بأسعار الصرف اليوم ٦٣٠ مليار جنيه فقط، ولاحظ أيضا أن قيمة القطاع

العام بأرقام الحكومة أوائل التسعينيات كانت ٥٠٠ مليار جنيه، وأن قيمة شركات القطاع العام المباعة والتى تحت البيع بأرقام الوزير مختار خطاب قبل شهور لا تزيد فى جملتها على ٢٨ مليار جنيه، وفرق القيمة المهدرة: ٤٧٢ مليار جنيه لا غير، إنه الفساد الذى أهلك مصر، وحمى "التكويش" التى هدت حيل المصريين.

باختصار: استجابة الرئيس مبارك لنداء رفض التوريث فرصة لفتح الملفات كلها، فلا خوف بعد اليوم.

٤ يناير ٢٠٠٤

السياسة الجوفية

يملك الرئيس مبارك أن يدخل تاريخ مصر من أوسع أبوابه لو أنه قرر عدم ترشيح نفسه لولاية خامسة، واستعاد على نحو سياسى هذه المرة دوره المقدر فى ضربة الطيران المفتتحة لدراما أكتوبر ١٩٧٣، وأتاح لمصر فرصة الإقلاع من انحطاط لا يليق بتاريخها، سبب الرجاء الملح إلى الرئيس لا يخفى، فدور مؤسسة الرئاسة جوهرى حاكم فى الحياة المصرية، وكلنا يعرف صلاحيات الرئيس شبه الإلهية فى الدستور، وفى الواقع: تتضخم الصلاحيات إلى حد الإطلاق، فالدستور المصرى لم يعد بعد من إجازته الطويلة، وقانون الطوارئ صار دستور مصر الدائم، ولا نريد أن نقلّب المواجع، فلم يبق فى جسد هذا البلد من موضع لجديد جرح ولا لدهسة نفس، ما نقصده أن بوسع الرئيس أن يعطى هذا البلد أملا يفارق به اليأس المقيم، وأن ينهى حكمه ببارقة ضوء فى نهاية النفق المظلم، وأمام الرئيس فى ولايته الرابعة عشرون شهرا ويزيد، ونتصور أنها فترة كافية جدا لخطة إنقاذ عاجل، مربط الفرس فى الخطة المطلوبة هو التجديد، ومؤسسة الرئاسة بدورها الجوهرى هى الأولى بالتجديد، ولا يحتاج الأمر سوى تعديل فى الدستور لا يبدو موضوعا لنزاع، فثمة إجماع وطنى على نظام انتخابى مختلف، وانتخاب الرئيس وربما نائبه بطريقة شعبية مباشرة من بين مرشحين متعددين، والإقدام على هذه الخطوة يبعث الثقة فى النفوس، لكنه ربما لا يكفى لقطع خط الرجعة، فالإجراءات لا تكتسب صحتها بدون مضامين حقيقية، والمعني: إن كل عمليات الانتخاب من رصد الجداول لإعلان النتائج يجب أن تحال إلى "لجنة قضائية مركزية" نطمئن لحيادها ونزاهتها، أضف: كنس أكوام القوانين سيئة السمعة، وإطلاق حريات تكوين الأحزاب وإصدار الصحف والتظاهر والاعتصام والاجتماع والإضراب السلمى، باختصار: هذا البلد فى أمس الاحتياج إلى "صدمة حرية"، وقد لا

يروق ما نقوله للمتظاهرين بدعاوى التدرّج والسير خطوة بخطوة، ولا لترزية "اللوبى الأمريكي" الذين يوالون التهتهات عن الثقافة الديمقراطية والنخبة القاصرة، وكأننا شعب مبتسر ناقص عقل وأهلية، وهنا قد نتفهم دواعى المتخوفين من تغيير كامل للدستور الآن، لكن إطلاق الحريات ممكن مع تعديلات الحد الأدنى فى الدستور، والأهم: رد الاعتبار لأولوية الدستور، وفيما عدا هذه النقطة يصعب استبانة منطق مقنع فى دعاوى التدريج، وأبلغ رد على هؤلاء هو ما جرى فى ربع القرن الأخير، فقد بدأ التعدد الحزبى أواخر ١٩٧٦ مقيدا وديكوريا، وكان ظن المتفائلين بجدوى التدرج أن القيود ربما تخف مع الوقت، وما حدث أننا تدرجنا بالفعل، ولكن إلى مزيد من الاستبداد والقهر، وانتهينا إلى "موت السياسة" على السطح البارد، وزيادة منسوب "السياسة الجوفية" إلى حدود خطرة، والتهديد بالانزلاق إلى فوضى شاملة قد لا تحمد عواقبها، والبديل: خطة العشرين شهرا لتأسيس ديمقراطية كاملة فى مصر، ورد العصمة إلى بيت الناس، واستجابة الرئيس بصلاحيات المنصب الرفيع لصيحات الرأى العام، وقد استجاب الرئيس بإغلاق ملف التوريث، واستجاب أيضا بطلب "تفسير دستوري" فى مدى عوار إجراءات مجلس الشعب، وربما نطمع فى استجابة صاحب "الضربة الجوية" إلى نداء "الضربة الديمقراطية"، وقد لا يكون من خيار غيره سوى البقاء قعودا فى انتظار الانفجار.

إشارات

* نتذكر عبدالناصر وحده، ففى الليلة الظلماء يفتقد البدر.

* ريم الرياشى استشهادية عملية معبر بيت حانون هى أحدث "الأسماء الحسني" للأمة العربية.

* نرجو ألا يكون تضخم جسد "جماعة الإخوان" مصحوبا بضمور فى العقل، المناسبة: عجرفة المرشد الجديد مهدى عاكف.

١٨ يناير ٢٠٠٤

يسار غائب

أغلب الظن أن خطوات كتشكيل المجلس القومى لحقوق الإنسان وإلغاء أوامر عسكرية منسوبة لحالة الطوارئ قد تنتهى إلى مصير "شكلاني" تماما، فالأوامر العسكرية الملغاة بقرار للرئيس مبارك ترفع قيودا على حركة الاقتصاد لا السياسة، وتوحى بفتح شهية "جماعات النهب" للمزيد من تجريف الأرض الزراعية بالذات، والتشكيل المعلن للمجلس على ما فيه من أسماء طيبة يغلب عليه الميل الحكومى والبيروقراطى بما قد لايمكنه من مراقبة فعالة لانتهاكات الحكم لحقوق الإنسان.

ونتصور أن هذه كلها تصرفات بالقطعة، بينما التقدم إلى الديمقراطية فى مصر يحتاج إلى حساب بالجملة، فلا جدوى من العودة مجددا إلى سيناريو التدرج، وقد جربته مصر لأكثر من سبع وعشرين سنة إلى الآن، ولم يكن الحصاد مما يغرى، وربما تكون حريات الصحافة النسبية هى المكسب المنظور، وقد أكد عليه الرئيس مبارك فى لقائه الأخير بعدد مختار من المثقفين والإعلاميين، وإن كانت حريات الصحافة الحقيقية تستلزم ما هو أكثر من التسامح العرفى، عدا هذه النقطة لا تبدو الصورة مما يسر، فالبلد فى أزمة عميقة شاملة، وضغط الظروف حولها وفى داخلها ينذر بتفاقم الخطر، واحتمالات الانزلاق بتدهور الاقتصاد وجنون الأسعار إلى انفجار عفوى واردة جدا، والبديل: التقدم إلى الديمقراطية كاملة فى دفعة متصلة، التقدم بالطفرة المطلوبة لا بالتدرج الذى فات أوانه، وقد دعونا إلى "خطة العشرين شهرا" تنتهى بانتخابات الرئاسة المقبلة، ونتصور أن الوقت فيه الكفاية ويزيد لو صدقت النيات، وخطوط السير موضع إجماع وطنى، أولها بالقطع تجديد حيوية مؤسسة الرئاسة بتعديل جوهرى فى الدستور، وثانيها: إلغاء الطوارئ وإطلاق حريات تكوين الأحزاب وإصدار الصحف والاجتماع والتظاهر والاعتصام والإضراب السلمى، وثالثها: ضمانات تامة

لانتخابات رئاسية وبرلمانية ونقابية نزيهة تشرف عليها "لجنة قضائية مركزية" من الألف للياء.

وربما يكون من الأفضل أن نتصارح بطبيعة المخاوف والهواجس المسكوت عنها غالبا، فدوائر فى الحكم وفى المعارضة أحيانا تتخوف من تضخم نفوذ جماعة الإخوان، وتخشى أن يكون التعجيل بالديمقراطية فتحا لطريق الإخوان السريع إلى السلطة، وهذه قصة فيها الكثير من التهويل، فمن المؤكد أن الإخوان أفضل تنظيما واستعدادا من فصائل أخرى فى المعارضة الآن، لكن شعبية الإخوان تظل أدنى فيما نظن من قابلية الحصول على أصوات الأغلبية، خاصة إذا انتهت سياسة التضييق والحصار، وجرى التصريح للإخوان مع غيرهم بإنشاء حزب سياسى، وإلزام الإخوان بخلع التسميات الدينية المباشرة، وتطوير نظام ديمقراطى نصف رئاسى نصف برلمانى، وتوزيع مراكز القوة والتأثير على نحو يقنن دور الجيش فى السياسة، ففى بلد كمصر لا يمكن تصور الجيش محجوزا فى الثكنات، فوجود "إسرائيل" بذاته خطر دائم داهم على أبجديات الوجود واتصال الدور المصرى، ثم إن اعتبارات التنمية والاختراق التكنولوجى فى الأعصاب الحساسة تستدعى دورا مرموقا للجيش فى النخاع العظمى للدولة المصرية، الأهم ربما أن تضخم نفوذ الإخوان قد يستدعى فيما نأمل استجابة تحقق التوازن الضرورى فى حركة المجتمع، فالإخوان فيما نعتقد هم يمين الحركة السياسية والاجتماعية، ولا يعقل أن تستقيم حركة مجتمع يميل بجسده ربما برأسه إلى اليمين دائما، وتحدى الإخوان كعنوان لليمين الوطنى قد يحفز نمو يسار سياسى واجتماعى بثقل مؤثر، ونتصور أن هذه مسئولية الناصريين بالذات، أن يراجعوا أوضاعهم السياسية والتنظيمية بالجملة، وأن يتقدموا لموقع قيادة ينتظرهم فى تحالف وطنى مفتوح ذى نزوع يسارى.

وبالإجمال: يصعب إخلاء مسئولية الحكم عن ركام القيود، لكن التقدم إلى ديمقراطية كاملة والآن يظل "أجندة وطن" لا أجندة يوميات محجوزة لمماليك الحزب الوطنى (!).

إشارات

* جمال مبارك التقى سيلفان شالوم وزير خارجية "إسرائيل" على هامش ملتقى دافوس، السؤال البريء: ما هى الحكاية بالضبط؟.

* فضائح الرشاوى الثقيلة أثبتت حرفيا أن شارون زعيم يليق بعصابة اسمها "إسرائيل".

* مع فوضى تحديد أول شهر ذى الحجة أخشى أن يزول الفرق بين "عيد الأضحى المبارك" و"العيد الملكى السعودي" (!).

٢٥ يناير ٢٠٠٤

رهينة المحبسين

ما نريده لمصر عكس ما يريده الأمريكيون بالضبط، صحيح أن الأمريكيين يعيدون ويزيدون فى قصة "بناء الديمقراطية فى الشرق الأوسط"، وصحيح أنهم يتلاعبون بشعار التغيير وأشواقه الطافحة فى النفوس، ليس لأن هذه الأنظمة معادية لأمريكا لا سمح الله، فالأنظمة - ربما بلا استثناء - تحت الأقدام، بل لأن هذه الأنظمة استنفدت طاقتها فى خدمة أمريكا، وجاء الأوان لإطلاق رصاصة الرحمة على خيل أمريكا العجوز، والبديل: أنظمة تصنع على عين الولايات المتحدة وفى معاملها الاستخبارية، فقد نشأت الأنظمة المرشحة للتقاعد باعتبارات محلية ومساندة أمريكية خفية وظاهرة، بعضها بالطبع كان فى خدمة السيد الأمريكى (وريث السيد البريطاني) من أول التكوين، وبعضها الآخر ثمرة انقلاب أعقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ على اختيارات مشروع النهضة القومى بقيادة جمال عبدالناصر، وبالطبع لم يكن السياق متطابقا فى كل الحالات، فقد تحولت كيانات مشرقية بالاسم القومى إلى لغة الطوائف والعشائر، وفى حالة إلى الغرب كان الجنون الذى هو فنون خيمة انقلاب إلى العصر الحجرى، وفى الجزائر حدث "إنهاك الخض والرج" بصدمات الحرب الأهلية، والنتيجة: تكوين شبه متجانس لأنظمة اللحظة، توارى تحالف العسكريين والعقائديين مع الانقلاب على العصر القومى، وانفسحت القمم لتحالف ثلاثى من نوع مختلف، دوائر أمن محلى تعاظمت روابطها فى عوالم اللهو الخفى بأجهزة مخابرات كونية، وفوائض مال نفطى جندت لها الأتباع والأنصار فى دوائر صنع القرار، و"جماعات بيزنس" أمريكية الهوى والارتباطات والمصالح، موارد ثلاثة لها ثقل الكبائر انتهت بأوطان العرب إلى ما يشبه "جحيم دانتي"، أنظمة فوق الرؤوس لكنها لا تشبهنا فى شيء، وأمة "رهينة المحبسين" على طريقة أبى العلاء المعرى فى نفق الثلاثين سنة الأخيرة.

ومصر بالطبيعة لم تكن فى مأمن من وباء "العمى الحيثي"، بل كانت بالجغرافيا والتاريخ والسياسة فى القلب بالذات، فليس صحيحا أن الرئيس السادات انقلب بالسياسة وحدها على ميراث جمال عبدالناصر، الأصح: أنه أطلق العنان لسيناريو تفكيك الوطنية المصرية ذاتها، وهو ما ظهر أكثر بعد رحيله الدرامى بقصف الرصاص فى حادث المنصة، تحولات عند القمة انتهت إلى تفكيك الحصانة، ودور أمريكى مباشر فى عمليات إحلال وتبديل، المعونة الأمريكية الرسمية قصدت إلى "تكييف هيكلي" ظهر أثره باطراد فى مراكز القوة الاقتصادية، وجرى تصنيع ربما اصطناع "قطاع خاص" بتوكيلات المعونة ومليارات النهب العام، وبالتوازى قصد "التمويل الأجنبي" لمنظمات عمل مدنى ومراكز أبحاث وهلم جرا إلى "تكييف هيكلي" فى العقل السياسى، وجرى تصنيع اصطناع بالقطع لقطاع خاص سياسى بختم واشنطن، وتسارع التحول مع انتقال أمريكا لسياسة الضغط بالأحذية العسكرية الثقيلة، تحولت "الأنوية" المستدفئة بحضانات التمويل إلى "جماعة مارينز" وحزب أمريكى كامل الأوصاف، وتحول هؤلاء إلى خط الهجوم المباشر، تسندهم موازنات تمويل فلكية مصحوبة بعين أمريكا الحمراء، فلم يعد الدور محجوزا فى خانات الضغط من بعد أو عن قرب، بل التطلع المباشر لوراثة أنظمة تكاد تستنفد وقتها الإضافى، والسيناريو يكاد يتكرر بحذافيره، "قانون لمعاقبة مصر" فى الكونجرس، تماما كـ "قانون حرية العراق" و"قانون محاسبة سوريا"، تمويل رسمى لحزب سعد الدين إبراهيم فى مصر، تماما كتمويل "جماعة الجلبي" فى العراق و"جماعة واشنطن" السورية، ربما الفرق فى مصر أن "جماعة أمريكا" فى الاقتصاد والسياسة تخترق دوائر التأثير والقرار بالطول وبالعرض، تأمل فقط تكوين "لجنة سياسات" جمال مبارك فى قيادة الحزب الحاكم، إنها أشبه بهيئة أركان حرب لجماعة الاختراق على الطريقة المصرية.

وربما نعود فى النهاية إلى أول سطر، فما نريده بالقطع هو حقوق الإنسان التى تسترد حقوق الأوطان، ما نريده بالدقة هو الديمقراطية التى تطلق طاقات شعب وتحرر أمة، ما نريده باليقين خلع "جماعة الاستبداد" و"جماعة أمريكا" معا، والبديل: انجراف لتلويث المعنى الديمقراطى بشبهة

ممالأة أمريكا، أو ابتذال للمعنى الوطنى بشبهة الرضا بالاستبداد، فلا قيامة لشعب حر فى وطن مستعبد.

إشارات :

* فخرى كريم عراقى مغمور هو المنسق العام لمنظمة "شيوعيو المخابرات المركزية"، ووكيل الفرع المصرى يدير جريدة "قاهرية".

كلما استطالت كشوف بركة المخابرات الأمريكية.. تحسس المصريون أحذيتهم.

* هوجة "كوبونات صدام" هدفها إقناع الناس بأن معارضة أمريكا ليست أكثر من مرض.. أو غرض!.

وبالمناسبة: خالص احتقارنا لرشاوى السياسة.. وأيا كان الراشى أو المرتشى.

٨ فبراير ٢٠٠٤

فرقة عميان

نخشى أن مصر تندفع بسرعة الصاروخ إلى مواعيد انفجار شعبى تلقائى عنيف عاصف يعلم الله وحده مداه، وإلى أى مجهول ينتهى بهذا البلد المسكين.

والذين يخدعهم الهدوء الظاهر على السطح، ولا يرون نذر الانفجار، ولا يقرأون فواتحه، ولا تصدم عيونهم علامات الساعة، هؤلاء فقط "فرقة عميان" بامتياز، فقدوا نعمة البصر، واستكانوا لضلال البصيرة، فلا هم يرون مسلسل "الانتحار فقرا" فى بلد ظل يستدعى مثلا فولكلوريا يفيد بألا أحد يموت من الجوع فى مصر، ولا هم يرون مسلسل هروب الشباب المتعلم إلى الموت فى قيعان البحر المتوسط فرارا من دوامات الإحباط وجحيم اليأس العام، ولا هم يرون ولا يفهمون مغزى التمرد غير المسبوق لنواب الحزب الحاكم، ومشهد الخروج الجماعى من "بيت الطاعة" لحكومة باتت كأنها الشيطان الرجيم، وحين تحل ساعة الانفجار فسوف يتذكر العميان يوم "الثلاثاء الأحمر" فى البرلمان، اليوم الذى جرفت فيه سيول الغضب أسوار مجلس الشعب، ودون صدّ أو ردّ من تحصينات الزيف ومتاريس "الغالبية الميكانيكية" ممن يفترض أنهم رجال ونساء الحكومة، انهارت الحواجز فيما بدا أنه غمضة عين، وتحول المئات من نواب الحكومة إلى حزب معارضة مفرط فى الشراسة، المناسبة: زلازل الغلاء الذى يهد الحيل، ويستنفد ما تبقى من مقدرة المصريين على الصبر والاحتمال، فقد طفح الكيل، وانزاح الغطاء عن "آبار غضب" تغلى وتفور فى الشارع، ولم يعد بمقدور أحد حتى لو رغب أن يعاند أو يكابر، فقد سقطت مصداقية الحكم فى الوحل، ولم يعد أمام الحكم سوى إشهار الإفلاس، فطوفان الغلاء الجنونى ليس حدثا طارئا، ولا أزمة وتعبر، وتطمينات الحكومة وتصريحات مسئوليها تفوقت على أكاذيب "أبولمعة

الأصلي" ومبالغات "الخواجة بيجو"، إنها الهوة الفاصلة تتعمق باطراد بين نفوس الناس المختنقة بالسخط وحكم مشغول باللهو الخفى وصفقات النهب العام، نعم لسنا إزاء أزمة طارئة قد تفيد معها وصفات التسكين أو وعود الإصلاح، فارتفاع الأسعار الفلكى وانحطاط الجنيه المتسارع ليس أزمة وتعبر، إنه الانزلاق الأخير إلى القاع فى قصة انحدار الثلاثين سنة الأخيرة، ثلاثون سنة تدفقت فيها الأموال على مصر كما لم يحدث من قبل، ثلاثون سنة نهبت فيها مصر كما لم يحدث فى تاريخها الألفى، إطلاق بلا حدود لشياطين الإثراء الحرام، ودفع للناس إلى القماقم بعصا الكبت العام، دولة ترتخى جفونها بالتواطؤ مع عصابات النهب العام، دولة ترخى سيقانها الغليظة وتضع أحذيتها الثقيلة فى أفواه الناس، مثال نموذجى لما يعرف فى أدبيات العلوم السياسية بسلطة "الكيبتوقراطية" أو "حكم اللصوص"، ازدادوا ثراء وسفها وزاد الناس بطالة وفقرا وسقما إلى حد الموت كمدا، أخذوا يعايرون الناس بأنهم يعيشون ويتناسلون، وكأنهم يتصدقون علينا بأنهم يحكموننا بغير إحم ولا دستور، كأنهم يمنون علينا بشهقة النفس ورغيف العيش، طلقوا الشعب بالثلاثة، وأضافوا أصول الثروة الوطنية إلى حكر الملك الخاص، ووصل بهم الاستهتار إلى حد سرقة مليارات المعاشات والتأمينات لتغطية عورات الفشل الأسطورى، كانت "غلطة الشاطر" فى قرار لجنة سياسات جمال مبارك بتعويم أغرق الجنيه المصرى، كان قرار اللجنة التى هى حكومة فوق الحكومة هو القفزة الأخيرة إلى الهاوية رأسا.

وليس الحل فقط فى إقالة عاطف عبيد، ولا فى ذهاب الحكومة إلى نهاية تستحقها فى أقرب "مقلب زبالة"، الحل فى أن يرحل الحكم اختيارا قبل أن يطفح الكيل انفجارا، فإما التغيير العاجل أو القيامة المعجلة، وتذكروا إن كنتم تذكرون طرفا من خبر التاريخ أن الشعب المصرى يصبر كالجمل ويثور كالإعصار.

١٥ فبراير ٢٠٠٤

فضّوها سيرة

أشفقت على الدكتور بطرس غالى فى الصور المتلفزة لأول اجتماع للمجلس القومى لحقوق الإنسان، بدا فى غاية الإنهاك، يتحدث بصعوبة مفهومة مع تقدم السن، وبدا المجلس الذى يفترض أنه فتى كأنه شاخ فى يوم مولده.

وقد لا يكون فى ذلك اعتراض كاف على الدور المعطى لبطرس غالى، فقد يرى البعض أنه شخصية دولية مفيدة فى تصدير صورة مخالفة – أو مموهة – للأصل، فالرجل إلى سنوات كان سكرتيرا عاما للأمم المتحدة، وكان سكرتيرا عاما للمنظمة الفرانكفونية الدولية، ومع ما فى ذلك من وجاهة الصور، فإن جدارة بطرس غالى بترؤس مجلس لحقوق الإنسان تبدو موضع شك عميق، وليس هذا رأى المعارضين من أمثالنا الذين لا يحبون دور بطرس غالى فى ملابسات السياسة المصرية بعد كامب ديفيد، إنه – للأسف – رأى مؤلفة بريطانية من منظور لصيق بالمعنى الحقوقى المباشر، الاسم: ليندا ملفرن، محققة وكاتبة ومراسلة سابقة لصحيفة "صنداى تايمز" ومحاضرة فى جامعة ويلز، وهى تتهم بطرس غالى – بلا لف ولا دوران – بالتورط فى الدفع إلى أبشع مذبحة جماعية فى القرن العشرين، المذبحة المفزعة جرت فى رواندا، وقت الذروة: ١٩٩٤، الضحايا: مليون قتيل فى مئة يوم أغلبهم من أقلية "التوتسي"، السفاح الأصلي: هابيريمانا الذى ظل رئيسا لرواندا من أواسط السبعينيات حتى اغتياله فى أوائل أبريل ١٩٩٤، أقام هابيريمانا سلطة مطلقة اعتمدت على استنفار أغلبية "الهوتو"، وحرمان أقلية "التوتسي" من دور فى السلطة، وطردهم بقدر الإمكان إلى ما وراء الحدود، وبدأ الانزلاق إلى المصير المروع مع مطالع التسعينيات، وقتها كانت أصوات عديدة فى المجتمع الدولى تضغط لحظر توريد السلاح إلى رواندا المحتقنة، وكان الرئيس هابيريمانا يستند إلى دعم الصديق الفرنسى

شيراك، لكن هابيريمانا كان مهموما بتكديس السلاح استعدادا ليوم حشر التوتسى فى المقابر الجماعية، فقد أنفقت دولته الأفريقية الصغيرة ما يزيد على ١٠٠ مليون دولار لشراء السلاح بين عامى ١٩٩٠ و١٩٩٣، وهنا - بالضبط - تلفت ليندا النظر لدور منسوب لبطرس غالى، كان غالى وقتها وزير الدولة المصرى للشئون الخارجية، ولعب غالى دور همزة الوصل بين "هابيريمانا" وعاصمة دولة عربية كبرى، كانت الدولة العربية ترفض بإصرار بيع سلاح لرواندا، لكن بطرس غالى لعب دورا مثيرا للتساؤلات، وتوالت وقائع علاقة تفاهم خاص لسفير رواندا سلستين كابندا مع بطرس غالى، والنتيجة: رسالة متفائلة عبر التلكس من كابندا تؤكد "أن بطرس غالى وعد بتقديم المساعدة (.. .) وأنه سيتعامل مع الطلب شخصيا"، وما أدراك ما الطلب؟، إنه طلب شراء السلاح الذى رفضته الدولة العربية المعنية مرارا وبإصرار، لعب بطرس غالى دور الملين، وتضمنت الصفقة - طبقا لرواية ليندا ملفرن - "١٠ آلاف قنبلة يدوية. وحوالى مليونى طلقة ذخيرة. و١٨ ألفا من قنابل مدفع الهاون. و٤٢٠٠ بندقية هجومية وصواريخ وقاذفات صواريخ"، وفيما بعد قال بطرس غالى لسائليه حسب رواية المؤلفة "كابندا فاتحنى لأنه لم يكن يعرف شخصا آخر يعقد معه الصفقة".

وللعلم: رواية ليندا ملفرن وردت فى كتابها "شعب مضلل"، تاريخ النشر: ٢٠٠٠، وقد ترجم الكتاب بالكامل بمعرفة الهيئة المصرية العامة للاستعلامات، وحرصت الهيئة على وضع هامش ملفت يؤكد أنها لم تمد يدها بحذف أو تعديل، وأنها بهذا التنويه تكون قد أبرأت ساحتها "ووضعت المسئولية فى عنق المؤلفة"، وبالطبع فنحن - كاتب السطور لا هيئة الاستعلامات هذه المرة - لا نملك أن نؤكد أو أن ننفى رواية ليندا، فقط نطلب أن يتكلم بطرس غالى، ونظن أن هذه بعض حقوقنا عليه وهو فى منصب راعى الحقوق، أو أن "يفضّها سيرة" ويترك رئاسة المجلس القومى لحقوق الإنسان.

٢٢ فبراير ٢٠٠٤

كان ويكون

صور العظام حقا لا تنتهى أبدا إلى ظلام المتاحف، إنها كعين الشمس لا تحجبها الأصابع ولا ركام السنين، وقد كان لافتا للنظر بقوة فى أسبوع واحد اجتياح صور عبدالناصر بأحجام عملاقة لصفحات أشهر مجلة فرنسية وأعرق صحيفة بريطانية، "لوموند" الفرنسية نشرت ملفا خاصا عن جمال عبدالناصر، و"التايمز" البريطانية وضعت صورة عبدالناصر فى الترتيب الأول قبل صورتين للأديب الروسى الأعظم ليوتولستوى وبطل جنوب إفريقيا نيلسون مانديلا، العنوان: البحث عن الأفضل، والموضوع: منافسة فريدة ساخنة بين العمالقة الثلاثة للفوز بلقب "الشخصية الأعظم" فى تاريخ العالم غير الغربى باتساع قاراته وثراء تجاربه وعمق ثقافاته الطامحة لمجد الإنسان، والمناسبة: مبادرة مثيرة لهيئة الإذاعة البريطانية بإجراء استطلاعات كونية لاختيار "الأعظم"، بعض العظام المختارين ظهرت ظلالهم محصورة برقعة أوطانهم، البريطانيون اختاروا ونستون تشرشل، والألمان اختاروا "كونراد أديناور"، بينما بدت ظلال عبدالناصر وتولستوى ومانديلا ممدودة على جغرافيا بلا حدود وتاريخ عابر للتواريخ المرئية.

إلى هذا الحد تبدو صورة عبدالناصر عند الغرب الذى حاربه فى تأثيرها وإلهامها الفياض، وفكرة الاستطلاعات العالمية تتلخص كما تقول "التايمز" فى معنى "أنها تتيح لنا أن نستعيد على نحو أخاذ الكيفية التى تفهم بها الأمم ذواتها"، وأظن أن هذا المعنى بالذات هو المفتاح الأهم لفهم سيرة عبدالناصر، فعبدالناصر لم يكن بطلا عسكريا تهدى إليه الورود والنياشين، أو نهفو فى لحظات الجزع والهلع إلى حد سيفه، وفى تاريخ الأمة كما فى تاريخ العالم مئات وربما آلاف من هؤلاء الذين لا ينقطع ذكرهم، ولم يكن عبدالناصر كذلك مجرد زعيم لثورة مهما امتد مفعولها فى حوادث التاريخ، فعبدالناصر بحق هو صنو أمة، وكلنا يعرف أن عبدالناصر ذهب إلى جوار

ربه قبل ثلاث وثلاثين سنة، لكن أحدا لا يصدق بحق أن عبدالناصر قد "انفضّت سيرته" وذهب، ربما لأن الأمة التى امتزج بأشواقها ومآسيها وعظمتها وعذاباتها لم تذهب، وقد ذهبت تجربة عبدالناصر، لكن حضور عبدالناصر مقترن بحضور الأمة التى لا تذهب إلى أن يرث الله الأرض، فعبدالناصر هو عنوان أمة لا قائد تجربة، عبدالناصر هو الثوب الذى خلعته أمة على نفسها، نسجته بالكد والتعب فى قرون الألم على "ماكينة خياطة" تستدعى يوما لأمل، أمة تخلع أكفانها لترتدى صورته، وربما لذلك تستدعى مظاهرات الغضب فى أيامنا صور عبدالناصر بالذات، ترتفع فى تلقائية عبقرية على رؤوس شباب لم يعيشوا زمن عبدالناصر، وربما لم ينقطعوا لدرس تجربته، فالتفاصيل تغيم مع تحولات الطقس بامتداد الوقت، ويبقى المغزى الإجمالى قابلا لاستعادة بزخم النفوس ربما بأكثر من فحص العقول، المغزى القابل للاستعادة بطريقة عفوية ألصق بسلامة الفطرة، فصورة عبدالناصر فى لحظة دهس القلب تستثير حنينا جارفا عاصفا لرمز يخلع القلب، وبالقطع لم يكن عبدالناصر نبيا ولا رسولا، وربما كان ذلك مما يضيف إلى عظمته، عظمة الدراما الإنسانية التى تختلط فيها دموع الفرح بأشجان الأحزان، عظمة أن تخطئ وتصيب، تنتصر وتخفق وتتحدى تصاريف الزمن، عظمة أن تكون صنوا لأمة هى أمة الأنبياء، وهكذا كان عبدالناصر.. ويكون.

إشارات

* نعم.. نرحب بإلغاء حبس الصحفيين، والسؤال: متى ينتهى حبس مصر "الانفرادي"؟.

* ربما تثبت مفارقات الأيام أن مبادرة الشرق الأوسط الكبير تعنى حرفيا "إطلاق رصاصة الرحمة على خيل أمريكا العجوز"!.

* الشرط المستحيل لنجاح فضائية "الحرة" الأمريكية التى تبث بالعربية أن تتحول إلى قناة معادية لأمريكا!.

٢٩ فبراير ٢٠٠٤

تكسير عظام

هجوم وزير الداخلية المفاجئ على نقابة الصحفيين بدا مخططا بعناية، وحكاية استضافة نقابة الصحفيين لمؤتمر إخوانى مجرد عنوان عرضى يقصد به التخفى بالهدف الحقيقى لحملة التخويف.

فقد تجاوز وزير الداخلية كل حد مقبول ومعقول فى انتقاد نقابة الصحفيين، ووصف النقابة بأنها وقعت فى سقطة، وكأن النقابة من بقية أملاك وزارة سيادته، أو كأن له عليها حقوق الولاية والزجر والتأديب والتهذيب، ولم يكن مدهشا أن تحتفى الصحف الحكومية بهجوم السيد اللواء فى غير اكتراث بتقاليد الانتساب لمهنة ونقابة عريقة، وكأن الملاك الفعليين لهذه الصحف (السادة المعينون كرؤساء تحرير ورؤساء مجالس إدارة) يريدون نقل نقابة الصحفيين من شارع عبدالخالق ثروت إلى مقر مباحث أمن الدولة فى ميدان لاظوغلى، أو كأنهم يريدون استباق حركة تغييرات متوقعة بشن حرب وقائية تستند إلى تقارير الصلاحية الأمنية.

والغريب: إن وزير الداخلية تعامل مع نقابة الصحفيين كأنها الجارية فى بلاط جلالته، بينما الرئيس مبارك - فى خطابه لمؤتمر الصحفيين - كال للنقابة المديح مشيدا بعراقتها ودورها كبيت للحرية، وكأن وزير الداخلية - بعصا الكبت العام - قد قرر التحالف مع تيارات النهب العام، وقد عبرت الأخيرة عن فزعها الضمنى من قرار الرئيس مبارك بإلغاء حبس الصحفيين، وراحت تتحرك بسرعة لوأد التطور اليتيم الذى قد يصح نسبه لتجاوب أولى مع نداءات الديمقراطية، ونشط الترزية إياهم فى كواليس وزارة العدل ومجلس الشعب، والهدف: إفراغ قرار الرئيس مبارك من مضمونه تمامًا، فقد جرى تجاهل تشريع متكامل أعدته نقابة الصحفيين، وظل لسنوات حبيسا فى أدراج لجنة الاقتراحات بمجلس الشعب، واستأنف ترزية القوانين - حسب المقاس - لعبتهم المفضلة، وما تسرب عن التشريع

البديل يثير الفزع بكل المقاييس، فالميل ظاهر لاستبدال حبس الصحفيين بشبكة عقوبات تهدد بحبس الصحافة كلها، والميل ظاهر للتوسع فى عبارات مطاطة من نوع الإضرار بالصالح العام، وتحويل كل صالح قومى أو خاص إلى قرين للأمن القومى، وتغليظ الغرامات إلى حد يهدد بإغلاق الصحف الحرة، بل والعودة إلى رذائل الحبس الاحتياطى فى تهم هلامية غير منضبطة باللفظ أو بالقانون، وهو ما يبدو معه كأن تحالف الكبت العام - مع تيارات النهب العام - قد قرر الدخول فى معركة تكسير عظام، ووأد أى بادرة للإصلاح أو نية لتوسيع هامش الحرية، وقبل أن يتسع الخرق على الراتق، ويتهدد سلطان مؤسسة فساد تحكم وتعظ.

هذه هى المعركة الحقيقية، وهذا هو مغزى الهجوم الأمنى المتجاوز المنتهك لمكانة واستقلالية نقابة الصحفيين، فقد جرى اصطياد خطأ إجرائى للإجهاز على دور النقابة المهنى والسياسى، الخطأ - بالطبع - فى استخدام مقر النقابة كما لو كانت مقرا لحزب الإخوان، كان يمكن للإخوان - لو تصرفوا بحس مسئول - أن يعقدوا مؤتمرهم الصحفى فى مقر مكتب الإرشاد، وكان يمكن للنقابة - لو تصرفت برشد - أن تمنع المؤتمر الإخوانى بالحجة المقنعة، وهذه هى حدود الخطأ - الميسور تصحيحه - فيما جرى، وليس الخطأ - بالطبع - فى حديث عن السياسة فى نقابة صحفيين، فمهنة الصحافة هى الألصق بهموم السياسة، والنقابة - على ما بدا من أعمال مؤتمر الصحفيين الأخير - تقدمت لدور طليعى فى السعى للإصلاح والتغيير السياسى، وهذا - بالضبط - ما يراد إجهاضه، أضف: خلط المعنى الحزبى الخاص بالمعنى السياسى العام على نحو مثير للفتن، وإلهاء الصحفيين بمعركة جانبية حرفا للبصر عن مصائب تشريع عبثى يودى بحريات الصحافة فى الحال والاستقبال.

إنها ساعة اختبار لوعى وصلابة الصحفيين المصريين، فهم الذين عبروا - بانتخاب النقيب المستقل - عن أشواق وطن يحلم بالتغيير، وهم القادرون على هزيمة حملات الابتزاز والتخويف وبارونات تصفية الحساب بالأثر الرجعى.

إشارات

* دراما: كأن مصر تطالع صورتها فى المرآة وهى تتابع فظائع إمبراطور النخيلة.

* إهانة: مبلغ علم رئيس جامعة القاهرة أن السيد كمال الشاذلى يستحق التكريم تقديرا لخدماته العلمية الجليلة!.

* خبر: ثلاثة موظفين بنيابة شرق وحى مدينة نصر أوقفوا تنفيذ ٩٩% من أحكام القضاء فى مخالفات البناء مقابل رشاوى ثقيلة، وما من تفسير سوى أن الـــ ١% الباقية تخص محدودى الدفع.

٧ مارس ٢٠٠٤

أربع رئاسات تكفى

نعم نطالب الرئيس مبارك بعدم ترشيح نفسه لولاية خامسة، وقد كنا على الدوام ضد التصويت للرئيس مبارك فى الاستفتاءات إياها، فخلاف الناصريين جذرى مع اختيارات الرئيس وسياساته، ونذكر تعهد الرئيس فى أول حكمه بعدم تجديد ولايته، ثم مضت الأمور على غير ما أعلن ونرغب، وقضى الرئيس مبارك فى الحكم ٢٣ سنة، وهى أطول مدة لحاكم مصرى منذ محمد على، وتزيد إلى ٢٤ سنة بنهاية ولايته الرابعة أواخر العام المقبل، ولو قدر للرئيس أن يحكمنا لفترة خامسة، فالمحصلة: أن الرئيس نفسه أطال الله عمره سوف يحكم مصر لثلاثين سنة كاملة.

أما لماذا نطلب ما نطلب، فالسبب مفهوم، وهو أن فترات الحكم الطويلة تكون غالبا مصحوبة بالركود، لهذا تنص الدساتير المحترمة على فترتين بحد أقصى لشاغل المنصب الرئاسى، وقد كان الدستور المصرى الحالى ينص على فترتين لا غير، ولجأ الرئيس السادات إلى تعديل فى الدستور قفز بمدد الرئاسة إلى السقف الربانى، ولم تمهل الأقدار السادات ليستفيد بشخصه، فقد ذهب فى حادث المنصة بعد شهور من التعديل، وأتاحت المقادير للرئيس مبارك أن يحكمنا بنظام الاستفتاء لا الانتخاب إلى الآن، ومع كامل الاحترام لمقام المناصب فقد انتهينا إلى سجن الركود، فالرئيس مبارك ليس وحده الذى أطال الله حكمه، وعدد لا بأس به من حملة المفاتيح قضوا المدة نفسها وأكثر، الوالى يوسف والى وزير الزراعة فى قلعته المحصنة من قبل بدء رئاسة مبارك، وكذلك صفوت الشريف وزير الإعلام وأمين عموم الحزب المتحكم، وكمال الشاذلى يملأ المشهد طول الوقت، أضف: رؤساء مجالس إدارة وتحرير الصحف الحكومية اليومية، وكأن مصر أصيبت بالعقم الأبدى، واستوطن التصلب فى شرايينها، وتيبست فيها الأطراف والمفاصل وعقدة الشعور فى الرأس، وكادت تسلم الروح بغير

إذن الرب، إنها السلطة التى "شاخت على مقاعدها" بتعبير الأستاذ هيكل، وغنى عن البيان ذكر ما أصابنا مع هذا كله، ركود وكآبة مسيطران على الحياة المصرية، ويأس تفيض به النفوس، أضف: إيقاع الزمن الخافت الذى لا يكاد يسمع، وهو ما يضاعف الإحساس بوطأة الركود الطويل، فلم تكن هذه السنوات الطوال العراض من تواريخ الانجاز، ولا هى من جنس الزمن الذى يخطف البصر بحضور شخصيات استثنائية لها أداء عبقرى، ففى نفس هذه السنوات صعدت ماليزيا مع مهاتير محمد من قاع العدم إلى عين الشمس، أما مصر فلم تتقدم خطوة واحدة إلى أمام، وتراجعت ألف خطوة إلى ألف خلف، فأسوأ ما يحدث فى مصر - بتعبير صحيفة بريطانية أوائل التسعينيات - ألا شيء يحدث على الإطلاق، تاريخ يخلو من صخب الدراما، وإن لم يخل على أى حال من ميلودراما تقبض الروح، تاريخ من الفواجع على طريقة أفلام المرحوم حسن الإمام، للتذكرة: كانت مصر المستقلة المحاربة الناهضة رأسا برأس مع كوريا الجنوبية قبل ثلاثين سنة، وكوريا الآن هى عاشر أقوى اقتصاد فى العالم، بينما مصر رقم ١٢٢ فى تقارير التنمية البشرية الدولية، أى أنه يمكن مقارنة مصر اليوم ببلد لا تكاد تتذكر اسمه كبوركينا فاسو، وللتذكرة: فقد نهبت مصر فى سنوات الركود ذاتها كما لم يحدث فى تاريخها الألفى، ٢٠٠ مليار دولار (أى ١٤٠٠ مليار جنيه تقريبا بسعر الصرف الآن) بتقديرات عزيز صدقى هربت من مصر، و ٤٧٢ مليار جنيه بتقديرات تقارير علمية هى الفارق بين قيمة القطاع العام (٥٠٠ مليار جنيه) وعوائد البيع المقدرة رسميا بـــ ٢٨ مليار جنيه، وحدث ولا حرج عن مئات المليارات المنهوبة من قروض البنوك والرشاوى الثقيلة، وإلى حد لم يعد لنا فيه من أمل غير تنظيم النهب لا القضاء عليه. فقد جرى طمس إشارات المرور السياسى فى ظلام الكبت العام، وجرى محو الحدود بجرافات النهب العام بين "حكر العزبة الخاص" والجغرافيا الاجتماعية لبلد كان اسمه مصر.

نعم مصر تحتاج إلى استعادة اسمها أولا، وما من سبيل بغير التجديد لا إصلاح ما لا يقبل الإصلاح بطبائع الركود، وألف باء التجديد: تجديد مؤسسة الرئاسة بحسبان دورها الجوهرى فى السياسة المصرية، وربما لذلك نلح فى الرجاء من الرئيس مبارك بعدم ترشيح نفسه لولاية خامسة،

فأربع ولايات رئاسية تكفى جدا، وإن لم تكن تصدق فأعد قراءة هذا المقال من أول سطر، أو هات من الآخر واقرأ الفاتحة على روح مصر.

إشارات

* نقول مع جماهير الغضب المصرى "مصر بلدنا للحرية.. موش لعصابة الحرامية".

* "مرض" مصطفى الفقى عافاه الله ربما أنقذه من حكم إعدام معنوى لو كان فعلها وتورط فى رئاسة "بعثة العواطف البرلمانية" للست إسرائيل

* يا محمود يا عسقلانى لا تحزن، فدولة الظلم ساعة.. لا غير.

* ثق أن أمريكا ستهرب من العراق لو استمرت المقاومة المسلحة على أدائها الإعجازى فى السنة الثانية للاحتلال.

* قتل صحفيين من قناة "العربية" برصاص الحرية الأمريكية فى بغداد أول تدشين عملى لمشروع الشرق الأوسط الكبير (!).

٢١ مارس ٢٠٠٤

الشيخ الجسد
والشيخ المعنى

مفارقة الشيخ أحمد ياسين هى مفارقة المقاومة الفلسطينية ذاتها، كان الشيخ فى حياته يقدر بالكاد على تحريك شفتيه، وفى استشهاده تجلت قدرته على زلزلة وجدان أمة، وهذه عبقرية المقاومة الفلسطينية التى اخترقت نواميس حركات التحرر الوطنى، وقلبت معادلات توازن القوى على نحو غير مسبوق فى التاريخ، فبالحساب المادي: لا أمل، الشعب الفلسطينى أعزل تماما كالشيخ الأعزل، والشعب الفلسطينى مقيد إلى مقعده تماما كالشيخ المشلول، تواطؤ دولى شامل ضده، وخذلان عربى جامع، وبالمقابل: جيش احتلال هو القوة الرابعة فى العالم، وصحيح أن حروب التحرير كانت دائما موسومة بالخلل فى موازين القوى مع المحتلين، لكن الخلل فى الحالة الفلسطينية مع انتفاضة الاستقلال بالذات تجاوز كل حد عرفه التاريخ، فلا خطوط إمداد موصولة بالسلاح والدعم المالى، ولا ظهير سياسى فى عاصمة قريبة، وقد يقال إن معنويات الشعب وإيمانه بقضيته يكفى جدا، وفى صدامات السلاح بالطبائع الإنسانية هامش معنوى يضيق أو يتسع، لكن الشعب الفلسطينى قفز بالهامش إلى متن المتن، وأحال المتن المادى إلى هامش حروف لا تكاد ترى، ودارت منازلة فريدة هى صنو لتفرد معاناة وحيوية الشعب الفلسطينى، منازلة فريدة بين القيمة التكنولوجية والقيمة الإنسانية، قيمة تكنولوجية منسوبة لإسرائيل فى أعلى ذراها، وقيمة إنسانية منسوبة للفلسطينيين بلغت سدرة المنتهى، طرف يملك القنابل الذرية، وطرف لا يكاد يملك غير القنابل البشرية، وفى نزال الدم بدت القنابل الذرية حبيسة فى مخازن الخردة، بينما القنابل البشرية طليقة قادرة على أن تفاجئ فى مواضع الوجع، بدا الفيل المادى منهكا وأقرب لضعف النملة، بينما المخزون المعنوى فى تجليه الاستشهادى يفيض بطبع النهر ذى المنبع

السماوى، فالقوة المادية مهما بلغ جبروتها لها سقف وعليها القيد، والقوة الاستشهادية مهما تواضعت بداياتها لها مدى الإطلاق الإلهى، القوة المادية نافدة الصبر، والقوة الاستشهادية هى كتاب الإيمان بالصبر، وهنا بالذات تتجلى سيرة الشيخ ياسين، فقد غادر الرجل قيده البدنى المرهق إلى إطلاق الكمال الإنسانى، تحول إلى رمز عظيم الإيحاء ولو كان عظما فى قفة، ولم تضره الصواريخ التى مزقت كتلة اللحم المتعبة، بل فعلت العكس بالضبط، حررت الرجل من قيود الجاذبية الأرضية، وأطلقته كصاروخ فضائى فى سماء الله، قفزت بالرمز إلى أعلى العليين حيث يستحق أن يكون، بينما كان الرجل على كرسيه المتحرك أقرب بزوايا الصور إلى أقدام الناس، كان الرجل فى حياته موضعا لشفقة ومحطا لإلهام، وباستشهاده ذهبت دواعى الشفقة وبقيت عناوين الإلهام، كان الرجل فى حياته مشروعا لمعنى جليل، وباستشهاده تحول إلى معنى متوج واثق الخطوة يمشى ملكا، هكذا يجب أن نتذكر شيخ الطريقة الاستشهادية، لا نتحدث عن انتقام بدوى لدم الشيخ، بل نتحدث عن الوفاء الواعى لطريقة الشيخ، وهو ما نثق فى أن الشعب الفلسطينى قادر عليه، بل ربما لا تكون من طريقة أخرى لتوازن الرعب، فليس بوسع الفلسطينيين فى المدى المرئى أن يملكوا ما لدى الإسرائيليين، ولا بوسع الإسرائيليين فى أى مدى أن يملكوا ما عند الفلسطينيين، ربما الفرق: أن ما يملكه الإسرائيليون قيمة مضافة يرد عليها النقص وقد بلغت حد التمام، بينما ما يملكه الفلسطينيون قيمة أصلية قابلة لابتعاث إلى غير ما حد، ربما الفرق: أن الشعب الفلسطينى زائد الخصوبة يتمدد سكانيا، بينما التجمع الإسرائيلى تنضب أو تكاد موارده البشرية القابلة للوفود إلى مخاطر اللهيب، وإذا كانت الخمسون سنة الأولى هى زمن التوسع الإسرائيلى فى اطراد، فإن الخمسين سنة الثانية هى زمن الانكماش الإسرائيلى ربما بالاطراد نفسه، وبالتأكيد: سوف يوضع اسم الشيخ ياسين كعلم على رأس الخمسين سنة زوالا لإسرائيل، فقد حول الكم الفلسطينى المتزايد إلى كيف استشهادى له المدى التفجيرى للقنابل الذرية.

نعم، قد تكون صواريخ إسرائيل أصابت الشيخ الجسد، لكنها بالتأكيد أخطأت الشيخ المعنى، أو قل: إنها أطلقت الشيخ المعنى ربما بالخطأ الجبرى فى الحساب، وجعلت له قداسة أم الكتاب، خلعت عنه لحم البشر، وخلعت عليه ثياب الملائكة.

إشارات

* احتلال الأمن المركزى لميادين القاهرة من علامات الساعة لنظام يخاف يقظة شعب.

* ٢٢ ألف جنيه سنويا نصيب كل متظاهر من ميزانية ضرب المصريين (حسبة موحية للخبير الاقتصادى عبدالخالق فاروق).

* إلى رؤساء وملوك وأمراء قمة تونس: نسألكم الرحيلا.. فقط لا غير.

٢٨ مارس ٢٠٠٤

صوت وسوط

لم يعد الخداع ممكنا، فلم يكن الرئيس التونسى بن على سيد قراره فى التأجيل المفاجئ للقمة، ولم يكن الرئيس المصرى مبارك زعيما للقومية العربية بدعوته لاستئناف السعى للقمة، فالضغط الأمريكى لتفكيك النظام العربى ظاهر فى قرار بن على، والرغبة فى مقايضة ما مع الأمريكيين بدت ملحة عشية ذهاب الرئيس مبارك للقاء الحساب فى واشنطن.

ودع عنك حديث المبادرات إياها، سواء ما تعلق منها بإصلاح الجامعة، أو ما تعلق بالإصلاح الداخلى فى الدول العربية، فلا أحد يقصد ما يقول، دعوى القيادة التونسية فى تبرير التأجيل بإلحاح على إدراج الإصلاح السياسى فى وثيقة العهد تبدو مثيرة للسخرية، فقد يصح أن ينصح الرئيس التونسى نفسه أولا، ويخفف من عذاب الديكتاتورية فى بلاده، وبالمقابل: تبدو إيحاءات السياسة المصرية بمجابهة التدخل الأمريكى فى غير محل، فلم يكن ممكنا أن تسقط العواصم العربية بقعقعة السلاح أو بضغط السياسة إلا بعد أن استسلمت القاهرة أولا، والمشهد كله كراكيب وتشاطيب وعلامات نهاية، فأمريكا تواصل سياسة خض ورج ما تبقى من النظام العربى، والاستجابة بالتفكيك تبدو مطردة، وعلى طريقة تقسيم أمريكا للاتحاد الأوروبى إلى أوروبا قديمة وأوروبا جديدة، بدت النظم العربية مرشحة للدخول فى قسمة موازية، عرب قدامى فى القلب مصر وسوريا والسعودية بالذات أقرب لممانعة خائفة من خطر داهم على العروش، وعرب جدد فى تونس وليبيا ودول الخليج الصغيرة بالذات أقرب للتعجل فى إعلان نوايا جهير يساير الرغبة الأمريكية إلى آخر الشوط، ولا بأس بإضفاء لمسات أنيقة على طريقة إعلان أمريكا للكويت حليفا استراتيجيا كبيرا من خارج حلف الأطلنطى، أى اصطناع صفة الحلفاء الاستراتيجيين لأطراف هى فى الحقيقة من الخدم الاستراتيجيين، والشاهد أن دولا عربية لا بأس بعددها

الذى فى الليمون تتزاحم على باب الخدم، وتستقوى بالاحتلال الأمريكى الإسرائيلى للعراق وفلسطين لمناطحة الكبار القدامى فى قلب خرائط العرب، ولا يبدو الآخرون على استعداد لخوض معركة، فهم راغبون فى التسليم أيضا وإن اختلفت الطرق، والنتيجة: أن طقوسا متقادمة من نوع القمة العربية تحولت إلى أثر فى مزاد محجوز لمشتر وحيد، وإن تنوعت طرق العرض التجارى وفنون الشطارة فى كسب العمولة السياسية، القيادة التونسية بدت متعجلة فى الرهان على إرجاء انعقاد القمة طلبا لفوز مبكر، والقيادة المصرية بخبرة مراس دبلوماسى أكبر التقطت طرف الخيط، ودعت لانعقاد قمة لا تبدو مرشحة لاكتمال حتى لو انتهت لإرجاء الموضوعات بدعوى توقى الخلافات، وقد تثبت الأيام أن ما فعله الرئيس التونسى هو عين ما يتوقع للرئيس المصرى أن ينتهى إليه، بن على أرجأ القمة فى الشكل، ومبارك ربما يرجئ القمة فى المضمون، وكل طرق الإرجاء تؤدى إلى روما الأمريكية، وعلى رجاء القعود لا القيامة تتداعى فرق المرجئة العرب، وإلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا، وتقوم ساعة الشعوب فى أمة الربع الخالى، وهنا بالذات مربط الفرس، فحكام المنطقة من العرب القدامى والعرب الجدد يذكرونك بقصة النبى سليمان حين مات متكئا على عصا، ولم يلحظ الرعايا المسخرون أنه مات إلا حين أكل النمل العصا، إنهم مجرد عصى ينخرها السوس، وليس فى صندوقهم الانتخابى إن وجد بقية من شرعية بأصوات الناس، فصوت أمريكا وسوط عذابها هو ما تبقى لهم، وليس أمامهم من خيار بشهوة البقاء على الكراسى سوى السعى الذليل لاجتلاب الرضا السامى، والطريقة: تطليق العروبة بالثلاثة فى حالة العرب الجدد، أو الميل إلى طلاق رجعى متدرج على طريقة العرب القدامى، وما من بديل سوى الطلاق البائن بين الشعوب والحكام، وردّ العصمة للشعوب، وتغيير نظم الحكم بانتخابات رئاسية حرة، ونقطة البدء: التغيير فى القاهرة، فالتغيير يبدأ من الرأس أولا.

إشارات

* قنبلة عادل عيد: ٣١٦ قانونا سريا لعصابة تحكم مصر.

* حمدى قنديل بعد التوقف الثانى لبرنامجه رئيس التحرير هو الاسم الحركى لضمير مصر المخنوق.

* حكومة الكويت خادم استراتيجى أنعمت عليها الست أمريكا بوسام الحليف الاستراتيجى الأكبر من خارج حلف الأطلنطي!.

* الحقير جورج بوش وصف عمليات المقاومة العراقية فى الفلوجة بأنها حقيرة!.

* مرة ثانية: شارون يدنس المسجد الأقصى، وحكام الغفلة يدنسون رؤوسنا.

٤ ابريل ٢٠٠٤

العشاء الأخير

نعم، بغداد هى بامتياز قلعة الأسود على حد الوصف الموحى لشاعر الروح الطليقة محمود حسن إسماعيل فى رائعته التى كانت تشدو بها أم كلثوم فتوقظ عواطف الشرق وتعيده إلى صباه العفى. نعم، بغداد لم تسقط، وإن سقطت النظم، بغداد وأخواتها فى الفلوجة والكوت والرمادى وبعقوبة والنجف وكركوك هى أجمل الأسماء، إنها المدن المعطرة بروائح بخور العناد الإنسانى الموصول بنداء الرب، إنها مدن الدم الذى يهزم السيف، إنها مهبط الوحى الفدائى الذى يغير وجه العالم فى الحقيقة لا بالمجاز، فأسطورة العراق المحارب ليست كأى أسطورة، قد يتذكر البعض بمناسبة المشترك الأمريكى أسطورة فيتنام، لكن الوضع مختلف بالجملة فى الدلالة والمغزى، فأسطورة فيتنام نمت وانتصرت فى عالم آخر، كان الاستقطاب الثنائى مسيطرا على القمة الدولية، وكانت خطوط الدعم بالمال والسلاح والدعاية موصولة بسخاء من موسكو وبكين إلى هانوى فثوار الفيتكونج، وكان مغزى الانتصار الفيتنامى أقرب لتثبيت ملامح صورة ثنائية (رأسمالية اشتراكية) ظلت كذلك إلى أن سقطت موسكو، بعدها تمطت القوة الأمريكية فى فراغ عالم بدا كالثقب الأسود، وبدت أمريكا كأنها السماء الأخيرة لعالم تنطفئ أنواره، بدت أمريكا كأنها جمعت بركة المسيح إلى جبروت يهوه إله التوراة، بدت كأنها قوة فوق التاريخ وعابرة لكل التواريخ، قوة لها طابع الإطلاق الإلهى، كأنها النداهة تغرى وتجذب بمفعول السحر، وكانت تلك أعلى مراحل صعود الإمبراطورية الأمريكية، فأخطر ما يمكن أن يحدث للعالم هو أسر الخيال لا تقييد اليد، دهس العقل لا دهس البدن، ومع المغزى الرمزى لحوادث ١١ سبتمبر كانت أمريكا قد فقدت بالدواعى الأعمق والأسبق صفة الإطلاق التخيلى، تآكلت الرتوش وبهتت الأصباغ، وتحولت من ملكة الجمال وفتوة البلطجى معا إلى ديناصور لا غير، لم يعد لها غير

التفوق المادى المكتسب بالسلاح والاقتصاد، والأخير نسبى بالطبيعة، فقد كان لأمريكا وحدها نصف اقتصاد العالم عقب الحرب العالمية الثانية، ومع غروب شمس القرن العشرين راح نصيب الاقتصاد الأمريكى يتدحرج إلى حاجز الربع، وكانت أمريكا تحتكر رعب السلاح الذرى فى زمن هيروشيما ونجازاكى، ومع نهايات القرن كانت ثلاثون دولة قد تخطت أو تخطو إلى العتبة النووية، الأخطر: هذا الانتشار الجغرافى غير المسبوق لمراكز القوة المادية والتكنولوجية، فقد تغير العالم فى آخر ثلاثين سنة كما لم يحدث فى القرون الخمسة الأخيرة، جرى كسر احتكار الغرب مع صعود الظاهرة الآسيوية بالذات لمنابع الإلهام البشرى، وتراجع نصيب الغرب بشقيه الأوروبى والأمريكى من خرائط الدنيا الناهضة، وهو ما التقطته قرون استشعار القوة الأمريكية التى ذهبت عنها فوائض الإغراء التخيلى، فراحت تضرب بعنف كأنها تصارع الأقدار فى دراما إغريقية، راحت تضرب بعنف فى ما بدا لها أنه مواطن ومضارب أمه الربع الخالى، راحت تضرب بعنف فى منطقة عربية بامتداد إسلامى بدت كأنها المحل المختار لفراغ القوة، وهكذا انزلقت أقدام الديناصور إلى مستنقع العراق فى تلهف الجائعين إلى موائد العشاء الأخير، وتصورت أمريكا أنها تلقن العالم درسه الأخير، ولم تتصور أنها ذهبت لتتلقى درسها الأخير، تصورت أمريكا أنها تشترى زمنا يمد فى عمر قرن القوة الأمريكية، ولم تتصور أنها تذهب إلى حيث مقاصل الإطاحة بقرون الشطح والنطح، وهنا بالذات تكمن القيمة الجليلة لأسطورة المقاومة العراقية المذهلة، فأسطورة فيتنام انتهت إلى تثبيت صورة مسنودة لجدار الوقت، بينما اسطورة العراق فيما نظن أقرب لقلب وإبدال صورة تآكلت من خلفها الجدران بتقلبات الوقت، أسطورة فيتنام فيها معنى الصمود، وأسطورة العراق لها فوق إعجاز الصمود قوة الخلق، فقد ذهبت أمريكا للعراق بدعوى بناء نموذج ومد ظل، وتحول العراق فى مفارقة لها قوة البداهة إلى النموذج المعاكس بالضبط، وتذكروا من فضلكم أن الفالوجا الفلسطينية كانت مهبط الوحى البشرى المؤدى إلى عصر جمال عبدالناصر، بينما الفلوجة العراقية أخت بغداد تبشر بألف عصر وألف جمال عبدالناصر.

إشارات

* الثأر الحقيقى لشهداء العراق ألا تبقى رؤوس الحكام الجيفة فوق رقابنا.

* للمرة الألف: لا قيمة لإصلاح سياسى بدون تجديد مؤسسة الرئاسة، فالتغيير الحقيقى يبدأ من الرأس.

* مع كل هزيمة لأمريكا فى العراق تصفر وجوه المتثاقفين العرب من ماركة جماعات المارينز.

* أخشى أن إذاعة الــ بى بى سى البريطانية رغم سمعتها المهنية المعقولة تنزلق إلى لعب دور قفة تتبع جهالات قناة الحرة الأمريكية، والسبب مفهوم، فالطبع الاستعمارى غلاب.. بالطبع.

* محمد سعد يستحق لقب المواطن مصرى، فقد تحول المحاسب الذكى قبل وبعد فصله التعسفى من وظيفته إلى جهاز رقابى مرعب لحيتان الفساد التعاونى فى إمبراطورية الإسكان!.

١١ابريل ٢٠٠٤

رَجُلهم فى مصر

لا تسألوا من الذى أهان مصر؟، فقد كان الرئيس مبارك يبدو سعيدا فى لقاء المزرعة مع الرئيس بوش، وكان يعرف بالبداهة الخبرية أن مضيفه سيمثل بعدها بساعات فى حضرة شارون، وكان يعلم باليقين السياسى أن شارون يحمل معه خطابات الضمانات غير المسبوقة من أمريكا لإسرائيل، وأن شارون فقط سوف يتيح الفرصة لبوش أغبى رؤساء أمريكا لتجربة فك الخط وقراءة المكتوب إسرائيليا، ولكى تبدو القصة كلها كأنها "وعد بوش" لإسرائيل بالتهام ما تبقى محتملا رجوعه من فلسطين وضم القدس ودهس حق العودة واستبقاء الضفة الغربية إلى يوم القيامة، كان الرئيس مبارك يعلم ذلك كله، ومع ذلك واصل زيارته لأمريكا فى حماس دءوب، وراح يباهى بصداقة مصر لأمريكا التى وصفته أكبر صحفها (الواشنطن بوست) فى وقاحة بأنه "رجلنا فى مصر".

نقول ذلك حتى لا نخطئ التشخيص، فأصل العلة ليس فى علاقة إسرائيل بأمريكا، وبيت الداء الحقيقى فى علاقة مصر بأمريكا، فعلاقة أمريكا بإسرائيل مفهومة، تماثل فى النشأة إلى حد عبادة القوة، وتسابق فى احتقار العرب إلى حد الإيمان التوراتى، وتطور فى التحالف الاستراتيجى إلى حد التطابق والاندماج، فإسرائيل هى أمريكا بعناوين اللحظة، وبوش وشارون ليسا سوى رأسين أو رئيسين لأفعى واحدة هى "إسرائيكا"، وأى ادعاء بالدهشة أو التفاجؤ فى "وعد بوش" أو وعد بلفور الثانى لإسرائيل ليس سوى "هبل استراتيجي"، وقد أصيبت السياسة المصرية مع سبق الإصرار والترصد بداء الهبل العمدى، وارتضت لنفسها ثياب الدور المرسوم، فأمريكا بعد أن احتلت مصر سياسيا واقتصاديا تعاير الحكم بديكتاتوريته، تضغط فى مواضع الوجع، وتدهس الأعصاب فى ابتزاز مقصود، ابتزاز بـــ "الخض والرج" إلى آخر قطرة حياء سياسى، فهى

تعرف أن الحكم حريص أولا وربما آخرا على مد عمر البقاء بأى ثمن، وأنه قد يبدى استعدادا لصفقة مقايضة ما مع الأمريكيين، واستبدال الوعد بالديمقراطية بوعود أخرى على جبهات الاحتلال الأمريكى الإسرائيلى للعراق وفلسطين، وقد بدت تصريحات الرئيس مبارك للأسف موحية بالاستعداد الظاهر، فقد حصرت التصريحات دور مصر فى بناء "مناطق بشرية عازلة" لحماية الاحتلال وربما تأبيده، حصرت دور مصر فى تدريب شرطة عراقية تدفع عن الاحتلال الأمريكى "ضرائب الدم"، وفى تدريب شرطة فلسطينية لحماية أمن إسرائيل فى غزة بعد الجلاء الصورى، وهذه هى المهانة الحقيقية، وقد يقال إن الرئيس مبارك فى عبوره الألمانى عائدا من الزيارة الأمريكية أبدى معارضة واضحة لوعود بوش لإسرائيل، ونخشى أن هذه المعارضات اللفظية لا يقصد بها سوى امتصاص موقوت لغضب الرأى العام، فلو كانت السياسة المصرية مستقيمة حقا فى فهم ما جرى، وتوصلت لاستنتاج توحى به تصريحات منسوبة للرئيس بأن فرصة السلام انتهت، لو كان ذلك كذلك لاختلفت التصرفات بالجملة، فبقاء السفير الإسرائيلى فى مصر قد يعنى اعترافا بوعد بوش، وبقاء السفير الأمريكى فى مصر قد يعنى قبولا بالإهانة، والامتناع عن الدعم السياسى العلنى للمقاومة فى فلسطين والعراق قد يعنى تسليما بخضوع مصر.

ربما يرى البعض أن الكلمات تبدو قاسية، لكن الاعتراف بالحقيقة أفضل مهما نضحت المرارة فى الحلوق، والكرة الآن فى ملعب الشعب المصرى وقواه الحية، فقد أهينت مصر كما لم يحدث فى تاريخها المنظور، وما من بديل سوى التغيير الديمقراطى بإرادة الناس حفظا لكرامة بلد وصونا لمقادير أمة.

نبوءة النجار

خلافنا مشهور بالعقائد مع المفكر الليبرالى الوطنى الراحل سعيد النجار، وإن كنا نتفق معه بالضمائر، فقد كان الرجل يحلم بالحرية والعدالة والكرامة والتقدم، وهذه هى أشواقنا بالضبط.

وأتذكر أن الراحل الكبير حل ضيفا كريما على "مائدة مستديرة" شرفت بإدارتها، ونشرتها "العربي" اليومية أواسط عام ١٩٩٩، كانت ماكينة الدعاية قد دارت لتدشين الولاية الرابعة للرئيس مبارك، وكان عنوان ندوتنا عن

"الرئاسة: تجديد أم تأبيد"، وفى نوبة ضيق ذكى ذكر النجار ملاحظة ملفتة، فقد لاحظ أن كل خطط الدولة تنتهى إلى عام ٢٠١٧، وليس إلى رقم مقفول جرت عليه العادة التخطيطية، واستنتج الرجل أن المقصود بالرقم هو نهاية الولاية السادسة للرئيس مبارك، وقد مات الرجل، لكن نبوءته التحذيرية لم تمت بعد.

إشارات

* الاحتشاد الوطنى فى سرادق عزاء رفيقة عمره ودربه أعظم استفتاء شعبى على محبة "القديس" نبيل الهلالى.

* عادل البطران: وجدتنا أبطأنا فى طلب الحلم.. فتعجلت فى طلب الرحيل.

* عبدالغفار شكر.. سلامتك يا أستاذ القدوة السياسية

١٨ ابريل ٢٠٠٤

عدوان ثلاثى

من الخطأ تصوير الأنظمة العربية كأنها "صامتة" أو "عاجزة"، فقد يكون الصمت أحيانا نوعا من السياسة، وقد يكون العجز تقريرا لواقع حال ضاقت فيه مساحات الحركة وتلاشت البدائل، وقد تجاوزت هذه الأنظمة باليقين خانة الصمت والعجز إلى معنى التواطؤ، وصارت حربا على الأمة التى تواجه "عدوانا ثلاثيا" أطرافه هى أمريكا وإسرائيل والحكام معا. ومن الخطأ والصورة كذلك أن نطلب من الحكام شيئا، فلا حياة لمن تنادى، وما أنت بمسمع من فى القبور، وقد يقال إننا نطالب الحكام سعيا لإحراج، وهذا خلل فى التفكير يستلحق الخبل فى التدبير، وتواطؤ على الحقيقة لحد الامتهان، فقد سقط عن هؤلاء الحكام برقع الحياء، وصارت اللعبة على المكشوف، فهؤلاء ليس لهم سوى هدف واحد وحيد، وهو أن تمد لهم أمريكا فى زمن البقاء على الكراسى، وأن تجدد الولايات الرئاسية وتحفظ العروش الملكية، وهم فى ذلك يدافعون بشراسة واستماتة عن المصلحة الأكيدة التى تبقت لهم، وهم يعرفون كما نعرف حقيقة النظم التى يجلسون على كفها، فهى نظم أشبه بـ "كف العفريت"، نظم طافية على السطح بلا قواعد سياسية أو اجتماعية غاطسة فى تفاعلات العمق الداخلى، نظم مكونة غالبا من "جماعات مارينز" و"جماعات بيزنس" و"جماعات أمن" موحولة فى الفساد العام، نظم "كومبرادور سياسي"، نظم كأنصال الخناجر مغروسة فى رأس المجتمعات، نظم حكم بالوكالة عن الراعى الأجنبى الذى يملك وحده حق الأمر والنهى والرفع والنصب والصلب والشلح، نظم لا تستند فى صندوقها الانتخابى إن وجد إلى بقية من شرعية بأصوات الناس وتفاعلات المجتمع، والصوت الوحيد الباقى فى صندوقها الانتخابى الافتراضى هو "صوت أمريكا"، وواشنطن تعرف بالطبع هذه الحقيقة، وتتصرف على أساسها، وتضغط بوسائل السياسة وبظل السلاح واثقة أن لا راد لمشيئتها، وتضع

هذه الأنظمة بين خيارين، فإما أن تدفعها بصدمات الخض والرج إلى حافة الهاوية، أو أن تتركها تلتصق بدواعى السلامة عند حافة الذيل، والنظم بالطبع تفضل الخيار الأخير، فهو الأوثق صلة بمطامح البقاء ومطامعه، ولا مانع عندها من الالتحاق موضوعيا بحلف أمريكا إسرائيل الذى تطور إلى درجة التطابق، وإذا كانت إسرائيل قد حصلت بطبائع التطابق على "وعد بوش"، فهذه الأنظمة تريد أن تحصل برجاء القعود على وعد بوش الآخر، تريد أن تحصل على الوعد بمد أجل الخدمة، وألا تكون النهاية المستعجلة برصاصة الرحمة على خيل أمريكا العجوز، أو الإحالة إلى مخازن الاستيداع التاريخى، أو الاستبدال على طريقة "الشرق الأوسط الكبير" بأنظمة تصنع على عين الولايات المتحدة وفى معاملها الاستخبارية، وهى لذلك تتسابق الأنظمة طبعا فى إثبات حسن النوايا والطوايا، وتقديم فروض الولاء والطاعة، تتسابق على استضافة القواعد العسكرية، أو الالتحاق بصداقة حلف الأطنلطى، أو المشاركة النشيطة فى دعم خطة شارون، أو افتعال "شرعية مؤبدة" للاحتلال الأمريكى بتدريب الشرطة العراقية، أو خفض أسعار البترول تعزيزا لفرص "الرب" بوش فى رئاسة البيت الأبيض، وكلها تصرفات أقرب إلى معنى المقايضة على الأوطان والثروات، وكلها تصرفات أقرب لـــ "إعلان الحرب" على شعوب سقطت من الحساب مع سبق الإصرار والترصد الجنائى.

والمعنى من ذلك كله بسيط وواضح، فلا رد على "العدوان الثلاثي" سوى بجبهة مقاومة موحدة، مقاومة بالسلاح على جبهات "العدوان بالاحتلال" فى العراق وفلسطين، ومقاومة بالسياسة على جبهات "العدوان بالاستبداد" فى عواصم القلب العربى بالذات، مقاومة تشفع هدف التحرير بأشواق التغيير، ونقطة البدء: "طلاق بائن" لدعاوى اتصال الرجاء فى وقفة عزّ من حكام المذلة، نقطة البدء: "تحالف وطني" مقاوم يبدأ من القاهرة، ويقبل الاستنساخ بدفع الأوانى المستطرقة فى بقية عواصم أمة الربع الخالى، فلم يعد من خيار لنا هذه المرة سوى رد العصمة للشعوب، فلندع الشعوب وحدها تكتب التاريخ، ولندع الأمة تنتصر.

إشارات

* أيها الغاضبون من فضلكم أشعلوا النيران فى ملصق صور للحكام العرب مع حرق علم أمريكا وإسرائيل، فهذا هو "طقس الغضب" الذى تكتمل عناصر الوحى فيه.

* أفضل رد على اغتيال الرنتيسى هو حل السلطة العبثية وإعادة بناء منظمة تحرير فلسطينية تضم "حماس" و"الجهاد الإسلامي".

* إعادة بناء حزب البعث كمنظمة مقاومة هو أطيب خبر مقبل من العراق.

* "إنه الإرهاب فى الفلوجة" شعار فاضح لكاتب مصرى من شيعة جورج بوش يدعى الانتساب لشيعة الإمام على.

* يوسف والى كذب فى قضية المستشار المتهم بالرشوة المليونية، ولا عجب، فلا أحد فى الحكم المصرى يجرؤ على الصدق.

٢٥ ابريل ٢٠٠٤

كذب فى كذب

المخرج السينمائى العبقرى يوسف شاهين ذهب إلى الحقيقة رأسا، وقال بطريقة المشهد البصرى النافذ الجارح "سلطة مصر تحت سلطة أخرى هى سلطة أمريكا"، وكما وصف بوش بأنه "كذاب وأهبل وحمار"، فقد وصف شاهين "السلطة بتاعتنا" بأنها "كذب فى كذب من ٢٣ سنة وإلى الآن"، وهكذا، تشابه فى الأوصاف ربما يصل لحد التطابق. ومع هذه الأوصاف وبغيرها، لا تبدو صلات التطابق بالمصلحة فى احتياج إلى إثبات، ومن يعاند أو يتشكك فعليه قراءة حوار بوش فى "الأهرام" وهى الناطق الرسمى للحكم المصرى، ثلاث صفحات طويلة عريضة لا تجد فيها غير الثرثرات الغبية المعتادة للرئيس بوش، فجاجات غليظة متعجرفة من نوع قوله المتكرر لمحاوره إبراهيم نافع، "قل لقرائك أن يفهموا"، وكأن الرئيس "الغبى" يتصور القراء المصريين أغبياء مثله، أو كأن الذين سارعوا لنجدة بوش بالحوار المريب فى التوقيت والمضمون قد حشرونا فى زمرة الأغبياء، بينما المغزى الخفى الظاهر يصدم العين ويدهس الضمير، فكما يجرى تجنيد الصحف "القومية" لنفاق وتأليه الحكم المصرى، وإلى حد قول الأهرام فى عيد ميلاد الرئيس "إننا نؤمن بمبارك"، وتلك على أى حال صيغة مخففة من مبالغات مدرسة النفاق المصرى، وكما يحدث ذلك فى صحف تتوجه لرئيسها باعتباره القارئ الأولى بالرعاية، يبدو أن الخدمة المريحة سوف تمتد للرئيس الأمريكى كما الرئيس المصرى، وهكذا كتب علينا أن نقرأ لبوش فى صحيفة مصرية "أنه يؤمن برامسفيلد "وزير البنتاجون، وأنه يثق بجنوده "الرائعين" فى العراق(!)، وهذه أوصاف قد لا تجرؤ الصحف الأمريكية ذاتها على نشرها إلا من باب التهكم، لكن غير المتاح لبوش فى أمريكا يبدو قريب المنال فى مصر، لا لأن الشعب المصرى والعياذ بالله يحب أمريكا أو يثق بالرئيس بوش، فالمصريون كغيرهم من شعوب الأمة

العربية يكرهون السياسة الأمريكية، ويبادلون الرئيس بوش احتقارا باحتقار، لكن الحكم المصرى له اعتباراته ومصالحه المقطوعة الصلة بكرم الضيافة، فالتطوع بغسيل سمعة السفاح بوش ربما يفيد فى تخفيف ضغوط السياسة الآتية من واشنطن، وفرد الصفحات لأكاذيب الرئيس الأمريكى ربما يفيد فى التمديد السلس لولايات الرئيس المصرى، وفى القصة كلها "مقايضة" لا تخفى، والجائزة ظاهرة فى وصف بوش لدولة الرئيس مبارك بأنها "دولة رائعة" (!)، ولاحظ أنه نفس الوصف "الرائع" لجنوده "الرائعين"فى العراق(!)، وأن بوش يقولها ومن الآخر، فكلهم"جنوده"! وكلهم "رائعون"!، وتلك نتيجة تتطابق على نحو مدهش مع استنتاجات يوسف شاهين الذى يكره بوش من قلبه، وهو ما يثير السؤال التلقائى: من يدافع عن من؟، بديهى أن القمع المحلى هو عصا الحكم المصرى، لكن الجديد القديم نسبيا أن القمع المحلى يمتد بخدمة الحماية لأمريكا التى هى إسرائيل، وقد كان ملفتا أن يصدر عن الحكومة المصرية تحذير أمنى شديد اللهجة من"استغلال غضب الشارع المصرى "ضد أمريكا وإسرائيل، وهو التحذير الذى بدا بتوقيته كاشفا لوجه الحقيقة كلها، فهو ذات التوقيت الذى تزايد فيه منسوب الغضب المصرى مع الصور المنشورة الفاضحة لسفالة وانحطاط ووحشية جنود أمريكا "الرائعين" فى العراق، وهو ما يفتح بابا قد لا يغلق، ويثير تساؤلات قد لا تنتهى، فالصدمة من الصور المنشورة قد تثير التساؤل عن صور أخرى لا تنشر أبدا، فاستباحة اللحم وانتهاك الأعراض تقليد أصيل للحكم المصرى مع غيره من الأنظمة العربية، وانفجار الغضب ضد أمريكا قد ينتهى إلى غضب أشد ضد الحكم المصرى، والخدمة الأمنية والصحفية المطلوبة لأمريكا هى ذات الخدمة المطلوبة لخدم أمريكا.

إشارات

* صور تعذيب الأسرى العراقيين مشهد افتتاحى لدراما "هزيمة أمريكا"

* انتهى الكلام مع "سلطة الطغيان"، وحلت ساعة الحوار مع "سلطة الشارع".

* اسم الراحل لطفى سليمان عنوان لـ"سلطة الضمير" فى الفيوم.

٩ مايو ٢٠٠٤

سلطة الشارع

جفت الأقلام، وطويت الصحف، وقضى الأمر الذى فيه تختلفون، ومات "الحوار الوطنى" غير المأسوف على شبابه، ودون أن يترحم عليه أحد، أو يتذكر الواجب فيقرأ الفاتحة على روحه الموءودة.

ماتت دعوة "الحوار الهزلى"، تناساها الذين أطلقوها، وتداعت أسباب الذين تحمسوا لها، وتبين أن القصة كلها هزل فى موضع الجد، فالذين راهنوا على إصلاح النظام من داخله عرفوا الحقيقة المرة، وهى أن الوضع بات مستعصيا على أى إصلاح، وأن نظام الحكم انتهى إلى جثة متعفنة متحللة فى الطريق العام، وأن الاستقرار الذى يتحدثون عنه ليس إلا استقرار الفساد والنهب والتواطؤ وكتم أنفاس المصلحة الوطنية، فلسنا بصدد سلطة تمثل جانبا من الرأى العام، أو بعضا من مصالح قوى اجتماعية محلية، بل بصدد "سلطة طافية" مشدودة الخيوط لارتباطات الخارج، ولا تجد من طريقة لبقائها بغير إغراق "الشعب الغاطس" بسيول الأكاذيب والافتراءات وطفح المباذل السياسية.

باختصار ومن الآخر لا فرصة لإصلاح داخلى بحوار الأخذ والعطاء، فهذا هو الباطل وقبض الريح، والدواعى ظاهرة، فالسلطة بدلالة الدستور فى وضع اغتصاب، والبلد بدلالة السياسات فى وضع المستعمرة الأمريكية، وهو ما يعنى أن فكرة التقدم إلى الديمقراطية قد ارتبطت على نحو لا ينفصم بهُدف استعادة الاستقلال الوطنى، والمحصلة: أننا نحتاج إلى حوار بالفعل، ليس حوارا مع "سلطة الطغيان"، بل حواراً مع "سلطة الشارع"، فنحن ضعفاء بانعزالنا عن الناس، وهم أقوياء بعزلنا على السطح البارد، والنتيجة: ارتفاع منسوب "السياسة الجوفية"، وتراكم "آبار الغضب" فى عمق الجغرافيا المصرية، ونخشى أن الساعة حين تحل، فربما تقذفنا الحمم مع الحكم الذى نعارضه ونجادله بالحكمة والموعظة الحسنى، فلا تقولوا من فضلكم إننا

نبهنا وحذرنا، بل قولوا ولو مرة دعونا نفعل، فلا شيء يهلك السياسة الوطنية الآن أكثر من "فجوة الثقة"، الشارع المصرى ساخط غاضب، لكنه ربما بالقدر نفسه يائس من طلب البديل، ومربط الفرس: هوان النخبة التى عجزت عن النهوض بدور الطليعة، لا نخاطب هنا النخبة التى تكيفت هيكليا بعروة الفساد الوثقى مع سلطة القصر، ولا نخاطب النخبة التى تكيفت هيكليا بإغراءات التمويل الأجنبى مع صانع القبعات الأمريكى، بل نقصد النخبة الوطنية بتنوع حساسياتها الناصرية والإسلامية واليسارية والليبرالية، النخبة التى تصورت فى غالبها للأسف أنها تشترى راحة الضمائر بنبل مقاصد الكلمات، هؤلاء الذين نتوجه إليهم برجاء الفعل، فالفعل أصدق إنباء من الكتب، بل إن الفعل فى هذه اللحظة بالذات هو "أم الكتاب"، ونقطة البدء: تحالف وطنى للتحرير الديمقراطى، تحرير مصر كوطن، وتحرير المصريين كشعب، واللحظة ملائمة تماما، فقد اجتمع الذل القومى إلى الذل الاجتماعى، وسقطت مراهنات البين بين، وفاضت النفوس بالسخط، وهكذا، ظرف موضوعى غاية فى النضج، وظرف ذاتى للنخبة الوطنية فى غاية التخلف، والمطلوب: تجسير الفجوة مع الناس، جمع رأس النخبة المتيقظة إلى جسد الشعب الغاضب، والطريق فى كلمتين: تظاهروا تصحّوا، فالتظاهر العام هو أعظم عملية جراحية لاستيلاد مصر جديدة، والهدف: كنس الركام الذى يسمونه بالنظام.

إشارات

* قتل ٣١ عسكريا إسرائيليا فى أسبوع غزة ميلاد عفى لانتفاضة السلاح الفلسطينى.

* وشكر شارون لمبارك بمناسبة دبلوماسية الأشلاء عار حقيقى للسياسة المصرية.

* انتظروا نهاية إسرائيل فى عامها الثمانين "نبوءة لكاتب إسرائيلى".

* فضائح الأمريكيين تعذيبا واغتصابا لطهارة العراقيين هزيمة أخلاقية هى التمهيد الطبيعى للهزيمة العسكرية.

* بأمثال الراحل المهندس طاهر عبداللطيف تستحق المنصورة مدينة الصبا وصف "مملكة النبل".

١٦ مايو ٢٠٠٤

صفر للرئيس

العنوان الأصح الذى يستحق أن يهدى إليه صفر المونديال هو دولة الرئيس مبارك وليس لـ عاطف عبيد ولا الوزير هلال ولا جنيدى ولا السياجى ولا هشام عزمى إلى آخر قائمة الموظفين الكبار الصغار. السبب ببساطة أن صفر الفيفا ليس النتيجة الشارحة لأحوال الرياضة المصرية وحدها، بل هو التصويت الدولى القرين لتداعى الحضور المصرى على مسرح العالم، اقتصاد صفرى، وسياسة صفرية، ودور هو الأقرب لقاع القاع، فصفر الفيفا بالمغزى الجامع هو مقصلة عقاب لخطايا الثلاثين سنة الأخيرة، كانت مصر مع حرب ١٩٧٣ رأسا برأس مع كوريا الجنوبية فى الاقتصاد، وكانت مصر قبل الثلاثين سنة هى القوة السادسة فى السياسة بعد الخمسة الكبار دائمى التمثيل فى مجلس الأمن، قس إلى ذلك ما نحن فيه من هوان، فكوريا الجنوبية الآن هى عاشر أقوى اقتصاد فى العالم، ومصر الآن هى رقم ١٢٢ فى تقارير التنمية البشرية الدولية، وفى الدنيا الإفريقية تقدمت جنوب إفريقيا لترث دور مصر، بينما يعتز مانديلا أسطورة الجنوب الإفريقى بكونه تلميذا فى مدرسة مصر عبدالناصر، وفى الدنيا العربية تدوس دويلات من نوع قطر والأردن وتونس على جثة الدور المصرى، باختصار: خسرت مصر دورها بأثر مطرد لخسارة نفسها، تحولت من مصر العربية إلى مصر الصفرية، وكان انحسار الدور فى العالم امتدادا بطبائع الأمور لانحطاط اختيارات الداخل، فلا يمكن تعيين صفة يمينية ولا يسارية من باب أولى للحكم المصرى الآن، وصورة مصر العامة تبدو أقرب لـ لبواقى فساتين فى سلة مهملات ترزى نسائى، سلطة طافية وشعب غاطس، وبلد تتخلع أساساته فى الجغرافيا والتاريخ وفرص المستقبل، ونهب بالجملة على نحو لم تشهده مصر فى تاريخها الألفى، فلم يتح لمصر فى تاريخها المنظور موارد مالية كالتى تدفقت إليها فى الثلاثين سنة الأخيرة،

معونات عربية بلا حصر فى سنوات تلت حرب ١٩٧٣، و٨٠ مليار دولار على الأقل من عوائد عمل المصريين فى الخارج، و٥٠ مليار دولار من المعونة الأمريكية، أضف: موارد الريع الجارى من السياحة ورسوم المرور فى قناة السويس، وقد انتهت هذه الموارد فى أغلبها إلى بالوعات الفساد العام، أثرت القلة الطافية بالمليارات الحرام فى ترف جنونى متوحش، وغطست أغلبية المصريين إلى قيعان الفقر، وانتهى ربع قوة العمل - ٧ ملايين عائل - إلى زحام بالمناكب على رصيف البطالة الممدود بطول وعرض العمق المصرى، وطلاق بائن لإنتاجية الاقتصاد، تراجع مخيف لأدوار وأنصبة الصناعة والزراعة، وانتشار مرعب لـ "اقتصاد الفهلوة"، وبيع الأوهام، ومعدلات نمو نزلت تحت الصفر فى أوائل التسعينيات، وتنمية تتراقص على حواف الصفر المونديالى ذاته بعدها بعشر سنوات، شيء واحد للإنصاف راح ينمو ويتضخم بمعدلات فلكية مذهلة، إنه النهب العام الذى تحول إلى سلطة متحالفة مع عصا الكبت العام، ٤٥ مليار جنيه فى أقل تقدير. جرى تبديدها فى قروض للمحظوظين، و٤٧٢ مليار جنيه هى كل الفرق بين القيمة السوقية للقطاع العام وحصيلة البيع بأرقام الحكومة، و٩٠ مليار دولار ٦٣٠ مليار جنيه هربت لخارج مصر بتقديرات اللجنة الاقتصادية الحكومية فى مجلس الشعب، ويرتفع الرقم ذاته إلى ٢٠٠ مليار دولار - ١٤٠٠ مليار جنيه - فى تقديرات عزيز صدقى أبوالتصنيع المصرى، وكل هذا الخراب يكفى ويزيد للهبوط بمصر من الدورى الدولى الممتاز إلى دورى قروى مع فرق منافسة من عينة جيبوتى وبوركينا فاسو وجزر القمر، خراب يكفى بالقطع لضمان الحصول بامتياز على ألف صفر فى مونديال الكرة والاقتصاد والسياسة، لكنه بالمقابل يبدو كافيا جدا لضمان الحصول على درجات النهاية العظمى والتصويت بالأغلبية الكاسحة لو تقدمت دولة الصفر المصرى لتنظيم مونديال للنهب العام.

إنه الصفر الكاشف لعورات دولة الكذب.

إشارات

* صدمة الأسبوع: الرئيس مبارك قال: انسحاب القوات الأمريكية من العراق خطأ كبير جدا (!).

* للمرة المئة: الاختلاف السياسى لا يبرر الصمت المريب على حملات اعتقال متكرر لقيادات الإخوان.

* لنقيب الصحفيين: مطلوب إحالة كل صحفى أو صحفية تورط فى زيارة أو نشاط ممول أجنبيا إلى مجلس تأديب.

* لم يعد ضروريا إطلاقا أن يدفع أحد عشرات الألوف من الجنيهات لكى يتملك شقة!. (ملحوظة: حقوق الاختراع محفوظة لعبدالمنعم سعيد وليس لملك الكوميديا عادل إمام).

* ولا عزاء لهؤلاء الواقعين المتخفين وراء عبارات من ماركة بناء سياسات على أسس واقعية(!).

٢٣ مايو ٢٠٠٤

لا لترشيحه

يبدو أن لا أحد فى مصر الحقيقية طبعا صار يحتمل التلكؤ أو المراوغة أو التأجيل فى تغيير سياسى شامل يبدأ من الرأس، ففى يوم واحد تلقيت ثلاث رسائل ساخنة من طبيبة بالقاهرة وروائى بالإسكندرية ومهندس من قنا، نصّ الرسائل واحد تقريبا، رغبة فى توجيه الشكر ربما بأدب الاستهلال للرئيس مبارك على سنوات حكمه المديدة، وقفز مباشر إلى رجاء ملح لمبارك بالامتناع عن ترشيح نفسه لولاية رئاسية خامسة، والصيغة المقترحة: بيان تجمع عليه توقيعات الملايين ويرفع لمقام الرئيس، بدت الرسائل تعبيرا عفويا بلغة التخاطر عن شوق جارف للتغيير، فأقل ما تستحقه مصر اليائسة المهانة جرعة ثقة وزاد للأمل، والعنوان: مؤسسة الرئاسة بالذات، فلا قيمة لأى إصلاح سياسى لا يبدأ من هناك، فلا إقالة المحافظين تكفى، ولا تغيير رئيس الوزراء يفيد، ولا استبدال كل الوزراء، فالمطلوب أكبر من تغيير بالقطعة أو إصلاح بالقطارة، المطلوب: تغيير شامل للوجوه والاختيارات معا، المطلوب: عهد جديد لا وزارة جديدة، المطلوب: كنس ركام لا تجميل نظام، المطلوب: وضع مسطرة قياس لجدية أى تغيير متوقع، ونتصور أن التغيير المرغوب يتلخص فى هدف مثلث الأضلاع، قمة المثلث وقاعدته معا هى التغيير فى الرأس بانتخاب رئيس جديد، وضلعه الأيمن: إطلاق حريات تكوين الأحزاب وإصدار الصحف والاعتصام والإضراب والتظاهر السلمى وإلغاء الطوارئ والإفراج الفورى عن المعتقلين السياسيين، وضلعه الأيسر: إنشاء هيئة قضائية تامة الاستقلال تشرف على الانتخابات الرئاسية والبرلمانية والنقابية فى كل مراحلها من إعداد الجداول حتى إعلان النتائج، دون هذا الهدف الثلاثى الأضلاع فلا قيمة لتلاعب بمشاعر الناس، فلم يعد أحد قابلا لخداع بأوهام إصلاح متدرج انتهى إلى فساد مُعجل، ولم تعد من ثقة بمؤسسة مدنية واحدة فى مصر، فلا

حق لأحد فى وصاية، والعصمة يجب أن ترد للشعب، والبديل: أن تترك الأمور على حالها، وتتزلق البلد بمضاعفات الاحتقان الاجتماعى إلى انفجار لا يعلم مداه إلا الله، ونظل شهودا خرسا على صمت مرعب قد تعقبه العاصفة، وأبسط معانى الرشد أن نشق طريقا قبل أن نختنق بالغبار، وبالطبع فنحن لا ننتظر رشدا من سلطة تعدّت سن الرشد، ولا نتوجه بالرجاء للسلطان ولا للمماليك، وإن كنا ننتظر أن يؤدى القلق العام لاستثارة نوع من الانتباه العام، وأن نتجاوز موت السياسة الظاهر على السطح، وأن تنفتح قنوات اتصال مع آبار السياسة الجوفية، فقد زاد منسوب الغضب المصرى إلى مستويات خطرة، بقى أن يتحول الغضب إلى قوة حسم رشيدة، وقد يكون مناسبا على وجه الاستعجال أن تتقدم مئات الشخصيات الوطنية العامة ببيان إنقاذ إلى الشعب، وأن تشفع القول بالفعل بطريق التظاهر السلمى فى ميدان التحرير.

نعم، افعلوا شيئا من فضلكم، ولا تنتظروا تغييرا مرضيا من الرئيس، فالتغيير الحقيقى فيما نظن يبدأ بمنصب الرئاسة نفسه.

إشارات

* باعتراف إبراهيم نافع: مصر لا تستحق ما يجرى بها ولها حاليا داخليا وخارجيا (المصدر: أهرام الأربعاء ٢٦ مايو ٢٠٠٤).

* على الدين هلال أكاديمى مرموق خانه الطموح فتورط فى سياسة الرصيد الصفرى.

* فوز إياد علاوى مستحق برئاسة حكومة الخيانة المؤقتة فى العراق.

٣٠ مايو ٢٠٠٤

قدم فى أفواهنا

لا يصح أن نخفى الرؤوس فى الرمال، أو أن يتصل حوار الطرشان فى هذا البلد إلى ما لا نهاية. فلا أحد عاقل فى هذا البلد يقول إن الأمور على ما يرام، ولا أن التغيير حتى لو فضّل البعض تعبير الإصلاح نوع من الترف أو الكماليات قد يجوز الاستغناء عنها، ولا أن مصر الصفرية بأحوالها الراهنة قابلة لاستمرار أو استقرار، المشكلة: أن الحكم يتصور أنه لا تزال هناك فرصة للمناورة، أو أن الحبل ممدود للعب أو تلاعب فى الوقت الضائع، وما من شك فى أن هذا كله سوف يؤدى إلى تفاقم الأزمة لا تفريجها، ووضع صعوبات وسدود تصادر على فرص الحل السلمى الرشيد لصراع عنيف محتدم، فنحن بصدد مصالح بلد هو عنوان أمة، لا بصدد مصالح بضعة أشخاص فى سلطة طافية مصممة على القعود إلى أن يطلع السر الإلهى.

وقد يقال لك إن التدرج فى التغيير لازم، وكان يصح أن تسمع ذلك قبل عشرين سنة على الأقل، كان يمكن لك أن تتفهمه، وكان يمكن أن نأمل فى تراكم ينتهى إلى كيف مختلف، لكن التجربة المُرة باسم التدرج انتهت بنا إلى ما نحن فيه، فقد تدرجنا بالفعل، لا إلى إصلاح اقتصادى بل إلى خراب مستعجل، ولا إلى إصلاح سياسى بل إلى ديكتاتورية كاملة الأوصاف، تدرجنا بالفعل نزولا إلى الهاوية، تدرجنا ولكن إلى مزيد من القهر والاستبداد وتفكيك الحصانة الوطنية، وهذا ما يجعل كل حديث عن التدرج محاطا بالريب، فالتدرج فى الوضع الراهن لا يعنى سوى التلكؤ، التدرج لا يعنى سوى وضع قدم إلى الخلف، والقدم الأخرى فى أفواهنا، ولعبة تبديل وجوه بالقطعة لا محل لها من إعراب فى أزمة بالجملة، والمطلوب - ببساطة - تقدم إلى تغيير كلى عاجل فى الوجوه والاختيارات معا، ولا نريد أن يتطوع أحد - أو يتنطع - بدعاوى نصح أو إرشاد، فقد فقد هذا البلد كل

ثقة فى فرق الإنشاد والإرشاد، ولا مفر من تسليم البلد لأهله، وما من سبيل سوى حل مؤسسات حكم غاصت كلها فى وحل الحرام الدستورى، وتنظيم انتخابات حرة لاعادة بناء النظام من القمة للقاعدة، والبديل: أننا نتقدم إلى انفجار عفوى ربما دموى قد لا يبقى ولا يذر، البديل: أننا نتقدم إلى حرائق تذكيها النار تحت الرماد - قد تتضاءل معها حوادث انتفاضة ١٩٧٧ وحريق القاهرة معا.

لا نقول ذلك بدوافع خصومة مع شخص بذاته، فليست لنا خصومات شخصية، بل هم الذين أمعنوا فى لدد الخصومة مع هذا البلد، انكروا بديهيات التاريخ وتنكروا لحقائق الجغرافيا، وجعلوا مصلحة السلطان فرض عين يهلك الأبدان، وتخلفوا بمصر عن سباق العصر، بددوا الرصيد المصرى فى بنك الأمم، جعلونا صفرا على الشمال، وحولونا إلى رعايا وسبايا من ملك اليمين.

كابتن معاطى

أبوالمعاطى زكى يستحق جائزة نقابة الصحفيين بامتياز، حيوية متدفقة، ونشاط مثير، وجموح مشاغب، وابتسامة رضا تنتهى إليها فى العادة فورة غضب مسلحة ببنيان كابتن رياضى. أبو المعاطى يتقدم فى المهنة والعمر، لكنك لا تلحظ أبدا أنه يكبر أو يتكبر، فهو يفرح كطفل، ويندهش كالبريء، ويقطّب جبينه كهداف محترف، ويفاجئنا غالبا بأجمل شوطة فى دورى الصحافة الرياضية.

إشارات

* سيلفان شالوم - وزير خارجية إسرائيل فى القاهرة - ربما لأن الشعب المصرى ليس هنا.

* أحدهم كتب عندنا للأسف عن عصر ذهبى فى التليفزيون!، ربما يقصد الأخ لو استقامت الطباع إنه العصر الصفرى.

* الذين راهنوا على أمريكا فى كسب ديمقراطية عربية انتهوا إلى قبض الريح (راجع قرارات الثمانى بقرات السمان فى قمة جورجيا).

٦يونيو ٢٠٠٤

حزب للإخوان

موت القيادى الإخوانى أكرم الزهيرى داخل محبسه فى ظروف مثيرة للريب يفتح ربما للمرة الألف ملف الإسلام السياسى فى مصر.

فقد درج الحكم على التعامل مع جماعة الإخوان بطريقة عقيمة، محاولات متقطعة للاحتواء السياسى بتنظيم أنشطة مشتركة أقرب للتواطؤ من وراء الأقنعة، وحملات اعتقال فى غالب الأحوال تداعت من أواسط التسعينيات- بظن أنها قد تخلخل أو تنهك التنظيم السياسى للإخوان، وهكذا، محاولات خض ورج على نحو بدائى غاية فى الارتباك وسوء الصنعة، ولا تكون لها من نتيجة منظورة غير زيادة النفوذ السياسى والاجتماعى لجماعة الإخوان التى تبدو كضحية مفضلة للطغيان، وهو ما يستدعى المزيد من العطف والتعاطف المضاف لخزانات السياسة الجوفية عند قواعد الشعب المقموع.

ونحسب أن هذا مما آن له أن يتوقف، بالطبع لا ننصح الحكم، فهو غير مؤهل - ربما غير راغب - فى استماع إلى نصيحة، وغريزة البقاء بأى ثمن هى الدافع الأوضح للتصرفات المذعورة، لا نرجم هنا بالغيب، بل هى العقيدة المعلنة للحكم، والرئيس مبارك نفسه فى الجدال مع أصدقائه الأمريكيين بالذات دائما ما يخوف ببعبع الإخوان كتعلة للتباطؤ فى التقدم إلى الديمقراطية، والمعني: أن مخاوف الحكم من نفوذ الإخوان المحتمل تؤدى إلى تجميد الحياة السياسية كلها، ويصبح المعروض للاختيار عجبا، فإما أن نقبل بديكتاتورية الحكم، أو أن نطالب بديمقراطية تؤدى كما يقال إلى ديكتاتورية الإخوان، وهو منطق سقيم يعادى الحقائق الناطقة، فليس صحيحا بالمرة أنه بوسع جماعة الإخوان تحقيق نصر ديمقراطى يكفل لها الحكم منفردة، صحيح أن جماعة الإخوان هى أكبر حزب سياسى خارج الحكم الآن، لكن الانتخابات النزيهة بطريقة المقاعد الفردية ربما لا تكفل للإخوان

غير عشرين بالمئة من تكوين البرلمان الديمقراطى، ولو جرت انتخابات نزيهة – بالقوائم النسبية – فربما تتيح للإخوان زيادة فى النصيب قد تصل إلى ثلاثين بالمئة، الفارق فى التقديرين مفهوم، فالانتخابات الفردية – وهنا اختلافها عن الانتخابات النسبية – تتنوع فيها مصادر التأثير المضافة لاعتبارات التنظيم وشعارات السياسة. ثم افترض جدلا أن بوسع الإخوان تحقيق أغلبية مطلقة، فمن ذا الذى من حقه أن يصادر على إرادة الناس؟!، ربما تكون من وجاهة فى التحذير المعقول من استيلاء الإخوان على الحكم استنادا لتصويت شعبى لمرة واحدة وللأبد، وهنا تنتقل الكرة إلى ملعب الإخوان، ولسان حالهم يقول إنهم ملتزمون بقواعد اللعبة الديمقراطية باحتمالات الفوز والهزيمة، وليس مطلوبا بالقطع أن نعطى أحدا شيكا على بياض، أو أن نأخذه من لسانه فقط، فالمطلوب تصميم قواعد وإطارات دستورية ومادية تمنع تغول الإخوان أو غيرهم، وقد يكون ملائما أن نستفيد هنا من التجربة التركية، مع الوعى بالطبع أن الجيش المصرى بتراثه الوطنى المتألق ليس كجيش أتاتورك، ومع الوعى بضرورة تقنين دور الجيش فى السياسة لأسباب تتصل بالوجود المصرى ودواعى النهضة، ومع وجود هذه الضمانات تنزاح المخاوف التى نظنها مفتعلة، فالمراقب المنصف لحركة الإخوان يلمس تغيرا له مغزى عميق، فالوزن القيادى يميل باطراد لصالح جيل السبعينيات، وهؤلاء طراز من القياديين المهنيين – ذوى التقدير النسبى لا مشايخ الرؤى الإطلاقية، أى أننا بصدد تحول ملموس فى حركة الإخوان من حس الجماعة الدينية إلى حس الحزب السياسى، وقد يكون مطلوبا هنا أن تحسم جماعة الإخوان أمرها، وأن تتوقف عن طلب الاعتراف لها بالحزب مع بقاء الجماعة، فهذه ازدواجية تغذى المخاوف، وصياغة المطلب فى حزب سياسى يقبل بالتزاماته مع إنهاء وجود الجماعة مما يزيد مساحة التقبل الوطنى العام للتفاعل مع الإخوان.

ونحن لا نطلب الاعتراف بحزب للإخوان من باب الانصاف لفصيل سياسى محروم، فقضية الحرية لا تتجزأ، واعتراف الكل بالكل أبسط بديهيات الديمقراطية، واقتحام المعضلة الإخوانية أفضل من الكلام الساكت وترك مصير البلد لقلوب عليها أقفالها.

إشارات :

* توريط مصر فى غزة صفقة شراء وقت إضافى لديكتاتورية الغصب فى القاهرة.

* الحكم المصرى يستحق الصفر إياه فى الاقتصاد والسياسة والثقافة، ويستحق الدرجة النهائية فى مادتي: النهب والتعذيب.

* صدق من فضلك "أن أى عملية نهوض حقيقية تقتضى التعامل مع الواقع القائم بغير تزييف للحقائق أو تجميل للواقع، بل إننى أحسب أن أى تضليل من هذا النوع يعد خيانة للأمة" (الكلام ليس لى بل لإبراهيم نافع فى أهرام الجمعة ١١ يونيو)!

١٣ يونيو ٢٠٠٤

رئيس من المتحف

الرئيس مبارك بشر كالبشر، ومع غموض الحالة الصحية للرئيس يزدحم الشارع السياسى بالشائعات والريب وعلامات الاستفهام، ويثور السؤال الحائر: مصر إلى أين؟ فى الدول التى تحترم شعوبها، يصدر تقرير صحى مفصل بحالة الرئيس حين يمرض كما يمرض الناس، ولا يكتفى المسئولون بإيماءات وإيحاءات مكتومة، فالمسئول يجىء ويذهب بسنن الحياة وقوانين السياسة، وتبقى الأوطان والشعوب، وتتوالى العهود فى سلاسة دستورية، ولا يحتاج أحد إلى فتح المندل أو قراءة كف الغيب، ويجرى الاحتكام للشعب أولا، وفى مصر يبدو الشعب غائبا مغيبا، ولا أحد يستدعيه حتى فى أوقات الحرج ولو بأوامر ضبط وإحضار، يبدو الشعب حملا زائدا، ويبدو الناس كأنهم رهائن فى وطن مخطوف، لا شأن لهم بتصرفات الجالس فى كابينة القيادة، ولا باختيار شخوص المضيفين والمضيفات، ولا بانتقاء وجبة طعام أو تفضيل الصيام، ولا يتملكهم سوى الخوف والجزع من مصير الضحية، وإن تظاهروا بإبداء الرضا بالنصيب والمكتوب، ربما لذلك استقبل الناس بالبرود والشرود نبأ إقالة حكومة عاطف عبيد، فلم يستشرهم أحد فى قدومه، ولا هم استقبلوه بالورد ولا بالدموع، ولا هم مستبشرون بشيء حتى يكسروا "القلل" وراء سيادته، فقراءة النص الرسمى جدا المنشور بالأهرام لا توحى بتفاؤل، صحيح أن ثمة إشارة لرحيل محتمل لوزراء المدد المتقادمة، وبعضهم من غير قرّ جلس على عرش الوزارة لأكثر من ربع قرن، ورحيلهم جميعا لا يستدعى البكاء من أحد، لكنه فيما نظن لا يخفف من التشاؤم، فأعراض الشيخوخة ضاربة بالعمق وبالطول والعرض بما يتجاوز حدود التشكيل الوزارى، ثم افرض جدلا أنه جرى استبدال وزراء فى الربيع الخمسينى بوزراء سن السبعين، هل يعنى ذلك جديدا مع بقاء سياسات واختيارات فى أرذل العمر؟!، التساؤل أقرب للإنكار، ونص

الأهرام الرسمى يؤكد هذه النتيجة للأسف، اقرأ من فضلك مضامين التكليفات المنوطة بالوزارة الجديدة جدا، إنها ذات الكلمات المحفوظة المرصوصة عن معدل النمو وجذب الاستثمارات وزيادة الصادرات والانضباط المالى والتحكم فى انفلات الأسعار، ذات العناوين المعتادة لبيانات الحكومات المتعاقبة نزولا بمصر على منحدر ربع القرن الأخير، ذات التكليفات التى تلقاها عاطف عبيد حين شكلوا له وزارته، المعنى: إننا إزاء حكومة عاطف عبيد أخرى حتى لو ترأسها غيره، المعنى: أننا نعالج الأزمة بالأزمة، ونداوى الداء بالداء، ونتبع الإخفاق بالإخفاق، المعنى: أنه لا أحد مسئول يريد أن يعترف بحرج المدى الذى وصلت إليه تعقيدات الأزمة المصرية، فلا كلمة واحدة عن الفساد الذى تحول إلى مؤسسة حكم تنهب وتعظ، ولا كلمة واحدة عن السياسة التى شاعت موتا فى هذا البلد، ولا كلمة واحدة عن وقف بيع مصر بالجملة والقطاعى، ولا كلمة واحدة عن رد الاعتبار للدستور الغائب فى إجازة طويلة، وكأن المطلوب فقط مواصلة لعبة الفشل الملون، كأن المطلوب فقط امتصاص سخط الناس بلعبة قص ولزق فى وجوه العرض الزجاجى، كأن المطلوب فقط شراء وقت إضافى لديكتاتورية الصفر. بوضوح: التغيير الوزارى المنتظر قد لا يعنى شيئا بالمرة، والمطلوب: استعادة حق المصريين فى إطلاق التغيير لا إطلاق النكات، المطلوب: وزارة من تأليف الشعب لا تأليف وزارة من متحف الشمع.

إشارات

* ربما تكون قدرة احتمال عاطف عبيد للإهانة أهم إنجازاته بإطلاق، آخر دليل: طريقة الجلاجل التى استقالوه بها دون أن ينطق بحرف.

* وربما تكون إطلالة الأستاذ هيكل المنتظرة فى قناة الجزيرة أخطر قذيفة بصرية فى حرب الثلاثين سنة الأخيرة على عقل وقلب الشارع العربى.

* فضيحة: خبر المانشيت الرئيسى لصحيفة سبتية كبرى نشر فى ذات اليوم كإعلان زراعى مدفوع الأجر فى الصحيفة اليومية الأولى، الإنجاز المهنى الأقرب للإعجاز تحقق ببركة الست فاطمة وشركاها فى الذى منه.

* وفضيحة أخرى: صحف حكومية نشرت لأول مرة إعلانا لقناة الحرة الأمريكية فى نفس يوم إعلان الرغبة فى التغيير الوزارى(!).

* وبالمناسبة: هل عوقب الزميل أحمد عز الدين بالحبس سنتين فى مصر أخرى غير مصر التى قرر رئيسها قبل شهور وقف حبس الصحفيين؟

٢٠ يونيو ٢٠٠٤

توريث الجثّة

الأعمى وحده هو الذى ينكر أن روحا من الفزع سرت فى أوصال السياسة المصرية مع إيحاءات بالعودة لسيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك. لا يتعلق الفزع بالطبع بحدث إقالة صفوت الشريف، فلا أحد عاقل بوسعه أن يحزن على وزير إعلام العهد الصفرى، ثم إن صفوت الشريف نقل إلى رئاسة مجلس الشورى، وهو دءوب بما يكفى لإعادة تأسيس دوره المملوكى فى خرائط القسمة والنصيب، المهم بقواعد اللعبة أنه أزيح عن منصة أمامية ظل جاثيا عليها لما يقرب من ربع قرن، والخطوة المقبلة ربما فى مؤتمر سبتمبر إخلاء موقعه كأمين عام للحزب الحاكم، ولا يتصور أن يخلفه كمال الشاذلى ثالث ثلاثة مع صفوت ويوسف والى حل عليهم دور الخروج من الدورى الممتاز، الأقرب للظن وهنا إشارة الخطر أن ينتقل الدور القيادى مباشرة لجمال مبارك، أو أن يجيئوا لموقع الأمين العام بـــ "دوبلير" آخر أو يبقى صفوت ليكمل الدور الانتقالى، ولا بأس عندها بتحريك آلة الدولة الإدارية لدعم ترشيح جمال مبارك لمنصب نائب الرئيس، وأن تتوالى الخطوات سراعا قفزا إلى الموعد المضروب بنهاية الولاية الرابعة للرئيس مبارك، وقد تكون هذه كلها مخاوف لا محل لها، فمصر كالعين عليها حارس، ولكن: ماذا لو أغمض الحارس عينيه؟، أو أنه مضى بنصف عين ماشيا إلى قبر الدور، وقتها تكون الكارثة التى لم ترد فى قواميس الكوابيس، ويكون الانزلاق القسرى لبلد ركوعا إلى حافة التوريث الرئاسى، وتعود مصر التى أضعفوا فيها المعنى الجمهورى إلى مملكة بلا أقنعة، ولا نظن أن أحدا يقبل الخداع، فتقدم جمال مبارك إلى منصة دور ليس مشفوعا بمؤهلاته العبقرية، وميزة جمال مبارك الوحيدة ربما أنه ابن الرئيس، وابن الرئيس ليس مواطنا عاديا فى مصر، فالرئيس بنص الدستور له صلاحيات الحكم المطلق، والرئيس بدلالة الواقع له

صلاحيات شبه إلهية، ولا يظن أحد أنه يضحك على ذقوننا بدعوى الحق القانونى لجمال مبارك كمواطن فى الترشيح لمناصب المقام العالى، فلو كان جمال مبارك مواطنا عاديا ربما لم يكن ليفكر فى ترشيح نفسه لرئاسة مجلس قروى لا لرئاسة بلد فى حجم مصر. ولا نريد أن نسترسل فى دعم المخاوف من توريث رئاسى محتمل، فثمة صحف بيزنس تصدر فى مصر بتمويل خفى، وتروج لدعوى تقدم جمال مبارك وكمال أوصافه، الإصلاحية (!)، إحدى هذه الصحف نشرت هذا الأسبوع صورة ملونة بالحجم الكبير مقابلة ومساوية بالضبط لصورة الرئيس مبارك، وظهر جمال مبارك فى الصورة بنظارة شمسية مفروشة مع انعكاس الضوء بالسجاجيد الحمراء، والدلالة ظاهرة، إنها تذكرك بصورة ملصق إعلانى خشبى ضخم نشرتها العربى فى ذروة حملتها ضد سيناريو التوريث الرئاسى، كان الملصق اليتيم القادم وقتها من العريش عند حدود مصر الشرقية يحمل رسمين متساويين متقابلين لمبارك الأب ومبارك الابن، وقد كتبت عبارة "حاضر مشرق" تحت صورة الرئيس مبارك، ووضعت عبارة "مستقبل مشرق" تحت صورة النجل جمال مبارك، وقبل أسبوعين كانت مجلة النيوزويك الأمريكية القريبة من البيت الأبيض تضع على غلافها صورة جمال مبارك مشفوعة بعنوان التغيير يبدأ من مصر، وكلها دواعى خطر يمد ظله الكآبى، وربما يدفعنا لاستذكار تعهد الرئيس أوائل العام بأنه لا توريث فى مصر، وقلنا وقتها إن تعهد الرئيس جاد ونهائى ويدعو للثقة، ونفضل أن نعتقد أن الرئيس شفاه الله عند وعده للمصريين، فلا يصح أن تختنق مصر بالركود سنين عددا ثم تكون النهاية فى توريث الجثة.

إشارات

* منذ متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتم أحرارا (عمر بن الخطاب).

* لسنا متاعا ولا عقارا، ولن نورث بعد اليوم (أحمد عرابي).

* السلطة مفسدة والسلطة المطلقة فساد مطلق (كارل ماركس).

٢٧ يونيو ٢٠٠٤

زواج عرفى

إنه عبث حقيقى لا يليق بالديمقراطية ولا بقضية الوطن المصرى، فأن يصبح شخص من عينة سعد الدين إبراهيم رمزا للتغيير فى مصر، فليس من معنى لذلك سوى دعوة المصريين الوطنيين لانتحار جماعى من فوق كوبرى قصر النيل، فلا يوجد مصرى وطنى حقيقى واحد يقبل وأد مصر بديكتاتورية نظام مبارك، ولا يوجد مصرى وطنى حقيقى واحد يريد الانزلاق إلى مصر أمريكية على طريقة سعدالدين إبراهيم. نعم، لا مجال لخلط الأوراق، ولا معنى لأن يستدرج وطنيون مصريون لا نشك فى شرفهم الشخصى ولا فى قواهم العقلية إلى المخفر الأمريكى المسمى بمركز ابن خلدون، ولا أن يتصور هؤلاء بالغفلة أن مخفر سعد هو المنبر الملائم لمخاطبة الشعب المصرى، لا نقول إنه المخفر الأمريكى استطرادا لنوع من البلاغة الهجائية، بل هى الحقيقة العارية بالضبط، فسعدالدين إبراهيم أمريكى بالجنسية، وسعد الدين إبراهيم أمريكى بالتمويل، وسعد الدين إبراهيم أمريكى بالهوى والمزاج والتحركات المثيرة للريب، وسعد الدين إبراهيم بالجملة هو أحمد جلبى بدواعى السياق المصرى، قد تكون قصة أحمد الجلبى عميل المخابرات الأمريكية المفضوح فى العراق مختلفة فى التفاصيل، لكن المغزى هو نفسه، بل إن روابط الرجلين الجلبى وإبراهيم موثقة بخطابات لدينا يعود تاريخها إلى أوائل التسعينيات، هذه هى الصورة بلا رتوش وبلا تزويق، وبدون استدعاء لقوائض المجاملات اللزجة، ولا عذر لأحد لقول إنه لم يكن يعرف، أو أن البقر تشابه عليه فى ذرية الأب إبراهيم، أو أنه اندفع بحسن النية إلى مزالق تهلكة هى الخيانة التامة لأشواق التغيير، فليس أسوأ من عماء البصر إلا ضلال البصيرة، نعرف أن بعضهم لا يجهلون ما يفعلون، نقصد بالدقة بارونات الرأسمالية الحقوقية، وعوائل الدولرة الحقوقية المنعمين المترفين بمزايا الترقيات الطبقية المفاجئة، وبعض

هؤلاء انتقلوا بسلاسة من خدمة مباحث أمن الدولة إلى خدمة المباحث الفيدرالية، وهؤلاء جميعا مع أشباههم وأشياعهم ملوثو اليد والسيرة بعطايا التمويل الأجنبى، ويلعب بعضهم دور الغواصات المخترقة لبطن أحزاب وتيارات سياسية وطنية، وينشئون الواجهات الورقية التى ينضم لها بعض السذج الباحثين عن دور يتمطى فى فراغ السياسة، ويمدون الصلات فى الخفاء الظاهر مع شبكة مقاولين ينتهى طرف الخيط فيها إلى سعد الدين إبراهيم، فهو الحامل لأختام التمويل الأجنبى، ولديه كلمة السر "افتح يا سمسم"، ويكفى أن أمريكا حجبت عن الحكومة المصرية مبلغا قدره ١٣٠ مليون دولار لا غير ضغطا لأجل تبرئته، ويكفى أن أمريكا عاملت سعد كرمز لدولة موازية رأسها برأس الدولة المصرية، وقررت تخصيص مليون دولار سنويا لسعد فى موازنة المعونة الأمريكية، وهذه بالطبع هى القمة الطافية من جبل الثلج، وما خفى كان أفدح وأضل سبيلا، فقد خدم سعد مع إدارة بوش، وتلقى منها الجوائز الرمزية والعينية، وخطوطه موصولة أيضا مع منافس بوش الديمقراطى جون كيرى، فهو المستشار العربى(!) المفضل لأغبى رؤساء أمريكا فى الحال والاستقبال، وليست مصادفة أن سعدالدين إبراهيم يحمل معه إلى واشنطن بيانا من الدوحة وآخر من القاهرة، فى بيان الدوحة وردت الصياغة صريحة بدعوة الحكومات الغربية للضغط على الحكومات العربية، وفى بيان القاهرة لجوء إلى التمويه، ولا كلمة واحدة فى البيانين عن ديكتاتورية الاحتلال الأمريكى وهمجية الاستعمار الإسرائيلى، ولا عن دعوة عرب للانضمام إلى حلف الأطلنطى، ولا عن نشر القواعد العسكرية الأجنبية باتفاقات معممة، ولا عن تذويب هوية الأمة فى حامض كبريتيك جغرافيا شائهة اسمها الشرق الأوسط الموسع، فهذه هى أصول اللعبة، فك العروة الوثقى بين الديمقراطية والتقدم لاستعادة الاستقلال الوطنى والنهضة الذاتية، و كأننا بصدد قضية التغيير فى أمة واق الواق، أمة اللا زمان واللا مكان، أمة اللا تاريخ واللا جغرافيا، والمقابل: كعكعة موعودة مثيرة للعاب الأغوات والخصيان، فالإنفاق الأمريكى الرسمى ارتفع بميزانية الإصلاح الشرق أوسطى إلى ٤٢٠ مليون دولار سنويا، وصندوق المشاركة من أجل المستقبل المقر فى قمة الثمانية الأخيرة قفز بمزاد المنح والهبات إلى حدود مليارية، وليس الخطر فقط فى فساد التمويل الأجنبى، ولا فى مضاعفة الإغراءات بالانضمام إلى جماعة المارينز، بل الخطر فى تجريف

التربة الوطنية لنداءات الديمقراطية، الخطر فى تزوير قضية التغيير ذاتها، الخطر فى حرف أهداف التغيير لتلائم مقاسات الباترون الأمريكى، فواشنطن لا تريد بالطبع تغييرا ينتهى إلى سلطة وطنية معادية بفطرة المصالح والأشواق لأمريكا وإسرائيل، وأمريكا تريد استبدال خيلها العجوز فى المنطقة بأنظمة تصنع على عينها، تريد إجراء جراحة قيصرية تنزع الجنين الديمقراطى من الرحم الوطنى، تريد الحكم خالصا لجماعة البيزنس فى الاقتصاد وجماعة المارينز فى السياسة، تريد فض عقود الزواج العرفى مع نظم شاخت وبالت على سرير المرض، تريد إحلال نظم الزواج الموثق بالعقود المحفوظة فى درج مكتب الرئيس القائد الذى فى البيت الأبيض!.

إشارات

* لا يوجد حرس قديم ولا حرس جديد فى الحزب الوطنى، إنها حرب مماليك السلطان مع مماليك جمال مبارك.

* تحدى صدام حسين لأمريكا ربما أثبت لها أن تكلفة قتله فى السجن أهون من تكاليف المحاكمة الهزلية.

* إلى نبيل الرداد: لا أصدق موتك.. ربما لأنى لا أريد التسليم بموتى(!).

٤ يوليو ٢٠٠٤

حكومة لصوص

أخشى أننا بصدد ناد للصوص لا حكومة لبلد فى حجم مصر، أخشى أننا بصدد توريث للاقتصاد فى سياق سيناريو لتوريث الرئاسة.

وقد لا يكون دقيقا وصم حكومة نظيف بأنها حكومة تكنوقراط، فالصفة التكنوقراطية ظلت ملازمة لحكومات مصرية توالت لعقود، ربما الجديد هو الصفة الكلبتوقراطية لا التكنوقراطية، والكلبتوقراطية بالترجمة الحرفية هى حكم اللصوص، اللصوصية بالطبع فى الاختيارات والسياسات قبل محاكم الجنايات، وحكومة نظيف ليست خط بداية فى الطريق الكلبتوقراطى، فقد سبقتها حكومة عبيد إلى الطريق ذاته، ومثل هذه الحكومات لا تزيد معدلات النمو ومعدلات الاستثمار والادخار، شيء واحد يزيد فى عهودها هو معدلات النهب العام، كانت حكومة عبيد فى غالب جهدها لخدمة رجال الأعمال بطريقة أقرب لتسهيل السرقات، بينما حكومة نظيف يسيطر عليها رجال الأعمال بالشخوص لا بالنصوص، والمعنى: أننا نتقدم من خلط المصالح الخاصة بالمصالح العامة إلى جعل المصالح العامة فى وضع الحكر المخصوص، وهذه هى نقطة الخطر فى تقاطعات السياسة والاقتصاد، ولا جدوى عند هذه النقطة من التعتيم وإطلاق قنابل الدخان، لا جدوى من التزوير العبثى للمعانى، أو إطلاق أوصاف لا محل لها من الإعراب، فلسنا بصدد تحرير للاقتصاد ولا للسياسة، ولا بصدد إصلاحيين ومحافظين، ولا بصدد حرس قديم ولا حرس جديد، فالقصة كلها مملوكية وعلى مقربة من بيت السلطان، ونزاع المصالح مملوكى مقطوع الصلة بتيارات ومطامح القوى الاجتماعية والسياسية، السياسة يجرى اختصارها بالقسر فى شخص جمال مبارك الذى أطلقت عليه صحيفة أمريكية وصف مستر مصلح، والاقتصاد ينتقل من ملكية الدولة إلى ملكية لوبى المصالح الخاصة، والتداخل ظاهر، ونزعة التوريث هى ذاتها، ومصر البلد تتحول

إلى مصر العزبة فى معية الوارثين، وماكيتات العزبة مرئية بالعين المجردة، صحافة العزبة تتوالى إصداراتها فى الشهور والأسابيع الأخيرة، جماعة البيزنس تمول إصدار صحف تتولى توجيهها جماعة المارينز، صحيفة "الجيروزاليم بوست" الإسرائيلية فى تقرير خطير نشرته بعنوان "الفرعون الأخير" رصدت بالذات دور صحيفة شبه سرية تحمل اسم نهضة مصر، وهناك بالطبع صحف أخرى قد لا نذكر أسماءها حتى لا نتورط فى خطيئة الإعلان المجانى، وهؤلاء أقرب لطرف خيط فى لوبى ضاغط يروج للتوريث بدعوى التحديث، عناصر أخرى للوبى ذاته ساكنة متحفزة فى مرابض لجنة السياسات والمركز المصرى للدراسات الاقتصادية وغرفة التجارة الأمريكية وجمعية جيل المستقبل، وكلها مجموعات نشأت كعناصر دفع لدور جمال مبارك، وبظل إيحاءات من الرضا الأمريكى، ولا يصعب على مراقب ملاحظة تضخم نفوذ لوبى جمال مبارك فى وزارة نظيف الأقرب بتكوينه الشخصى لصفة رجل الأعمال، وقد لا تكون حكومة نظيف بكامل تشكيلها حكومة خالصة لجمال مبارك، ربما الأصح: أنها البروفة الأخيرة لحكومة جمال مبارك، إنها البروفة الأخيرة لحكومة توريث الاقتصاد والسياسة معا، فجماعة البيزنس مع جماعة المارينز تبدو متزايدة الولاء لجمال مبارك خصوصا مع إيحاءات التعاطف الأمريكى، المشكلة: أن جماعة البيزنس مع جماعة المارينز تواجه فيما يبدو مصاعب حقيقية مع جماعة الأمن، وهذه نقطة صدام خطر قد يطيح بالمطامع كلها، فمصر كالعين عليها حارس، وإن كان ذلك لا يبدو مطمئنا تماما، فالصراعات كلها تدور فى كواليس سلطة طافية فى غير اكتراث بوجود شيء اسمه الشعب المصرى، والاحتمال الأغلب فيما نظن أن يظل جمال مبارك مرشحا لدور متزايد مادام والده فى الرئاسة، لكن السيناريو لأسباب فى الظل قد لا يصل إلى نهايته المرسومة، ومع ذلك يظل الخطر واردا جدا، وهو ما قد يستدعى حضورا محسوسا للشعب الغائب، صحيح أن الرئيس مبارك تعهد أوائل العام الجارى بأنه لا توريث للرئاسة، ونتصور أن التعهد واجب التجديد من الرئيس، ونعتقد أن الأجدر بالرئيس مبارك أن يسلم الأمانة للشعب، لا أن يسلم الرئاسة لنجله، ولا أن يسلم مقادير البلد لحكومة هى بالمعنى السياسى حكومة لصوص.

إشارات

* خالص احتقارى لهؤلاء الذين انتفخت كروشهم بالمال الحرام، وتصدر لهم صحف سياسات لا صحف جنايات !.

* محمد فائق تحبه مهما تشوف منه، فهو المثال الرفيع للقائد الحقوقى الأبعد عن خطايا التورط فى فساد التمويل الأجنبي

* شيء ما لابد أن يحدث فى مصر.. أو أن نستعد لصلاة الجنازة.

١٨يوليو ٢٠٠٤

دعوة للعصيان

مصر فى أشد الاحتياج باختصار وبالجملة إلى ثورة يوليو جديدة، كلمة السر: جمال عبدالناصر، والفرق: ثورة بالناس الأحرار لا بحركة للضباط الأحرار. ولا قيمة لأى احتفال بثورة يوليو لا يتذكر هذه الحقيقة، فالإخلاص الحقيقى لجمال عبدالناصر يعنى الاستعداد الحقيقى للثورة المقبلة، فجمال عبدالناصر ليس رفاتا فى كوبرى القبة، بل هو العنوان المضيء لزمن خلع القلب، مات الرجل قبل ٣٤ سنة، لكن الصراع حوله وباسمه يدور ساخنا جارفا، وكأن عبدالناصر رحل عنّا للتو، أو كأن روحه لم تصعد بعد، فقيمة عبدالناصر الحقيقية كانت ولا تزال فى إعادة اكتشاف قوة مصر، وتلمس أشواق أمة فى النهوض والحضور على مسرح العالم الحى الفوار بالدراما، كانت مصر قبل ثورة عبدالناصر مجرد واحدة من مستعمرات التاج البريطانى، لم تكن خالية بالطبع من أنوار عقل، ولا خمدت فيها روح الاحتجاج، لكنها كانت تائهة يائسة، تضيع قوتها الدافعة فى شبكة من نسيج العنكبوت الممدرد بين دار المندوب السامى والقصر الملكى وقيادة شاخت لحزب الوفد، وتمثلت عبقرية عبدالناصر الفطرية فى اكتشاف ثقب الضوء، فتيارات التجديد الوطنى كانت تصارع القديم المتهالك ربما بلا أمل، ونجح عبدالناصر من موقع الرصد العسكرى فى خلق مرآة عاكسة لرغبة التجديد، وجعل من تنظيم الضباط الأحرار مجلس أركان حرب لأجيال السياسة المصرية الجديدة وقتها، شفع قوة المشترك الوطنى بقوة الحسم المتاحة، التقط العلم المرمى على الأرض، وتقدم لدور بطولة كان يزحف هائما إلى حدود مصر بعد نكبة ١٩٤٨، وكان لقاء الرجل بالدور أول الغيث فى فيضان تاريخى تواصل عفيا لربع قرن من نكبة ١٩٤٨ إلى نصر ١٩٧٣.

ولا يصح تذكر ثورة عبدالناصر على طريقة شوية إيجابيات مقابل شوية سلبيات لا يصح تذكر الثورات على طريقة محلات الجزارة وتجار التجزئة،

فالتاريخ لا يباع بالكيلو، وحيوية الثورات لا تقاس بالمتر، فبديهى أن كل تجارب الأمم والبشر تنطوى على أخطاء، الأهم: تلمس المقدرة وجودا أو عدما على التصحيح الذاتى، والأهم: تلمس المغزى العام، والحكم بمدى الإيجابية عند نقطة النضج وتمام الحصيلة، فمع ختام عشريتها الأولى كانت ثورة عبدالناصر بطاقة الحضور المصرى المتفجر تحرر الوطن العربى مشرقا ومغربا من ركام الاستعمار البريطانى والفرنسى، كانت قد قطعت ذيل الأسد البريطانى فى معركة السويس، وكانت قد أنهت الاستيطان الفرنسى للجزائر فى حرب التحرير، وكانت الأمة العربية بعد ظلام القرون تستعيد الشعور الجارف بالحضور فى التاريخ، وفى عشريتها الثانية كانت ثورة عبدالناصر تصنع من مصر النموذج الملهم ودولة الوحدة النواة، كانت معدلات التنمية المتصلة بين عامى ١٩٥٦ و١٩٦٦ بأرقام البنك الدولى المعادى لتجربة عبدالناصر تجرى بنسب تزيد فى المتوسط على ٧% سنويا، وكانت مصر قادرة على تحمل هزيمة خاطفة مخيفة بحجم نكسة ١٩٦٧، وتعيد بناء الجيش العصرى من نقطة الصفر، وراحت التنمية تجرى بمعدلات بلغت فى المتوسط ٤% سنويا بين عامى ١٩٦٧ و١٩٦٩، وزادت إلى ٥. ١٩% سنويا بين عامى ١٩٦٩ و١٩٧٣، كانت مصر سنة ١٩٧٣ رأسا برأس مع كوريا الجنوبية فى مؤشرات التنمية والاختراق التكنولوجى، وكوريا الجنوبية الآن هى عاشر أقوى اقتصاد فى العالم، بينما مصر الآن رقم ١٢٢ فى تقارير التنمية البشرية الدولية، والمعنى: أننا نزلنا إلى حافة الصفر، كنا فى أول التاريخ وانتهينا إلى أمة فى الجراج، كانت لدينا تجربة جرى الانقلاب عليها وسط غبار كثيف من حملة قماقم ضد ثورة جمال عبدالناصر تفجرت بالعمد بعد حرب ١٩٧٣، كانت التجربة الهائلة تنطوى على نواقص بالتأكيد، وكانت تبدى مقدرة فائقة على التصحيح الذاتى، كان التجاوز الذى هو من طبع الثورات تخف حدته، كان عدد المسجونين السياسيين وقت رحيل عبدالناصر لا يزيد على ٢٧٣ شخصا، ومع الانقلاب بدعاوى الديمقراطية بلغت أوامر الاعتقال ١٨ ألفا فى أيام السادات، وزاد عدد أوامر الاعتقال إلى مائة ألف فى عهد خلفه الرئيس مبارك، أضف: نهب مصر كما لم يحدث فى تاريخها الألفى، مجرد مثال: نهب ٤٧٢ مليار جنيه فى صفقات بيع القطاع العام، مثال آخر: نزح ٢٠٠ مليار دولار أى ١٣٠٠ مليار جنيه إلى خارج مصر، ومثال ثالث: تبديد ٥٤

مليار جنيه فى أقل تقدير من قروض البنوك، وإخضاع مصر لتحكم المندوب السامى الأمريكى هذه المرة، وتحويل مصر البلد إلى مصر العزبة، وتوريث الاقتصاد فى سياق سيناريو لتوريث الرئاسة من مبارك الأب إلى مبارك الابن. باختصار: مصر الآن تشبه مصر عشية ثورة ١٩٥٢ ولو كان عبدالناصر حيا لفعلها بالعصيان المدنى هذه المرة لا بعصيان السلاح، وبتنظيم الناس الأحرار لا بحركة الضباط الأحرار.

إشارات

* سؤال: ما هو الوضع الدستورى لأدوار السيدة حرم الرئيس مبارك مع كامل الاحترام الشخصى؟!

* تهمة: موقع ميمرى المدار بمعرفة المخابرات الإسرائيلية وضع اسم العبدلله على قائمة كبار المعادين لأمريكا.

* خبر: إياد علاوى رئيس الحكومة العميلة فى العراق أبدى إعجابه الشديد فى زيارته للقاهرة بخبرة الداخلية المصرية فى قمع المظاهرات.

٢٥ يوليو ٢٠٠٤

سر التعاطف

حين تطوى أوراق العهد الكئيب، سوف يتذكر الناس اسم ممدوح حمزة كشهيد وشاهد شاخص على فساد عصر. وليست محنة ممدوح حمزة فى ملابسات عبثية انتهت به حتى إشعار آخر إلى ظلام سجن بريطانى، ولا فى انكشاف عورات النظام القضائى البريطانى، ولا فى تدهور سمعة اسكوتلانديارد التى تبادلت المواقع مع مباحث أمن الدولة اللاظوغلية، تلفق التقارير، وتأخذ بالشبهات، وتحاسب على فضفضة المكالمات التليفونية فى بلد الهايد بارك، فكل ذلك مما صار مألوفا فى غرب يصاب بالذعر كلما صادف عربيا نابها، ويتصرف كذئب جائع مهووس بلذة افتراس براءة الحملان، وهكذا تحول المهندس العبقرى ممدوح حمزة الذاهب إلى لندن بدعوة من جلالة الملكة إلى متهم خطير مشتبه فى تخطيطه لجرائم قتل، تماما كما كاد الشيخ الفقيه يوسف القرضاوى يحتجز قبل أسابيع ربما فى السجن نفسه بتهم أوهى من خيط العنكبوت، فأن تكون عربيا فهذا عنوان يكفى لفتح محضر تحقيق، خاصة إذا كنت عربيا بهوية الروح وليس فقط بمسقط الرأس، وفى كشف حساب ممدوح حمزة ما يكفى ويزيد لاتهامه تلقائيا فى عاصمة الضباب المسكون بسحائب النفوذ اليهودى، فقد تورط الرجل شفاهة وكتابة فى كراهية القهر الغربى، ودخل عش الدبابير بإشارات موجعة عن التحكم اليهودى فى سياسة أمريكا التى تمد ذيلها عبر المحيط إلى جزر بريطانيا العظمى!، وكل ذلك مما قد يفيد فى تفسير سلوك همجى يليق بعصابات المافيا لا بدعاوى الكياسة البريطانية، سلوك دولة مافيا انتهى لاستدراج المهندس ممدوح حمزة من بيته فى القاهرة إلى قبو السجن اللندنى، وهنا بالضبط تتجلى عقدة الاضطهاد المزدوج للمهندس العبقرى، اضطهاد مستعد بدوافع السياسة المتحفزة فى لندن، واضطهاد سبقه ومهد إليه بفساد البيزنس السلطانى فى القاهرة، بعبارة أخرى: فقد جرى انتداب

بريطانيا بإغراءات السياسة لأداء دور مملكة الانتقام لحساب مملكة الفساد المصرى، ومع علمنا بالطبع بتصريح بدا متعاطفا مع المتهم الجنائى ممدوح حمزة صدر عن رئاسة الجمهورية، وما نلحظه من نشاط مهنى مثير فى الجرائد الرسمية، وما يبدو من فورة تعاطف رسمى جدا مع ممدوح حمزة المصرى المظلوم بريطانياً، إلا أن كل ذلك يثير التساؤل ربما الريب بأكثر مما يستدعى التقدير والإعجاب، فثمة إثارة للغبار وربما لإخفاء شيء ما، وثمة غسيل للذمم، ورغبة فى استثمار تعاطف الرأى العام الجارف مع مهندس مصرى عبقرى وضع فى محنة، وربما تخيل هؤلاء أنهم يكسبون بادعاء التعاطف مع حمزة شعبية ضائعة لنظام حكم تتداعى قوائم شرعيته، غير أن وقائع ملف ممدوح حمزة حتى برواية الصحف الرسمية ذاتها توحى بالعكس، فملف ممدوح حمزة وثيقة إدانة لنظام حكم، وشهادة لا تخطئ حروفها فى التدليل على تحول الفساد فى مصر إلى نظام حكم، فممدوح حمزة مهندس عبقرى تعترف الصحف الرسمية ذاتها بإنجازاته وأدائه المهنى الرفيع، وممدوح حمزة ذاته فى حوار نشرته الأهرام هو الذى فكر فى الهجرة من مصر هروبا من حصار خانق ومطاردة نشيطة ضاغطة من جهات رسمية، أى أن تميزه فى المهنة انتهى به إلى اضطهاد بالسياسة، من هنا بدا ممدوح حمزة الجانى المحتمل بظاهر التحقيقات البريطانية فى صورة الضحية المؤكدة لفساد يحكم ويعظ فى مصر، وليست القصة فى اضطهاد وزير معروف لممدوح حمزة، فقد وقع حمزة ضحية لشبكة فساد أعقد وممتدة بخيوطها إلى خط الرأس، وربما يلفت النظر أن الرأى العام المصرى لم يبد ذرة تعاطف مع الذين قيل إن حمزة خطط لاغتيالهم، فلم يتعاطف أحد مع إبراهيم سليمان، ولا مع كمال الشاذلى، ولا مع فتحى سرور ولا مع زكريا عزمى، رغم أن هؤلاء بظاهر القصة كانوا الضحايا المحتملين، وتيار الشعور الإنسانى يتجه بالتعاطف فى العادة إلى الضحايا المحتملين لا إلى الجانى المحتمل، لكن المفاجأة التى ليست مفاجئة أن تيار التعاطف تدفق باتجاه ممدوح حمزة بالذات، وهو ما يعنى بالمخالفة المنطقية أن تيارا مستترا ربما ظاهرا من الكراهية تدفق باتجاه ضحاياه المحتملين، وبدون إدراك لمغزى القصة ربما ننزلق إلى خطأ كبير فى الظن، فقد يتصور البعض أن إبراهيم سليمان مثلا قد دقت ساعة نهايته الوزارية لشبهات أحاطت بدور محتمل له فى تدبير الإيقاع البريطانى بممدوح حمزة،

وهذا اعتقاد ساذج يحسن الظن بنظام حكم ليس ممدوح حمزة إلا واحدا من ضحاياه، وقد لا نبالغ فى التخوف بالظن أن ممدوح حمزة بعد فك كربه البريطانى ربما يتحول إلى شخص آخر، شخص أخذ الدرس وتلقى العظة، شخص دهسه البلدوزر فوقع أسيرا ممتنا لمن أنقذه على محفة الرمق الأخير، متمرد عبقرى انتهت به المحنة إلى بيت الطاعة، وقد يخلف ممدوح حمزة ظنوننا بأصالة تكوينه العبقرى، ويظل فيما نحب عبقريا متمردا كافرا بنظام حكم يحيى السماسرة ويميت العباقرة.

١ أغسطس ٢٠٠٤

أبو جهل الأصلى

ليس لأحد أن يتصور أننا قررنا الدخول فى معارك صغيرة مع جريدة الوفد ولا مع غيرها، فليس هذا من مقامنا المهنى، ولا من سياستنا التحريرية كجريدة للتيار الناصرى وعموم تيارات الوطنية المصرية، لكن حملة الوفد المفاجئة ضد العربى تثير الانتباه، يلفت النظر فيها أن الوفد صمتت أسبوعا كاملا، وإلى أن فتح الله عليها برد على تقرير نشرته العربى عن لقاء المصريين الثمانية مع كولن باول فى جناحه الخاص بفندق سميراميس، وليت الوفد لم ترد، فقد أوقعت نفسها وحزبها فى ورطة أكبر من ورطة ذهاب القياديين الوفديين محمود أباظة ومنير فخرى عبدالنور للمثول فى حضرة وزير الخارجية الأمريكى، فلم تقدم الوفد أولا تفسيرا للصمت الثقيل طوال أسبوع صدرت فيه يوميا لسبع مرات، فهل كان يلزم كل هذا الوقت لإعداد ردّ بدائى ركيك الصياغة والمضامين كالذى نشرته الوفد؟، أم أنها كانت تدبر المال اللازم فى ضائقة لونية تعيشها البلاد لتلوين مانشيتات الهجوم الأصفر على العربى بالأخضر والأحمر والأسود؟!، ولم تقدم الوفد ثانيا تفسيرا مقنعا أو شبه مقنع لسلوك أباظة وعبدالنور، وهل ذهب الرجلان للقاء باول بقرار من قيادة حزب الوفد؟، أم أن شبكة الخطوط المتقاطعة هى التى جمعت القياديين الوفديين مع بقية الثمانية من ممثلى الحزب الحاكم وجماعة التمويل الأجنبى فى اللقاء المثير للريب، تقول الوفد لا فض فوها وقل حاسدوها "إن الأحزاب تصدر صحفا تعلن وتعبر عن طروحاتها ومواقفها"، لا بأس، فهذا الكلام تحصيل للحاصل، ويعنى بالبداهة أن جريدة الوفد تعلن وتعبر عن مواقف حزب الوفد، تقول الجريدة: "إنها ترفض أى تدخل أجنبى فى شئون مصر الداخلية" حسنا، لكن السؤال: هل كان ضروريا أن يذهب أباظة وعبدالنور لإعلان الرفض إياه فى لقاء كولن باول السرى المغلق بطبيعته، أم أنه الحرص على ترجمة الموقف الوفدى

من العربية للإنجليزية، ومن التحرير للشفاهة، ومن عين السفارة الأمريكية لأذن الصديق كولن باول، وهل كل ذلك مما يصلح تفسيرا مقنعا أو شبه مقنع لحادثة الانزلاق لورطة لقاء هو عار سياسى بكل المقاييس، خاصة أن الموضوع المطروح يتعلق بالتغيير والإصلاح السياسى فى القاهرة لا فى واشنطن، وخاصة أن الدعوات للقاء واردة من طرف السفارة الأمريكية التى دعت الوفد نفسها أكثر من مرة لمقاطعتها سياسيا، بالطبع لا يبدو مقنعا تفسير من نوع أن وزير الخارجية الأمريكى سمع ذلك من طرف آخر غير الطرف الرسمى الذى يلتقى به عادة !، مثل هذا الكلام أدخل فى باب تهافت التهافت، فحزب الوفد ليس تنظيما تحت الأرض، وجريدة الوفد على حد علمنا ليست صحيفة سرية، والسفارة الأمريكية تقرأ باللغة العربية دون احتياج لمترجمين وفديين، وتعد التقارير بانتظام عن كل دبة نملة فى مصر، ووزير الخارجية الأمريكى ليس بحاجة لأباظة وعبدالنور لكى يعلم المعلوم من السياسة بالضرورة، وربما لو استمرت جريدة الوفد فى صمتها لكفت على الخبر ماجورا، لكن ماذا تفعل أو تقول لهؤلاء الذين يبتلون فلا يستترون، والطريف: أن جريدة الوفد اتهمت العربى بمحاولة الوقيعة بين الدولة وحزبها، وكأننا نحن لا هم الذين ذهبنا للقاء مريب بتنسيق تفترضه البداهة مع الدولة المأزومة، والأكثر طرافة: أن كاتب الرد الممهور بتوقيع الوفد يردد حكمة مأثورة تقول إن من لا يمد يده يستطيع أن يمدد أقدامه، والحكمة واردة فى غير محلها على طول الخط، فقد ذهب أباظة وعبدالنور لمدّ اليد بالمصافحة على الأقل إلى كولن باول، ومد الخط على استقامته يفيد ببداهات النطق قبل المنطق أن من يفعل ذلك لا يستطيع أن يمدد أقدامه لا فى وجه كولن باول ولا فى تراب الوطنية المصرية، ويبدو أن انفلات أعصاب كاتب الرد الوفدى دفعه لتوهم خيالات هى فى العادة من مضاعفات تعاطى حبوب الهلوسة، فالأخ الفصيح يقول إن واحدا على الأقل من الثمانية الذين التقاهم باول ناصرى المنبع والتوجه!، ولا داعى بالطبع لأن نجعل عقلنا بعقله، ولا أن نتحداه أن يذكر اسم هذا الواحد على الأكثر لا على الأقل، فنحن الذين نشرنا أسماء الثمانية، وليس بينهم ناصرى ولو على سبيل الاشتباه، بينما لم تنشر الوفد اسم أحد ولا حتى اسم أباظة وعبدالنور، ربما لم يصلها الخبر، أو أنها فضلت الأخذ بقاعدة الحدق يفهم، لكن الحداقة

بالفطرة شيء مختلف عن الجهل النشيط، وقد أثبت الأخ أبو لمعة كاتب الرد الوفدى أنه من سلالة أبو جهل الأصلى.

إشارات

* ما لم ننجح فى قطع دابر سيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك، فلا أمل فى ديمقراطية ولا فى تغيير.

*بيان الـ ٣٠٠ مثقف مصرى مع عظيم الاحترام للرموز الموقعة عليه ربما ينتهى إلى العدم ما لم يكن بداية للحركة من أجل التغيير.

* توقف قلبى إجلالا لعبقرية التكوين المصرى وأنا أقرأ هذه العبارة "إننى أضمن هذا الرجل بحياتى الشخصية وأضع نفسى ثمنا لإطلاق سراح هذا الأخ العزيز والصديق الوفى د. ممدوح حمزة"، ملحوظة: العبارة من مقال بالأهرام للراهب القس اغاثون دير الانبا بيشوى

* "بدون مشاهدة" هو الاسم الأنسب لبرنامج "بدون رقابة" بعد التأخير المزاد والمنقح لموعد إذاعته زحفا من صلاة العشاء إلى مطلع الفجر.

* عائشة صادق.. شريان دم من قلب مصر انفجر هذا الأسبوع فى المنفى الألمانى.

٨ أغسطس ٢٠٠٤

عدوّ الشعب

هل اقتربت ساعة الصفر لعملية الإطاحة بإبراهيم سليمان وزير الإسكان بعد تحقيق الـ ١٥ ساعة حتى مطلع الفجر مع نسيبه ضياء المنيرى فى مبنى نيابة أمن الدولة بمصر الجديدة؟.

وقائع التحقيق التى نشرتها مجلة حكومية جدا (!) مذهلة، فضائح بالجملة، رشاوى بالملايين، مقاولات من الباطن، ووسطاء على عتبة نسيب الوزير بينهم سيدة ساحرة فى سن الخمسين، فساد ضارب بالطول والعرض حتى نخاع النخاع فى مقاولات وزارة الإسكان، والمثير: أن إبراهيم سليمان ظل إلى الآن بعيدا عن الاستدعاء للتحقيق، رغم أن المتهم ضياء المنيرى شقيق زوجة الوزير لم يك شيئا ظاهرا فى عالم المقاولات والاستشارات الهندسية قبل تولى إبراهيم سليمان وزارة الإسكان، فمكتب ضياء المنيرى المعروف باسم "انفايرو سيفيك" كان مجرد حرف على هامش التلاوة الهندسية حين نشأ سنة ١٩٨٤، وبعد عشر سنوات انفتحت طاقة القدر فى غير ليالى رمضان لمكتب نسيب إبراهيم سليمان، فقد صار سليمان وزيرا يحظى بثقة الرئيس مبارك، وفى غفلة السنوات الناعمة تحول مكتب المنيرى إلى إمبراطورية حجم أعمالها بالمليارات، وعرفت عمليات المقاولات الكبرى طريقها المحفوظ إلى درج المكتب المحظوظ، وصار لوزارة الإسكان فيما يبدو مقران أحدهما مكتب إبراهيم سليمان والآخر مكتب نسيبه ضياء المنيرى، الإشارة الخضراء من مكتب المنيرى تعنى أن طريقك مفروش بالورد إلى وزارة الإسكان، والإشارة الحمراء تعنى الموت بالسكتة المالية لأى مقاول أو مهندس استشارى مهما علا مقامه وتطاولت سوابق أعماله، وليس فى التفاصيل ما يسر القلب، حجم أعمال المكتب المحظوظ بحسب استجوابات موثقة للنائبين كمال أحمد والبدرى فرغلى تراوح من ثمانية مليارات جنيه إلى ١٤ مليار جنيه، والملفت: إن

الاستجوابات الخطيرة لم تناقش، ونامت فى أدراج فتحى سرور رئيس مجلس الشعب لسنين طويلة حتى تاريخه، ولعب برلمانى كبير ورجل أعمال مشهور دورا لا يخطئه البصر فى "كفى ماجور" من الحجم العائلى على خبر الاستجوابات الناسفة لوزير الإسكان، وواصل إبراهيم سليمان صلفه وعجرفته رغم الشبهات والاتهامات الثقيلة، وكأن على رأسه ريش النعام، أو كأن المسئولين الذين أطلقوه علينا على رؤوسهم الطير، رغم أن القصة كلها مكشوفة، ورغم أن أصواتنا بحت فى حملة صحفية ممتازة وطويلة المدى للزميل محمود العسقلانى، ومن باب تحصيل الحاصل دعونا نتذكر أو نذكّر بالدور الحكومى المباشر فى الانتفاخ المالى لمكتب نسيب الوزير، فأغلب قوائم العملاء من نوع: وزارة الإسكان، الهيئة القومية لمياه الشرب والصرف الصحى، الهيئة العامة لمرفق مياه القاهرة الكبرى، مشروع الصرف الصحى بالقاهرة الكبرى، جهاز بناء وتنمية القرية المصرية، جهاز تعمير خليج السويس، جهاز تعمير سيناء، جهاز تنمية مدينة ٦ أكتوبر، المجلس الأعلى للآثار، وزارة الأوقاف، أضف: إسناد الدور الاستشارى لمكتب نسيب الوزير فى صفقة المواسير الفاسدة، ونذكر هنا: أن الذى فضح فساد الصفقة هو ممدوح حمزة مهندس مصر العبقرى الأسير فى لندن، ونذكر أيضا ببداهة البداهة أن جهات الإسناد فى أغلبها تحت التأثير المباشر وغير المباشر لوزير الإسكان، ويا بخت من كان الوزير نسيبه، فقد تحول ضياء المنيرى بحسب وصف محمد سعد خطاب صاحب "الكتاب الأسود لوزير الإسكان" إلى ما يشبه الفتوة الأكبر فى مملكة حرافيش المقاولين والمهندسين الاستشاريين، وكلها ممارسات لا تنتسب بالقطع إلى تقاليد دولة يحرم دستورها استفادة عوائل الوزراء من مناصبهم، فما بالك لو كان الوزير المتهم سياسيا على الأقل مسئولا عن أعمال بنية أساسية بلغت موازناتها فى السنوات الأخيرة ما يصل إلى ٢٠٠ مليار جنيه؟، إن أبسط دواعى الملاءمة الأخلاقية والقانونية تقتضى إحالة الوزير لتحقيق جنائى حتى لو انتهى لتبرئة ذمته، وأبسط دواعى الملاءمة السياسية تقتضى الإقالة الفورية لوزير صارت له صورة عدو الشعب، وإن كنا نخشى قياسا على حالة يوسف والى أن ننتظر ١١ سنة أخرى، فقد ظل يوسف والى فى وزارة الزراعة ٢٢ سنة، وإبراهيم سليمان ظل وزيرا إلى الآن ١١ سنة لا

غير(!)، واستمراره فى الوزارة قد يعنى أننا بصدد حكم المافيا لا قانون الدولة.

إشارات

* ولماذا ليس جمال مبارك؟ سؤال استعباطى يوجهونه لرافضى توريث الرئاسة من أمثالنا، وجوابنا المباشر: لأن جمال مبارك ابن الرئيس، وحين لا يعود كذلك فلن يفكر فى الترشيح لرئاسة حى لا رئاسة الدولة.

* نخشى أن ممدوح البلتاجى وزير الإعلام لايزال يعيش فى جلباب وزارة السياحة، يدير مملكة الإعلام بالمنطق السياحى، ويسعى لتحويل التليفزيون إلى متحف شمع.

* انتفاضة مقتدى الصدر أثبتت أن دين المقاومة يوحّد الشيعة والسُنة تماما كدين الله.

* ربما يكون تشريح الحالة العربية لا تشريح الحالة الأمريكية هو طلب المشاهدين الأكثر إلحاحا من حلقات الأستاذ هيكل

* إغلاق مكتبها فى بغداد المحتلة شهادة لـــ "قناة الجزيرة" بأنها الأكثر مهنية.. وحرية.

١٥ أغسطس ٢٠٠٤

ليس مواطناً مصرياً

.. ولماذا ليس جمال مبارك؟، هذا هو العنوان المفضل لأحدث فنون الخداع الساذج فى حياتنا السياسية، بدأت القصة فى صحف البيزنس المثير للريب، ثم انتقلت إلى صحف الصباح الرسمى، تبدأ الجملة حاسمة على طريقة نحن ضد توريث الحكم، ثم تفاجأ أو لا تفاجأ بالجملة موصولة الذيل بلعنة ولكن، رفض حاسم باتر فى أول السطر، ولكن ماسحة كاسحة للرفض المزعوم قبل آخر السطر، تبدأ هذه الـ "لكن" بسرد تهتهات وافتراضات من نوع أن جمال مبارك مواطن مصرى، ومادام ذلك كذلك، فمن حقه أن يرشح نفسه لمنصب الرئاسة، كلام عبيط قد يصلح للتسويق فى مزاد روبابيكيا، فقد تكون لجمال مبارك صفة المواطن المصرى، بشهادة الميلاد، بمعنى أنه مولود لأبوين يتمتعان بالجنسية المصرية، أما إذا كانت صفة المواطن المصرى تنصرف إلى حق المواطنة بالمعنى السياسى، فهذا حديث آخر ببداهة البداهة، فالمواطن المصرى بمعنى السياسة لا الجنسية ليست له حقوق على الإطلاق، حقوق السياسة منقوشة بالألفاظ البراقة فى الدستور، لكنها فى الواقع المرئى الملموس الصادم تؤول إلى ما يشبه الصفر، وهذه بالطبع ليست حالة السيد جمال مبارك، فالصفة الواقعية لجمال مبارك فى اعتبارات السياسة أنه ابن الرئيس، أى أنه محمى مستظل بسلطات الرئيس، وصلاحيات الرئيس فى الدستور شبه إلهية، وفى الواقع الذى أعطى الدستور إجازة طويلة تقفز هذه السلطات الرئاسية إلى مرتبة فوق إلهية، سلطات ممتدة مخترقة من الوزير إلى الغفير، ومن العميد إلى العمدة، ومن حديقة الحيوان إلى زحمة الأوتوبيس، ومن قرص الشمس إلى عين الفرن البلدى، رئيس بكل هذه السلطات لا يمكن أن يكون ابنه مثلى ومثلك، فالوطن هو بيت الرئيس، والشعب مجرد رعايا فى الحضرة السلطانية، وهنا مربط الفرس، فلكى يسترد أو يكتسب المصريون حق المواطنة، يلزم أولا ألا

يكون الرئيس رئيسا وبهذه السلطات كلها، فقد ظل الرئيس مبارك فى الحكم لمدة ٢٣ سنة إلى الآن، أى أنه حطم الأرقام القياسية لكافة حكام مصر بعد محمد على، ولا تسأل عن حصادِ الرحلة الماراثونية المرهقة، يكفى أن تنظر حولك، فقد تحققت انجازات ولا فى الكوابيس، رقم النهب العام وحده يقارب الـ ٢٠٠٠ مليار جنيه، ١٤٠٠ مليار جنيه أموال هاربة للخارج، و ٤٧٢ مليار جنيه مهدرة فى بيع القطاع العام، و٤٥ مليار جنيه على الأقل ضائعة من قروض البنوك، وفى المحليات حدّث ولا حرج، أضف للنهب العام كبتا عاما صدرت معه مئة ألف أمر اعتقال فى العهد الموصوف بـ "أزهى" عصور الديمقراطية، وفى سجون الحكم الآن وبلا فخر ١٣ ألف معتقل فى أشد التقديرات تواضعا، وما بين حد الكبت وحد النهب، لا تجد غير الصفر المونديالى إياه فى الاقتصاد والسياسة والثقافة جميعا، بالجملة: فقد جرى تجريف مصر وكشط ملامحها كبلد، تكويش فى الاقتصاد انتهى موضوعيا برغبة فى توريث السياسة، ومن الإنصاف أن نعترف بمسئولية الرئيس أولا، ومن العدل أن نلح بالرجاء للرئيس أن يضع نهاية للمأساة، وأن يمتنع عن ترشيح نفسه لولاية رئاسية خامسة يحل موعدها بعد عام، ولو فعلها الرئيس متعه الله بالصحة والعافية فقد يكون حُسن الختام السياسى، ولو فعلها الرئيس فلا يصح أن يترشح ابنه، وأن تنتقل مصر من ربع قرن لمبارك الأب إلى ربع قرن آخر لمبارك الابن، فسيناريو كهذا قد يعنى أنه لا قيمة لسياسة ولا لرئاسة ولا لانتخابات، فلا شرعية بالإنجاز ولا شرعية بالدستور لأحد فى مصر، ومؤسسات الحكم كلها تعيش فى الحرام الدستورى، ومع هذه الظروف يستوى أن يأتى جمال مبارك بنظام الاستفتاء، أو أن يأتى بانتخابات رئاسية متعددة المرشحين، فالنتائج معدة ومعروفة سلفا، والقصة كلها فى مطلق الأحوال توريث فى توريث، مادام والده فى الرئاسة، ومادامت الدولة بهيلمانها مجرد زر يضغط عليه الرئيس، والبديل: أن نقول "لا" مزدوجة للتمديد والتوريث معا، أن ينتهى التجديد بالتمديد للرئيس مبارك، وأن يطوى سيناريو توريث الرئاسة لجمال مبارك، وأن يسترد الشعب عصمة السياسة، وأن تنطلق حملة الأيدى النظيفة لتحاسب وتحاكم المتهمين بالنهب العام، وقتها تظهر صورة جمال مبارك بالحجم الواقعى، وقتها تكون لجمال مبارك صفة المواطن المصرى بالمعنى

السياسى، ووقتها لن يفكر جمال مبارك فى الترشيح لرئاسة الدولة ولا لرئاسة مجلس قروى.

إشارات

* لا اختيار ثالث عربيا، فإما التغيير من الرأس، أو أن نظل عبيدا تحت حكم العبيد.

* زوروا من فضلكم موقع الحركة المصرية من أجل التغيير، عنوان الموقع الإلكترونى: www.harakamasria.com

* ليس المطلوب فقط إقالة وزير الإسكان، بل المطلوب: فتح تحقيق جنائى ومحاكمة محمد إبراهيم سليمان.

* الرئيس الفنزويلى هوجو شافيز "مثله الأعلى جمال عبدالناصر - أثبت أن تحدى الهمجية الأمريكية ممكن بشرط الاستقواء بإرادة الناس.

* الجوع ولا الركوع رسالة الأمعاء الخاوية للأسرى الفلسطينيين إلى أمة تركع لغزاتها وطغاتها.

١٥ أغسطس ٢٠٠٤

أُمّ الكتاب

مع كامل الاحترام لأحزاب المعارضة المعترف بها، لا أتصور أن مجرد مؤتمر أو أمانة عامة للأحزاب قد يفتح الطريق لتغيير حقيقى فى مصر، وبوضوح: ليس من فوائض وقت لمزيد من المناورات، ولا لتسخين سياسى احترافى على مقربة من دورات الانتخابات العامة، ثم الاختلاف عند أول منعطف، وميل بعض الأحزاب إلى تسقط فتات الحصص فى البرلمان أو مجلس الشورى، فقد صارت اللعبة مملة، وربما يكون الحزب الناصرى هو الوحيد الذى لم يشارك بها، والمحصلة: فقدان متزايد لثقة الناس فى أغلب أحزاب المعارضة، وتكيف هيكلى موضوعى لقطاعات منسوبة للمعارضة فى سياق السلطة القاهرة، وهذه - بالطبع - قناعاتى الشخصية، لا ألزم بها أحدا، ولا أنطق بلسانه، وإن كنت أزعم أن لسان السخط العام ينطق بما هو أكثر، فى الشارع يكاد الناس يخلعون جلودهم، ويكاد الوطن ينكمش ويتكور كسيارة ترحيلات خانقة مختنقة تمضى إلى المجهول، قلق ويأس عام يقضم الأظافر ويأكل رموش العين، وبصر شاخص مفزوع كأنه على حافة القبر، بلد بكامله فى حالة جنازة، وشعور رجراج هو مزيج متقلب من السخط واليأس، آبار غضب تغلى وتفور، وصعق كهربائى للنفوس باجتماع لحظة الذل القومى مع لحظة الذل الاجتماعى، وتصاعد خطر فى منسوب السياسة الجوفية، وإنذار بانفجار قد لا نعلم موعده باليقين، وإن كنا نسمع الطرق العنيف الملح على أبواب الصمت المصرى، وشروخ فى قشرة السطح السياسى تصدّع الهدوء الظاهر، بيان الـ ٣٠٠ مثقف يواصل رحلة الألف توقيع، وثلاثة آلاف شاب مصرى بادروا لإعلان وثيقة التغيير على شبكة الانترنت، وحتى تداعى أحزاب المعارضة لحركة هو - فى جانب منه - خروج عن نص الركود العام، وهذه ينابيع نهر نتصور أن بالوسع شق مجراه من السطح الفاتر إلى العمق الفائر، إنها تباشير وبواكير

بيئة ثورية بكل معنى الكلمة، والمطلوب - ببساطة - عروة وثقى وعقد ينظم حبات الضوء المنثور، المطلوب - ببساطة - حركة من أجل التغيير، التغيير نعم لا مجرد الإصلاح، فليس من شيء قابل للإصلاح فى مصر الآن، سلطة النهب العام - مستندة إلى عصا الكبت العام - انتهت بالبلد إلى زحام من ركام، فلسنا بصدد سياسة نختلف معها، ولا بصدد رشد مفقود يمكن استعادة عقله إلى رأسه، بل بصدد جنون ذاهب عبر حواجز الوعى إلى خط النهاية، بصدد حكم ضبط متلبسا بسرقة بلد، بصدد بلد - فى حجم مصر - يحولونها عينى عينك إلى عزبة، بصدد حكم تحول إلى حكر مخصوص قابل للتوريث من الأب إلى الإبن، وهنا مربط الفرس ووتد الخيمة، فأى تردد أو تهتهة فى رفض التمديد والتوريث الرئاسى - معا - هو خيانة بالسهو أو بالعمد لقضية التغيير، فلا يصح لأحد أن ينتظر عطايا التفريج السياسى من مؤتمر الحزب الوطنى!، وكأن الحدأة قد ترمى لنا الكتاكيت، ولا يصح لأحد أن يدنس ضمير المعارضة بمد اليد - بالتلاعب فى تشكيلات وأمانات الورق - لهبات التمويل الأجنبى، فلا سيناريو الحكم ينطوى على إصلاح، ولا سيناريو التمويل الأمريكى يجلب الكرامة، فحقوق الإنسان وحقوق الأوطان صنوان لا يفترقان، التقدم إلى الديمقراطية صنو لاستعادة الاستقلال الوطنى، الخلاص من استبداد النظم صنو للخلاص من استعباد أمريكا، المقاومة بالسياسة صنو للمقاومة بالسلاح، العصيان المدنى صنو للعصيان الوطنى، والتغيير الذى يبدأ من الرأس - ومن القاهرة بالذات - هو سورة الفاتحة وأم الكتاب.

إشارات

* إنهم يسرقون فرحتنا اليتيمة بلافتات نيون لجمال مبارك وهو يقبض يد بطل مصر العالمى - الفائز بذهبية المصارعة فى أوليمبياد أثينا - كرم جابر.

* الموت غرقا فى قيعان المتوسط. أو الموت خنقا فى سيارة ترحيلات. أو الانتحار هربا من غول الفقر. ثلاث نهايات واقعية جدا - حدثت وتحدث - لدراما غربة المصريين فى الوطن المصرى.

* لا تعيين بعد اليوم لأى شاب مصرى فى وظائف الحكومة والقطاع العام تصريح جرىء لرئيس الوزراء أحمد نظيف.

* بيانها بإدانة الزميل رفعت سيد أحمد هو وثيقة إدانة لشيء ينتحل صفة واسم المنظمة العربية لمناهضة التمييز.

* ومن - إذن - يدفع التعويضات للناس مقابل سنوات القهر تحت حكم الأخ البهلوان.

٢٩ أغسطس ٢٠٠٤

لا شرعية للرئيس

ماذا ينتظر تحالف أحزاب المعارضة الآن بعد أن أطلق الحزب الوطنى هوجـــة المـــبايعة لتنصيب الرئيس مبارك بالاستفتاء إياه لفترة ولاية خامسة يكمـــل بهـــا حكم الثلاثين سنة؟، هل سيظل البعض يردد معزوفة الشرعية مشـــروخة النغمات، وأى شرعية؟ هل هى شرعية حكم لا شرعية له بإنجاز التاريخ ولا بأصوات الناس؟، هل هى الشرعية على مقاس اعتبارات وزارة الداخلـــية وإشارات المرور المسموح والممنوع؟، هل هى شرعية الرئيس؟، المحكمـــة الدســـتورية حكمت قبل أربع سنوات بعدم شرعية أى انتخاب أو اســـتفتاء جرى بدون إشراف قضائى كامل، وكل استفتاءات الرئيس مبارك جـــرت بـــدون هذا الإشراف الكامل، والمعنى ببساطة أن حديث الشرعية لا موقـــع له من الإعراب فى سياق غير شرعى بالجملة، فمؤسسات البلد كلها تعيش فى الحرام الدستورى، البلد كله فى حاجة إلى إعادة تأسيس دستورى، البلد فى حاجة إلى نظام يتخلق من ركام، ونقطة البدء: اعتراف الكل بالكل، فـــالإخوان ليسوا وحدهم خارج أسوار الشرعية غير المأسوف على شبابها، بـــل ثمـــة تيارات وجماعات وشخصيات قومية وإسلامية ويسارية وليبرالية بالغـــة التأثـــير فـــى الحراك السياسى العام، وحجب كل هذه القوى الدافعة للتغيير يعطل الوصول للهدف، ويشكك فى مدى الاقتناع والإخلاص والجدية فـــى طلـــب هـــدف التغيـــير، فمنطق الاستثناء ضد منطق الحرية، منطق الاســـتثناء هو منطق الإخصاء، منطق الاستثناء يمد فى عمر الحكم بالأمر الواقع والبلطجة السياسية، ومنطق الاستثناء غير منطق الفرز، ومحك الفرز الحقـــيقى هـــو معركة الرئاسة لا دعوى شرعية بلا ظل من حقيقة، أحزاب المعارضـــة ذات الصـــلة بالسياسة فيما هو معروف تعارض نظام الاستفتاء على الرئيس، وتطالب بانتخابات مباشرة بين مرشحين متعددين، لكن الأمر لـــم يعـــد محجوزا فى مظنة الجدال والنظر، فقد أعلن الحزب الوطنى عن

ترشـيح الرئيس مبارك وبنظام الاستفتاء، والمطلوب: أن تعلن كل الأطراف وبوضوح معارضتها لترشيح الرئيس مبارك، ومن يتخلف عن المعارضة لا يصـح أن ينسـب لطـلاب التغيير، وسواء كان المتخلف حزبا شرعيا، أو محجوبـا عن الشرعية، وللحق فقد كان الحزب الناصرى والتيار الناصرى بأكمله ضد ترشيح الرئيس مبارك دائما، والمؤكد أن الناصريين سيواصلون موقفهـم المبدئى غير القابل للمساومة، والسؤال: ماذا سيفعل الوفد والتجمع والإخـوان؟، نتمـنى أن يفتح الله عليهم بكلمة مفيدة، فلم يعد ممكنا لأحد أن يهرب إلى كهوف الصمت، أو أن يلوى أعناق الألفاظ، أو أن يلهينا بمعارك جانبـية عـن الشرعى وغير الشرعى، فليس المطلوب مجرد بلاغة سياسية تقفـل الموضوع، المطلوب: عصيان سياسى لا مناورة سياسية، المطلوب: حركة جامعة من أجل التغيير، ولا قيمة لتغيير فى مصر لا يبدأ من الرأس.

إشارات

* حملة إعادة خلق الوزير إياه تثبت قوة اللهو الخفى.

* يوسف والى رغم إقالته رجل السر الباتع، أحدث دليل: تغييب مقال سكينة فؤاد بالأهرام.

* هل عندكم تفسير لتوحش نفوذ السيدة الفاضلة آمال عثمان فى مؤسسة أخبار اليوم؟.

٥ سبتمبر ٢٠٠٤

مسألة وقت

هزيمة أمريكا محققة فى العراق، والباقى مسألة وقت، المطيع لأمريكا طبعا كوفى عنان أصيب فجأة بنوبة شجاعة، وتذكر أن غزو العراق لم يكن شرعيا!، والمخابرات الأمريكية نشرت تقريرا غير مسبوق فى مغزاه، يحذر التقرير من المصائر المهلكة، ويقرر: أن الوضع فى العراق أصبح خارج السيطرة، وصحيفة الفاينتشيال تايمز البريطانية العاكسة للمصالح المالية والبترولية الكبرى خرجت عن تحفظها التقليدى، ودعت ومن الآخر إلى انسحاب منظم لقوات أمريكا وحلفائها قبل فوات الأوان، وهذه كلها أمارات للفزع المتخبط على الجانب الآخر، فقد انقلبت التصورات الأمريكية المسبقة رأسا على عقب، فالقوة المفرطة غبية بطبيعتها، والرئيس بوش الابن باختبارات الذكاء العلمية فى درجة غباء الغوريللا، وقد ذهبت أمريكا إلى العراق بغباء القوة المشفوع بغباء الرئيس، تصورت أنها ذاهبة للاستيلاء على أكبر مخزون بترولى فى العالم، وإعادة هندسة المنطقة والعالم بقرن أمريكا الوحيد، وكل يوم يمر يثبت استحالة المهمة، فقد خسرت أمريكا فى الحرب ٢٠٠ مليار دولار إلى الآن، وتجاوز عدد قتلاها وجرحاها بالتقديرات الرسمية المخفضة جدا رقم الثمانية آلاف، لم تقدّر أمريكا ولا حتى نحن قدرنا أن تكون المقاومة العراقية بهذه الشراسة، وبهذه المقدرة العالية على التنظيم وتوزيع الأدوار، فلسنا بصدد عنف عشوائى كما قد يوحى ظاهر الصورة، بل بصدد عمل مخطط مستهدف، بصدد هندسة عكسية بالضبط لهندسة المخطط الأمريكى المغرور بتفاهته، يريدون سرقة البترول فتفجر المقاومة على نحو متكرر شبه دورى خطوط الأنابيب، يريدون تنصيب حكومة عملاء فتحولها المقاومة إلى حكومة دمى، يريدون إغراء حلفاء وتوابع إقليميين ودوليين بنصيب فى الكعكة تحت عنوان إعمار العراق، فتبتكر المقاومة العراقية أسلوب الخطف والترويع، ولا معنى هنا

لتركيز مريب على حوادث من نوع خطف الصحفيين الفرنسيين وقتل النيباليين البؤساء، فلا جدال فى عبثية ومخابراتية حوادث الهامش الاستثنائى، ولا تصح نسبتها لمقاومة أثبتت أنها واعية مقتدرة بألف دليل ودليل، وتخوض حرب تحرير شعبية من طراز بالغ التفرد، وجمعت بطريقة خلاقة بين الفن العسكرى الراقى ونزعة الاستشهاد النبيلة، وتطورت على نحو مذهل من تكتيكات اضرب واهرب إلى تحرير مدن والتحصن فيها، وأحبطت كل محاولات افتعال فتنة أهلية، وتآخت قلاع المقاومة فى الفلوجة السنية، والنجف الشيعية وتل عفر التركمانية، وفى المدن الكبرى كبغداد والموصل والبصرة تبدو صورة العراق كشعب متجانس موحد على نداء المقاومة، فثمة وطنية عراقية جديدة تتخلق فى سياق ملحمة معجزة، وسيناريو تحرير العراق يبدو أكثر واقعية من سيناريو استقرار الاحتلال، وقد لحقت بالاحتلال فيما نظن هزيمة سياسية لا شبهة فيها، فكل مساعى إقامة نظام سياسى خاضع للاحتلال تتداعى كبيوت الرمل، والعراق الحى ربما باستثناء الجيب الكردى تتآلف تياراته القومية والإسلامية واليسارية على خط النار، وتوفير غطاء سياسي للمقاومة المسلحة هو الخطوة المقبلة المطلوبة، فثمة عصيان بالسلاح قد يؤدى بالتتابع إلى عصيان بالسياسة، وهذا هو الطريق لبناء نظام ديمقراطى يخلف ديكتاتورية صدام حسين، ويذهب بحكومة علاوى وأى علاوى آخر إلى حيث تستحق فى أقرب مقلب زبالة.

إشارات

* لا لتمديد رئاسة مبارك، ولا لتوريث جمال مبارك، ونعم لرئيس جديد ينتخبه الشعب.

* ربما لا يكون من تغيير حقيقى فى مصر إلا إذا حمل مبارك – أطال الله عمره – صفة الرئيس السابق.

* لا يكفى نزع صور جمال مبارك من ميدان التحرير، المطلوب: حجب طلعته فى الصحف والتليفزيون.

١٢ سبتمبر ٢٠٠٤

سرّ أبيه

لم نكن ننتظر جوابا من السيد جمال مبارك عن أسئلة التوريث والتمديد، فهو بلا مؤهلات دستورية وقانونية تسوغ له البت فى أسئلة حرجة تتعلق بمصير الدولة والشعب المصرى، وقد يصح أن ينسحب السيد جمال مبارك من المسرح السياسى، هذا بالطبع إن كان يريد لنا أن نصدق حقا أنه يرفض التوريث، لكن ما هى علاقته أصلا بالتصدى لجواب عن التمديد للرئيس مبارك لفترة ولاية خامسة يكمل بها حكم الثلاثين سنة؟، هل نفهم الحكاية على طريقة الابن الذى هو سر أبيه؟، وهل كلفه الرئيس مبارك بإعلان نيته فى الترشيح استنادا إلى مزاد المدد المفتوحة فى الدستور؟، مبلغ علمنا أن جمال مبارك لم يعين إلى اللحظة متحدثا رسميا باسم الرئيس أو الرئاسة، ومبلغ علمنا أيضا أن الرئاسة شأن سياسى ودستورى رفيع المقام، وليست شأنا عائليا ولا حكرا مخصوصا، أم أن الأفضل فيما قد يرى لنا السيد جمال مبارك أن نرمى ما نعلم كله فى البحر، وأن نرتضى بالهم والغم وحكم الأمر الواقع، وهو أن السيد جمال مبارك صار أشبه بالمقرر المدرسى، نرى طلعته البهية صباح مساء، ونتعود على مصر كأنها لا تكون إلا به، صامتا كأنه السيد أبوالهول، أو متحدثا كأنه الإنسان الآلى، ينطق الكلمات بطريقة الترجمة الإلكترونية، أغلاطه بالجملة فى الإملاء والنحو، وخطابه منزوع الروح، وتكراره ممل للإكليشيهات ذاتها، وكأنه لا يريد لنا أن نقتنع بل أن نرتدع، وأن نصلى صلاة مودع، ونسلم بالقضاء والقدر، ونبتلع ألسنتنا ونكسر الأقلام، فالمعركة باتت محسومة، وجمال مبارك حسمت له قيادة الحزب الحاكم على حد تعبير مانشيت لصحيفة بيزنس جهيرة فى مناصرة التوريث الرئاسى، وكأن هذا هو الهدف الذى عُقد لأجله مؤتمر الحزب الوطنى، فقد بدا كأنه مؤتمر التنصيب الرمزى لجمال مبارك، وربما تمهيدا أو جس نبض لإمكانات التنصيب الفعلى، فلثلاثة أيام كاملة لم

نر أو نسمع غير العبارات ثقيلة الظل، عبارات من نوع قال السيد جمال مبارك، أو أكد السيد جمال مبارك، أو أن السيد جمال مبارك سلم الأوسمة والأنواط، أو أن السيد جمال مبارك عقد مؤتمرا صحفيا، وإلى حد بدت معه القصة كلها كأنها كرنفال دعائى زاعق، ومعرض صور للسيد جمال مبارك، لا تختلف مشاهده المتتابعة بإلحاح إلا فى لون البدلة أو رابطة العنق، كثافة صور تزحم العين فلا تعود ترى أحدا غيره، ولا تعود تستكثر أن يحول الحول فترى جمال مبارك رئيسا بالأصل بعد الصورة، ولا تعود تفهم من تصريح السيد جمال مبارك برفض التوريث سوى المعنى المقتحم للبصر، وهو أنه يقصد أنه لا توريث رئاسى لأحد غيره، فإن بقى لديكم شيء من الفزع العقلى، فإن السيد جمال مبارك لديه الحل، فلا مانع عنده من التكرم وقد فعل بالإبعاد الصورى لشبح التوريث للابن، والمقابل: إيحاء لفظى بكسب أخف الضررين، وتأكيد فعلى لخطر التمديد للأب، وكأنه ليس لدى المصريين سوى الرضا بالتمديد العاجل أو انتظار التوريث الآجل!.

إشارات

* لا عزاء للذين انتظروا إصلاحا من حزب الرئيس، أو ينتظرون التحاور معه.

* صفوت الشريف - بالمشاهد الهزلية لمؤتمر الحزب الوطنى - هو الممثل الأنسب لدور الدوبلير السياسى.

* "كفاية" شعار عبقرى موجز دال جامع مانع أطلقته الحركة المصرية من أجل التغيير.

١٩ سبتمبر ٢٠٠٤

رئاسة مزدوجة

أخشى أننا بنص الأمر الواقع بصدد رئاسة ثنائية، الرئيس مبارك بسلطة الأمر الواقع يحمل اللقب الرفيع، ونجله جمال مبارك بحكم الأمر الواقع يمارس سلطات رئاسية ظاهرة، ومداولات مؤتمر الحزب الوطنى الأخير أعطت لجمال مبارك فيما يبدو حق التقرير، بينما تبقى للرئيس مبارك حق التعبير، ويلفت النظر إلى أن رئيس تحرير الصحيفة شبه الرسمية اليومية الكبرى أخذ الوضع الجديد فى حسابه، فقد كتب بهدوء مقالا حماسيا يشيد بإصلاحات مؤتمر الوطنى، ونسب للسيد جمال مبارك فى المقال المهندس استراتيجيا مقتطفين مطولين، بينما لم ينسب للرئيس مبارك سوى مقتطف واحد قصير بدا عابرا، وكأن رئيس الظل جمال مبارك ودون مؤهلات دستورية أو قانونية أصبح هو المصدر المعترف به لتوجيهات الدولة فى الاقتصاد والسياسة، وهو ما بدا مكرسا أكثر فى حوارات الدكتور أحمد نظيف رئيس الحكومة، فقد بدا غير مبال تقريبا بعبارة البعد الاجتماعى المنسوبة تقليديا للرئيس مبارك، بينما بدت التصريحات الديناميكية الجريئة فى أغلبها مشتقة مما يمكن تسميته برنامج جمال مبارك، وهو برنامج يتعامل مع الشعب المصرى كتركة ثقيلة وحمل زائد، ويتعامل مع ثروة الشعب المصرى وأصوله الإنتاجية والمالية كإرث مستباح، فكل شيء فى مصر تقريبا معروض للبيع والخصخصة، كل الشركات وكل البنوك وكل المرافق، أى أنه لا يراد لشيء أن يبقى تحت تسمية المال العام. وكل الجوانب المتبقية من الدعم ورعاية الدولة لمواطنيها يراد التخلص منها بالجملة، وفى ضربة أخيرة قاضية، فلا مجانية للتعليم ولا رعاية للعلاج ولا دعم لرغيف العيش، وتجريف الأراضى الزراعية مسموح به وعلى عينك يا تاجر، ملحوظة: وزير الزراعة الجديد قدر أن مصر خسرت مليونا و ٧٠٠ ألف فدان فى العشرين سنة الأخيرة. والدكتور نظيف فى حديثه لإبراهيم

نافع يضيف مئة ألف فدان أخرى مرشحة للتجريف فى السنوات العشر المقبلة، والطريف أن الدكتور نظيف يعلق على طريقة نانسي عجرم قائلا: أنا قلبى بيتقطع، لكنه سريعا ما ينسى قلبه، فهو مكلف بتنفيذ سياسة بلا قلب، وحين يستوقفه إبراهيم نافع متسائلا: هذه مسائل خاضعة للنقاش؟، يجيب الـ "نظيف" فى عفوية وتلقائية "خاضعة للنقاش بقلم سيادتك"!، أى أن المطلوب هو نقاش الترويج السلعى على طريقة الإعلانات عن مساحيق الغسيل، فنحن بصدد حكومة تغسل يدها من الشعب، تجرده من ماله وحاله، وتنسى أن تدفع له ثمن الكفن، فلا شأن لها بتوظيف أحد من سبعة ملايين عاطل، ولا علاقة تخصها بـ ٥٠ مليون مصرى تحت خط الفقر، فهؤلاء هم كتلة الشعب الغاطس التى يغيبها أدب الحكومة وراء ضباب التعبير العنصرى "محدودى الدخل"، وهم لا فى العير ولا فى النفير عند السلطة الطافية، فالهدف: التكويش على الثروة باسم نصرة قطاع خاص بلا دور مؤثر اجتماعيا وإنتاجيا، والتكويش على الثروة هو المعادل الاقتصادى لسياسة التكويش على السلطة، التكويش على الثروة يفصل أغلب المصريين من عضوية مصر، ويختصر مصر فى ناد مصرى مخصوص للسادة اللصوص، يخلق مجتمعا على الباترون، أو مصر مختصرة مصغرة على مقاس النجل الأصغر للرئيس مبارك، وفى مرحلة الانتقال من مصر الكبرى المرهقة إلى مصر الصغرى المريحة، فلا بأس من دور إضافى انتقالى للرئيس الأب، لا بأس من مظلة حامية راعية بتمديد رئاسة مبارك لست سنوات أخرى يضاف لها العام السابع الراهن، أى أن التمديد أشبه بحاضنة للتوريث على طريقة التوليد الصناعى بعمليات أطفال الأنابيب، وإلى أن نبلغ الأجل المحتوم - لا قدر الله - ربما نظل فى التباسات الرئاسة المزدوجة للأب والابن.

إشارات

* هل تنطبق على الشعب المصرى كلمات أغنية ليلى مراد "كان فعل ماض ما نسيبه فى حاله"؟!.

* هل سمعتم عن القرار الحاسم لسعيد البلتاجى محافظ سوهاج بتغيير اسم مركز بحوث تنمية إقليم جنوب الصعيد إلى مركز سوزان مبارك للعلوم والتنمية؟!.

* ربما لا يفيدنى الندم لأننى تعرفت إلى الراحل فتحى المغربى دون أن أعرف قدره.

٢٦ سبتمبر ٢٠٠٤

روح صاخبة

مفارقة رحيل محمود المراغى هى أن أكثر الشخصيات هدوءا وسلاسة لقيت نهايتها على نحو درامى صادم عاصف، النهاية الصاعقة المفاجئة ضاعفت الحزن مرتين، لكنها تومئ - وهنا المفارقة - لروح المراغى ربما على نحو أكثر دقة مما يوحى به حضوره البالغ اللطف مفرط التواضع الإنسانى، وقد أدعى - وقد عرفته كأستاذ فى المهنة والسياسة - أن الهدوء الظاهرى للمراغى كان يخفى قلقا وصخبا ورغبة دفينة فى التمرد، ربما لأنه لم يخن تلك الحقيقة التى بحث عنها بدأب مملكة النحل، فقد كان أكثر أبناء جيله حرفية، وكان أكثرهم موهبة فى صناعة الصحف، لكننا نظلمه لو اختصرنا ثراء حياته الفريدة فى صورة الجورنالجى المحترف، فلم يكن مجرد مخبر صحفى ممتاز، ولا مجرد صاحب مدرسة وشيخ طريقة فى الصياغة المدققة الرشيقة اللامعة، بل كان المثقف الموسوعى بامتياز، كان الاقتصاد - بالطبع - مركز اهتمامه ولعبته المفضلة، وكانت الأرقام مفتاح طريقته المميزة فى التفكير، ولا أظن أحداً جعل فهم الأرقام متاحا منسابا كالماء والهواء كما فعل محمود المراغى، لكنه لم يكن مجرد مثقف رقمى، وربما كان اتصال عشرته بالأرقام هو الذى جعله يتمرد على قانونها شبه المغلق، فانتقل من الخبرة بالاقتصاد إلى فهم السياسة، وهكذا تتابع مسار مؤلفاته من التنمية المستقلة وصولا إلى الإرهاب الأمريكى، ومن علل الاقتصاد المصرى إلى داء السياسة المصرية، فلم يتردد محمود المراغى يوما فى اتخاذ الموقف الذى يليق بشرط الضمير، والذى يريد أن يبحث عن جذور التطور الراديكالى فى خط "العربى" عليه البدء بعددها الأول، فقد كان المانشيت الرئيسى معارضا فى صراحة وقطع لتجديد رئاسة مبارك كانت الثالثة أيامها، والمعروف أن المراغى هو المؤسس لجريدة "العربى"، وهو الأستاذ المباشر لصحفييها الكبار، وقد كانت للأستاذ المراغى طريقة آسرة

فى نقل الخبرة، فهو لا يعلمك لتكون على مثاله، وإنما يعلمك - أولا - أن تختلف معه فى التقدير المهنى والسياسى، بل ويحرضك بهدوئه وصبره الذى لا ينفد على أن تختلف، ويفرح بأنه أخذ برأيك وكأنه كان رأيه الأصلى، وهكذا يكون طبع الكبار، وقد كان المراغى كبيرا بحق، حتى وهو يعتب عليك لأنك تجاوزت أو تماديت، فهو لا يؤنبك بحق الأستاذية، بل يناقشك عقلا بعقل، وينهى النقاش دائما ببسمة الرضا التى مات عليها، وربما لا يتسع المقام الحزين لشرح تأثرى أنا بالذات بالمجادلات مع الأستاذ المراغى، فأنا أبدو على نحو مختلف، لكنه الخلاف الظاهر الذى يستبطن اتفاقا فى عمق الروح، فقد كان وجه المراغى يبدو رائقا كصفحة النهر، بينما كانت الروح صاخبة كموج البحر.

عاجل لوزير التعليم العالى:
هذه المهزلة فى جامعة حلوان

لم أكتب فى حياتى عن مسألة شخصية، ولا أظن أننى - هذه المرة اليتيمة - فى وارد الخروج عن القاعدة المقدسة عندى، فالقصة عامة رغم وجود صلة شخصية، وتتعلق بطالب مصرى متفوق، أنهى سنوات دراسته بامتياز فى كلية الحاسبات والمعلومات بجامعة حلوان، وحصل على المركز الأول فى دفعة السنة الأخيرة لعلوم الحاسب الآلى، وتقدم بأوراقه - مع عشرات غيره - للالتحاق بالدراسات العليا، ولم يراوده الشك - ولا راودنى بالطبع - فى حصوله المؤكد بالبداهة على الفرصة التى هى أدنى مما يستحقه، لكن المفارقة - قل المهزلة إن شئت - أنهم استبعدوه هو بالذات، ولا ندرى السبب بالضبط، فهل أرادوا تكريمه بالحرمان؟، أم أن السبب المسكوت عنه هو أن اسمه الثلاثى: محمد عبدالحليم قنديل؟!.

هل أتوقع تدخلا منصفا عاجلا من وزير التعليم العالى د. عمرو سلامة؟، أو من رئيس جامعة حلوان د. عبدالحى عبيد؟، أم أن الأفضل والأسهل هو أن أسلم أمرى لله وأنصح ابنى بتقديم طلب للهجرة؟!

إشارات

* كامب ديفيد هى المتهم الأصلى فى تفجيرات طابا، لأنها جعلت مصر رهينة لحد السلاح الإسرائيلى، ولأنها جعلت فقراء المصريين خدما للسياح الإسرائيليين.

* التقيت فى أسبوع بخمسة عشر ألف مواطن فى مؤتمرين ببنى سويف والزقازيق، ولم أجد أكثر شعبية - بدلالة التصفيق الجماعى الحماسى المتصل - من نداء رفض التمديد للرئيس مبارك لفترة ولاية خامسة.

* سامية عطا الله - الزميلة بروز اليوسف - تواصل إضرابها عن الطعام لثلاثة أسابيع إلى الآن، فهل يتركها مجلس نقابة الصحفيين لمصير الموت لأنه يخشى عواقب التحقيق مع الامبراطور محمد عبدالمنعم؟!

١٠ أكتوبر ٢٠٠٤

كلّ هذا الصمت

كل هذا الصخب هناك، وكل هذا الصمت فى القاهرة!

فى مينسك عاصمة روسيا البيضاء خرجت تظاهرات عارمة احتجاجا على مد رئاسة لوكاشينكو لولاية ثالثة، وفى مصر لا يبدو من صخب رغم الهوان الجاثى، ورغم استعداد مبارك لمد رئاسته الممتدة أصلا لولاية خامسة يكمل بها حكم الثلاثين سنة كوارث، الصحف الحكومية أخفت خبر تظاهرات روسيا البيضاء أو تجاهلته تماما، والسبب مفهوم، فهى لا تريد الإسقاط. أو لفت الانتباه للبؤس المصرى الذى تفوق بالطبع على بؤس الحال فى روسيا البيضاء، غير المفهوم بالضبط هو موقف المعارضة المصرية، لا أتحدث بطبائع الأمور إلى أحزاب لا تبدو مشغولة بالقصة من بابها، أعلم أن الأغلبية الساحقة من قيادات وعضوية هذه الأحزاب تبدو معارضة على نحو جذرى، لكن المشكلة ربما فى قيادات وأهل الحل والعقد، فقد تواضع السقف السياسى لهؤلاء إلى حد يصعب اعتباره موحيا بمعارضة ذات مغزى، وآخرة هؤلاء أن يصدروا بيانا بلغة متلعثمة بسرد أمنيات ومطالب مجردة سابحة فى الهواء، أو أن يطلبوا عقد مؤتمر يُلغى بجرة قلم من ضابط أمن دولة، وربما يكون من حسن الحظ أن هؤلاء لا يعبّرون سوى عن شريحة ضئيلة من التيارات المنسوبة للمعارضة، وخطابهم السياسى المناور غالبا بات قديما مستهلكا وفات أوانه، والحزب الناصرى للحق هو الاستثناء الوحيد العالى السقف بين الأحزاب المسموح بها، وليس من فراغ أنه عارض دائما وعلى نحو مبدئى قاطع كل تجديد لرئاسة مبارك، وهو الموقف الذى باتت تلتقى عنده هذه المرة أغلب تيارات السياسة المصرية المحظورة، فهو بالطبع موقف كل الناصريين بتنوع أجيالهم وحساسياتهم، وهو أيضا موقف الأغلبية المؤثرة من الإسلاميين واليساريين والليبراليين الوطنيين، أضف: الطبيعة المتغيرة موضوعيا للمزاج السياسى

والاجتماعى، فثمة طلب متزايد على السياسة بعد عقود من الجزر المميت، وثمة سخط اجتماعى بمضاعفات تداعى الاقتصاد يهدد بالانزلاق إلى انفجار محقق، وهو ما يعنى أن عملا من نوع مختلف دقت ساعته، فقد زالت دولة المعارضة التى تدعى الرشد، وحان الوقت للمعارضة الساخنة، فقد انتهى التكويش فى الاقتصاد إلى تكويش على الرئاسة، وجرى استنزاف حيوية وثروة الشعب المصرى، وجرى اختزال مصر فى النادى المصرى الطافى على السطح شافطا للثروة والسلطة، وبات الحكم المصرى فى أغلب مكوناته وقراراته صناعة خارجية خالصة، وهو ما يعنى أننا فى أمس الاحتياج لانتفاضة وطنية، انتفاضة بالسياسة هى المعادل المصرى لانتفاضة السلاح فى العراق وفلسطين، انتفاضة بالسياسة تسترد الاستقلال الوطنى وترد العصمة للشعب، ونقطة البدء: تحالف وطنى واسع قد تكون نواته فى الحركة المصرية من أجل التغيير "كفاية" مع أقسام من توافق الأحزاب، نقطة البدء: فرز سياسى يعطى الأولوية لرفض تمديد وتوريث رئاسة مبارك، فلا حريات حقيقية ولا انتخابات نزيهة ما لم نبدأ بالتغيير من الرأس، ومن السخف وربما من قلة العقل أن ننتظر تعديلا فى الدستور يتكرم به السيد الرئيس، فنحن لا نريد مبارك رئيسا لولاية خامسة لا بالاستفتاء ولا بالانتخاب، فقد نُهبت مصر فى ٢٤ سنة من حكم مبارك كما لم تُنهب فى تاريخها الألفى، ومد الرئاسة إلى ثلاثين سنة هو حكم بالإعدام على فرصة مصر الأخيرة للإفلات من أقدارها التعسة، ولا نتصور أن ينزل الرئيس مبارك على رجاء أو شفاعة بترك الرئاسة، والبديل: عصيان سياسى سلمى يثبت أن الشعب المصرى هنا وليس فى القرافة.

إشارات

* هل يليق أن يكون المتحدث الرسمى باسم المعارضة عضوا عينته الحكومة فى مجلس الشورى؟!.

* وهل نيأس من روح أمة أنجبت أسطورة فى ألق الشهيد الفلسطينى عدنان الغول صانع صواريخ القسام؟!.

* وهل انتهى دور الريادة المصرى - بدلالة مؤتمر العراق بالقاهرة أواخر نوفمبر - إلى دور الوساطة.. بالأجر المعلوم؟!

١٧ أكتوبر ٢٠٠٤

تجريدة وحشية

تحتاج ربما إلى نزع عقلك لتصدق الرواية الرسمية لوزارة الداخلية عن المتهمين التسعة فى تفجيرات طابا نويبع، ولست بالطبع خبيرا أمنيا، ولا أنا ممن يعتقدون مع اعترافى بنياتهم الطيبة أن الموساد وراء الحادث، ولدى اعتقاد معقول أن الذين فعلوها مصريون بدوافع غضب قومى ودينى، فسيناء عادت منزوعة السلاح فى أغلبها، وهذه خطيئة السياسة فى كامب ديفيد التى وضعت مصر رهينة لحد السلاح الإسرائيلى، وفى شرق سيناء بالذات يبدو حضور الإسرائيليين الكثيف مستفزا من الوجهتين الوطنية والأخلاقية معا، وهذه بالقطع بيئة حاضنة محفزة لحوادث صدام كان لها صداها الوطنى الواسع، لعلنا نذكر حادثة الجندى الشهيد سليمان خاطر، ولعلنا نذكر أيضا حادثة الجندى أيمن حسن، كانت النظرة الرسمية جنائية فى حالة البطلين، وكانت النظرة الشعبية بدواعى شقاق أقرب للطلاق النفسى مع الحكم فى الجانب الآخر بالتمام، فقد وضع خاطر وحسن فى قلب قلب الشعب، وحالة المصريين الذين نفذوا تفجيرات سيناء الأخيرة ليست بعيدة كثيرا، فالدوافع مفهومة ومقدّرة عند الوطنيين المصريين بغالب اتجاهاتهم، وإن كان الخلاف واردا فى التقدير أو الجدوى أو طرائق التفكير، ومن المفهوم جدًا أن ينظر وطنيون مصريون لمنفذى تفجيرات تستهدف الإسرائيليين كفدائيين، صحيح أنك لا تملك أن تحجب دمعة ساخنة على فقراء المصريين الذين استشهدوا فى الحادث، فقد تواجد هؤلاء على مسرح الموت بمصادفة البحث عن رزق، لكنها اللقمة المغموسة فى المهانة، فقد تواجد هؤلاء كخدم لسياح إسرائيليين هم فى وضع الغزاة، ولا معنى هنا لحديث عن هيبة دولة وقعت على أراضيها حادثة عنف ضد أجانب، فالإسرائيليون عناوين اغتصاب، وليست لهم حصانة الزائرين والسياح على الرحب والسعة، ولا يوجد إسرائيلى واحد له مقام البريء، وكل إسرائيلى

هدف مشروع للمقاومة فى فلسطين أو فى غيرها، وإقدام مصريين على عنف ضد وجود إسرائيلى مفهوم ومقدر بهذه الدواعى كلها، لكن التأمل العابر فى براعة تخطيط وتنفيذ الحادث يثير الشكوك فى رواية التسعة المنسوبة لوزارة الداخلية، والسير الذاتية المنشورة فى الصحف الرسمية لأسماء المتهمين التسعة لا توحى بإمكانية للتصديق، فالرواية مليئة بثغرات وخروق قد لا تنفع معها الرتوق، والمتهمون بالتنفيذ طبقا للرواية أربعة، اثنان ماتا فى موقع الحادث بينهما فلسطينى، واثنان فى عداد الهاربين، ولا يوجد دليل مقنع على أن اللذين ماتا ليسا من ضحايا الحادث بل صنّاعه، ولا يوجد ربط مقنع بحسب ما نشر بين أربعة مات نصفهم واختفى النصف الآخر، والخمسة المتهمون بالمساعدة فى وضع أغرب، وقد كان ملفتا أن جريدة الأهرام التى نشرت بيان الداخلية راحت تستفتى الأهالى، ولم تجد عند الأهالى غير الإنكار التام للرواية مع فيض من علامات التعجب، وأخشى والأمر كذلك أن أجهزة الأمن قد تكون تحاول إغلاق الملف بأى طريقة والسلام، تحاول إثبات نجاح وهمى فى مهمة لا تبدو مقدسة من أصله، وتعتمد فكرة اليد الباطشة لا العين الفاحصة، وتنشر جوا من الإرهاب والرعب والإكراه على الاعتراف تغطية لإخفاق محتمل، إذ لو كان المنفذون حقا هم المتهمين التسعة لتوقفت يد البطش فاستراحت وأراحت، لكنها راحت تعتقل وتعذّب الآلاف فى تجريدة أمنية غير مسبوقة حتى فى زمن الاحتلال الإسرائيلى المباشر لسيناء، واستغاثات القيادات الوطنية فى العريش تقدّر عدد المعتقلين بما يقرب من خمسة آلاف، وبين المعتقلين عشرات النساء، وثمة أنباء غير مؤكدة تستدعى التحقيق العاجل عن وفاة ثلاثة مصريين معتقلين من سيناء تحت التعذيب، وكأن المطلوب هو دهس المصريين فى سيناء كسبا لرضا الإسرائيليين، وكأن المطلوب هو تصوير المصريين فى سيناء كمجرمين وجب عقابهم لأن بعضهم قد يكون مجهول الاسم إلى الآن فكر فى المس بالإسرائيليين المسالمين!. وهذه قمة التزوير لمعنى السيادة، فالسيادة الحقيقية حق للشعب لا لهمجية العساكر السود الملثمين من فرق تدّعى مكافحة الإرهاب !، السيادة الحقيقية تكون بنشر جيش مصر عظيم الاعتبار حتى حدودنا مع فلسطين المحتلة، السيادة الحقيقية تكون بمواجهة الإسرائيليين لا بالتعذيب الوحشى للمصريين، وحكم

النهب العام المستند لعصا الكبت العام يفعل العكس بالضبط، إنهم ينشرون الفزع وسوف يحصدونه.

إشارات

* لماذا لا تبادر القوى الوطنية للاعتصام فى القاهرة وليس فى العريش فقط دفاعا عن الكرامة المهدرة لآلاف المعتقلين المصريين فى سيناء؟.

* نكتة الأسبوع: الحكومة رفضت عقد مؤتمر المعارضة فى ميدان عابدين حتى لا يتعطل المرور، وكأن مواكب الرئيس والوزراء هى أفضل وسائل فك اختناقات المرور!.

* وللخائفين نقول: نعم نحن بحق الحرية نرفض تمديد رئاسة مبارك لولاية خامسة، ونرفض التوريث بالقطع لأننا لم نخلق تراثا ولا عقارا ولا أغوات فى مملكة البيزنس.

* قرابة السبعمائة مثقف مصرى وقعوا إلى الآن على بيان الحركة المصرية من أجل التغيير "كفاية" برفض التمديد والتوريث، وعنوان الموقع الالكترونى للتوقيعwww . harakamasria. com

* محمد سعد خطاب مواطن مصرى محبوس بتهمة الشرف والدفاع عن الحق العام، ربما لو كان حصل على شهادة بسوء السير والسلوك لأصبح وزيرًا.. بتفاحة!.

٣١ أكتوبر ٢٠٠٤

نفير عام

لم تدمع عينى التى نزفت دما بالضرب والتنكيل والإهانة فى حادث الاختطاف الدنيء، لكنها دمعت بحق مع فيض مشاعر عطف كريمة مذهلة غمرتنى بها النفوس الطيبة، فى الحادث الدنيء انقسمت إلى شخصين، جسد هو موضوع التنكيل والترويع والتهديد بالقتل، وروح تراقب ما يجرى فى سخرية مريرة، وما هى إلا ساعات حتى عاد الالتئام لنفسى المشطورة، فقد بدا أن مصر كلها كانت على موعد مع الحادث الدنيء، كأنها التنظيم الجاهز المتحفز المنتظر لإشارة البدء، ولم يكن شخصى الضعيف قلب القصة ولا عنوانها الرئيسى، فقط اختصتنى الأقدار بدور فى الدراما هو بالقطع فوق ما أستحق، فالحادث الدنيء الذى دبرته سلطة "اللهو الخفى" أريد به وقف الكلام عن الكبار، أريد به التحذير الدامى وسوق العبرة والعظة المرعبة، أريد به التخويف العام، ولم يحسب الأغبياء حسابا لمضاعفات اللجوء الخشن إلى البلطجة، فقد انقلب التخويف بالمفارقة إلى نوبة صحيان، وانتقلت مدارات الحركة من مسرح العبث إلى خشبة التاريخ، وثبت أن مصر المحتقنة بالغضب تريد التغيير الآن، ثبت أن مصر كلها ساخطة رافضة لحكم العائلة، فليست القصة فقط فى استبداد سياسى عصف وتوحش، وليست القصة فقط فى تداخل السلطة والثروة على نحو مخيف مفزع، وليست القصة فقط فى تخطى دولة القانون إلى قانون المافيا، وتراخى سلطة الدولة إلى حكم العصابة، وليست القصة فقط فى مليارات المال الحرام، وليست القصة فقط فى نهب ألفى مليار جنيه مصرى فى مجالات بيع القطاع العام وهروب الأموال وقروض البنوك، وليست القصة فقط فى بطالة السبعة ملايين وفقر الخمسين مليون مصرى، وليست القصة فقط فى تضييع الاستقلال الوطنى وتحويل مصر إلى مستعمرة أمريكية، وليست القصة فقط فى خنق دور مصر إلى أن صارت بلدا فى الجراح غائبا محجوزا عن

سباق التاريخ، وليست القصة فقط فى سلطة شاخت على مقاعدها، فهذه كلها أمارات دالة على بؤس الوضع الذى أوصلونا إليه، وأعلى مراحل البؤس أن تحول التكويش على الثروة إلى رغبة محمومة فى التكويش على السياسة والرئاسة بالذات، فقد جرى اختطاف مصر على مدى الثلاثين سنة الأخيرة، وتداعى السيناريو المنهك خانقا للروح على مدى ٢٤ سنة من حكم الرئيس مبارك، جرى دهس المصريين بأحذية القهر الثقيلة، جرى شطب الشعب المصرى بجرة قلم، واستبدلوا بالشعب المصرى الغاطس النادى المصرى الطافى، وانتهى حكم البيروقراطية إلى الكليبتوقراطية أى حكم اللصوص، وراح النادى المصرى المحظوظ بالثروة والسلطة يرتب أوراقه لإقامة طويلة، راحت جماعة المماليك فى طبعتها البيزنسية تتدافع بالمناكب من حول بيت السلطان، وانتهى التدافع إلى حل وسط بين المماليك القدامى والجدد، حل يمد الولاية اسميا للرئيس مبارك إلى ثلاثين سنة، ويعطى الولاية الفعلية للرئيس الابن الموعود بالتوريث، حل ينتهى بنا إلى وضع غير مسبوق حتى فى أسوأ عصور الملكية، فالرئاسة مزدوجة والحكم ثلاثى معلوم الأطراف، وفى وضع الخطر بالجملة قد لا يصح الغرق فى التفاصيل، فالكلام بالقطعة مع تداعى الخطر بالجملة ترف فى القول ونقص فى العقل، والكلمة تحت الخطر – بتعبير الأستاذ هيكل – غالية، بينما الكلمة فى مأمن – بنصّ الأستاذ – تبقى رخيصة، وأبسط ما يجب أن يقال مع بعض المجازفة بتحدى المخاطر أنه لا تغيير فى مصر ما لم يبدأ من الرأس، لا تغيير فى مصر ما لم يبدأ بكنس فساد الكبار، فهم لم يصبحوا كبارا إلا بعد أن صغرت مصر، وفضل الحادث الدنيء إن صح للدناءة فضل أن كان له دوى النفير العام، وويل للظالمين حين تستيقظ مصر.. وقد بدأت.

٧ نوفمبر ٢٠٠٤

من الذى قتلهم؟

حادث استشهاد ثلاثة جنود شرطة مصريين جنوب رفح بنيران إسرائيلية ليس الأول ولن يكون الأخير، صحيح أن مقتل أى مصرى فى ظروف مهينة يثير الأسى الوطنى العام، لكنى أزعم أن الشهداء الثلاثة هم ضحايا خطأ ربما خطيئة السياسة المصرية، وليسوا بالطبع ضحايا خطأ عرضى مزعوم من شارون والجيش الإسرائيلى، بل إنه - على الأرجح - قتل متعمد، ويقصد به الإذلال والإهانة، وربما يحمل فى طياته نوعاً من الرد على قتل إسرائيليين فى حادث تفجيرات طابا قبل أسابيع، الأهم ربما أن حادث رفح كحادث طابا يكشف الغطاء عن حقيقة الأوضاع المهينة التى تردت إليها مصر مع عقد اتفاقية كامب ديفيد المعروفة تزويرا باسم معاهدة السلام، حادث طابا كشف الحضور الكثيف للإسرائيليين فى شرق سيناء، وحادث رفح الذى تزامن مع ذكرى ذهاب السادات للقدس المحتلة - كشف الغياب المثير لحد السلاح المصرى عند خط الحدود، فالضحايا المصريون من قوات شرطة بأسلحة شخصية، والجناة الإسرائيليون وراء قذائف الدبابات عند خط الحدود، الحقيقة المهينة معروفة للأسف، وإن تواطأ النظام المصرى على حجبها عن الشعب على مدى ربع قرن إلى الآن، رغم أن الوثائق منشورة من طرف جهات رسمية بينها وزارة الخارجية، وطبقا للوثائق جرى تقسيم سيناء إلى ثلاث مناطق، منطقة منزوعة السلاح شرق سيناء، ومنطقة مقيدة التسليح وسط سيناء إلى غرب المضايق الاستراتيجية، ثم وجود متفق عليه للجيش المصرى عظيم الاعتبار شرق قناة السويس، وإلى مدى يزيد قليلا على خمسين كيلو مترا، وهذه خطيئة السياسة التى قيدت حق السلاح الطبيعى فى الامتداد بالوجود إلى خط الحدود، وهو ما يجعلنا دائماً فى وضع الرهينة لحد السلاح الإسرائيلى، الأغرب: أن ملف وثائق المعاهدة المشئومة يقرر تقييد سلاح منطقة رمزية على الجانب

الآخر، المنطقة تحمل الرمز الكودى "د" وهى بعرض ثلاثة كيلو مترات لا غير، وممتدة بموازاة خط الحدود- مع فلسطين المحتلة - من البحر المتوسط إلى خليج العقبة، ولم يفرض على اسرائيل فيها نزع السلاح بالكامل، بل تقرر وضع أربع كتائب مشاة إسرائيلية فيها بلا دبابات ولا بطاريات مدفعية، وبالطبع لم تلتزم إسرائيل بالاتفاق الذى فرض على مصر برعاية ورقابة الشريك الأمريكى، وظل وجود الجيش الإسرائيلى قبل ومع وبعد حادث الشهداء الثلاثة ملاصقا بالكامل لخط الحدود. وليس سرا أن الشهداء الثلاثة راحوا ضحايا لنيران قذائف دبابات إسرائيلية تكاد تخترق خط الحدود، ولا هو سر أن القوات الإسرائيلية تعودت على انتهاك حدودنا ولو عبر خطوط النيران، وتوالت الوقائع وتكاثفت إلى حدود تفوق الاحتمال فى سنوات الانتفاضة الفلسطينية بالذات، وهو ما يعنى ببساطة أن النظام المصرى بالغ فى الالتزام بالشروط المجحفة التى فرضت فى معاهدة السلام المزعوم، وبما فيها التزام بتصدير مليون برميل بترول مصرى سنويا لإسرائيل تزود به مصانعها وطائراتها ودباباتها، بينما تنتهك إسرائيل حتى الشرط الرمزى اليتيم تقييد سلاح المنطقة "د" الموضوع ذرا للرماد فى العيون، وهو ما يدعو بالقطع لإعادة نظر ومراجعة للمعاهدة المشئومة ولو من وجهة نظر الالتزامات المتبادلة، لكن النظام المصرى - ربما بالقطع نفسه - لا يريد المراجعة ولا إعادة النظر، ولا هو مستعد لتحمل أعبائها، السبب - ببساطة - أن كامب ديفيد لم تكن مجرد اتفاقية، إنها نظام سياسى واقتصادى فرض على مصر، فقد عادت سيناء إلى مصر على طريقة الذى أعادوا له قدما وأخذوا عينيه، فسيناء منزوعة السلاح فى أغلبها، والقرار المصرى بمضاعفات المعونة الأمريكية اللصيقة اللاحقة لكامب ديفيد تآكلت حصانته وانتهى إلى وضع منزوع السيادة، وهو ما يجعل من هدف مراجعة كامب ديفيد خيطا متصلا بمراجعة وضع النظام نفسه، فالنظام باختياراته السياسية والاقتصادية والثقافية - هو نظام كامب ديفيد، وأسر سيناء انتهى - بتتابع القيود التى صاحبته وأعقبته - إلى سجن مصر، والتكويش على الثروة والسلطة - بالخصخصة والنهب فالتمديد والتوريث - صنو مباشر لتفكيك الحصانة وتضخم المكون الأمريكى فى صناعة القرار المصرى، ومهانة القتل المجانى بنيران الإسرائيليين هى ذاتها مهانة الحياة فى بلد

محكوم بأوامر المندوب السامى الأمريكى، ونقض دعوى شرعية كامب ديفيد هو ذات النقض لدعوى شرعية النظام.

إشارات

* النظام المصرى استبدل السياحة بالسياسة، وانتهى بدلالة استضافة مؤتمر العار فى شرم الشيخ للعب دور الوكيل السياحى المفوض بتسويق السياسة الأمريكية.

* هل نتساءل عن إسلام شيخ الأزهر الذى ندد فى حوار أخير مع قناة "الحرة" الأمريكية - بغزو العراق للكويت قبل ١٤ سنة، ولم يفتح الله عليه بحرف يدافع عن شرعية المقاومة أو يشيد بمجاهدى الفلوجة أو يندد بفظائع احتلال أمريكى يدهس كرامة الأمة الآن.

* غزوة الجراد الأحمر الأخيرة لسماء القاهرة تتويج رمزى لهجمة جراد الفساد الأسود الذى ابتلع ثروة مصر ونهش روحها لمدى ربع قرن من حكم الرئيس مبارك.

* سأظل مدينا إلى آخر العمر لانتفاضة الضمير الوطنى التى جعلتنى ألمس بالعين واليد معنى أن تكون فى حماية شعب.

* الحارس هو الله عبارة امتنان تلقائى طفرت من عينى تأثرا بعرض مئات المواطنين فى اتصالات تليفونية جياشة لدور الحارس الخاص لشخصى.. وبالمجان.

٢١ نوفمبر ٢٠٠٤

استحضار شعب

هل يكفى أن نعلن المعارضة للتمديد والتوريث؟، لا نظن، فنحن لا نبحث عن راحة ضمائر زائفة، ولا نكسر الخطوط الحمراء لمجرد إثبات شجاعة، فهذه شواغل أفراد لا تليق فى لحظة خطر جماعى، ورفض التمديد والتوريث بالفعل قبل القول هو الحد الأدنى اللازم لبعث حركة تغيير حقيقية فى هذا البلد، هو الحد الأدنى اللازم لإيقاظ شعب يدوسونه بالأقدام، فهم يتعاملون مع الشعب المصرى كأنه الحمل الزائد، يحسن التخفف منه، أو تجاهله بالجملة، فقد انتهى التكويش على الثروة والسلطة إلى تكوين شعب خاص فوق رقاب الشعب المصرى، شعب خاص أقرب إلى النادى المصرى بديلا للشعب المصرى، شعب خاص بيده الحل والعقد وفوائض النقد، ولعل ظاهرة إعلانات التعازى المثيرة تعطى المثل الموحى، فقد تدفقت إعلانات تعازى بعشرات الملايين من الجنيهات فى وفاة شقيق الرئيس مبارك رحمه الله، فى مناسبة سابقة أوقف الرئيس مبارك إعلانات تعازى فى وفاة قريب، لكنه لم يفعلها هذه المرة، بالطبع لم يطلب الرئيس مبارك من أحد أن يفعل، لكنه لم يطلب الإيقاف مما قد يشى بالرضا، وأغلب الظن بطبائع الأمور أن أغلب المعلنين لم يكونوا على صلة شخصية بالمهندس سامى مبارك المتوفى هذه المرة، وأنهم لم ينهضوا لواجب العزاء الإعلانى إلا على سبيل المجاملة للرئيس مبارك، وقد كان يمكن أن يكتفوا ببرقيات عزاء ترسل بالبريد، فهذا ما يفعله الناس فى الدول المحترمة، لكنهم حولوا مناسبة عزاء جليلة إلى مزاد فى بورصة أسهم، وبعثروا ملايين الجنيهات ربما طمعا فى مزيد من المليارات، والأسماء فى ذاتها وثيقة اجتماعية وتاريخية بليغة، فأغلب أسماء المعلنين من القطط السمان، إنهم جمعية المنتفعين بالتكويش على الثروة والسلطة، وهم الشعب الطافى الذى يستند إليه حكم الرئيس مبارك، وقد تحولت إعلانات التعازى إلى هوجة مبايعة، وكان ملفتا أن التعزية للرئيس

مبارك اقترنت بتعزية لصيقة للابن جمال مبارك، فالذين يناصرون التمديد للرئيس مبارك هم بالاسم والرسم دعاة التوريث، إنها المصالح المليارية التى سرقت عرق وثروة الشعب المصرى، ولعلها مصادفة ذات مغزى أن أسابيع التعزية الإعلانية انتهت إلى إعلانين جهيرين، إعلان بالتمديد الرئاسى لمبارك الأب وبنظام الاستفتاء على لسان فتحى سرور رئيس مجلس الشعب، قبلها بساعات كان مبارك الابن فى أسيوط، ومحاطا بموكب رئاسى أغلقت له الطرق وفرض حظر التجول، وكأنهم يبعثون برسالة احتقار للشعب المصرى ومثقفيه الرافضين للتمديد والتوريث معا، ما العمل إذن؟، ثمة اختياران بلا ثالث، الأول: أن نكسر الأقلام ونسد الأفواه ونطوى الصحف، والنتيجة: كارثة مزدوجة، كارثة بمد الأجل لحكم النهب والكبت إلى ثلاثين سنة مرشحة للتضاعف بالتوريث، وكارثة أن تنزلق البلاد إلى فوضى دموية لا يعلم مداها إلا الله، فمصر الجغرافيا تختنق بالضغط الإسرائيلى فى الشرق وضغوط تفكيك السودان فى الجنوب، ومصر البشر تختنق بركام البطالة وتدنى المقدرة وتوحش الفقر وضغط الاستفزاز الاجتماعى والأخلاقى لجماعات الترف من حول بيت السلطان، قبل سنين كان يجرى تنفيس الضغوط ولو جزئيا بهجرة البحث عن رزق خارج الحدود، وقد ضاقت هذه المخارج حتى كادت تنغلق، وانتهى المصريون إلى حالة من التربص الاجتماعى الممهد لانفجار عفوى وشيك، ونخشى أن كلفة الحساب الاجتماعى بالطريقة العفوية قد تكون فوق ما يحتمل هذا البلد، والاختيار البديل: حساب سياسى ممدود الصلات بهموم المجتمع المختنق الساخط، البديل: عصيان سياسى بالتظاهر والإضراب والاعتصام السلمى، البديل: استحضار شعب هو الكفيل وحده بقطع الطريق على خطة التمديد وقص دابر سيناريو التوريث، البديل: أن نقول لا فى الشارع، وبعمق الوجع المصرى، لا أن نكتفى بإبراء الذمة من فوق المنابر وعلى أعمدة الصحف.

إشارات

* **استطلاع دولى:** سبعة مصريين من كل عشرة يكرهون حكامهم، ويرون أن مستقبل البلد مظلم جدا.

* **مفارقة مصرية:** شرف المحاسب محمد سعد خطاب صاحب "الكتاب الأسود لوزير الإسكان" انتهى به إلى الحبس، وسوء سيرة وسلوك آخرين وضعهم على مقاعد الوزراء!.

* الحزب الوطنى يشعل حرائق الاحتقان الطائفى ربما هربا من ضرائب الانفجار الاجتماعى.

* البيان الختامى فى المسألة العراقية لسلاح المقاومة لا للدمى التى ائتمرت فى شرم الشيخ.

٢٨ نوفمبر ٢٠٠٤

اعترافات وزير

تصريحات الوزير الليثى أخطر اعترافات علنية لمسئول مصرى كبير عن الفساد الذى يحكم ويعظ، فى مرات سابقة أعلن د. زكريا عزمى رئيس ديوان الرئيس أن الفساد فى المحليات وصل لـــ "الرُكب"، وفى نوبة معارضة كنوبة الأنفلونزا صعد عزمى بحجم الفساد فى المحليات حتى وصل للرقبة، وربما لم يستوقفه أحد ليسأله عن دوره بالضبط، فهو مسئول مركزى فى حكم مسئول بالبداهة عن كل هذا الفساد حتى لو كان فى المحليات، فالفساد فى إدارة المحليات ليس مقطوع الصلة بطبائع الأحوال بفساد الإدارة المركزية، ووزير الزراعة المهندس أحمد الليثى فى حوار متفجر أجراه لـــ "العربى" الزميل صالح رجب ألقى بقنبلة النار لتشتعل فى وجوه الجميع، الليثى فى الحوار المنشور بهذا العدد قال بالحرف الفساد فى المحليات مهما بلغ لن يوازى أبدا الفساد فى الإدارة المركزية، الاعتراف خطير، خاصة أنه يصدر عن وزير فى الحكم لا عن زعيم لحزب معارض، وربما يدرك الليثى ضمنا خطورة ما يقوله، فهو يوجه نداء للمصريين لحماية شخصه، ولا يتردد فى القول بأنه يخشى الاغتيال على يد مافيا الفساد فى وزارة الزراعة، فتقارير الأجهزة الرقابية تنتهى إلى الحبس فى الأدراج أو إلى سلة المهملات، والفساد هو معيار الترقى إلى المناصب العليا، ومئات الملايين من الجنيهات ذهبت كرشاوى للصحافة الحكومية لتجميل الصورة والتستر على فساد توحش، صحيح أن الليثى يتحدث عن وزارة الزراعة ومافيا موروثة من عهد يوسف والى، لكن وزارة الزراعة ليست كأى وزارة، ويوسف والى لم يكنِ كأى وزير، وربما لو صح اختصار مصر بطبعها الزراعى فى وزارة لكانت وزارة الزراعة، ولو صح اختصار حكم مبارك فى وزير لكان يوسف والى، فوزارة الزراعة ضاربة بالعمق والطول والعرض فى جغرافيا مصر والنخاع العظمى لجهاز الدولة،

ممتدة من قاعدة الهوان المصرى فى بؤس الفلاحين إلى رأس النهب المصرى فى قمة الهرم الحاكم، أى أن ذكر ما جرى فى وزاة الزراعة هو تذكير بما يجرى لمصر كلها، وذكر سيرة يوسف والى كوزير هو التلخيص غير المخل لمأساة متصلة، وكشف لشبكة عنكبوتية تداخلت فيها خيوط الركود فى الحكم مع توحش الفساد وسطوة التزييف الإعلامى المرتشى، سيرة والى كوزير هى التلخيص غير المخل لمأساة دهس بلد فى ليل العهد الطويل للرئيس مبارك، فوالى أحد وزيرين الآخر صفوت الشريف استعصيا على التغيير لمدة ٢٢سنة، أى أن سنوات توزيره تقارب سنوات حكم الرئيس، وقد كان فى أغلب السنوات جاثيا باركا فى المنصب الثانى لمنصب الرئيس فى الإدارة السياسية البيروقراطية المسماة بالحزب الوطنى، وكان الرجل حتى بمصادفة اللقب هو الوالى الأكثر نفاذا لبيت السلطان، ولا أحد ينسى عبارة بليغة للرجل الذى كان يفضل الانزواء فى كهف الصمت، فقد قال مرة مع تفجر فضيحة فساد كبرى فى وزارته كلنا سكرتارية تعمل بأوامر الرئيس مبارك، وربما تكون هذه العبارة مع ضيقه بصعود جمال مبارك هى السبب فى إزاحة والى المتأخرة جدا، ففيها اتهام ضمنى ربما صريح لمسئولية الرئيس، ولا أحد يحزن غير المستفيدين بمزاد الإثراء الحرام لذهاب يوسف والى، لكن إزاحته قصد بها على الأرجح نوع من الغسيل لسمعة حكم، والأصح بالقانون والسياسة: أن نطلب محاكمته، ولن يقدم النظام بالطبع على هذه المحاكمة، فهى ليست محاكمة لوزير بل محاكمة لعصر الرئيس مبارك كله، وأغلب الظن أن التصريحات الجريئة للوزير الليثى وهى مسجلة بالحرف قد تذهب به إلى أحد مصيرين، فإما أن يركب أقرب تاكسى إلى بيته مطرودا من كرسى الوزارة، أو أن يطوى لسانه وينتهى إلى تقبل الترويض فى بيت الوحش.

تظاهروا تصحوا

الحركة المصرية من أجل التغيير - بالمشاركة مع الحملة الشعبية - دعت إلى مظاهرة سلمية فى الثانية بعد ظهر الأحد المقبل أمام دار القضاء العالى، ونظن أن المبادرة تستحق الدعم والتجاوب النشيط، فهى ترد الاعتبار لأولوية الوجع المصرى باعتباره جوهر القضية العربية، وهى ترد الاعتبار لحركة الناس بدلا من عادة رفع المظالم للسلطان على طريقة

العرضحالجية، وهى تقيم الاعتبار لفكرة اكتساب الحرية بدلا من التسول السياسى على أرصفة النظام، وهى تقيم الاعتبار لفكرة تغيير الرئيس بدلا من التوهان فى مماحكات إجرائية من نوع الاعتراض الدستورى فقط على نظام الاستفتاء، فلا تغيير حقيقى بغير إزاحة ركام حكم لا نظام حكم عنوانه فى الاقتصاد هو الفساد وعنوانه فى السياسة هو البلطجة، ولا أمل فى خلاص للشعب المصرى لو جرى مد أجل رئاسة مبارك لولاية خامسة، أو حجزنا كرعايا وسبايا فى عربة ترحيلات خانقة وتسليمنا على سركى من الرئيس الأب إلى الوريث الابن.

٥ ديسمبر ٢٠٠٤

إيدز سياسى

إنه الانقلاب الإسرائيلى فى السياسة المصرية، إنها كامب ديفيد مجددا، كامب ديفيد السادات انتهت إلى إخراج مصر من حلبة المواجهة العربية مع كيان الاغتصاب الإسرائيلى، وكامب ديفيد مبارك هذه المرة هى الخطوة الأخيرة إلى قاع القاع، ودمج مصر فى شرق أوسط جديد يجرى صهره بنار السلاح الأمريكى تحت القيادة الإسرائيلية، فليست القصة فى صفقة الإفراج عن الجاسوس عزام عزام على رداءتها وسوء مغزاها، بل إن الصفقة المخجلة ليست إلا جانبا يسيرا من صفقة مقايضة بالجملة، صفقة بعزام والكويز. وكبت حريات الصحافة الوطنية. أو عادة السفير المصرى لإسرائيل. ودعم خطة شارون فى غزة. وفك اختناقات الاحتلال الأمريكى للعراق على نحو ما جرى مؤخرا فى مؤتمر شرم الشيخ، والمقايضة بالبداهة هى قانون الصفقات، والمقايضة هذه المرة موضوعها شديد البساطة والفداحة معا، بيع مصر دورا وكرامة واقتصادا مقابل البقاء فى الحكم ولو على سبيل الوكالة السياسية، فالرئيس مبارك قد لا يعنيه هذه الأيام الحرجة سوى استحقاقات الداخل فى العام المقبل، وقد لا يعنيه شىء بالمرة سوى الرغبة المعلنة من جانب المماليك والأغوات فى مد رئاسته لثلاثين سنة، وقد لا يعنيه أكثر من إفساح الطريق لسيناريو توريث الرئاسة لنجله جمال مبارك، وهو يعرف بالطبع أن ثمة معارضة داخلية للتمديد والتوريث، لكنه لا يلقى لها بالا، فالسياسة الحاكمة أسقطت الشعب المصرى من حسابها من زمن، ووقع الطلاق بين الحكم الطافى والشعب الغاطس، فالحكم لا يستند إلى شرعية بأصوات الناس ولا بإنجاز التاريخ، وشرعيته الافتراضية وحيدة القرن، فهو لا يحكم إلا برضا أمريكا ولا يخاف إلا غضبها، وحجز تذكرة سفر من المحطة الإسرائيلية أكبر ضمان للوصول بسرعة الضوء إلى قلب أمريكا، ولم تتلكأ السياسة المصرية مع اقتراب المواعيد، وألقت بحملها كله

فى الحجر الإسرائيلى عله يكفى زادا للإغراء بالقبول، وأنهت بالجملة تمنّعا كان يراد به حفظ ما تبقى من ماء الوجه الغائض، أفرجت عن الجاسوس عزام بعد تمنّع السنوات الثمانى، وأقبلت على اتفاقية الكويز وكأنها آخر الزاد بعد تمنع السنوات الثمانى نفسها، واندفعت أبواق دعاية منزوعة الضمير تبرر وتروج لسياسة تدهس الضمائر، فقد صار عزام فجأة مجرد جاسوس محروق لا مانع من إطلاق سراحه!، بينما كان الرئيس مبارك يردد بطريقة شبه روتينية أن عزام مسجون بحكم قضائى واجب الاحترام مستحيل الوقف، واكتشفت الخير العميم ببركة المنشأ الإسرائيلى فى اتفاقية الكويز التى تحل مشاكل التصدير والصناعة والبطالة بلطشة سحر!، وكأن الاقتصاد المصرى لا تنقصه سوى لمسة الشفاء الإسرائيلية!، وكأن الرئيس مبارك كان يعمل ضد مصلحة الاقتصاد المصرى حين ظل يعارض الاتفاقية سرا وجهرا لثمانى سنوات، وكأن الرئيس مبارك كان مناعا للخير بغير اعتداء ولا إثم حين أمر بوقف فضائح التعاون مع إسرائيل لبطشها بالشعب الفلسطينى، ولا نريد الاسترسال فى مناقشة من هذا النوع، فالقصة كلها مكشوفة، والدعاية العبثية معدومة القيمة عديمة الأثر، وربما تصلح صحفها للاستخدام الخلفى كأوراق "كلينكس" فى دورة مياه شعبية، فالرئيس مبارك غيّر رأيه بالقطع لأنه يتغيا مصلحته باليقين، ويسعى إلى جلب المنفعة لـــ "حكم العائلة" حتى لو اندفع الضرر بالشرر لمصلحة مصر، وقد لا تهمه فيما نخشى مصر بالقدر الذى يهمه القصر، وهذه هى القوة الدافعة المحركة للانقلاب الإسرائيلى فى السياسة المصرية، انقلاب يجرف فى طريقه ما تبقى من حواجز التمنع والامتناع، ويندفع إلى عرض الخدمات بالسياسة مقابل مد الخدمة فى الرئاسة، فقد انتهت كامب ديفيد السادات إلى نزع السلاح على جبهة سيناء، وأدت مضاعفاتها بتأثيرات المعونة الأمريكية إلى نزع سيادة القرار فى القاهرة، وانتهت بطبائع التحلل المصاحب للإيدز السياسى إلى انتظار القرار من واشنطن، وربما تكون رقصة عزام متلفحا بعلم إسرائيل تعبيرا رمزيا عن الفرح بكامب ديفيد مبارك، إنه الفرح الثانى فى إسرائيل بعد الفرح بمثول السادات فى حضرة الكنيست، فليس عزام وحده هو الذى جاء ثانية إلى إسرائيل، إنه الرئيس مبارك الذى يجيء هذه المرة إلى حضرة شارون، إنه الرئيس مبارك الذى يصف شارون على طريقة الكاوبوى بوش بأنه الفرصة الأخيرة للسلام!، ولعلنا نتذكر أن

السادات ذهب لإسرائيل بعد أعنف صدام مع الشعب المصرى فى انتفاضة يناير ١٩٧٧، بينما يذهب مبارك بانزلاقات السياسة لإسرائيل ربما بهواجس استباق انفجار شعبى تتوالى نذره، وقد يتحول بحرائقه وزلازله إلى يوم قيامة وساعة للحساب.

إشارات

* مظاهرة الثانية بعد ظهر اليوم أمام دار القضاء العالى فرصة لإعلان غضبة الشعب المصرى.

*غضب الأقباط مفهوم ومشروع، غير المشروع وإن كان مفهوما هو حملة الابتزاز الطائفى من أجل امرأة.

*النائب العام صامت لعل المانع خير رغم أن مئات المضربين عن الطعام فى سجن أبو زعبل على حافة الموت.

* دعاء حسام صالح طفلة رضيعة عمرها سنة ونصف السنة دهستها أقدام الشرطة التى ذهبت لاعتقال والدها فى بيت فقير بالعريش.

* قال كوفى أنان "المسلمون ضحية للغرب" ورد كمال أبوالمجد "بل الإسلام نصير للغرب"، ربما ليس من تعليق يليق!.

١٢ ديسمبر ٢٠٠٤

١٢/١٢

لن تعود مصر بعد هذا اليوم كما كانت أبدا، فقد بُعثت مصر مجددا كالعنقاء من رماد السنين، وولدت فى ١٢/١٢ حركة وطنية جديدة تحفل بروح التحدى وتمتاز بالطموح، فهذه أول مرة – منذ عقود طويلة مضت – يتظاهر فيها مئات المثقفين من أجل قضية الشعب المصرى، كان اختيار التظاهر أمام دار القضاء العالى عبقريا بحق، وكان اختيار الرمز اللاصق "كفاية" دالا موجزا جامعا لوجع المصريين، كانت اللحظة التى سقطت فيها الحواجز بالجملة، فلم يلجأ الداعون للتظاهر إلى طلب إذن السلطات أوغض الطرف، فهم يعرفون الرد بالبداهة، فالتظاهر ممنوع بقانون الطوارئ، والبديل: قرار بالتظاهر رغم وضوح المخاطر. قرار بقبول التحدى وعبور بحار الخوف، فالتظاهر حق طبيعى ودستورى، والحقوق لا تكتسب بعرائض الشفاعة، الحقوق تنتزع بفضائل الشجاعة، فالحق الذى يُمنح يُمنع، والحق الذى يُنتزع يبقى ويدوم، ومظاهرة ١٢/١٢ هى أول الطريق لاكتساب حقوق المصريين، هى أول طريق التظاهر المفضى لانتفاضة شعب، نعرف أن نشطاء الوطنية المصرية تظاهروا من قبل دفاعا ودعما لفلسطين والعراق، ونعرف أن فيضا غاضبا من آلاف المصريين تدفقوا إلى "ميدان التحرير" مع أول صاروخ أمريكى سقط على رأس بغداد، وكانت تلك كلها تصرفات نبيلة دفعت إليها وطأة الحوادث المتلاحقة، كانت انفعالا بما يجرى لا فعلا مسبوقا بالإصرار والتصميم، وربما تكون هذه هى الميزة الكبرى لمظاهرة ١٢/١٢، إذ أنها دخلت فى الموضوع من الباب لا من الشباك، دخلت فى عمق قضية الشعب المصرى التى هى جوهر القضية العربية، فلا نهضة عربية ولا تغيير شعبى إلا أن يبدأ من مصر، وليس دورنا أن ندعم بالهتاف فقط – مقاومة باهرة بالسلاح فى العراق وفلسطين،

دورنا أن نشفع المقاومة بالسلاح - هناك - بمقاومة بالسياسة - هنا - فى القاهرة بالذات، دورنا أن نكسر الخطوط الحمراء - هنا - لا أن نكتفى بالتعاطف مع بطولة الدم الأحمر هناك، وهكذا كانت مظاهرة ١٢/١٢ اختراقا - بالفعل المقصود - لأسقف العجز والدوران فى الفراغ، اختراقا لسقف السياسة بالخبط فى الرأس مباشرة، واختراقا لسقف الحركة الموءودة فى الغرف المغلقة بالخروج إلى براح الشارع، فليست قضيتنا مع خفير ولا مع وزير، قضيتنا - باختصار - ضد الرئيس مع كامل الاحترام لمنصبه الرفيع، فهو المسئول - بصلاحيات الرئاسة المنصوص عليها فى الدستور - عن كل هذا الخراب، هو المسئول سياسيا عن الكبت والاعتقالات والفقر والبطالة ودهس أعصاب المصريين، هو المسئول سياسيا عن "النهاية الصفرية" التى آلت إليها مصر، هو المسئول سياسيا عن نهب مصر كما لم يحدث فى تاريخها الألفى، ومد رئاسته إلى ثلاثين سنة يعنى حجز مصر كلها فى معتقل، وسيناريو توريث الرئاسة - لنجله جمال مبارك - رسالة احتقار للشعب المصرى، فقد تصور الذين فى القصر أن الشعب المصرى انتهى إلى القبر، تصوروا أن بوسعهم بيع مصر كرامة واقتصادا ودورا دون توقع للمساءلة ولا انتظار للحساب، تصوروا أن أمريكا هى التى تخفض وترفع، وأن الشعب المصرى ليس سوى رهط من عبيد الإحسانات، وقد رد عليهم الشعب المصرى فى مظاهرة ١٢/١٢ فيما يشبه النفير العام، واستعاد صيحة عرابى - المتحدية للخديو المحتمى بعسكر الاحتلال البريطانى - من وراء الحجب، فنحن لم نُخلق تراثا ولا عقارا، ولن نُستعبد - أو نورّث - بعد اليوم.

الشنق عجزا

كأننى السجين فى حبل مشنقة، عاجزا عن مد يد صداقة تليق للجميل النبيل فتحى عامر، وهو معلق بين الحياة والموت، وابتسامته الشاحبة كأنها خنجر فى صدرى، أزاحم الأحبّة المنكبّين على سرير الغرفة رقم (٢٩)، كلنا فى انتظار كلمة من فتحى، لكن لا أحد ينطق بالحقيقة، فلم نكن أبدا على قدر المحبة، لم نكن أبدا بكل هذا العجز، أجمل الأحبة - وأعظمهم نبلاً -

ينسحب من الحياة، يطوى ألمه ويبتسم فى وجوهنا، ونحن نخادع النفس بأن كل شيء على مايرام، ولا نلحظ المرارة فى الابتسامة، ونرد على نبالة فتحى بتعاطف - أبيض مراوغ - هو قمة النذالة!.

١٩ ديسيمبر ٢٠٠٤

مشهد ختام

كذب المنجمون ولو صدق حسن الشارنى، الاسم لمنجم تونسى تنبأ بوفاة ياسر عرفات فى العام الذاهبة أيامه، وتنبأ - فيما نقلته وكالة أنباء رويترز - بوقوع اضطرابات سياسية فى مصر خلال العام المقبل قد تنتهى بتغيير جذرى لنظام الحكم، ولا نظن أننا بحاجة لقراءة كف الأيام على طريقة الأخ الشارنى، فعين المراقب اليقظ تبدو بصيرة ربما بأكثر من إيحاءات البلورة السحرية، ومصر - بالفعل - تمضى لأيام قد تكون أسود من قرن الخروب، قد تكون هى الحلكة التى تسبق ضوء الفجر، وربما تكون اندفاعا بشيوع الفوضى إلى مجهول لا يعلم مداه إلا الله، ونذر الانفجار - بتداعيات الاحتقان السياسى والاجتماعى والطائفى - تبدو مرعبة، فلا شىء فى مصر يبدو مستقرا أو سائرا لمصائر معلومة، كل شىء فى مصر على كف عفريت، وربما يكون البلد كله على شفا الجرف الهارى، فليس من مصير آمن إلا أن يعصم الله ويستيقظ الشعب، السبب: أنه ليس فى مصر نظام حكم بل ركام حكم، وقد ننتقل فى نظم الحكم من وضع إلى آخر فى سلاسة وأمان نسبى، لكن الركام - بعكس النظام - يسد الطرق ويحجب الرؤية، أما كيف انتهينا من النظام إلى الركام؟، فتلك قصة أخرى، ففى المرئى الملموس: تراخى حكم الدولة ليسود حكم العصابة، وحلّ الرسم الكاريكاتيرى التقليدى للص المتجول - حامل الطفاشة وسلسلة المفاتيح - محل ختم النسر، وعلى مدى عام ينقضى لم يكن من شىء حقيقى صادق فى مصر أكثر من قضايا الرشوة الكبرى، بدأ العام بقضية رشوة كبرى فى وزارة الزراعة، وانتهى بقضية الرشوة الكبرى فى وزارة الإسكان، وزير الزراعة - ربما لأنه سابق - أمرت المحكمة بالتحقيق معه فى فضيحة المبيدات المسرطنة، ووزير الإسكان - الذى لايزال حيا يرزق بمنصبه - جرى استبعاده ونسيبه من قرار الإحالة لمحكمة الجنايات، وليست القصة فى

فساد ينسب لوزير أو لعشرة وزراء، ليست القضية فى فساد سنة بل فى فساد عهد، فقد تحول الفساد إلى نظام حكم، واجهات مطلية بألوان وعناوين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وعمق نخره السوس، واجهات تظنها من الحديد الصلب فإذا بها نشارة خشب، فلا نظن أن مسئولا واحدا - وابدأ من فوق - بقيت لديه الجرأة لتقديم كشف الحساب، لا نظن أن مسئولا واحدا - وابدأ من فوق - بقيت لديه القدرة ليجيب عن سؤال: من أين لك هذا؟، لا نظن أن مسئولا واحدا - وابدأ من فوق - بوسعه تقديم إقرارات ذمة مالية له وللأقارب مذاعة فى وسائل الإعلام ومفتوحة لطعون الرأى العام، وكلها علامات انهيار أخلاقى وسياسى محقق، قد تخيفك العصا فى يد عسكرى الأمن المركزى على قارعة طريق، لكن العصا - هنا - رمز للخوف لا أداة للتخويف، فالنظام الذى لا يملك غير العصا يذهب ربما بدون عصا، فلا يعيش نظام دون رعاية للقيم أو بقايا قيم، وقد انتهى النظام المصرى - بالتحلل المصاحب للفساد - إلى طلاق القيم، ولا يعيش نظام دون شعب أو بعض شعب، وقد انتهى النظام المصرى - بفك العقد الاجتماعى - إلى تطليق الشعب المصرى، وقد لا توجد طبقة اجتماعية - بالمعنى المفهوم - تبدو مستعدة لمد النظام بشريان حياة، فليس فى صدارة المشهد سوى نفايات الطبقات وركام النهب العام، ليس فى صدارة المشهد سوى جماعة بيزنس - مليارية الثروات - بلا قواعد إنتاجية أو اجتماعية، وليس فى صدارة المشهد سوى جماعة مارينز منتدبة فى القاهرة لتنطق بهوى البيت الأبيض، وليس فى صدارة المشهد سوى جماعة أمن زائغة العصا، والجماعات الثلاث - ربما باستثناء قطاعات من جماعة الأمن - ليست مما صنع فى مصر بل مما صنع بمصر، وبالجملة: ليس فى صدارة المشهد سوى سلطة كوميرادور بالمعنى السياسى والاجتماعى، سلطة طافية تحكم بالوكالة وتفسد بالأصالة، سلطة مقصوصة الجذور فى العمق الاجتماعى، ومشدودة بالخيوط - كعرائس الماريونيت - إلى صانع اللعبة ومخرج العرض، فهى تعرف أن حياتها البادية تصنع هناك - من وراء الكواليس - لا فى صالة الجمهور، ربما الجديد: أن الجمهور ينسحب، وأن الممثلين - العرائس - أصابهم الملل من لعبة التخفى بالأقنعة، إنها لحظة الخواء المرعب، وربما لا نكون فى احتياج لمنجمين - من عينة الأخ

الشارنى - لندرك أنه مشهد الختام، إنها النقطة التى يصبح عندها القصر هو ذاته القبر.

إشارات

* واحدة من نهايتين - بلا ثالثة - بعد أمر المحكمة بإحالة وزير الزراعة السابق للتحقيق، فإما أن يوسف والى لن يحاكم، أو أنه لن يكون - هنا - وقت أن تبدأ المحاكمة.

* نتحدى جمال مبارك - الذى يريدون توريثنا له - أن ينشر إقرارات ذمة مالية لسيادته.. وللأقربين.

* تواطؤ النظام المصرى - مع الرغبة الأمريكية - فى مصادرة تقرير التنمية الإنسانية العربية أفضل جائزة علمية حصل عليها المؤلف الرئيسى للتقرير د. نادر الفرجانى.

* فتحى عامر.. الأعزّ.

* عمر عبدالعزيز - الذى قد لا تعرفه - مات شابا ربما لأنه لم يعد يحتمل شيخوخة بلد.

٢٦ ديسيمبر ٢٠٠٤

دولة الرئيس ودولة البابا

بوضوح: أتهم الدولة والكنيسة معا بإشعال الحريق الطائفى فى مصر، كرات النار تتجول على نحو دائرى، فى الأسابيع القليلة الماضية بدأت حملة الابتزاز الطائفى من أسيوط عاصمة الصعيد، وسرعان ما انتقلت النار إلى البحيرة، ثم إلى الكاتدرائية المرقسية فى العباسية، وفى دورة لاحقة تشتعل النار مجددا بدءا بقرية دمشاو هاشم فى المنيا، فى الكاتدرائية تجمهر الشباب المسيحى، وفى دمشاو هاشم تجمهر الشباب المسلم، وفيما توالت الإفراجات عن الشباب المسيحى تحت ضغط تهديدات البابا بالعودة لسلاح الاعتكاف فى وادى النطرون، راحت أجهزة الأمن تعتقل عشرات الشباب أغلبهم من المسلمين فى المنيا، وسقط القتلى والمصابون من المسلمين فى حادثة دمشاو هاشم، وهو تطور مفزع للحوادث ينذر بما هو أخطر، وهنا – بالضبط – تظهر مسئولية الدولة والكنيسة معا عن التصاعد بالاحتقان الطائفى إلى مراتب الاحتراب الطائفى، انقلاب الدولة على مشروع النهضة القومى – قبل ثلاثين سنة – سمح بتنامى الظاهرة الطائفية، وتفاقم الخطر مع لجوء الدولة إلى لعبة التوازن الصفرى، وتكرس التقليد الأمنى بدواعى حماية نظام تآكلت شرعيته بكامب ديفيد وما تلاها، كان الهروب لأحضان إسرائيل هو الحل عقب التمرد الجماعى للمصريين فى انتفاضة يناير ١٩٧٧، وكان التوازن الطائفى هو الحل بديلا لتوازن اجتماعى جرى تفكيك قواعده، وأطلقت الدولة الحرية للجماعات الإسلامية المتعصبة، وبالمقابل جرى تسييس دور الكنيسة التى تحولت إلى ساتر حمائى للمسيحيين المصريين، وكاد المسيحيون المصريون يتحولون إلى مواطنين فى دولة البابا شنودة لا فى دولة مصر، وتزايدت أجواء التربص الطائفى مع مفارقات التاريخ الساخر، فقد توالت صدامات الدولة الدموية العنيفة مع الجماعات الإسلامية التى هددت بقاء النظام السياسى، وهو ما بدا معه أن توازن الأضداد

الطائفية قد اختل بشدة، فقد جرى تغييب الجماعات الإسلامية المتعصبة وأنصارها - بعشرات الألوف - وراء أسوار السجون، وتزايد ميل المسيحيين المصريين للاعتصام بنفوذ الكنيسة، وبدأ يتشكل توازن صفرى من نوع مختلف يصنع فى واشنطن هذه المرة لا فى القاهرة، فقد تزايد المكون الأمريكى فى صناعة القرار المصرى بمضاعفات المعونة الأمريكية وروشتات الخصخصة والتكييف الهيكلى لاقتصاد متعثر، ثم تحول النفوذ الأمريكى - بدعاوى الإصلاح السياسى - إلى ابتزاز سافر لنظام فقد مشروعية البقاء من زمن، وبالمقابل: ضعفت الحصانة الوطنية للكنيسة، وصارت عادة الاحتماء الظاهر أو المستتر بالنفوذ الأمريكى كأنها التقليد الكنسى، أى أننا صرنا أمام دولة لا تخاف إلا غضب أمريكا، وكنيسة - بالمقابل - لا تمانع فى الاستقواء بأمريكا ذاتها، وصارت دار المندوب السامى الأمريكى هى الحكم الفصل لا قصر الرئاسة، وزاد حرج النظام مع اقتراب استحقاق تمديد رئاسة مبارك إلى ثلاثين سنة، وهنا كان لابد من دفع الثمن مرتين، مرة بالإفراج عن عزام وعقد الكويز - وغيرها - فى صفقة مقايضة خالصة الإيراد لصالح إسرائيل، ومرة ثانية بالعجز عن تقييد ابتزاز طائفى تورطت فيه الكنيسة بإغراءات الحماية الأمريكية، وهو ما يضع المسيحيين المصريين فى حالة التباس خطر، فثمة تمييز فعلى ضد المسيحيين قد لا يتساوق مع نصوص المساواة فى الدستور والقانون، وهو تمييز مرشح للتفاقم بدواعى احتقان دينى إسلامى ضد أمريكا التى تزعم نصرة الصليب وتدوسنا بالأحذية الثقيلة، وثمة تمييز مقابل للمسيحيين قد لا يتساوق مع افتراضات المساواة الواقعية فى القهر والفقر، وقد يتيح لهم فرص الحياة الأفضل ووطأة المعاناة الأقل، والتمييز ضد المسيحيين يثير غضبهم بالبداهة، بينما تمييزهم - دون غيرهم - يستثير الغضب عليهم بالطبيعة، وفى غيبة خطوط تقسيم جغرافى تجعل الكيان الطائفى فى حيز الممكن، فقد تولدت خطوط تقسيم رأسى، وصار الابتزاز الطائفى هو البديل الممكن لانفصال كيان طائفى لا يبدو متاحا بطبيعة التكوين المصرى، وتورّم نفوذ الكنيسة إلى حد أنها صارت دولة مقابل الدولة، وهنا قد تلجأ أطراف فى الدولة إلى عودة خفية للعبة التوازن الصفرى سيئة السمعة أمنيا، العودة خفية - هذه المرة - مخافة غضب أمريكا، لكنها ظاهرة بنشر كثيف - يبدو مقصودا - لمشاعر استعداء المسلمين المقهورين ضد المسيحيين

المتذمرين، وكأن مشكلة المسلمين - بإغراء التعريف الأمنى - فى المسيحيين، أو أن مشكلة المسيحيين - بإغراء الابتزاز الكنسى - فى المسلمين، وليست فى النظام الذى قهر المصريين جميعا واستبد وشاخ وفسد، والهدف مرئى بغير احتياج للتأويل، الهدف: سحب مخزون الغضب الاجتماعى إلى قنوات تنفيس طائفى، الهدف: أن تظل رئاسة مبارك أبدية إلى أن يأذن الله، تماما كما أن رئاسة البابا شنودة لدولة الكنيسة أبدية إلى أن يأذن الرب، ولا مانع - مع شهوة التمديد فالتوريث - أن تحترق مصر، فقد كان نيرون يرقص بينما روما تحترق.

إشارات

*٢٠٠٥ ربما يكون عام الفزع - بتعبير الأستاذ هيكل - لو جرى تمديد رئاسة مبارك إلى الثلاثين سنة.

* باعتراف الأهرام: ٤% فقط من الناخبين المسجلين شاركوا بالتصويت فى انتخابات تكميلية جرت مؤخرا بشرق القاهرة، والمعنى الحرفى: أن ٩٦% من الناخبين امتنعوا عن الذهاب مع الرئيس مبارك الذى أدلى بصوته الشخصى فى الانتخابات إياها.

* إلى وزير الأوقاف: هل من حق محافظ الدقهلية التدخل - بكروت التزكية السياسية - لجعل من لا يستحق وظيفيا مديرا لإدارة الدعوة الدينية؟.

٢ يناير ٢٠٠٥

سحب الاعتراف

سيكون بوسع القوى الوطنية نقض الاعتراف بشرعية الرئيس مبارك لو جرى تمديد رئاسته لثلاثين سنة بنظام الاستفتاء إياه، ووقتها لن تنفع اليمين الدستورية التى أنذرنا بها الممتلئ ديمقراطيا! كمال الشاذلى، ولا غضّ الطرف الأمريكى مقابل مقايضات خدمة إسرائيل على طريقة الكويز وأخواتها، ولاجولات السيد جمال مبارك لحشد تأييد جمعية المنتفعين ببقاء الرئيس الأب، ولا هوجة مبايعات أحزاب بير السلم، فليست المشكلة فقط فى نظام الاستفتاء الذى عفا عليه الزمن، ولا فى ضآلة عدد المصوتين فى الاستفتاءات الرئاسية المغلقة على مرشح واحد وحيد مفروض بالعافية، فنسبة المصوتين فى الاستفتاءات السابقة كانت أقرب إلى حافة الصفر، والمرجح أن يتزايد انحطاط النسبة المصوتة فى الاستفتاء المقبل، والشواهد موحية، يكفى أن تتأمل دلالة عدد الذين ذهبوا مع الرئيس مبارك للتصويت فى انتخابات تكميلية لمجلس الشعب جرت مؤخرا شرق القاهرة، فقد تراجعت النسبة بنص اعتراف الأهرام شبه الرسمية إلى ٤% فقط لا غير من إجمالى الناخبين المسجلين، وإذا كانت النسبة متضائلة هزيلة نازلة إلى قاع القاع فى انتخابات يفترض أنها تنافسية، فما بالك بالنسبة التى يمكن أن تذهب لتصويت فى استفتاء يخلو نظريا وعمليا من حس التنافس؟، وقد يتساوى فيه أن تذهب لصناديق الاستفتاء أو أن تخلّيك فى البيت، والمغزي: أن مبارك حال اختياره بالاستفتاء إياه لن يكون رئيسا إلا لحفنة من المصريين لا تكاد ترى بالعين المجردة، هذا بالطبع إن استقامت أو صحّت إجراءات التصويت، وخلت من الأثر الميكانيكى لـ "عبقريات التزوير" التى اختص الله بها خلقه المشوهين روحيا فى وزارة الداخلية المصرية، والصورة على هذا النحو مفزعة، وفيها معنى الطلاق البائن مع الشرعية فى أدنى صورها، وفيها معنى زواج عتريس الباطل من فؤادة التى هى أمى

وأمك ومصرى ومصرك، وفيها معنى اغتصاب وتزوير إرادة المصريين، وفرض رئيس عليهم بالقسر وسطوة القهر الواقع، ولا يصح والأمر كذلك أن نعترف بشرعية سابغة للرئيس مبارك فى ولايته المقبلة، أضف: أن مجلس الشعب المخول بإجراءات الترشيح للاستفتاء حسب الدستور باطل قانونا، فتقارير محكمة النقض أم المحاكم المصرية انتهت إلى بطلان إجراءات التصويت والفرز فى عشرات الدوائر، وبينها دائرة المحسود على صحته وشبابه كمال الشاذلى، وانتهت محكمة النقض إلى بطلان مشاركة رجال النيابة الإدارية وهيئة قضايا الدولة فى الإشراف القضائى على انتخابات مجلس الشعب الحالى، فهؤلاء ليسوا من القضاة ببداهة اللفظ وطبيعة الوظيفة، ومشاركة هؤلاء جعلت الإشراف القضائى حتى فى حدود الإجراءات منقوصا ومطعونا عليه، وقد ألزمت المحكمة الدستورية فى حكم شهير بالإشراف القضائى الكامل لكى تصحّ الانتخابات، وهو مالم يكتمل لا فى الإجراء ولا فى المضمون، بل وشهدت الانتخابات الأخيرة بمئات الوقائع المرصودة ظاهرة منع الناخبين من الوصول أصلا لصناديق التصويت، وكلها عناصر يكتمل بها معنى البطلان القانونى لمجلس الشعب الحالى، ولأن ما يبنى على باطل فهو الباطل بعينه، فإن ترشيح المجلس إياه للرئيس مبارك أو لغيره باطل قانونا وغير شرعى بالثلث، أضف: أن ترشيح الرئيس مبارك بدلالات الواقع التى هى فوق إجراءات القانون يبدو بلا سند أخلاقى وبلا شرعية سياسية، والدليل: هذا الانحطاط الصفرى الذى دهم مصر على مدى ٢٤ سنة من حكم الرئيس أطال الله عمره، والمؤكد: أن آخر ما تحتاج إليه مصر الآن رئيس مشكوك فى شرعية اختياره وتقلده للمنصب الرفيع مجددا، وأول ما تحتاج إليه مصر الآن رئيس شرعى منتخب نتصور باليقين ألا يكون اسمه محمد حسنى مبارك.

إشارات

* اعتراف: فى أهرام ٢ يناير الجارى كتب إبراهيم نافع بالحرف "أن واقع الصناعة المصرية فى مجال المنسوجات والملابس الجاهزة لن يسمح بأكثر من استمرار تدفق الصادرات المصرية دون زيادتها مع اتفاقية الكويز"!.

---

* شجاعة: زميلنا المشاغب سليمان الحكيم سأل كمال الشاذلى عن رأيه فى توريث الرئاسة لجمال مبارك، وكان رد النائب الفصيح أن أغلق بيده جهاز التسجيل!.

* هزيمة: المقاومة العراقية كسبت الحرب ضد أمريكا المصدر: الفصلية الأمريكية "فورين آفيرز".

٩ يناير ٢٠٠٥

محلّ كشرى

نتصور أن الرئيس مبارك - مع كامل الاحترام لمنصبه السامى - مطالب باعتذار أو ايضاح للشعب المصرى عن كلمة وردت ربما عن دون قصد فى حديثه لقناة فضائية عربية، فقد وصف الرئيس دور نجله جمال على طريقة "ابنى بيساعدني". ولا يليق فيما نظن أن ننزل بمقام الرئاسة الرفيع إلى مقام محل كشرى، فالرئاسة وضع دستورى وصلاحيات دستورية، ولا ترد عليها - بالبداهة - أوصاف وايحاءات تشى بالشبه مع التعاون العائلى، وربما هى مصادفة ذات مغزى أن كلمة الرئيس مبارك المثيرة للعجب أعقبت تصريحات ملتبسة نسبت لرئيس الوزراء أحمد نظيف، وهى تصريحات ناضحة بالولاء المخصوص لجمال مبارك، ومشحونة برغبات عفوية حارة فى إزاحة عقبات بدت عائلية بحسب نصّ التصريحات فى طريق جمال مبارك لكرسى الرئاسة، والطريف: أن النفى الرسمى لتصريحات نظيف زاد الطين بلاًّ، وبدت القصة كلها أقرب لبالون اختبار ربما يعكس شجارا فى الكواليس، فطبيعى أن يعبر نظيف عن امتنانه لجمال الذى أتى به لرئاسة الوزراء، وطبيعى أن تتزايد حساسية المماليك القدامى الأكثر حماسا - بطبائع المصالح - لتمديد حكم الرئيس الأب، وطبيعى أن تنفجر القصة كلها فى تصريحات بدت ملغومة، فقد انتهينا للأسف إلى نوع من الرئاسة المزدوجة، رئاسة رسمية ظاهرة للرئيس الأب، ورئاسة فعلية ناطقة للرئيس الابن، وقد واصل جمال مبارك طريقه على طريقته، وذهب إلى منتدى دافوس مصطحبا نظيف مع دينا وروبى والتقى بإسرائيليين هناك، وفى الوقت ذاته بدأت أمريكا حرب التنكر لسجل خدمات نظام الرئيس مبارك، حملة هجوم شرسة فى الـ "واشنطن بوست" ضد فساد واستبداد منسوب لأصدقاء العمر الطويل فى نظام الحكم المصرى، وتدخلات خشنة على المكشوف واختراقات بالعمق للصحافة

والسياسة على طريقة لقاءات مادلين أولبرايت الأخيرة فى القاهرة، وكأن مصير الحكم المصرى معلق فقط بطراوة الهوى الإسرائيلى أو بجموح المزاج الأمريكى، وكأنّه لا وجود للشعب المصرى إلا كموضوع للإساءة وتلقى الإهانات، إنها شبكة العنكبوت التى لا خلاص منها بغير قصّ الخيوط جميعا، ونقطة البدء: أن نقول كفاية لحكم الرئيس مبارك، ولا مانع وقتها من أن يساعد النجل جمال مبارك والده العزيز فى تقاسم أعباء العائلة لا صلاحيات الرئاسة.

فتحى عامر.. أيها الصدّيق

لا أعرف رجلاً راح ضحية نبله كفتحى عامر، فقد كان فتحى مريضاً بالنبل لا بالكبد، نبله الفريد جعله يؤخر الاعتراف بالمرض بينه وبين نفسه إلى أن سبق السيف العزل، وتجاوز تليف الكبد حدود الخطر، وجعله يحجب الخبر حتى عن أعز أصدقائه شهورا وسنوات، وأذكر أن فتحى غضب منّى كما لم يحدث أبداً حين كتبت مرة إشارة بلا أسماء عن طعنة الغدر فى كبد الصديق، وحين شاع الخبر تآكلت معنويات فتحى المعتز باليد العليا الممدودة بالتعاطف مع الناس، وخارت قواه بتدفق عطف الناس، فقد كان النبيل الريفى حساساً لأبعد حد، يخفى ألمه كنبى، ويتعالى على الضعف كأنّه هرقل، يقتله أن تنكشف عوراته، وكان يتعامل مع كشف المرض كأنه انكشاف للعورات!.

وكما لم أعرف نبيلا كفتحى عامر، فلم أعرف أيضا- دراما إغريقية كحياة فتحى، كان لفتحى جمال الحدود القصوى، وكان نصيبه من متاع الحياة الدنيا أقرب لبؤس الحدود القصوى، كان باهر الطلعة كيوسف الصدّيق، مثقفا رفيعاً موسوعيا بامتياز، صوفى النزعة إلى حدّ الإطلاق والتمام، لكنّه عبر الممشى من الميلاد إلى الموت فى حقل أشواك، إخوة يوسف ألقوه فى اليم، وجاءوا على قميصه بالدم الكذوب، وقد عاش فتحى محنة يوسف الصدّيق، ولم يقدّر له أن يبلغ فرحه فى قصر زليخة، عاش سبع سنواته العجاف، وشاءت الأقدار -التى لا ترد- أن تعده بالسبع سنوات السمان فى برّ السماء لا فى برّ مصر!.

٣٠ يناير ٢٠٠٥

خريف الغضب

ماذا يحدث بالضبط فى هذا البلد؟، وماذا يحدث بالضبط فى قصر الرئاسة؟، الرئيس مبارك فى رحلة الذهاب لقمة "أبوجا" أدلى بتصريحات صادمة، ووصف المطالبة بتعديل الدستور لاختيار رئيس لمصر بالانتخاب لا بالاستفتاء بأنها دعوى باطلة، والحمد لله أنه لم يصف المطالبين بتعديل الدستور بالكفر، ولم يطلب إلى الآن تعليقهم على أعواد المشانق، وكأننا بصدد بشر مقدسين لم يرد ذكرهم فى قرآن ولا فى إنجيل، والأطرف: أن الابن جمال مبارك كان أول من انتهك هذه القداسة، ونشرت الصحف الحكومية تصريحاته المناقضة تماما لأقوال الرئيس بعد ٤٨ساعة لا غير، قال الابن ما يفيد أن تعديل الدستور مطروح للنقاش. والعياذ بالله، وهو ارتباك وتناقض يؤكد ما ذهبنا إليه مبكرا من ايحاءات الرئاسة المزدوجة عند قمة السلطة، فالرئيس الأب يريد المصادرة أو التأجيل فى تعديل الدستور، والمصلحة واضحة، فهو يريد أن يمد حكمه المديد لثلاثين سنة بنظام الاستفتاء إياه، والرئيس الابن يمهد لشيء آخر، يريد أن يمد الخيط للمستقبل، ويظهر كأنه المتجاوب أكثر مع نداءات المعارضة، والهدف: أن يمهد لوراثة الرئاسة بانتخابات محكومة بأقدار التزوير، وجه آخر للارتباك يبدو ظاهرا، فنحن بصدد نظام مستبد ومُستبَد به فى الوقت نفسه، نظام يستبد بنا كأننا من بقية أملاك العائلة، وتستبد به أمريكا كأنه من رعايا البيت الأبيض، وهذا هو المصدر الأعظم لارتباك اللحظة، فقد دخلت أمريكا على الخط بفظاظة مرئية، وتوالت جولات الخض والرج بالضغط الخشن على نظام خاضع بطبيعة تركيبه واختياراته لأوامر الست أمريكا، وهو ما يعقد الصورة، ويجعل كل شيء ممكنا وغير ممكن فى الشهقة ذاتها، وبجعل يد النظام باطشة ومغلولة فى القبضة ذاتها، فهو يطلق يد البطش بمعارضيه المؤثرين قيادات وصحفا، وأشباح اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ التى راح

السادات ضحية عواقبها تتراقص على المسرح، والنذر السوداء تجتمع وتوحى بـ"خريف غضب" مختلف هذه المرة، فالاتجاه لـ "البطش الأعمى" لا تخطئه عين، اعتقالات فى معرض الكتاب للمتظاهرين المعارضين للتمديد والتوريث معا، وصدامات خطرة بلون الدم فى شرق سيناء، وحجب لندوة الباحث المرموق د. محمد السيد سعيد، ولمجرد أنه طالب بالتغيير فى لقاء خاص بالرئيس، قبلها حدث انقلاب "المصرى اليوم" على خط المعارضة المباشرة لتمديد رئاسة مبارك، ثم التنكيل بالزميل أيمن نور رئيس حزب الغد فى عمل مسرحى أعد على عجل، وبطريقة غاية فى الرداءة، وقد كانت أمريكا حاضرة على طريقتها وطبقا لأولوياتها فى تفاعلات مختارة، مادلين أولبرايت مبعوثة العناية الأمريكية دخلت "المصرى اليوم" على بساط أحمر لتهنئة جنرالات الانقلاب على الخط الراديكالى، ورداءة التهم المصنوعة لأيمن نور شجعت أمريكا الرسمية على التدخل بعنف لفظى قاهر، وهو ما يحمل على الظن شبه الأكيد بقرب إطلاق سراح أيمن نور، وقبل انقضاء مدة الحبس الاحتياطى المقضى بها، ونحن بالطبع مع إطلاق سراح نور وكل المعتقلين فورا بصرف النظر عن اختلافات السياسة، لكن نظام الرئيس مبارك هو الذى سيبقى على الأغلب قيد الحبس السياسى، أغلب الظن أن النظام سيبقى رهين المحبسين على طريقة أبى العلاء المعرى، رهين البطش الغريزى الأعمى بالشعب المصرى الذى يحتقره، ورهين الخوف الغريزى الذاهل العينين من أمريكا التى يتمنى منها الرضا فلا ترضى، وقد ثبت أن صفقة المقايضة بعزام والكويز ومحبة شارون لم تجلب الحظ الرئاسى بما فيه الكفاية، وبدا أن أمريكا تمانع الآن فى منح رخصة مرور جاهزة للرئيس مبارك إلى الولاية الخامسة، وهو ما قد يغرى الابن جمال مبارك باستعداد متعجل لدور اللاعب الاحتياطى، وفى القصة كلها ارتباك متفاقم وإمعان فى الغى إلى حد أنهم يعمهون، ودفع للبلد باحتقانات مضافة لمجتمع واقتصاد مأزوم إلى انفجار قد لا تحمد عقباه، واندفاع على الطريق السريع إلى خريف غضب قد يحلّ صيفا.

إشارات

* عن أى قانون يتحدث اللواء حبيب العادلي؟، وهل حلت سلطة سيادته دون أن يتصل علمنا محل سلطة النائب العام والسادة القضاة؟،

مناسبة السؤال: وصف السيد وزير الداخلية المهذب لمقالات العبد لله فى حوار تليفزيونى سيادى بأنها مما يعاقب عليه القانون؟!.

* ضياء الدين داود هو الفائز الوحيد فى حوار الأحزاب، فقد اختار رضا الشعب لا عطف الكهنة.

* .. والحوار الوطنى أثبت أن أغلبية الأحزاب الشرعية من ورق دشت، ثقلها المبدئى فى وزن الريشة، وتأثيرها الشعبى كجناح البعوضة!.

* انتفاضة المهندسين اليوم - بالتنادى لعقد الجمعية العمومية - انتصار لحكم القضاء ومسمار فى نعش دولة الحراسة.

* جمال أسعد عبدالملاك هو الوحيد دونا عن خلق الله المصريين الذى يقهر مرتين، مرة كمواطن تحت حكم الرئيس مبارك، ومرة كمسيحى تحت حكم البابا شنودة.

٦ فبراير ٢٠٠٥

زلّة لسان

وزير الداخلية يستحق الشكر لا الهجوم، فلا شيء يكشف المخبوء أكثر من عثرات اللسان، والحقيقة الجارحة - فى كل الأحوال - أعظم نفعاً من الكلمات المزوّقة الموزونة المقفّاة، ولأن اللواء حبيب العادلى لا يجيد الكلام بغير الترتيب المسبق، فقد أحسن صنعاً إذ فعلها هذه المرة، وتحدث على سجيته دون تحفّظ ولا حرج، وبدا كأنه يكلم نفسه فى المرآة، فقد اتخذ الاحتياطات اللازمة لمنع التلصّص، وأمر رجاله بمنع الصحفيين والكاميرات فى لقاء شبه سرى مع مئات من الشباب بمعية الوزير الفلتة أنس الفقى، ونتصور أن احتياطات الوزير كانت - ربما بعكس ما أراد - مفيدة جدا، فكما أنه لا توجد جريمة كاملة، لا يوجد - أيضا - سر مستغلق، فقد تسرب شريط مسجّل لفصاحات السيد الوزير اللواء، وتوفّرت للكافة - بنشر الشريط فى العربى - وثيقة بليغة تكشف وتشف، بدا اللواء العادلى - فى الوثيقة المسجلة - منافسا قوياً لانزلاقات لسان سلفه المرحوم اللواء زكى بدر، ووصف نقابة الصحفيين - فى كلمتين - بأنّها نقابة الحرامية، والوصف يليق بالسيد الوزير، فهذه حدود ثقافته الرفيعة، وهو الابن الوفى لعصر الشومة وثقافة الضرب فى المليان، وربما تصوّر أنّه لا يسيء لجماعة الصحفيين، فهو - فقط - يطبق قانونه، ويؤدى واجبات وظيفته فى التأديب والتهذيب والإصلاح، فالصحفيون ليسوا إلا آلافاً من جملة رعاياه السبعين مليونا، وليس على رأسهم ريشة، ودهس رؤوسهم وكراماتهم أفضل مثال على ضمان حق المساواة فى المواطنة المقهورة، وإبداء الصحفيين لرأى - مخالف لرأى سيادته جريمة نكراء، وتضامن الصحفيين مع زملائهم المحبوسين والمضروبين والمهانين هو قمة الانتهاك للقانون، فالسيد الوزير اللواء هو وحده الذى يعرف القانون، وفى جيب سيادته رأس الحكمة، والصحف التى تتحدث عن أحكام قضائية تدين الوزير السابق

يوسف والى تجدّف فى حق الذوات العليا، فهى لم تأخذ إذنا بالنشر من وزير الداخلية، ولم تراجع معلوماتها -كما يقتضى الواجب الوطنى - باتصال ضرورى مع مكتب سيادته، فلديه - وحده - الخبر اليقين، وهو يقول الحقيقة بجرأة يحسد عليها، ورأيه ببساطة: أنّه لم يصدر حكم قضائى يدين والى، أو يطلب التحقيق معه، وعلينا - بالطبع - أن نصدّق العادلى، وأن نقر ببراءة والى، فلم يصدر حكم قضائى - على حد علم العادلى - يدين والى بشبهة الشهادة الزور، ولم يصدر حكم قضائى آخر - على حد علم العادلى - يأمر النائب العام بفتح التحقيق مع والى فى فضيحة المبيدات المسرطنة، وكل هذا - بايحاءات كلام العادلى - لغط يردده الصحفيون الذين هم حرامية، سرقوا أحكام القضاة وضلّلوا الناس بنشرها فى الصحف، وربما لم يلتفت العادلى - بحكم كثرة مشغولياته إلى إهانته الضمنية للقضاة على طريقة إهانته للصحفيين، فقد ألغى وجود القضاة وأحكامهم بجرة لسان، وربما يكون رأيه: أن المساواة فى الإهانة حق وواجب، ولأن العادلى رجل عادل بالطبع والاسم، فلم ينس أن يهين المعارضة بالجملة تطبيقا لمبدأ المساواة، ووصف المطالبين بإنهاء حكم الطوارئ - الممتد لـــ٢٣ سنة - بأنهم أصوات تريد تخريب البلد، ووصف رئيس الجمهورية بأنه كحضرة العمدة، والقرويون يحترمون العمدة الذى هو كبيرهم، وهذه هى أصول الديمقراطية النابعة من الداخل الذى هو زوج الست داخلية، وهو ما يعنى - باختصار - أن معارضة الرئيس قلة أدب، وإلى هنا انتهت وصلة عظات وزير الداخلية، وأرجو ألا يختلط الأمر على اللواء حبيب العادلى، فقد يظن - لا سمح الله - أننى أنتقد كلامه المرسل مع مخصوص، فأنا مجرد كاتب وصحفى حرامى، سرقت - أو قل إننى اقتبست - كلام سيادته، وأعيد وأزيد فى شرحه تعميما للمنفعة، ولا أنوى معارضة سيادته، ولا معارضة حضرة العمدة، وخصوصا بعد أن تبين لى أن المعارضة قلة أدب، والجو فى الليل - كما يعلم سيادته - شديد البرودة هذه الأيام، وقد لا أحتمل تكرار تجربة الظهور عارياً على مسرح صحراء المقطم، أو قد لا تتاح لى بقية من بطانية تجلب الدفء فى سجن طرة.

إشارات

* بعد إذن وزير الداخلية: أعلن تضامنى بالصوت الحيّانى مع الزميل اللامع ابراهيم عيسى وصحيفة الغد المجهضة، وأهنئ الزميل المشاغب ابراهيم الصحارى بقرار إفراج أرجو ألا يكون موقوتا!.

* المحافظ أحمد سعيد صوان أعلن مبايعة الدقهلاوية بالإجماع للرئيس مبارك، وكأن المحافظ - وهو ضابط شرطة سابق - قرر حبس خمسة ملايين مصرى - هم كل سكان الدقهلية - فى حنجرة سيادته!.

* الساعة الواحدة ظهر الاثنين - ٢١ فبراير الجارى - موعد الشعب المصرى مع مظاهرة حركة كفاية ضد التمديد والتوريث، والمكان: أمام النصب التذكارى لشهداء جامعة القاهرة.

١٣فبراير ٢٠٠٥

تسمع نكتة!

رفض التدخل الأجنبى يعنى ببداهة المنطق رفض بقاء نظام الرئيس مبارك باختياراته وشخوصه، ومشهد إهانة وتوبيخ كونداليزا رايس لوزير الخارجية المصرى أحمد أبوالغيط بصدد قضية أيمن نور معبر بدقة عن المأزق، وربما لا يكون من معنى لإنكار بالألفاظ للواقع الناطق، ولا لتصريحات أبوالغيط والمتحدث الرسمى باسم الرئيس عن احترام النيابة والقضاء، فالكل يعرف باليقين والحدوس أنها مجرد دفاعات شفوية للاستهلاك المحلى، وأن مفعولها وقتى تماما وقابل ربما للذوبان كمناديل الكلينكس، وآخر السوابق ما جرى فى قضية الجاسوس الإسرائيلى عزام عزام، فقد ظل الرئيس بنفسه يعترض على ضغوط أمريكا للإفراج عنه بحجة متكررة هى احترام أحكام القضاء، وكانت النهاية كما نعرف، تم الإفراج عن عزام رغم أنف أحكام القضاء، وثمة فوارق بالطبع بين قضيتى عزام وأيمن نور، الذى نطالب نحن أيضا بإطلاق سراحه لدواع مختلفة، ربما الجامع المرئي: أن كلمة أمريكا لا تُرد عند النظام المصرى، وهو ما يجعل من إعلان النظام رفض التدخل الأجنبى، ودعوة الآخرين إلى مشاركته بالرفض محلا للتندر العام، فلسنا بصدد تدخل أجنبى يلوح به الآن أو يتوقع غدًا، بل بصدد استعمار أجنبى أمريكى بالطبع للإرادة والقرار المصرى تدافعت فصوله على مدى ربع قرن، بدأت القصة بكامب ديفيد أو ما يعرف زورا باسم معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، فمع الترتيبات المصاحبة جرى نزع السلاح على جبهة سيناء، ومع انتظام وزيادة المعونة الأمريكية الضامنة جرى نزع سيادة القرار فى القاهرة، ولحقت كامب ديفيد مبارك بسابقتها الساداتية بعد ربع قرن، انتهت كامب ديفيد السادات إلى إخراج مصر من ساحة المواجهة مع كيان الاغتصاب الإسرائيلى، وتؤذن كامب ديفيد مبارك بإطلاق عزام وعقد الكويز وإعادة السفير لتل أبيب بدمج

مصر فى شرق أوسط ممهور بالنيران الأمريكية وتحت القيادة الإسرائيلية، وفى ربع القرن المنحدر جرى الاستعمار والإخضاع التدريجى للقرار المصرى، انتهى دور القيادة المصرى إلى دور وساطة فى تسويق سياحى على طريقة مؤتمرات شرم الشيخ لخطط المجهود السياسى والحربى الأمريكى فى المنطقة، وأفرزت المعونة الأمريكية بهندسة الدفع والصرف طبقة من المليارديرات والوكلاء المحليين، وكوّن هؤلاء مع استطرادات النهب العام بتداخل الثروة والسلطة والإعلام ما تحق تسميته جماعة البيزنس لا القطاع الخاص، فهى فى الأغلب الأعم ليست وليدة تفاعلات إنتاجية واجتماعية بقدر ما هى فئة كوميرادور طافية مربوطة الخيوط بالسند الأمريكى الصانع الضامن لثرواتها ومصالحها، وفى خط مواز للمعونة الأمريكية الرسمية كان التمويل الأجنبى غير الرسمى يخلق السند الثقافى الطافى هو الآخر، وهكذا تكونت ما نسميها جماعة المارينز أو حزب أمريكا، وقد استقوت جماعة المارينز وزادت شراستها القتالية بمضاعفة معدلات التمويل والحضور الأمريكى العسكرى الساخن فى المنطقة، وانتهينا بدلالة تفاعلات النظام إلى ما قد تصح تسميته بالمعركة الأخيرة، فجماعتا البيزنس والمارينز تخوضان الحرب الأخيرة ضد بقايا بيروقراطية شاخت وتحللت بمضاعفات الفساد المتفشى، وأى رصد فاحص لـ"لجنة سياسات جمال مبارك" يلحظ بالضرورة دلالة التكوين، فلجنة السياسات أشبه بتنظيم طليعى خاص لجماعتى البيزنس والمارينز، ربما ما يميزها عن تعبيرات أخرى قد تلبس لبوس المعارضة أنها تريد الوراثة بنسب الدم وبودّ موصول مع أجهزة أمنية متقادمة المفعول، وكلها تعقيدات تضع أمريكا أكثر فأكثر على خط الحضور الساخن فى مصر، فالرئيس الأب يمثل الطبعة المتقادمة للنظام، وهو يريد التمديد بمقايضات كسب الرضا الأمريكى على طريقة كامب ديفيد مبارك، والرئيس الابن الطامع فى الوراثة يتصور أنه العنوان الأمثل للطبعة الجديدة، ويتصور أن بوسعه إغراء أمريكا بايحاءات التجاوب مع التغيير المقرون بالحكم المطلق المباشر لجماعتى البيزنس والمارينز، ومع نظام يفتقد إلى شرعية بأصوات الناس أو بإنجاز التاريخ، فلم يعد من ملجأ أو عنوان لطلب السند غير البيت الأبيض، وهو ما يجعل من استعادة الاستقلال الوطنى صنوا لطلب الديمقراطية إن كنا صادقين حقا فى سعى للتغيير، ويجعل من رفض التدخل الأجنبى صنوًا لرفض التمديد لمبارك أو

التوريث لنجله، أما رفض تدخل أمريكا دفاعا عن نظام أمريكا فهو شيء أقرب إلى مقامات التنكيت لا مقام السياسة.

إشارات

* لا للإصلاح على طريقة النظام، ولا للإصلاح على طريقة أمريكا، ونعم لخطة تغيير وطنى شعبى رافض لأمريكا والنظام معًا.

* مظاهرة الرفض للتمديد والتوريث فى الواحدة ظهر غد الاثنين أمام الباب الرئيسى لجامعة القاهرة هى المحل المختار لحوار وطنى حقيقى لا حوارات توافق على طريقة الحزب الوطنى!

* لا أعرف لماذا أتذكر طرائف المستر بوللى الصديق الخاص للملك فاروق مع تعيينات كبرى ملفتة هذه الأيام!.

٢٠ فبراير ٢٠٠٥

كفاية

حركة كفاية ليست حزبا، ولا مشروع حزب، ولا جبهة أحزاب، إنها إطار مدنى وطنى جامع لأشواق التغيير فى مصر، ينضم إليها الناس بمجرد التوقيع على بيان للتغيير الديمقراطى يبدأ برفض التمديد والتوريث، فيها كل ألوان الطيف السياسى من ناصريين ويساريين وليبراليين وإسلاميين ومستقلين، لكن لا أحد فيهم يمثل حزبا ولا حركة سياسية بذاتها، فـــ "كفاية" ليست مشغولة البال بأن تنافس أحدا، أو أن تقوم مقامه، كل همها: أن تمثل مبادرة وطنية للتغيير، والوصف الوطنى هنا ليس بلاغيا، ولا توزيعا لصكوك، ولا نفيا لوطنية مبادرات وأحزاب تنتسب إلى معنى التغيير الجدى، بل هو حاصل الفرز الجارى المتصل لمبادرات وخطط، فليس كل من يتلفظ بكلمة التغيير أو الإصلاح يستحق أن نمشى معه، أمريكا مثلا تتحدث عن التغيير، وهى تقصد خطة أو مشروع الشرق الأوسط الموسع، وهى مع إسرائيل كيان استراتيجى واحد، ولديها قواتها وخطوط تمويلها ورجالها ونساؤها وتنظيماتها المكشوفة والمحجوبة، لديها قواتها المحتلة فى سفور للعراق وفلسطين، وهى ترغى وتزبد وتهدد باجتياح عواصم عربية مجاورة، ولديها قواعدها وضغوطها المحتلة من وراء الأقنعة لعواصم عربية أولاها القاهرة، وهى تتصرف مع نظم الحكم التابعة تصرف الحر فيما يملك، فهى تنهى وتأمر وتُبقى وتستبعد، والاستعمار الأمريكى لإرادة وقرار الحكم المصرى أوضح من أن تخطئه العين، كل ما هنالك أن الحكم المصرى يطلب مد أجل الخدمة، يطلب التمديد للرئيس مبارك إلى ثلاثين سنة، أو الصبر حتى اكتمال سيناريو التوريث للنجل جمال مبارك، وهو مستعد لأن يقايض - وقد فعلها بالكويز والذى منه - ما تبقى من لحم السيادة الوطنية بجواز مرور للبقاء، فسيادة الحكم هى الأهم عنده لا سيادة الوطن، ولا مانع عند الحكم أن يناور هو الآخر بحديث عن الإصلاح أو

حتى التغيير، فهو يحدثك عن التدرج واعتبارات الاستقرار، وهى ألعاب وألاعيب متهالكة فات أوانها وانقضى مفعولها، فدعوى التدرج بخبرة المحنة المصرية انتهت إلى المزيد من الكبت العام، ودعوى الاستقرار بخبرة المحنة ذاتها انتهت إلى المزيد من النهب العام، والمعنى ببساطة أنه لا خطة أمريكا ولا خطة الحكم مما يستحق أن ينسب لأشواق التغيير الوطنى، وهنا بالدقة نتبين موقع حركة كفاية، فهى النقيض بالضبط لخطة أمريكا، وهى النقيض بالضبط لخطة الحكم، وطلاقها بائن مع المتفائلين أو المتعاونين أو المتجاوبين مع خطة أمريكا أو خطة الحكم، إنها البديل الثالث الذى يستظهر الأصل فى طبائع الفطرة الوطنية، فهى تعادى أمريكا وتعارض الحكم معا، وتقرن طلب الاستقلال الوطنى بطلب التقدم إلى الديمقراطية، وشعارها العفوى كفاية ضد الاستعمار والاستبداد التابع معا، وأول الطريق عندها: رفض التمديد والتوريث، فهزيمة أمريكا فى حرب المنطقة تبدأ بتفكيك قاعدتها السياسية فى القاهرة، وكفاية تنتصر بالبداهة للمقاومة بالسلاح فى العراق وفلسطين ولبنان، لكنها لا ترفع سلاحا ولا تدعو إلى عنف فى القاهرة، إنها تقاوم بالسياسة وكسر حواجز الخوف، تقاوم بالتظاهر السلمى والعصيان السياسى النشيط، لا تلوم المقهورين على صمت، بل تتقدم إلى فعل يكسب ثقة الناس ويوقظ المارد المصرى من نومة أهل الكهف.

إشارات

* مفاجأة الرئيس مبارك فى خطاب المنوفية بتعديل المادة ٧٦ من الدستور إيجابية وتستحق التحية، لكنها بالطبع لا تكفى.

* وكالة أنباء لاظوغلى دخلت المنافسة النشيطة مع الوكالة الرسمية المعروفة باسم أنباء الشرق الأوسط، الدليل: أخبار مريبة متطابقة الصياغة تنشرها الصحف إياها، وتبدو منقولة بالفاكس أو باليد من مبنى مباحث أمن الدولة المعروف حركيا باسم لاظوغلى!.

* هل يمكن الجمع بين خدمة مباحث أمن الدولة وخدمة المباحث الفيدرالية؟، صحيفة يومية مغمورة تسمى نفسها مستقلة صنعت المعجزة!.

* الوزير محمد إبراهيم سليمان قال هناك واحد فقط يفهم من بين كل عشرة مهندسين، لاحظ: أن سليمان مهندس المواسير المنفجرة من حزب الأغلبية!.

* نواب سميحة عنوان على عفاف الحصانة البرلمانية التى لا تُمس فى مجلس الشعب المصري!.

* عادل آدم.. جبل الصمت الذى تفجر دمعا فى أوان الرحيل.

* فكرى على صاوى لحق عز الرجال.. إنهم يرحلون خلسة دون فرصة وداع.

٢٧ فبراير ٢٠٠٥

لا نريدها مهزلة

بالتأكيد: لا نريدها مهزلة، فكل انتخابات لا تتحقق فيها الندية والمساواة والتكافؤ والنزاهة لا تكون انتخابات من أصله، وصيغة انتخابات الرئاسة المعروضة ليست سوى استفتاء مقّنع بل ومزّور، فهى انتخابات لا يتوافر فيها حق الترشيح الجدى، عنوان التعديل الدستورى يوحى بالتحول من الاستفتاء الرئاسى إلى الاقتراع المباشر، وفى الموضوع مصادرة للعنوان، فقد جرى حجب حق الترشيح الجدى بقيد مانع، جرى اشتراط حصول الراغب فى الترشيح على نصاب من عضوية مجالس الشعب والشورى والمحليات، وهو طلب يصادر على المطلوب، والسبب معروف، فهذه، المجالس كلها مزورة فى أغلبها أو مطعون عليها دستوريا، ثم إنها كلها – تقريبا – تحت سيطرة الإدارة والأمن والشيء المسمى بـ"الحزب الوطنى"، والمعنى: إن الحصول على النصاب المفروض قد يكون أكثر مشقة من طلب لبن العصفور، والطريف: أنهم يحدثونك عن الدستور الفرنسى، وعن اقتباس فكرة النصاب البرلمانى من النظام الفرنسى، وكأنهم يريدون اقتباس الدستور الفرنسى بدون فرنسا، ففى فرنسا حريات تامة وانتخابات مكفولة النزاهة إلى أقصى حد، وفى مصر كبت عام وانتخابات مضمونة التزوير إلى أبعد حد، فليس فى فرنسا صفوت الشريف ولا كمال الشاذلى، ولا إمبراطورية تخويف اسمها مباحث أمن الدولة، ولا إذلال ودهس لكرامة المواطنين وكأنهم بقية الرعايا والسبايا، ولا رئاسة مزدوجة للأب والابن، ولا إعلام محتكر للدولة مشغول طول الوقت بتتبع صور وأخبار وجولات العائلة المباركة، ولا تقارير ذمة مالية محجوبة عن الرأى العام المفجوع – على الطريقة المصرية – بنكبات النهب العام، وتجاهل ذلك كله عمى للبصر وطمس للبصيرة، وكأنهم يريدون وضع لافتة نيون ملونة على مدخل خرابة، والمعنى: أنه لابد من كنس الركام كله، فلا انتخابات رئاسة حرة –

ولا انتخابات يعتد بها من أى نوع - بدون إطلاق تام لحريات تكوين الأحزاب وإصدار الصحف وإنشاء قنوات التليفزيون وتشريع حقوق التظاهر والاعتصام والإضراب السلمى والإلغاء الكامل لحالة الطوارئ والإفراج عن عشرين ألف معتقل سياسى، ولا انتخابات رئاسة حرة بدون ضمان إشراف وإدارة قضاء مستقل لعمليات الانتخاب من أول إعداد جداول القيد والترشيح إلى إعلان نتائج التصويت، ولا انتخابات رئاسة حرة بدون تعديل دستورى شامل يقلص صلاحيات الرئيس شبه الإلهية ويضع حدا أقصى للبقاء فى المنصب لا تزيد يوما واحدا على فترتين، ولا انتخابات رئاسة حرة يترشح فيها الرئيس الذى قضى فى منصبه ٢٤ سنة تكفى وتزيد، ولا انتخابات رئاسة حرة يترشح فيها نجل الرئيس مع وجود الأب على قمة جهاز الدولة، فكل هذه حيل وخدع وألاعيب مضى زمانها وانقضى مفعولها، ولا أحد - عاقلا - مستعد لقبول المزيد من الخداع البدائى، ولا أحد - عاقلا - مستعد لقبول المزيد من احتقار ذكاء الشعب المصرى، فالذى يتصور أن بوسعه احتقار ذكائنا هو الأغبى بامتياز، والبديل - فى جملة واحدة - إطلاق الحريات وضمان المساواة فى حق الترشيح والدعاية وكفالة نزاهة الانتخابات، ولا مشكلة - إن استقامت الأقوال - فى ضمان المساواة الكافلة لحق ترشيح لا يقبل الطعن عليه، الاقتراح المعقول: الحصول على توقيعات نصاب معين من المواطنين بتوزيع جغرافى يتفق عليه، وألا تقع أحزاب المعارضة - المعترف بها - فى غواية استخدام الاستثناء الموقوت فى التعديل الدستورى على طريقة الرئيس مبارك، فمنحة الإعفاء الوقتى من شروط الترشيح ملغومة، وتضع الأحزاب المحاصرة - حتى لو جرى تجميد حالة الطوارئ - فى شرط أسوأ، وتفتح باب التناقض الظاهر مع مبدأ المساواة ودعوى اكتساب أو طلب الحرية، فالحرية لا تتجزأ ولا تطلب بالقطعة، فإما أن تكون المنافسة متكافئة أو لا تكون من أصله، ولا يليق بمرشح معارض أن يلعب دور الكومبارس فى سيناريو عبثى، لا يليق بمرشح معارض أن يلعب دور المحلّل للتمديد فالتوريث، لا يليق بمرشح معارض أن ينتهى إلى دور التيس السياسى بتعبير لاذع أطلقه ضياء الدين داود رئيس الحزب الناصرى، فكل ذلك مما لا يليق باسم مصر.

إشارات

* إنها انتفاضة الحرية تحفر لأمريكا قبرها المختار، هذا هو المغزى البليغ لمظاهرة المليون ونصف المليون لبنانى بقيادة السيد حسن نصر الله.

* مظاهرة سلمية واحدة من مئة ألف مصرى تكفى جدا لكنس نظام الطغيان.

* هل يليق أن يبقى السفير سليمان عواد - المتحدث الرسمى باسم الرئيس - فى منصبه مع اتهامه فى دعوى تزوير ثبت بتقارير الطب الشرعى؟!

* سوق نساء قرية سراندو بالبحيرة كالبهائم - معلقات موصولات من شعورهن - إلى عربات الترحيلات أحدث صيحة فى فنون إذلال المصريين.

* فاطمة نصر امرأة من مصر تستحق أن تنحنى لها السطور، المناسبة: بلوغ مجلتها سطور - أرفع وأجمل مطبوعاتنا الثقافية الشهرية - عددها المئة.

١٣ مارس ٢٠٠٥

النهاية لا أقلّ

لا قيمة لفهم مطالب الحرية فى مصر بمعنى أقل من إنهاء حكم الرئيس مبارك، فليس المطلوب فقط تعديلا شاملا فى الدستور، ولا إطلاقا تاما للحريات، ولا ضمانا قضائيا لنزاهة الانتخابات، فهذه كلها مطالب محقة، وفى موضعها بالضبط، لكنها بالطبع لا تكفى لبلوغ هدف التغيير، فالضمانات الدستورية والقانونية لا تعمل من تلقاء ذاتها، ولابد أن يتحرك الشعب أولا، وأن يستيقظ المصريون من نومة أهل الكهف، وأن يتوافر الانتباه العام لحقيقة ما جرى فى ٢٤ سنة دامية كآبية من عمر مصر تحت حكم مبارك، وقد سُئل الرئيس مبارك مرة عن برنامجه الانتخابى للرئاسة الخامسة، وكان رده مستهجنا لمجرد السؤال، وقال ما معناه إنه ليس جديدا علينا وأعماله نعرفها، وهو على حق فيما نعتقد، فليس لديه برنامج للمستقبل، إلا أن يكون استطرادا بالتراكم للحصاد المر، فلسنا فقط بصدد نظام مستبد ودولة بوليسية متوحشة تراخت إلى دور العصابة، وديكتاتورية عاتية صدر فى عهدها المبارك مئة ألف أمر اعتقال، وتحتفظ إلى الآن بعشرين ألف معتقل فى السجون، والأقبية، وتدوس بالأحذية الثقيلة حريات وكرامات الناس والأحزاب والنقابات والجامعات، وتعيّن الخدم من العمداء إلى العمد بنصائح وتوجيهات وأوامر "أبانا الذى فى لاظوغلى"، لسنا فقط بصدد نظام للقهر والكبت العام، فالنظام ذاته الذى يستبد بنا مُستبد به، فقد أضاع الاستقلال الوطنى لمصر، وحوّل البلد بشهوة البقاء وبأى ثمن إلى مستعمرة أمريكية، ورث كامب ديفيد التى انتهت إلى نزع السلاح على جبهة سيناء، وتكفلت المعونة الأمريكية الضامنة لاتفاق العار بتفكيك حصانة القرار فى القاهرة، وأصيبت الدولة المصرية بنوع خطر من الإيدز السياسى، وتحولت السفارة الأمريكية بالقاهرة إلى منزل الوحى على طريقة دار المندوب السامى البريطانى قبل الثورة، فلم يصدر قرار أساسى واحد

فى مصر طوال عهد مبارك إلا أن يكون على هوى الرغبات الأمريكية، من وقف برنامج المحطات النووية إلى التوقيع النهائى على معاهدة منع الانتشار الذرى، ومن الخصخصة بالمصمصة إلى تجريف سعر الجنيه، ومن التواطؤ فى حرب الكويت إلى التعاون فى غزو العراق، وفى ظلال الهوى الأمريكى جرت أوسع عملية نهب وشفط للثروة المصرية، وبلغ المرصود مما نهب ونزح فى سنوات مبارك ما يزيد على ٣٠٠ مليار دولار بالأرقام شبه الرسمية، ورغم أن مصر تلقت ما يزيد على ٢٠٠ مليار دولار من المعونات وعوائد عمل المصريين فى الخارج وموارد أخرى، وهى موارد تكفى لبناء نهضة لا يغلبها غلاب، كان الحظ النكد هو مصير الاقتصاد المصرى، وتدنت معدلات التنمية إلى الصفر أو ما يزيد قليلا، وتراجعت مصر التى كانت رأسا برأس مع كوريا الجنوبية فى معدلات التقدم إلى ما بعد حرب ١٩٧٣، وبينما صارت كوريا الجنوبية الآن عاشر أقوى اقتصاد فى العالم، تدنت مصر إلى المرتبة ١٢٢ فى تقارير التنمية البشرية الدولية، ونزل ثلثا المصريين تحت خط الفقر، وزادت أرقام البطالة إلى ٧ ملايين عاطل، وبلغ عدد العوانس والعانسات فوق سن الزواج ما يزيد على عشرة ملايين، باختصار: خرجنا من سباق التاريخ، وتحولنا إلى دولة فى الجراج وشعب فى الجحيم، وأكبر الفضل ينسب لصاحب الفضل حسنى مبارك، وهو ما يجعل من مقولة التغيير مرادفا لفظيا بأبجديات السياسة لإنهاء حكم الرئيس مبارك، ويجعل من مطالب الحرية صنوا لإنقاذ مصر من أقدارها البائسة، وبديهى ألا يتصور أحد وإن كنا نتمنى أن يتراجع الرئيس مبارك عن ترشيح نفسه أو نجله فى الانتخابات المقبلة، والبديل: عصيان سياسى ومدنى سلمى متدّرج ومنظم، أو أن تنزلق مصر فيما نخشاه إلى انفجار وحرائق يتطاير شررها الآن من آبار الغضب المكبوت.

إشارات

* نتصور أن الاتجاه لتعيين السيد عمر سليمان المعروف بالكفاءة والنزاهة الشخصية نائبا للرئيس خطوة فى الاتجاه الصحيح، لكنها إن جرت لا تكفى.

* صلابة ضياء الدين داود ليست موضع خلاف، فقد تربّى الرجل فى مدرسة فتحى رضوان وتخرّج فى أكاديمية جمال عبدالناصر.

* الاعتداء علىٍ حمدين صباحى فى مظاهرة دفاع عن الفلاحين شهادة تكريم مضافة لنائب قدّ من صلب الشعب.

* لابد من محاكمة شعبية لضابط الشرطة المتهم بقتل فلاحة سراندو مع الضابطين أحمد جمال وكمال الطحاوى بطلى الاعتداء على المتظاهرين فى العريش.

* حركة كفاية - مع الأحزاب الحية مسموحة ومحظورة - عنوان التغيير على الطريقة الوطنية، وهو النقيض بالضبط للتغيير على طريقة الحزب الوطني!، أو التغيير على طريقة المرتزقة طلاب التمويل على باب السفارة الأمريكية.

* لا تملك إلا أن تقول مع الراحل نزار قباني: أنا مع الإرهاب، المناسبة: وصف قمة القاع العربى الوشيكة فى الجزائر للمقاومة العراقية بالإرهاب!.

* ليست نبوءة: الانتفاضة الفلسطينية الثالثة قرب نهاية العام الجارى رغم أنف هدنة الانصياع لمطلب شارون.

٢٠ مارس ٢٠٠٥

معارف رئيس!

أرجو ألا يكون المنسوب إلى الرئيس مبارك صحيحاً، وإلا فهى الكارثة، فلا يعقل أن تتواضع معارف ومعلومات موضوعة على مكتب رأس الدولة المصرية إلى هذا الحد، وأن يقول الرئيس مبارك - فى حوار مع صحيفة "لوفيجارو" الفرنسية إن "الإسلاميين فقط"! هم الذين يطلبون إلغاء قانون الطوارئ، ولا يعقل أن يسأل الرئيس عن حركة كفاية، ثم إن يكون ردّه على طريقة "بعض الحركات تسقط علينا من الخارج"، فالرئيس يعلم أو يجب أن يعلم أن حركة كفاية هى إطار مدنى جامع لأشواق التغيير فى مصر، وأنها ليست حركة خواجات بل مصريين من كافة اتجاهات الرأى والسياسة، وأنها تعتمد على التمويل الذاتى من المبادرين والأنصار، وترفض التمويل الأجنبى بالجملة، وترفض الاستعمار الأمريكى للقرار والإرادة المصرية، تماما كما ترفض احتلال الرئيس الأبدى لقصر الرئاسة، وإذا كان ذلك كذلك بكل تأكيد، فليس من معنى لحديث الرئيس عن حركات تسقط علينا من الخارج، اللهم إلا إذا كان المقصود أن حركة كفاية من خارج النظام، وهى كذلك بالفعل، فهى تستند إلى شرعية الوجود الواقعى، فلا هى حزب يطلب ترخيصا من لجنة الأحزاب التى هى إحدى عجائب الدنيا السياسية السبع فى مصر، ولا هى جمعية تسعى إلى إذن من كهنة الإدارة والأمن فى وزارة الشئون الاجتماعية، وتتقدم إلى الفعل المباشر دون أن تقع فى الحيص بيص، ولا أن تتوه فى حسبة ضرب الأخماس بالأسداس، حققت فى شهور ما تعثر تحقيقه فى مصر لسنوات بل لعقود، جعلت من نقد الرئيس حقا سياسياً بعد أن سبقتها العربى لجعله حقاً صحفياً، ومبارك يعلم - فيما نحسب - أن نقد الرئيس محظور بنصوص الدستور والقانون، فالدستور يضع الرئيس على صلاحياته المطلقة فوق الرقابة فى البرلمان أو المساءلة فى الصحافة، ومبارك يعلم فيما نحسب أن قانون

العقوبات يحظر النقد ذاته بتحريم وتجريم ما يسميه إهانة رئيس الجمهورية، وكأننا بصدد جريمة العيب فى الذات الملكية، على طريقة ما كان محظوراً قبل ثورة ١٩٥٢، واكتساب حق نقد الرئيس سياسياً جعل هذه النصوص كلها ميتة كأوراق الخريف، شيء آخر حققته حركة كفاية بمبادرات الخروج إلى الشارع، وهو أنها جعلت حق التظاهر فى قبضة اليد، رغم أن التظاهر محظور بقانون الطوارئ وبغلظة الكبت العام، وهو ما يفتح طريقاً لاكتساب الحرية غير إدمان العرضحالات وتكرار الرجاء الباهت أو الملح لمقام الباب العالى، فالحقوق الإنسانية تكتسب ولا يستأذن فيها، ودولة الحرية لا تقوم بألف دستور ولا بمليون إعلان لحقوق الإنسان، دولة الحرية يقيمها الأحرار بالروح قبل العقل، وبالوجدان قبل الأبدان، وبديهى ألا أحد فى مصر يريد الحرية يقبل أن يحكم بقانون الطوارئ لربع قرن، فلسنا شعباً من الشواذ الطوارئ على التاريخ البشرى، ولا نرضى بالطبيعة بوضع الأسرى والرعيان فى دولة الطغيان، وأى قول آخر ينطوى على شبهة احتقار عنصرى للشعب المصرى، وإلا فما معنى قول الرئيس مبارك فى حوار "لوفيجارو" إن الإسلاميين فقط! هم الذين يطلبون إلغاء قانون الطوارئ، يا سبحان الله، وكأن الرئيس مبارك لا يعلم أن الناصريين والشيوعيين والليبراليين الوطنيين فضلا عن الإسلاميين طالبوا ويطالبون جميعا بإلغاء قانون الطوارئ، أى أن كل اتجاهات الشعب المصرى طالبت لعقود خلت بإنهاء حكم الطوارئ، وهو ما يجب أن يعلمه الرئيس باليقين، لا أن يكتفى بمعلومات وتأويلات المستشارين إياهم، ونتمنى أن يكون صحيحاً أن الرئيس مبارك بحسب حواره مع "لوفيجارو" لم يتخذ قراره بعد بالترشح فى انتخابات سبتمبر المقبل، وربما ندعوه مع غيرنا إلى اتخاذ قرار بعدم الترشح، فأغلب الاتجاهات الحية للشعب المصرى لا تطالب فقط بإنهاء حكم الطوارئ، إنها تطالب بالجملة بإنهاء حكم مبارك، ولو فعلها الرئيس لاستراح الشعب المصرى.

إشارات

* لا يكفى أن يؤكد الرئيس مبارك ونجله من قبله أن جمال مبارك لن يرشح نفسه أبداً فى انتخابات الرئاسة، والمطلوب: قرار بإنهاء الدور السياسى فوق الدستورى للرئيس الابن.

* بدأت انتفاضة القضاة بإعلان الجمعية العمومية لنادى القضاة بالاسكندرية رفض المشاركة فى لعبة الإشراف المنقوص ما لم توضع عمليات الانتخابات كلها من الألف إلى الياء تحت ادارة القضاة.

* الثانية بعد ظهر الأربعاء المقبل موعد الشعب المصرى مع نداء الحرية بثلاث مظاهرات سلمية صامتة فى القاهرة أمام مبنى مجلس الشعب والاسكندرية أمام سراى الحقانية والمنصورة بميدان أم كلثوم.

* مجرد خبر: عسكر أكاييف رئيس قيرغيزستان هرب بجلده مع بقية العائلة!

* وإن أردتم لهذه الأمة أن تنتصر. فاخلعوا عنكم قيودكم.. واخلعوا أنظمتكم.

٢٧ مارس ٢٠٠٥

مول للتظاهر

لعلها نكتة الموسم بامتياز، فقد ثبت مجدداً أن مصر بلد العجائب حقاً، وقالت الصحف الحكومية على لسان السيد صفوت الشريف طبعاً إن أحزاب التوافق الوطنى طالبت وزارة الداخلية بإعداد عدة أماكن ملائمة يتم تخصيصها لعملية التظاهر، وكأن التظاهر تحول بالذكاء الفائق لشركاء الحوار الوطنى من حق مدنى وسياسى إلى رحلة ترفيهية، أو إلى فسحة ذهاب إلى مكان آمن ملائم كالذى أوصى به قانون العيب لصاحبه المرحوم السادات، أو إلى نزهة فى سجن معدّ خصيصاً بمعرفة وزارة الداخلية، وهو ما يضيف أعباء مالية جديدة على الموازنة المخصصة للوزارة، وهى تكفى بالكاد لبناء السجون والمعتقلات وأقسام الشرطة، وصرف حوافز التعذيب ومكافآت حماية النظام المرتعش، ونشر مئات الآلاف من عساكر الأمن المركزى وضباطه مع اللواءات ومساعدى وزير الداخلية، ولطعهم بعشرات الساعات فى برد الشتاء وحر الصيف فى وضع شاكى السلاح، وكأنهم على أهبة الدخول فى المعركة الحاسمة لتأديب الشعب المصرى، ما علينا، المهم أن إعداد الأماكن الملائمة لعملية التظاهر يبدو مشكلة عويصة، فالمطلوب: أن يجرى التظاهر فلا تسمع له حساً ولا تعرف عنه خبراً، ولا يعرف أحد إن كان حوار الأحزاب العاقلة سوف يهتم بالتفاصيل، أو أن وزارة الداخلية حمالة الأسية ستكلف ضباطها فى لاظوغلى بتخطى الصعوبات وتقديم الحلول الإبداعية لدعم العملية الديمقراطية، وقد تلجأ وزارة الداخلية ضغطا للنفقات – إلى استخدام أماكن متوافرة بالفعل، وقد لا يلزم سوى صرف نثريات بالملايين لا المليارات لإعادة التأهيل وتوفير الديكورات المناسبة، فقد تلجأ الوزارة مثلاً إلى استخدام عدد من دورات المياه العامة، وهى تبدو ملائمة جداً لتحقيق وعد صفوت الشريف بنص تصريحاته بتمكين كل حزب أو تجمع من أن يعبر عن رأيه، فقد درج المصريون من وطأة القهر على

أن يستأذن الواحد منهم الآخر لكى يعبر عن رأيه فى أقرب دورة مياه، وقد تلجأ وزارة الداخلية إلى حل آخر خبيث، وتكفى المصريين شر التقاتل، وتخصص عدداً من جراجات السيارات لعملية التظاهر، وحبذا لو كانت الجراجات تحت الأرض، فهى بذلك تخلق التناقض المطلوب بين المتظاهرين والراكبين، وتعجل بالانفضاض التلقائى للمتظاهرين خشية الاختناق بعوادم السيارات، وتضمن ألا يفعلها أى متظاهر غير مرة واحدة ولأقل من ربع ساعة وإلى الأبد، وتوفر لوزير الداخلية الحجة المقنعة الداحضة لمزاعم الراغبين فى التظاهر، ولن نعجب وقتها لو وجّه وزير الداخلية اللوم للشعب المصرى الذى لا يرغب فى التظاهر والاستفادة من التسهيلات الديمقراطية الممنوحة، والشكوى من هروب المتظاهرين من حق التظاهر على طريقة تهرب المستثمرين من واجب الاستثمار، فجراجات التظاهر على قفا من يشيل لكن لا أحد يذهب، وقد تخيب وزارة الداخلية. ظنوننا، وتلجأ لعمل وقائى تستبق به انتقادات منظمات حقوق الإنسان ورزالة المعارضين من أمثالنا، وتقوم بالتعاون مع وزارة الاستثمار بطرح مناقصة عالمية لإنشاء مول للتظاهر فى قلب القاهرة، وهو اقتراح أكثر وجاهة من دعوة المتظاهرين للنباح فى عراء الاستاد خارج المدينة، فمول التظاهر فكرة بديعة حقا، وقتها يمكن تخصيص طابق تظاهر لكل حزب، أو أن يتم توزيع الطوابق بحسب نسب تمثيل كل حزب فى مجلس الشعب إياه، وترك البدروم لأحزاب الأنابيب وأحزاب الأسقف المنخفضة، وأرجو أن يعذرنى السادة القراء والسيدات بالذات، فأنا لا أقصد لا سمح الله استثارة شهية أحد للضحك على شر البلية، وأنا أعرف – كما تعرفون – أنهم يخافون التظاهر السلمى إلى حد الفزع، وأن كرة النار تكبر بمبادرات حركة كفاية للتظاهر التى انضمت إليها حركة الإخوان، وأن التحرك السياسى بالتظاهر يجرى على صفيح اجتماعى ساخن، وأن المضاعفات الاجتماعية للأزمة الاقتصادية متفاقمة وتشى بالخطر، وأن التظاهر الطبيعى الطليق لا الاصطناعى المحتجز يخصب الشارع بنداء المقاومة والرفض والعصيان المدنى، وأنه لا مخرج للنظام من قمة الرأس سوى أن يرحل بعصاه أو بدونها، وأن ألف باء الحرية فى مصر تعنى كنس نظام نهب المصريين واستذلهم للاستعمار الأمريكى، وربما يحاولون تفريج كروبهم – على طريقة صفوت الشريف – باستثارة الضحك فى الوقت الضائع.

إشارات

* نكتة أخري: الأحزاب طالبت وزارة الداخلية بحسب تصريحات صفوت الشريف بإعداد التوقيتات المناسبة للتظاهر، وكأن المطلوب أن نتظاهر لا فى توقيت صيفى ولا فى توقيت شتوى، بل على ساعة يد السيد الوزير.

* ٣٠ مارس ٢٠٠٥ يوم مظاهرات القاهرة والإسكندرية والمنصورة وأحد من أعظم أيام الشعب المصرى، فقد شهقت مصر من رئاتها الكبرى فى نفس واحد.

* أعظم تحية لمئات المعتقلين الذين أطلق سراحهم والذين ينتظرون من حركة كفاية وجماعة الإخوان، فقد أيقظوا الشعب المصرى من نومة أهل الكهف.

٣ أبريل ٢٠٠٥

ساعة العصيان

تمرد القضاة يعنى أن ساعة العصيان تدق فى مصر، فقد قررت الجمعية العمومية لنادى القضاة بالإسكندرية رفض مواصلة دور الكومبارس فى المسرحية الهزلية، قرروا التوقف عن الدخول مجددا فى لعبة إشراف قضائى عبثى على انتخابات رئاسة وبرلمان - أشبه بالكوميديا السوداء، والشروط قاطعة، قانون جديد للانتخابات يجعلها تستحق الصفة، وقانون جديد للسلطة القضائية يعطيها استقلالها ويرد اعتبارها وحصانتها، وهذه الجرأة الحصيفة الرصينة من القضاة لها طعم العصيان، وربما لا تكون هى الصرخة الأولى، فكلنا يذكر غضبة شيخ القضاة المستشار يحيى الرفاعى فى رسالة خطيرة نشرتها "العربي" قبل شهور طويلة، لكن الغضب جماعى هذه المرة، والضيق بإفساد السلطة القضائية بلغ منتهاه، وهو ليس ضيقا من فئة أو غضبا لكرامة مهنة، إنه الغضب والضيق بتزوير إرادة الناس، إنه بالدقة حكم قضائى بالانضمام لمواكب غضب شعبى قد يكون أكثره مكبوتا إلى الآن، لكن تمرد القضاة من المقام الجليل يجعل الغضب منطوقا فصيحا ساطعا ناصعا، ويشى بعلامات ساعة تقترب، فالنذر تتدافع، وأمارات القلق تشق وتعصف بقشرة الركود البليد على السطح، مصر أخيرا تستيقظ، مصر أخيرا تشك فى يأسها، القضاة يشقون عصا الطاعة لدولة الظلم، وأساتذة الجامعات بقيادة جماعة ٩ مارس غادروا مرافئ الصمت، ونشطاء النقابات ينهون حالة التواطؤ العام، والفلاحون يخوضون معارك الوجود بالدم فى البحيرة والغربية والدقهلية والصعيد -ضد الإقطاع العائد ودولة البوليس، والعمال تتوالى إضراباتهم، خرائط مصر السياسية تتبدل على نحو عنيف صاخب وطفرى حقا، حركة وطنية جديدة تتشكل، ونخب سياسة أكثر جدية من كافة التيارات والحساسيات تصعد إلى دور، وتظاهرات شوارع تكاد تتحول إلى رياضة شعبية، ومشهد قديم تتآكل أطرافه بعد أن مات القلب من

زمن، وحكم مذعور مفزوع من دنو الأجل وقدوم ساعة الحساب، لجنة سداسية لإدارة أزمات رئاسة مضطربة، وتدابير جارية لتصرف أو انصراف أخير في لحظة الخطر، وتلويح بعصا القمع بمئات الآلاف من عساكر جنود الأمن المركزى فى الميادين وعلى النواصى، وتخويف باعتقالات أو أشباح سبتمبر، وكأنهم لا يدركون أن مصر تتغير، وأن ما كان ممكنا لم يعد كذلك، مصر التى كان أسوأ ما يحدث فيها ألا شيء يحدث على الإطلاق بتعبير صحيفة بريطانية قبل عشر سنوات، مصر الآن شيء آخر تماما، مصر التى استعبدوا شعبها واستذلوها للأمريكيين، مصر التى نهبوها ودهسوا رقاب أولادها وبناتها الأكرمين، مصر الآن تبعث من الرماد، مصر الآن تتأهب للتمرد، مصر التى اختنقت بالتوحش الإسرائيلى فى الشرق، وبتفكيك السودان فى الجنوب، وبالمفاجأة الليبية فى الغرب، مصر التى اختنقت بدواهى الكبت العام وفواحش النهب العام، مصر التى اختنقت بركام زلازل البطالة والفقر وترف القلة الشافطة لمليارات المال الحرام، مصر التى اختنقت تنطق، مصر الآن على موعد مع العصيان، مصر تنطق لأن تداعى الظلم الذى استبد بأهلها ينطق الحجر، ومصر تعصى طغاتها واثقة مطمئنة لإنصاف انتهى إليه قضاتها، فهبة القضاة تعنى بالدقة رفع الغطاء القانونى عن بقية من شرعية مدّعاة، ولا حل إلا أن يرحل نظام غير شرعى باختياراته وسياساته وشخوصه لا نستثنى منهم أحدا، أو أن تكتمل دورة العقارب والثوانى إلى ساعة الفزع الأعظم، ويفيض النيل لا قدر الله بالدم.

إشارات

* بوضوح: رفض التمديد والتوريث يعنى رد العصمة للشعب لا أن تنتقل الرئاسة لأى شخص أيا كان اسمه ورسمه فى نظام فاسد بالجملة.

* انتصارا لانتفاضة القضاة: حركة كفاية تدعو الشعب المصرى لوقفة تظاهر سلمى صامت - تعتصم بأبواب المحاكم - فى الواحدة بعد ظهر الأربعاء ٢٧ أبريل الجارى فى عشر مدن كبرى.

* الهجوم المنحط على حركة كفاية - فى أسبوعية تطبيعية رخامية معروفة - شرف لا ندعيه. وأبسط رد: رمى البذاءات وكتابها على تدرج الرتب الأمنية فى أقرب سلة زبالة.

* لا يليق بمهنى ذى قيمة أن ينزلق بقلمه - فى لحظة الحقيقة بالذات - إلى التورط فى خبل صحافة الأمن العام.

* لا أحد يصادر على حق المصريين بالخارج فى العمل الوطنى، المهم ألا تختلط السياسة بالبيزنس ولا بشيكات التمويل الأجنبى وشبكات المخابرات الخطرة.

* مطلوب تحقيق: طبع كتب وزارة التعليم بقيمة سنوية تزيد على ٣ مليارات جنيه محجوزة كهدايا ليلة القدر للقطاع الخاص والصحف إياها، المريب: أن المطابع الأميرية الجاهزة للمهمة كلها - تعمل بربع الطاقة وتُدفع للإفلاس!

* مليار دولار قيمة التبادل التجارى بين إسرائيل والدول العربية على مدار ٢٠٠٤، وواردات البترول العراقى مخفض الثمن لإسرائيل وصلت فى العام نفسه إلى ٥٦٠ مليون دولار، الأرقام الصادمة للصديق الباحث المدقق وثيق الاطلاع اللواء صلاح الدين سليم.

١٧ أبريل ٢٠٠٥

مع مرتبة القرف

إنه خطاب مفزع حقا، والأنكي: أنه صدر عن رئيس جامعة يفترض بظاهر الصفة أنه من أصحاب المقام الرفيع، وقد لا يكون الإجراء الذى تضمنه الخطاب غريبا فى هذا الزمان، فرؤساء الجامعات المعينون بمذكرات الرضا الأمنى يأخذون بالأحوط دائما، ويظهرون فى الصورة التى تكفل دوام العز الرئاسى، ويثبتون ما ثبتت الوظيفة أنهم ملكيون أكثر من الملك، وأحرص على الرئيس ودولته من الزوجة والأنجال وكبير الياوران، ويحيلون كل مشتبه فى معارضته لوزير أو خفير إلى أقرب مقصلة تحقيق، ولا مانع من دوس كرامة الأساتذة وهيبة الجامعة إذا كان فى الأمر شبهة مساس بهيبة الحرس الجامعى، وقد كان الأستاذ الدكتور عبدالمنعم عبدالحميد البسيونى وفيا أميناً لكل هذه الاعتبارات وغيرها من الوصايا العشر، وأحال للتحقيق بجرة قلم أربعة أساتذة كبار فى القيمة العلمية والمناصب الوظيفية، والمحالون للتحقيق: د. سالم سلام أستاذ ورئيس طب الأطفال ود. خيرى طلعت أستاذ التاريخ الحديث ود. أحمد الشاهد الأستاذ بكلية العلوم ود. عاطف كشك عالم الأراضى والتربة المعروف، والأخير د. عاطف كشك عميد كلية الزراعة السابق وُضع اسمه فى طلب تحقيق ربما كان الأغرب فى صياغته بإطلاق، وتحت يدنا صورة ضوئية للخطاب النكتة، الخطاب موجه من الدكتور البسيونى الذى هو رئيس الجامعة إلى عميد كلية الزراعة الحالى، وهذا هو نص الخطاب: "نما إلى علمى أن هناك مجموعة من أعضاء هيئة التدريس ذكرت (أسمائهم) لسيادتكم منهم أ. د. عاطف كشك ينوون عمل مظاهرة سلمية غدا بالجامعة، يرجى إبلاغهم بأن ذلك سيؤدى إلى زعزعة الأمور وإثارة الطلاب وعليه (..) الأمر يتطلب ضرورة إفادتهم بعدم محاولة إثارة الأمور وإلا (سيعرضوا) أنفسهم (للمسائلة) القانونية"، ولا يحتاج القارئ الذكى لاستنتاج أن النص هو ذاته الذى تكرر

فى خطابات شبيهة تتعلق بالأساتذة الثلاثة الآخرين لعمداء كليات الطب والعلوم والآداب، وأول ما يلفت النظر فى الخطاب ركاكته اللغوية وأخطاؤه النحوية والإملائية "وضعناها فى أقواس من عندنا"، وربما تكون هذه هى المؤهلات المطلوبة أمنيا لتعيين شخص ما فى منصب رئيس جامعة، ما علينا، فكل بنى آدم خطاءون، وكل رئيس جامعة قد يجهل اللغة، لكن الدكتور البسيونى أثبت مقابل الركاكة اللغوية نبوغا ونجابة مثيرة فى استيعاب وتدريس مفردات اللغة الأمنية شفاهة وتحريرا، خذ عندك عبارات عبقرية من نوع: نما إلى علمى وذكرت (أسمائهم) لسيادتكم (سرًا طبعا) وزعزعة الأمور وإثارة الأمور، ولا تملك إلا أن تقول مع بؤس المطالعة الرشيدة لله فى خلقه أمور!، فلا تعود تعرف الفرق بالضبط بين خطاب رئيس جامعة وتقرير لضابط مباحث أمن دولة، خاصة أن القصة كلها ليس فيها إثارة أمنية ولا فنية، وليس فى الأمور أمور!، وأن ما جرى فى اليوم اللاحق للخطاب كان مشهدًا جليلاً طاف فيه عشرات من أساتذة جامعة المنيا بالحرم الجامعى فى مسيرة سلمية صامتة لمدة ساعة ونصف الساعة، وأن المطالب هى ذاتها جامعية ووطنية التى تضمنتها مذكرة تاريخية لأساتذة بجامعة القاهرة تدافعوا لمسيرة سلمية فى اليوم التالى لمظاهرة المنيا، كل الفرق: أن رئيس جامعة القاهرة د. على عبدالرحمن استقبل الأساتذة الأجلاء المتظاهرين وتسلم مذكرة المطالب باحترام يليق، بينما هرب البسيونى حتى لا يرتكب وزر تسلم مذكرة لأساتذة جامعة المنيا قد تنقض وضوءه الأمنى، فهل يعود الفرق إلى تواضع المعارف الأمنية لرئيس جامعة القاهرة قياسًا لعبقرية البسيونى، وعلمه الواسع بأدب جماعة لاظوغلى ودرايته الألمعية بالمقررات الدراسية لأكاديمية الشرطة، أم أننا نظلم د. على عبدالرحمن بحشر اسمه فى سياق مقارنة قد لا تصح وقد لا يريدها، فالمقارنة فى الأصل بين سلوكين، سلوك تظاهر حضارى لأساتذة أجلاء يستحقون الصفة مع مرتبة الشرف، وسلوك تقية أمنية لرئيس جامعة ربما يستحق الصفة مع مرتبة القرف.

إشارات

* ربما يحلم المصريون بأن تكون المفاجأة المعلن عنها للرئيس مبارك هى عدم ترشحه لانتخابات الرئاسة المقبلة، والأمل المراوغ: أن يكون

القرار قاطعا ونهائيا، وكل قرار آخر لا يحتمل وصف المفاجأة إلا على سبيل التنكيت والتبكيت.

* الواحدة ظهر الأربعاء المقبل: موعد الشعب المصرى مع نداء الحرية فى وقفة سلمية اعتصامًا بأبواب المحاكم فى ١٤ مدينة مصرية.

* ربما أدعو الذين يهاجمون بداء النفوس حركة كفاية أن يريحوا ويستريحوا، فلا أحد يقدر على حجب الشمس بظل الأصابع.

٢٤ أبريل ٢٠٠٥

رئيس الـــ "لسّه"!

المفاجأة الحقيقية فى حوار الرئيس مبارك السينمائى هى أنه كفى معارضيه شر القتال والجدال، وأثبت بروايته قبل روايات الآخرين أنه قد لا يصلح رئيسا لمصر، فعلى مدى خمس ساعات ونصف الساعة تقريبا كان حديث الرئيس فى التاريخ، ولا خلاف بالطبع على تألق الدراما الوطنية التى عبرت بمصر من هزيمة خاطفة فى ١٩٦٧ إلى نصر مخطوف فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، لا خلاف على عظمة عملية إعادة بناء الجيش من نقطة الصفر، ولا خلاف على عميق الاحترام الذى يكنه عموم المصريين لجيشهم الوطنى، لكن الخلاف وارد بالطبع على حدود دور مبارك كقائد عسكرى فى حرب أكتوبر، فكل ما هنالك أن مبارك كان قائدا لسلاح الطيران، وقد أجاد الدور عموما بطبائع التربية والفن العسكرى، هذا كل ما فى القصة، لكن حرب أكتوبر لم تكن مجرد معركة طيران، ودور مبارك تسبقه بالطبيعة أدوار لقادة عسكريين أرفع مقاما من نوع أحمد إسماعيل وسعد الدين الشاذلى وعبدالغنى الجمسى ومحمد على فهمى وغيرهم، فحرب أكتوبر لم تكن على طريقة الفيلم الدعائى المصنوع لمبارك موسيقى تصويرية مصحوبة بأزيز الطائرات، ومبارك لم يكن بطلا وحيدا، ولا شخصية فولاذية على طريقة الميلودراما الفاقعة لصاحبيها عماد الدين أديب وشريف عرفة، وإلا فأين كانت هذه البطولة الفولاذية يوم اغتيال الرئيس السادات ومبارك إلى جواره على منصة العرض العسكري؟، وسلوك البطولة الفولاذية وقتها برواية مبارك نفسه: أن الكل كان مشغولا بالاختباء تحت أقرب كرسى، ما علينا، فدور مبارك العسكرى كأدوار غيره من القادة موضع احترام وتقدير فى العموم، وما يهمنا هو تاريخ مبارك السياسى، مبارك يقول إن السادات حطّ عينه عليه منذ التقاه لأول مرة سنة ١٩٥٠، والمعروف أن السادات كان وقتها متّصلاً بتنظيم الضباط الأحرار،

والسؤال: لماذا لم يفاتح السادات مبارك فى عضوية تنظيم عسكرى كان يعد للثورة فى مصر؟، سؤال لم يرد فى ذهن المحاور الضخم على طريقة كمال الشاذلى عماد الدين أديب، وبالطبع لم يكن واردا أن يجيب الرئيس مبارك عن أسئلة قد تُلغز أو تُحرج، كل ما هنالك أن مبارك أعرب عن دهشته لاختيار السادات له بالذات نائبا للرئيس بعد حرب أكتوبر، ونظن أن الرئيس مبارك على حق فى دهشته التى لم يعثر لها على تفسير إلى اليوم، كل ما هنالك أنه قبل الأمر كقضاء وقدر، تماما كما قبل نصيحة د. فؤاد محيى الدين عقب حادث المنصة بترشيح نفسه رئيسا وخلفا للسادات، وهكذا تبدو مساحات الفراغ فى الرواية هائلة، وكأننا بصدد نصّ أبيض بلا لون ولا وقع لحروف، وهو ما نطقت الأيام بعكسه بالضبط منذ أن أصبح مبارك رئيسا، فكلنا يعرف لون النص الذى كان ويكون، وحتى إشعار آخر، وعلى مدى ٢٤ سنة متصلة، ومبارك يدرك الحقيقة فيما يبدو ولو فى اللاوعى، وأراد أو أراد له صناع الفيلم الدعائى الأجوف أن يجيء حديث الرئاسة فى أصغر حيز، ربما لسحب شعاع أو ظل من أضواء التاريخ الذى صنعه الآخرون، وبظن أنه قد يبدد أو يخفى ظلمة السنوات التى تفرد بصنعها الرئيس وحده، فقد تحدث الرئيس مبارك عن عهده المديد فى نصف ساعة من ست ساعات، وبدا فى حيرة مقلقة وارتباك ظاهر باحثا عن إنجاز تائه فى كومة قش، وربما لم يجد غير واقعة خفض الديون أوائل التسعينيات كمكافأة اقتصادية مقابل توريط مصر فى حرب الكويت تحت القيادة الأمريكية، وبدا الرئيس كأنه غير معنى من أصله بتفشى البطالة وتوحش الفقر ومآزق السياسة وتدنى معيشة المصريين، ولم يجب الرئيس عن أسئلة لم تطرح عليه أصلا، ومن نوع أسئلة المسئولية البديهية عن خراب الاقتصاد وتفكيك المقدرة الإنتاجية وكوارث النهب العام ومآسى الاعتقالات والكبت العام وتآكل دور مصر واستعمار قرارها ودهس كرامة المصريين بالجملة، وبدا مع الأسئلة الموحية بالإجابات الجاهزة أن كل ما يهمه أن تبقى صلاحياته المطلقة كما هى، وأن يبقى حزب الأغلبية الميكانيكية على حاله، وأن يظل الحكم لقانون الطوارئ إلى يوم يبعثون، ثم إنه للأسف لايزال يفكر فى ترشيح نفسه لفترة رئاسة خامسة يكمل بها حكم الثلاثين سنة، صحيح أن الرئيس أجاب عن سؤال نافد الصبر يخص تفكيره فى الترشح أو عدم الترشح بقوله البليغ "لسّه"، وكم نتمنى أن يسمع صوت أغلبية المصريين

وهم يقولون له وبنفس طريقته العامية "بلاش"، فحوار الساعات الست ببهارات التكنيك وفوائض المكياج قد يصلح لتقديم الرئيس مبارك لدور ثان فى فيلم سينمائى، لكنه قد لا يصلح فيما نظن لتقديم مبارك لدور أول فى رئاسة بلد بحجم مصر.

إشارات

* ترتيب مهني: أهرام الاثنين الماضى نشرت حوار إبراهيم نافع مع الرئيس الروسى بوتين على صفحتها الثالثة، وتراجعت بنشر الحلقة الأولى من حوار الساعات الست مع الرئيس مبارك إلى الصفحة الخامسة!.

* أتذكر وصفا لكاتب كبير جدا عن رفيق ثمانينى حوّل تاريخه إلى عود قصب يمصّه!.

* المستشار محمود الخضيرى رئيس نادى قضاة الإسكندرية أثبت أنه قاض بجدّ، فقد أنهى لقاء الترهيب والترغيب مع مبعوث للعناية الرئاسية بطريقة حازمة كأنها حكم المحكمة.

١ مايو ٢٠٠٥

مصر تشكّ فى يأسها

تذكروا هذا الاسم لأنه يُذكّرنا فلا ننسى، فطارق غنام هو أول شهيد فى معركة التغيير السياسى، ووحده يستحق أن يكون رمزا لمصر الآن، فمصر الآن تشك فى يأسها، مصر الآن تستيقظ من نومة أهل الكهف، تزول الغشاوة عن بصرها الذى هو اليوم حديد، وتنزع حجاب الخوف، وتخوض معركة النهاية بحق مع دولة الظلم، فقد قُتل طارق غنام على باب مسجد، وسال دمه كأنه سورة الفاتحة، أخطأ الذين قتلوه فكتبوا له شهادة الميلاد الذى لا يقربه الموت، فالرصاص المطاطى الذى أصابه لن يفقأ عين مصر، وقنابل الدموع التى قتلته لن تخنق روحها، فالبلد يبدو مستعدا هذه المرة لدفع ثمن الحرية، وما من خيار آخر، فقد جربّنا أن نيأس، واستبد بنا يأسنا المقيم كأنه القدر المكتوب على الجبين، أو كأنه العقيدة الدينية بإطلاق السماوات والأرضين، وحفظنا سوره كأنها من القرآن أو الإنجيل، جربنا الانتحار فقرا، جربنا الهروب من عنت المعايش فى مصر إلى الموت فى قيعان البحر المتوسط، جربنا الهروب من العيش فى الجحيم إلى جنة الموت ببطون أسماك القرش، جربنا أن نُبدّل أوطانا بأوطان، وأن نُبدّل قبرا بقبر، وأن نتحاشى النظر لوجوهنا فى المرآة، وأن نداوى القهر بالصبر، وأن نصل ليلنا بنهارنا على جسر الذل القومى وسرير السخط الاجتماعى المكبوت، جربنا أن نخفض الرأس لنتفادى السيف، وكانت أقدار الدهس دائما فى انتظارنا، فى الشوارع، وفى أقسام الشرطة، وفى المعتقلات، وفى طوابير الخبز، وفى زحام الأوتوبيسات، وفى كوابيس النوم، وفى كسرة النفس التى تتبعنا كظلالنا، غاضت جلودنا فتلبست عظامنا، وكأننا الأقرب إلى الحجر لا البشر، لكن تراكم الظلم الذى يُنطق الحجر أنطق المصريين، وحين ينطق المصريون فلا بقاء للنظام المصرى، حين تنشق الصدور عن أحزاننا فتبلغ الحناجر، حين يخرج المصريون من القبور فسوف تنهدم

القصور، وقد أراهن ورزقى على الله أن هبّة جماعية من مئة ألف مصرى سوف تنهى القصة كلها، نعم هبّة المئة ألف مصرى من الـ ٧٢ مليونا سوف تستدعى ملاك الموت للمتهربين من الأقدار والمقادير، وقد بدأ العد التنازلى إلى الهبة الكبرى، فمصر الآن أشبه بدائرة هائلة من قلق ونذر وشرارات غضب، دائرة من قلق محجوز بسوار من ثقافة الخوف ومئات الألوف من عساكر الأمن المركزى، ولم يكن مطلوبا سوى أن تنفتح ثغرة فى جدار الخوف، وقد فعلها مئات المبادرين فى حركة كفاية، وراهنوا على اسم مصر له المجد فى العالمين، وقد نجح الرهان، وتدفقت طلائع من جيوش القلق عبر الثغرة المفتوحة، وسرت روح جديدة غير مسبوقة فى عنفوانها وحيويتها لسنين طويلة مريرة، تدفق القلق الاجتماعى فى صدامات الفلاحين الدامية مع الإقطاع العائد فى قرى الدلتا، وتدفق الغضب السياسى بمظاهرات سلمية بعرض وطول خرائط الوجع المصرى، وكادت المظاهرات السلمية تتحول إلى رياضة شعبية، بدأتها حركة كفاية قبل أشهر قليلة، وانضافت إليها حركة الإخوان بجماهير أوسع، وجرى رفع المصاحف ربما لأول مرة فى التاريخ الأقرب طلبا للحرية، وليس مصادرة على حقوق التعبير على طريقة ما جرى فى أزمة وليمة لأعشاب البحر، وتمردت قطاعات تتسع من أساتذة الجامعات، ووصل القلق النبيل إلى أجلّ صوره وأقدس سوره مع انتفاضة القضاة التى تكتسب زخما كاسحا، وفى مثل هذه المعارك الكبرى تبدو الأقدار الإغريقية سيدة المسرح، ففى دراما التاريخ سلوك لغرائز لا سطور لمواعظ، وكأن النص الأزلى يتكرر بالحرف والنص، فليس أمام حكم القهر سوى أن يشترى فوائض الوقت المخادع، ليس أمامه سوى القمع الوحشى واللجوء الخشن للقتل والترويع واعتقال الآلاف، وهو لا يدرك بغباوة القسوة أن يد البطش ذاتها هى التى تنزع عن القلوب أقفال الخوف، فهكذا تبدأ انتفاضات الشعوب الحية، وهكذا يبدو قتل الشهيد طارق غنام إيذانا بانتفاضة تُقبل لا معركة تنتهى، فهم يخشون الناس، ويبقى ألا يخشاهم الناس، وقد جربنا أن نيأس طويلا، فتعالوا نجرب أن ننتصر، تعالوا نهزم الحكم الذى يتكئ فقط على عصا الأمن المركزى لا على عصا النبى سليمان.

إشارات

* عن حوار مبارك - أديب: لم نكن نتمنى لعمار الشريعى وهو فنان عظيم حقا أن يتورط فى وضع موسيقى تصويرية لفيلم دعائى من الدرجة العاشرة.

* عن خالد محيى الدين: لا يليق برفيق عبدالناصر أن ينتهى به الشوط للعب دور محلل انتخابى حتى لا نقول أكثر لديكتاتورية الرئيس مبارك.

* عن محمد سيد أحمد: لا أعرف لماذا قرأت مقالك الداعم لترشيح خالد محيى الدين كأنه استئذان فى الانصراف.. عن فن الكتابة.

* عن الصديق عصام العريان: لست ورفاقك سجينا لجماعة الإخوان، بل ابنا يليق بمصر التى غلبها الشوق للحرية.

* عن حركة كفاية: تدين اعتقالات الإخوان لأنها تعتصم بالمبادئ، وترفض دعاوى إنقاذ مصر من لندن.. للسبب نفسه.

* عن البلطجى الصغير: هى مصادفة ذات مغزى أن يقيم قيادى رياضى فاشل مؤتمرا برعاية أجهزة الأمن ينافق فيه حكم الرئيس مبارك، إنه الفشل يجمع بعضه بعضا.

* إلى وزير الداخلية: بأى ذنب قُتلت نجاة يسرى وإيمان خميس، ومن المسئول يا وزير عن مقتل المواطن محمد سليمان يوسف ٢٨سنة قرية العمار بالقليوبية وهو تحت الاعتقال الهمجي؟.

٨ مايو ٢٠٠٥

علامات الساعة

الذى شهد يوم ثورة القضاة يوقن بأن النظام مات، وربما لا تتبقى إلا مراسم الدفن، فليس بوسع نظام الرئيس مبارك أن يتعلم، وليس بوسعه إلا أن يمضى إلى حتفه، مأخوذا بأقداره إلى حيث يستحق، فقد أصيب النظام بتصلب الشرايين، وعاجلته التخمة فى الرأس، وفقد حواس التنبه جميعا، تحول النظام إلى ركام، وجثة متعفنة متحللة تسد الطريق العام، وانتهى إلى موت سريرى مؤكد بضمور خلايا جذع المخ، وإلى وضع النبى سليمان - مع حفظ الفارق بين القداسة والتعاسة - فقد مات النبى سليمان وهو متكئ على عصا، ولم يلحظ أحد أنه مات إلا حين أكل النمل العصا، وهى الحال ذاتها لنظام يتكئ على عصا الأمن المركزى، ويتصور أنه يوهمنا بحياة باقية، يحول المدن الكبرى إلى ثكنات عسكرية، وينشر مئات الألوف من جنود الأردية السود فى الميادين وعند النواصى، يتصور أنه يخفى هزاله بماكياج الإرهاب، ويخفى عظامه فى قفة من بزات ضباط الداخلية والأغطية النحاسية على الأكتاف، وقد كانت العصا حاضرة بكامل هيئتها فى يوم المشهد العظيم، وجلبت معها المئات من المستأجرين مقابل عشرين جنيها فى اليوم، وجوه بليدة ممسوحة ممسوخة، تحمل مطاوى قرن الغزال وصور الرئيس مبارك كأنها الشعار المزدوج، وأصوات كأنها آتية من قبور تشبه فى خوائها القصور الفارغة، موتى من قبور فى صورة الأحياء عند سور نقابة المحامين وعلى سلالم نقابة الصحفيين، وأحياء من سجل الأموات فى قصور الحكم، حالة توحد رمزى موحية بطبائع اللحظة، بلطجية ولصوص صغار هم التعبير الأدق عن دولة المافيا. واللصوص الكبار، تركوا اللصوص الصغار فى حر الشمس ربما على سبيل الفسحة من سكنى القبور، وركن اللصوص الكبار إلى خيمة الظل من وراء القصور، وهمزة الوصل شعار باهت من كلمتين نعم لمبارك، كأنها التميمة منتهية الصلاحية

يتوقون بها مشاعر الرعب الذى دقت ساعته وتوالت زلازله، الرعب الذى لاحت بشائره فى صوت واثق عفى لطلائع مهنية وسياسية بدت محاصرة بجيوش الأمن المركزى ومطاوى قرن الغزال، كانت الأبصار كلها معلقة بمنصة الحكم فى نادى القضاة المجاور، وفى اليوم الذى انتظرته مصر، نفس اليوم ١٣ مايو ٢٠٠٥ الذى صادف مرور مئتى سنة بالضبط على خلع المصريين للوالى العثمانى وتنصيب محمد على، مرت الساعات لاهثة قاطعة للأنفاس كأنها سيف القدر، وصدر الحكم الذى هو عنوان الحقيقة فى نهاية جلسة الجمعية العمومية التاريخية حقا لقضاة مصر، الحكم البات فى كلمة واحدة: المقاطعة، انتصر القضاة لغضبة الشعب، ولم يخذلوا مصر التى انتظرت كلمتهم، كشفوا عورة نظام فقد ظله وتآكلت عصاه، فقد وضع الله كلمته فى ضمير القضاة، وأقامهم حراسا على قيمة العدل التى هى أعظم صفاته، وكانت نهاية اليوم الجليل عادلة بكل معنى الكلمة، كانت ختاما مستحقا وعلامة رحيل لدولة الطغيان.

أتحدى الرئيس

أخشى أن الرئيس مبارك يقلد كاتبا من الدرجة العاشرة اسمه سمير رجب، وإلا فما معنى تصريحاته المثيرة للسخرية إلى صحيفة السياسة الكويتية، يسأل الرئيس وكأنه من بلد آخر من يقف وراء مظاهرات كفاية والإخوان؟، ويجزم الرئيس فى حسم لا يحسد عليه أن هناك من يقف وراء أو يدفع الثمن لما أسماه تحالف التكفيريين والناصريين والإخوان وجماعة حزب الغد، وقد لا يصح أن أتحدث عن حزب الغد فله رئيسه أيمن نور، ولا عن الإخوان وهم جماعة وطنية فلهم مرشدهم العام، ولا عن التكفيريين فلا أعرف عنوانهم، فقط أملك أن أتحدث عن حركة كفاية، فأنا المتحدث الرسمى باسمها، وهى بالقطع أنبل ظاهرة فى التاريخ السياسى المعاصر لمصر، وللناصريين فيها كما لغيرهم من الإسلاميين والليبراليين واليساريين دور جوهرى، وأتحدى الرئيس وأفوكاتية نظامه أن يقدم دليلا واحدا أو شبه دليل يسند عبارة من ماركة هناك من يقف وراءهم، فالايحاءات الخبيثة مثيرة للظنون، وأقول للرئيس ببساطة: إن ديكتاتورية سيادتك هى التى تقف وراء تحالف المعارضين، فلم يتخلف معارض حقيقى واحد عن رفض تعديلاتك العبثية للمادة ٧٦ من الدستور، وتيارات مصر الحية تدعو

للمقاطعة والعصيان السياسى، وثورة القضاة حفرت قبرا لبقية مدعاة من شرعية ذابلة، ومصر كلها تنتظر يوم الحساب السلمى، تنتظر يوم الحساب لنظام الصفر الذى جلست على عرشه لربع قرن، تنتظر يوم الحساب فى جرائم خطف وشفط ثروة مصر، تنتظر يوم الحساب فى جرائم إهدار ٣٠٠ مليار دولار بالأرقام شبه الرسمية فى مجالات بيع القطاع العام وقروض البنوك المنهوبة، وهروب رؤوس الأموال للخارج، تنتظر يوم الحساب لنظام الطغيان الذى عصف واستبد، فقد صدرت فى عهدك المديد مئة ألف أمر اعتقال، وتحتفظ فى سجونك بـــ ٢٥ ألف معتقل سياسى باعتراف التقرير الأخير لمجلسك القومى لحقوق الإنسان، تنتظر يوم الحساب فى حملات تجريف وتكويش على الثروة والسلطة انتهت ببلد فى حجم مصر إلى حكم العائلة الواحدة، تنتظر يوم الحساب مع نظامك الذى استعبد المصريين، واستذلهم للاستعمار الأمريكى، تنتظر يوم الحساب فى جملة واحدة مع نظام للنهب العام يحكم بوسائل الكبت العام، وربما كان الرئيس يمزح عندما قال لو إننى أريد إخراج مظاهرات لدفعت الفلوس، وكأن الرئيس لا يعلم أن نظامه يدفع فعلا وبمعدل عشرين جنيها فى الرأس لعصابات بلطجة مجلوبة من مدن الصفيح، وتهتف كأنها تتظاهر وتتصافر على طريقة مشجعى الترسو هووه.. هووه.. مبارك، كأن الرئيس لا يعلم، كأنه ليس من هنا، أو كأنه من "كوكب تانى" على طريقة المطرب مدحت صالح.

١٥ مايو ٢٠٠٥

المتهم الأول

ليست جريمة البلطجية الصغار من حثالة البشر الذين ارتكبوا الفعل الهمجى الفاضح، ولا جريمة جنود الأردية السود وعلى وجوههم صفرة الموت وذل العوز، ولا جريمة ضباط الميدان من كلاب الحراسة الذين أصدروا الأوامر المباشرة، إنها جريمة الكبار قبل وبعد هؤلاء جميعا، فما جرى معلق برقبة اللواء نبيل العزبى مدير أمن القاهرة، ومعلق برقبة اللواء حبيب العادلى وزير الداخلية، ولا يمكن إخلاء الرئيس مبارك مع كامل الاحترام لمنصبه الرفيع من المسئولية، فهو المسئول عن تعيين أو إقالة وزير الداخلية باعتباره من وزراء السيادة، وهو المسئول عن سياسة البطش التى دهست عظام عشرات الألوف من المصريين فى السجون والمعتقلات وأقسام الشرطة، وهو المسئول الأول سياسيا عن تحويل قلب القاهرة إلى قطعة من أبوغريب يوم الأربعاء الأسود، هو المسئول عن دماء عشرات الشباب التى سالت على الأسفلت عند ضريح سعد زغلول وعلى سلالم نقابة الصحفيين، وهو المسئول عن جرائم هتك عرض النساء والفتيات من الصحفيات والمحاميات والناشطات المشاركات فى مظاهرة كفاية وقد ساقتنى الظروف لأكون واحدا من عشرة شباب ونساء جرى احتجازنا فى زنزانة بالشارع لا تزيد مساحتها على نصف متر مربع، كان المشهد عند سور مبنى وزارة الإنتاج الحربى المواجه لضريح سعد ناطقا بالفضيحة، سور دائرى حديدى من عربة أمن وثيران بشرية حليقة العقول متخفية فى الزى المدنى، ثم طوق آخر من جنود الأردية السود بالعصى المكهربة، ثم طوق ثالث من الضباط واللواءات الذين يصدرون الأوامر، وعلى مدى ما يقرب من نصف ساعة لاهثة متلاحقة الأنفاس توالت جولات التعذيب، اعتصار لأجساد المحاصرين بالضغط الخانق المتواصل بترتيب متفق عليه، وانتقاء شاب أو فتاة كل ثلاث دقائق تقريبا ليحل عليه أو عليها الدور فى

الضرب والدهس بالأقدام، وهتك عرض وتحرش جنسى حقير بالزهرات المحاصرات طول الوقت، وحالات إغماء وانهيار عصبى من الإجهاد والإرهاق وفقدان القدرة على تحمل القهر، وصرخات مكتومة وصاخبة ولكن بلا دمعة تنزل من عين، واجتاحنى وقتها إحساس مفزع بالقهر والعجز، نفس طعم الإحساس المذل القاهر الذى دهمنى على مدى أطول ساعة فى عمرى بحادث الاختطاف الدنيء الذى تعرضت له قبل سبعة أشهر، كان أسوأ ما فى هذا الإحساس أنك لا تملك دفع الأذى عن أحد، ولا عن نفسك، وكان أسوأ ما فيه أننى خائف غارق معلق بخيط رفيع من أمل فى أن أفلت بحياتى، كان أسوأ ما فيه أن الشباب والفتيات أحاطوا بى بالعمد أو بالظروف كأنهم طوق حماية، كنت الأبعد والأقل تعرضا للأذى البدنى، وإن كنت أحس بأننى فى وضع المتهم الأول، فيما يجرى كله، وسرعان ما عاجلنى سؤال من شاب أخذ دوره توا فى الضرب والدهس، سألنى الشاب الباسل وهو يمسح دمه: لسه فيه أمل يا أستاذ؟، كان السؤال بتوقيته اليائس الخانق هو الأحرج فى حياتى كلها، صمت مطرقا كأننى أعترف بذنب أن وعدتهم بأمل، ولم أجد غير كلمة بدت كتمتمة من ستة أحرف هى تحملوا، كأننى أدعوهم إلى احتمال القهر البدنى، والاحتفاظ بسلامة الروح، وربما كنت على حق، أو ربما هى مجرد حيلة لفظية لتغطية إحساس بالقهر والعجز وضعنى حيث لم أقصد فى قفص الاتهام، ما علينا، المهم أن ما جرى لم يكن تصرفا بغرائز وحشية لأفراد تجردوا من كل معنى آدمى، بل كان كما شهدت منظما منضبطا مأمورا به موصول الخيوط عن الوجوه الممسوحة الممسوخة المكلفة بالقهر إلى مكتب الرئيس مبارك، وهنا مربط الفرس، فقد يتصرف النائب العام بلطفه المعتاد مع هذه الجرائم بالحفظ، والقيد ضد المجهول المعلوم، وهذه ليست نهاية العالم، فجرائم التعذيب لا تسقط بالتقادم، وجريمة هتك عرض مصر يوم الاستفتاء الأسود سوف تظل عارا يلاحق نظام الرئيس مبارك بل والرئيس نفسه إلى يوم يبعثون.

إشارات

* السيد سمير عجب مجرد بائع روبابيكيا، ويعرف بطبيعة النشأة كمخبر حقير أن كتاباته تستحق مصيرها المحتوم فى أقرب مقلب زبالة.

* هل يتفضل الرئيس مبارك فيقدم لنا كما يحدث فى الدول المحترمة إقرار ذمة مالية له ولعائلته قابلا للنشر بالتفاصيل فى وسائل الإعلام؟.

* المطلوب بعد مقاطعة الاستفتاء المزور سحب الاعتراف بتعديل المادة ٧٦، السبب: أنه عقد إذعان أريد به إجبار المصريين على التسليم بتمديد رئاسة مبارك لثلاثين سنة وتوريث الرئاسة من بعده لنجله جمال، إنها لعبة وخدعة رجل واحد لا يصح أن تنطلى على أحد.

٢٩ مايو ٢٠٠٥

محنة النائب العام

أتصور أن النائب العام فى محنة حقيقية، وعليه أن يثبت حيدة ونزاهة وكفاءة جهاز النيابة العامة، فقد بدا جهاز النائب العام هذا الأسبوع مرحبا محتفيا بالزملاء والزميلات المجنى عليهم وعليهن فى تظاهرات الأربعاء الأسود، ولا بأس بالحفاوة والكرم. لكنها مشاعر طيبة قد لا تصادف محلا من إعراب قانونى أو سياسى، فلا يكفى الاستعداد الظاهر لفتح تحقيق، وإنما أن يصل التحقيق إلى نهاية بحجم جريمة هتك عرض مصر يوم الاستفتاء الأسود، وبحجم سفالة وانحطاط ووضاعة جرائم هتك عرض النساء المتظاهرات بالقرب من ضريح سعد زغلول وعند سلالم وأسوار نقابتى الصحفيين والمحامين، فما جرى لم يكن تصرفا منفلتا لأفراد، ولا تداعيات بانشداد الأعصاب لخناقة بلدى فى حى شعبى، وإنما الجريمة نظامية منظمة مدبرة بالدم البارد مع سابق إصرار وترصد، وموصولة الخيوط من ضباط الميدان إلى مكتب الرئيس مبارك، ولا يصح والأمر كذلك أن يضيع التحقيق فى متاهات أسئلة فنية تفصيلية من نوع أوصاف المتهمين الصغار أو الأسماء والوظائف، فالجريمة موثقة بالصور وشرائط الفيديو، ومنشورة ومذاعة فى الدنيا كلها، وصور جنرالات الداخلية مرصوصة إلى جوار جنرالات البلطجة من عينة مجدى علام ومحمد الديب.. وماجد الشربينى من وراء ستار، جنرالات الداخلية مع الرتب الأدنى يتحركون بالطبيعة بأوامر من حبيب العادلى وزير الداخلية، وجنرالات البلطجة موصول أمرهم بلجنة وأمانة السياسات سيئة الصيت برئاسة جمال مبارك، فهل يتشجع النائب العام ويأمر بفتح التحقيق مع جمال مبارك وحبيب العادلي؟، هذا هو مأزق المستشار ماهر عبدالواحد، ولو كنت مكانه لفعلت أو استقلت، فهذه أبسط أبجديات القانون، وهذه أبسط واجبات النيابة العامة المكلفة بحق الإدعاء عن المجتمع، وقد لا يكون بوسع النائب العام أن يؤدى الواجب الذى يمليه

الضمير، ومن الأفضل فى هذه الحالة أن يغلق الملف، لا أن يورّط النيابة فى مشاهد تمثيلية لن تقنع أحدا، أو أن ينهى القصة كلها بالتقييد ضد المجهول، وتقديم أكباش فداء صغيرة للمحاكمة، أو أن يكسب الوقت انتظارا لتصرف رئاسى ينهى عضوية بلطجى أو آخر فى حزب البلطجة الحاكم، فكل ذلك مما فات أوانه وانقضى مفعوله، ولابد أن النائب العام يتذكر مصائر وقائع مماثلة جرت من قبل، وبينها واقعة الاختطاف الدنىء المروع الذى تعرضت له قبل سبعة أشهر، وتحمس النائب العام وقتها للتحقيق فى سياق ضغط صحفى وشعبى واسع، وجرى التحقيق مع عروض الطب الشرعى والمعاينات باهتمام فنى لافت، ثم وضعت القصة كلها فى الأدراج، وقد لا يخفى السبب على لبيب، فقد اتهمت وقتها وزارة الداخلية، بالتواطؤ مع بيت الرئاسة فى تدبير ورعاية الجريمة الإرهابية، ربما لهذا السبب ترددت إلى الآن فى تلبية طلب كتابى كريم من المحامى العام الأول للإدلاء بأقوالى عن جرائم الأربعاء الأسود، فلا أريد أن أكون طرفا فى استيفاء أوراق تنتهى إلى أرشيف، وربما لا يليق بجهاز النائب العام أن يفعل، فنحن نريد العدالة لا إيحاءات ومظاهر الشروع فيها، نريد القصاص العادل من الرؤوس الكبيرة لا من الأتباع والذيول والخدم. وقد تكون القضية أكبر من طاقة احتمال النائب العام الذى نتمنى له موفور الصحة والعافية، قد تكون السياسة فى القضية أكثر وضوحا وصراحة من تعقيدات القانون والتباسات التداخل الضاغط من السلطة التنفيذية والوزير المنسوب إلى العدل فيها، فما جرى معلق برقبة نظام الرئيس مبارك الذى يملك بجرة قلم قرار تسمية النائب العام.

إشارات

* عظيمة يا مصر: حشد النساء المتشحات بالسواد يوم الأربعاء الماضى عند مدخل وسلالم نقابة الصحفيين.

* ليست كفاية: مظاهرة سلمية صامتة على ضوء الشموع عند ضريح سعد زغلول فى الثامنة مساء الأربعاء المقبل.

* ومن الآخر: الحرية فى مصر تساوى بالضبط إنهاء حكم مبارك الأب والابن.. لا أقل.

* للمرة الثانية: جائزة لأسامة داود عن صحافة الموجوعين، وللمرة الأولى: جائزة التفوق المهنى والكدح الإنسانى لرأفت بسطا.

* مبروك للزملاء بـــ"المصرى اليوم" فى عيد ميلادها الأول، وعقبال ١٠٠ سنة حرية.

٥ يونيو ٢٠٠٥

قاطعوا اللعبة العائلية

الموقف الوحيد الذى يستحق الوصف الديمقراطى هو مقاطعة انتخابات الرئاسة المقررة فى أواخر سبتمبر المقبل، والسبب بسيط، فهذه ليست انتخابات تنافسية بالمعنى المفهوم، إنها مجرد استبدال للاستفتاء المقنع بالاستفتاء الصريح، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا، فقبل تعديلات المادة ٧٦ من الدستور كان استفتاء الرئاسة صريحا بمرشح وحيد حصرا، وبعد الصياغات العبثية للتعديلات انتهينا إلى وضع الاستفتاء المقنع بمرشح وحيد غالب، فالتعديلات مفصلة بالضبط على مقاس الرئيس مبارك ونجله، إنها لعبة رجل واحد، صحيح أنها تفتح منفذا مؤقتا لترشيح أشخاص من الأحزاب المعترف بها رسميا، لكن الأحزاب ذات الأسماء الكبيرة لا تبدو فى أغلبها مستعدة للعب أدوار الكومبارس، ولا تتبقى من إمكانية مؤكدة لتقديم مرشحين سوى من الأحزاب المسماة تدليلا بالأحزاب الصغيرة، وهى ليست أحزابا من أصله، فهى على الأرجح منشآت ذات نفع خاص، وثقلها أخف من وزن الريشة، وتأثيرها أوهى من جناح البعوضة، وقد لا يُستبعد أن تنتهى القصة بكوميديا سوداء حقا، كأن تقدم الأحزاب إياها مرشحين للرئاسة تشتط دعايتهم الانتخابية المعارضة فى تأييد وتمجيد الرئيس مبارك، والإغراء ظاهر، فقد وعدت دولة الرئيس مبارك بنصف مليون جنيه لكل مرشح يعقلها ويتوكل ويتقدم إلى دور الكومبارس، أى أننا بصدد أوكازيون رئاسى وفرصة سانحة لترقيات طبقية مفاجئة، فرصة لانتقال رؤساء أحزاب الأنابيب من فئة المديونيرات إلى طبقة المليونيرات، ولا خوف من رقابة قررها قانون انتخاب رئيس الجمهورية منتهيا بأمرها إلى لجنة الانتخابات الرئاسية، فالدفاتر دفاتر دولة الرئيس واللجنة لجنتها، صحيح أن نصف أعضاء اللجنة العشرية من القضاة، لكن هؤلاء مع عظيم الاحترام لا يملكون أمر الحل والعقد، فقد اشترط قانون انتخابات الرئاسة موافقة سبعة

من أعضاء اللجنة على كل قرار أو إجراء، وهو ما يعنى أن موافقة إخوة من الشخصيات العامة الخمس شرط لازم، وهؤلاء الأخيرون سوف يجرى تعيينهم بقرار ضمنى من الرئيس مبارك، والقول بأن تعيينهم سوف يجرى عبر مكتبى مجلسى الشعب والشورى نوع من الهزل فى موضع الجد، تماما كأن يقال لك إن تعيينات رؤساء مجالس إدارة وتحرير الصحف القومية يتم فى اللجنة العامة لمجلس الشورى، فالراكب والماشى والعجل فى بطن أمه يعرف أنها قرارات تنزل رأسا من مكتب الرئيس مبارك، والمعنى: أن لجنة الانتخابات الرئاسية بطريقة اتخاذ القرار فيها هى مجرد تشكيل إدارى يصدر بأمر رئاسي، والأعجب: أن اللجنة ذات القرار الإدارى فى رجحانه قد جرى تحصينها وتنزيهها عن التأويل أو التعقيب القضائى، أى أن سيادة اللجنة من سيادة الرئيس الذى أنشأها، كلاهما فوق الرقابة وفوق المساءلة، أى أن فى القصة كلها شذوذا ودوسا لكرامة المبادئ الدستورية، وميلا عظيما إلى استحمار الشعب المصرى، أضف: أن لعبة الانتخابات الرئاسية إياها تكاد تستبعد حق الترشيح الجدى ومبدأ المساواة البديهى فى دولة لها دستور، فهى تقصر حق الترشيح بلا شروط هذه المرة على أعضاء الهيئات العليا أو ما يعادلها للأحزاب المعترف بها رسميا، وبتشكيلها الذى كان قائما قبل العاشر من مايو الماضى، وعدد هؤلاء الموعودين بجنة الترشيح لا يزيد على ٣٠٠ مصرى، أى أن ٣٠٠ شخص لا غير امتازوا بحق حجز بشروط التعجيز عن بقية الــ ٧٢ مليون مصرى، أى أن المصريين تحولوا فى أغلبهم الساحق إلى شعب من المنبوذين بالأمر الرئاسى، والأعجب أن الرئيس الذى يحتقر وينبذ شعبه بهذه الطريقة الكاريكاتورية يطلب أصواته وتأييده فى الوقت نفسه، وكأننا من بقية أملاك سيادته، وقد أغراه بنا أنه ظل فوق الرقاب لأربع وعشرين سنة ينوى تمديدها إلى الثلاثين، وربما يطمع فى توريث الرئاسة لنجله إلى ثلاثين سنة أخرى، وأبسط رد على مهانة التمديد فالتوريث أن نقاطع لعبة الرئاسة العائلية، وأن نسحب عنها مشروعية المشاركة بالتصويت أو الترشيح، والبديل: عصيان سياسى فعصيان مدنى سلمى ينهى حكم العائلة التى ليست مقدسة.

إشارات

* مظاهرة كفاية بالآلاف على ضوء الشموع - مساء الأربعاء الماضى - قفزة مثيرة فى مسيرة الشهور المقبلة إلى انتفاضة المئة ألف.

* كل موقف لا يعارض نظام الرئيس مبارك بالاسم والرسم مشكوك فى أمره.. الديمقراطى!.

* نظام مبارك الأب والابن دخل دورة عّد تنازلى قد تصل إلى نقطة الصفر قبل سنتين.. بالحد الأقصى.

* القضاة الذين رفضوا تسلم مكافأة الإشراف على استفتاء الرئاسة الأسود هم سادة الضمير فى مصر المحروسة.

* ألف مبروك للجائزة التقديرية لنقابة الصحفيين، فقد استحقت هذا العام اسم محمد عودة.

* أدعوا معى بالشفاء التام لعبدالعزيز مخيون الذى يستحق عن جدارة صفة فنان الشعب.

* نهاية دور "يا طالع النخل" أول بطولة فنية للممثل الموهوب عبدالله محمود هى ذاتها نهاية حياته!

١٢ يونيو ٢٠٠٥

أين هو الرئيس؟

يسألونك عن البديل للرئيس مبارك، ولا يخطر على بالهم السؤال الأكثر منطقية بإيحاءات وتداعيات ما يجرى فى مصر هذه الأيام، السؤال باختصار أين هو الرئيس مبارك؟، لا تقل لى إنك قرأت تصريحا منسوبا إليه صباح اليوم، أو أنك رأيت صورة سيادته تملأ الصفحات الأولى لصحف الببغاوات، أو أنك شاهدته متحركا مبتسما زائد العافية زاهى الوجه على شاشة التليفزيون، أو ناطقا متأنيا بكلمة ثناء أو لمسة رضا فى زيارة لمشروع عام أو خاص، لا تقل لى ما أعرفه، فقد أكون قرأته أو شاهدته مثلك فى لحظات السأم، فأنا أعرف أن الرئيس مبارك والحمد لله حى يرزق، وقد أدعو له كما قد تفعل أنت بطول العمر، لكن مقعد الرئاسة مع كل الاحترام للمقام الرفيع يبدو خاليا، وقد يكون زحام الصور تواطؤا بالضجيج، أو محاولة لإخفاء حقيقة أنه لا أحد هناك، فلا أحد يعرف من يحكم مصر الآن بالضبط؟، هل هو الرئيس مبارك المنزه عن الهوى – على حد عبارة شاذة متجاوزة بفظاظة لألف باء الذوق والعرف والنقل والعقل صدرت عن صفوت الشريف – ؟، أم أنها حرم الرئيس سوزان مبارك سيدة السلالة نصف الويلزية بحسب تعليق نشرته مؤخرا صحيفة الصنداى تايمز البريطانية؟، أم أنه النجل جمال مبارك الرئيس الفعلى الحاكم من وراء قناع حركى يحمل اسم لجنة السياسات؟، أم أن الأمر صار بالشورى اتفاقا أو خناقا فى عائلة الأب والأم والابن، وهل مصر الكبيرة بعد أن جرى اختصارها فى حزب واحد متحكم آلت إلى حكم العائلة الواحدة؟، فلا تكاد تؤلف وزارة، أو يخلو منصب حكومى أو إدارى، أو يشاع عن تغيير متوقع فى رؤساء مجالس إدارة وتحرير الصحف القومية، لا يكاد شيء من ذلك يستجد، حتى تتلاحق الأسئلة، وتترادف علامات الاستفهام، وتصطخب الظنون، فمن يا ترى يحظى بدعم الأم أو عطف الابن أو حماية الأب؟،

وهل تكون الغلبة لتفاعلات العائلة وموازين القوى المنزلية؟، أم لقرار الرئاسة الممتدة من ٢٤ سنة ثقيلة ضاغطة راكدة ناطقة بالوهن؟، وربما يكون فى مقال إبراهيم سعدة الأخير كما نأمل إشارة رحيل متعثر لشيء أكبر من مجرد رئاسة مؤسسة أخبار اليوم، ولا أحد يحزن بالطبع لاستقالة سعدة، وربما لا تتوافر كميات كافية من القلل القناوى القابلة للكسر ابتهاجا برحيل سعدة وأقرانه، ربما باستثناء مكرم محمد أحمد الذى حفظ لنفسه فوائض من احترام الناس، لكن الذى يلفت النظر هو سعدة نفسه الذى بدا فى نوبة شجاعة مفاجئة حقا، فهاجم جمال مبارك ورجاله فى لجنة السياسات، وهاجم رجال السيدة سوزان من عينة أنس الفقى وزير الإعلام وأشبعه سخرية، بل وهاجم حرس الرئيس مبارك القديم من وزن صفوت الشريف، أى أنه قرر إطلاق النار الصحفية طبعا على أضلاع المثلث الحاكم بالجملة، فهل هى صحوة الضمير بعد فوات الأوان؟، أم أنها غرائز الحس بدنو نهاية سياسة أو أجل حكم؟، وهل هى مصادفة أن يظهر مقال إبراهيم سعدة قبل ساعات معدودة من زيارة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية، فآنسة السيقان الجميلة كما هو مفهوم تلبس ثياب المفتش العام فى زيارتها الوشيكة للقاهرة، فهل من صلة بين شجاعة إبراهيم سعدة وملابسات الزيارة غير الكريمة؟، وما علينا، المهم أن ظاهرة تعليق رؤساء مجالس إدارة وتحرير الصحف القومية على مشجب انتظار التغيير تلفت النظر، فكل هؤلاء خدموا الرئيس مبارك وجلسوا معه على الرقاب لربع قرن، وتحويل غرف رئاساتهم إلى زنازين تعذيب نفسى على ما بدا من مقال سعدة قد لا يبدو فألا حسنا للرئيس مبارك نفسه، فالرئيس مع الاحترام لمنصبه يبدو كما لو كان قد غادر طائرة الرئاسة، أو قل إن أحدا ليس متأكدا أن الرئيس لايزال هناك فى غرفة القيادة، يتحكم فى الأزرار ويستكشف طرق الملاحة ويتحسب لمواطئ الخطر، فلم يعد السؤال بالاستفهام أو بالاستنكار عن بديل يصلح لخلافة الرئيس مبارك، ففى مصر ألف بديل على الأقل، وأغلبهم ربما كلهم فى صحة عقلية وبدنية تماثل أو تزيد، نعم لم يعد السؤال عن بديل يصلح لرئيس مؤكد الحضور بالصور ملتبس الحضور فى القرار، بل ربما أصبح السؤال: ما هو اسم البديل بالضبط؟.

١٩ يونيو ٢٠٠٥

"فيزا" من كونداليزا!

مشهد القاهرة هذا الأسبوع كان موحياً ناطقاً بالدلالات القاطعة، فنصف الذين التقوا بالآنسة كونداليزا رايس فى فندق قاهرى إضافة للأكاديمية المشتاقة التى أدارت محاضرتها بالجامعة الأمريكية من أعضاء لجنة جمال مبارك، وعلى الضد بالضبط: قاطعت حركة كفاية وجماعة الإخوان وأحزاب المعارضة الوطنية لقاءات وزيرة الخارجية الأمريكية، وفى اللحظة نفسها كان شباب حركة كفاية يحتشدون أمام دار القضاء العالى فى مظاهرة رفض لزيارة الآنسة الدراكيولا، وكان الهتاف التلقائى الصاخب إدّى لمبارك فيزا.. وخديه يا كونداليزا، فلا فرق بين السادة فى واشنطن والخدم فى القاهرة، كلاهما عدو حقيقى لأشواق التغيير الديمقراطى فى مصر، وكلاهما فى ارتباك ظاهر، موقف نظام مبارك مفهوم، فشرط الحرية فى مصر قبل كل حديث وبعده هو الإنهاء السلمى لحكم مبارك الأب والأم والابن، ونظن أن موقف أمريكا مفهوم أيضا، ورغم إشارات تبدو متناقضة متحولة كالبندول بين اللونين الأحمر والأخضر، فثمة نزاع ربما تناقض فى موقف الإدارة الأمريكية بين مقتضى المصالح ومقتضى العواطف، مقتضى العواطف عابر ومنافق، وآخرته: ملاحظات هنا أو هناك قد تخفف أو تلطف أحيانا من استبدادية وهمجية نظام الرئيس مبارك دفعا للحرج، لكن مقتضيات المصالح تبدو حاسمة إلى الآن، فبمقتضى المصالح: تؤيد أمريكا حتى إشعار آخر تمديد رئاسة مبارك، وربما توريث الرئاسة لنجله جمال، فهى لا ترى بديلاً آخر فى مصر يصلح لدور الخادم السياسى بطريقة أسلس من إدارة مبارك، وتعرف يقيناً أن انتقال الحكم لعصمة الشعب، وأن الاحتكام لصناديق انتخابات تكفل لها ضمانات النزاهة، تعرف يقينا أن التطور الديمقراطى سوف ينتهى إلى سلطة وطنية معادية للسياسة الأمريكية

بالطبيعة، فالشعور الوطنى قرين للشعور الديمقراطى فى الوعى والضمير والوجدان المصرى، والمصريون يكرهون السياسة الأمريكية تماما كما يكرهون نظام مبارك التابع، فليس من فرق جوهرى بين دار السفارة الأمريكية الآن ودار المندوب السامى البريطانى القديم، كلاهما رمز لقوة مهيمنة مستعمرة للقرار والإرادة المصرية، تماما كما أنه ليس من فرق جوهرى بين قصر الملك فاروق فى نهاياته وقصر رئاسة مبارك الآن، ليس فقط بالمعنى الملكى الجامع مع ميل مبارك لتحويل الرئاسة إلى حكم عائلى عضود، بل أيضا بمعنى الحكم بالوكالة أو بالشراكة فى كعكة العوائد وفوائض النهب العام، باختصار: مصر بلد مستعمر وشعب مستعبد، والذى استعبد المصريين واستذلهم للاستعمار الأمريكى هو نظام الرئيس مبارك، وهذا ما يفسر الطريقة التى سعى بها الرئيس مبارك لشراء وقت إضافى فى التاريخ بالتمديد فالتوريث، فقد اختار الرئيس مبارك أن يدفع الثمن لواشنطن لا للشعب المصرى، وانتهى إلى المقايضة الخطرة مقابل الرغبة الطاغية المستبدة فى البقاء بالحكم إلى يوم يبعثون، وأقصر الطرق عند مبارك لشراء رضا أمريكا هو أن يسترضى إسرائيل، فكسب عطف شارون هو نقطة المبتدأ والخبر فى حملة مبارك الانتخابية، والتفاصيل مخجلة وطنياً، لكنها مفهومة بدواعى البيزنس السياسى، فقد أطلق مبارك سراح الجاسوس عزام، وأعاد السفير لتل أبيب، وعقد اتفاق الكويز، وصدّر الغاز المصرى مع البترول لإسرائيل، وسلّم بالجملة بكل مطالب إسرائيل فى لقائه الأخير مع بيريز فى شرم الشيخ، والذى جرى بالمصادفة الكاشفة فى ذات يوم زيارة الآنسة رايس، وفوق البيعة: كان عرض مبارك عبر زيارات لوزراء نظيف ثم لنظيف نفسه إلى واشنطن يبيع بنوك القطاع العام الأربعة للرأسمال الأجنبى والأمريكى بالذات، ثم الإتفاق على ايفاد سفير مصرى لحكومة الدمى فى بغداد، ويبدو أن اللمسات النهائية للصفقة وضعت بدور ظاهر لشارون عشية زيارة رايس الأخيرة للقاهرة، وهذا هو سبب ليونة آنسة السيقان الجميلة التى أشادت بتعديل مبارك للدستور وهى تعرف أنه عقد إذعان! وسبب دعوتها البلهاء للمصريين بالمشاركة فى انتخابات رئاسة تعرف يقينا أنها لعبة رجل واحد!، والحل: أن ترحل واشنطن بعصاها من القاهرة، وأن يرحل مبارك ربما إلى واشنطن.

إشارات

* زيارة سوزان مبارك كانت نكبة وقطع عيش ووقف حال لأهل المنصورة، فقد جرى فرض ما يشبه حظر التجوال لمجرد تمكين حرم الرئيس من قصّ شرائط منشآت جرى افتتاحها للمرة العشرين!.

* بذاءات الأصابع الوسطى على طريقة بلطجية شبرا طريقة ربما تليق بدعم رغبة بذيئة سياسياً لتمديد رئاسة مبارك إلى الثلاثين سنة، إنها بذاءة السلوك القرينة لبذاءة السياسة.

* إنها معركة نموذجية حقا بين مماليك عصر مبارك، والمقصود: حرب السيوف والسنج والمطاوى وقنابل البنزين بين أنصار فتحى سرور وأنصار كمال الشاذلى فى منطقة قلعة الكبش ذات الأصل المملوكى.

* فوز أحمدى نجاد رمز الفقراء يؤكد حيوية النظام الإيرانى، إنه انقلاب اشتراكى ضد طبقة البازار التى اعتصمت بعمامة الشيخ هاشمى رافسنجانى المهزوم فى دراما انتخابات الرئاسة الشرسة.

* باختصار: المقاومة العراقية على باب النصر.. والاحتلال الأمريكى على شفا الهزيمة.

٢٦ يونيو ٢٠٠٥

رئاسة عتريس

قضى الأمر، وصدر الحكم بإبطال بقية متهافتة من دعوى ذابلة لبقية من شرعية مدعاة لنظام حكم الرئيس مبارك، فالاستفتاء على التعديل الأخير للدستور باطل ومزّور بالجملة، ولأن ما يبنى على الباطل هو الباطل بعينه، فإن إعادة انتخاب الرئيس مبارك فى سبتمبر المقبل، أو التوطئة لانتخاب نجله من بعده، كل هذه التصرفات باطلة بالثلث ومعدومة الشرعية، وهو ما يعنى بالحرف أن محمد حسنى مبارك ليس رئيسا شرعيا لمصر، على الأقل فيما يلى من رئاسات، بل ربما منذ لصقت به صفة الرئيس قبل ٢٤ سنة، هذا الكلام ليس من بيتنا، ولا من قبيل النقد السياسى، ولا هو من دخان احتراق أعصاب كاتب معارض، إنه الخلاصة والمغزى لتقرير مزلزل مدوٍ صدر عن لجنة تقصى حقائق شكلها نادى القضاة، تكونت اللجنة من خمسة قضاة كبار، ثلاثة نواب لرئيس محكمة النقض ورئيس محكمة استئناف ورئيس محكمة، وهذه أول مرة يصدر فيها تقرير قضائى عن دورة انتخاب أو استفتاء، ونظن أنها الطلقة الأخطر إلى الآن فى حرب القضاة الأجلاء ضد نظام حكم فقد مشروعيته تماما، ويريد تلويث سمعة القضاة بترويج دعاوى كاذبة ساقطة عن إشراف قضائى جرى على التصويت، فالحقائق التى يوردها التقرير مفزعة، النسبة الحقيقية لإشراف قضاة يستحقون الصفة على لجان التصويت الفرعية لم تزد على ٥%، ولم يزد مجموع المصوتين فى هذه اللجان على ٣% فقط من الناخبين، تذكر أن النسبة التى أعلنتها وزارة الداخلية بلغت ٥٣% بقدرة التزوير الإجرامى القاهر، مثال واحد من التقرير يكشف انعدام التصويت تقريبا فى استفتاء ٢٥ مايو الأسود، ففى محافظة الجيزة بحسب التقرير القضائى الجليل ترأس القضاة ١٢ لجنة فرعية، ولم يحضر أحد أمام ١١ لجنة من الـ ١٢، وفى اللجان التى ترأسها غير القضاة قفزت نسبة التصويت بالتزوير الفاحش إلى المئة بالمئة أحيانا،

وكأن جميع المقيدين فى تلك اللجان بحسب نص التقرير بقوا على حالهم منذ ضبط الكشوف بنهاية العام الماضى وحتى موعد الاستفتاء، فلم يتوف منهم أحد، ولم يسافر منهم أحد، ولم يحل بين أى منهم والحضور حائل من مرض أو عمل أو كسل!، والطريف أن بعض اللجان التى أدارها ضباط الداخلية عمليا ترأسها فراشون ومتهمون فى قضايا تزييف عملة، وفى مواجهات قضاة اللجان العامة مع رؤساء لجان التزوير كانت الإجابات كاشفة للفضيحة، فقد جرى انتهاك عِرض مصر بدعوى التخوف من العواقب المرعبة، خذ عندك عينة من نوع يا سعادة البيه أنا راجل غلبان، أو أنا عبد المأمور، أوالضابط هدّدنى بالاعتقال (صاحب الإجابة ذو لحية كثيفة)، أو ما احنا كل مرة بنعمل كده، أو الضابط قال لي: خلّص. أنت مش ناقص بهدلة، وهو ما يعنى ببساطة أن ضباط وزارة الداخلية ومأموريهم قاموا بالتصويت نيابة عن المواطنين، وبحسب النسب المحددة سلفا، وبحسب الأوامر التى صدرت لهم بالتسلسل القيادى إلى مكتب وزير الداخلية، وبالمسئولية السياسية إلى مكتب الرئيس مبارك، لاحظ أن وثائق التقرير وضعت فى حرز خاص لدى نادى القضاة، وبينها شريط مصور لرئيس لجنة فرعية يرتدى قميصا بنصف كم وكاسكيت، وهو يؤشر بنفسه على بطاقات إبداء الرأى، ثم يطويها ويسلمها فى مجموعات لرجل يرتدى زيا ريفيا يضعها فى الصندوق، وهكذا دواليك إلى أن يمتلئ الصندوق بأصوات مزورة لناخبين لم يحضر منهم أحد، الصورة مفزعة ويتوقع تكرارها فى يوم انتخاب التمديد المقبل للرئيس مبارك، فالانتخاب إياه يجرى بذات الطريقة التى جرى بها الاستفتاء، وفى يوم واحد أسود اللون والطعم تماما كيوم الاستفتاء المزور، وبذات النسبة المتدنية التى جرى بها الإشراف القضائى المعزول، وربما بذات النتائج المعدة سلفا فى مكتب وزير الداخلية بأوامر من مكتب مبارك، فاللعبة مفصلة على مقاس رجل واحد، إنها ذات اللعبة المزرية التى استثارت غضب القضاة، ودفعتهم لإعلان الحقيقة الموثقة الجهيرة القاطعة لقول كل خطيب، فقد وضع الله كلمته فى ضمائر القضاة، وأقامهم حراسا على قيمة العدل التى هى أعظم صفاته، وبقى أن يغضب الشعب المؤمن بالله لا بالرئيس لغضبة القضاة، فرئاسة مبارك لمصر باطلة شرعاً وعقلاً على طريقة زواج عتريس من فؤادة.

إشارات

* عبدالرحمن يوسف شاعر من طراز خاص، شعر حر فى قالب عمودى، وهجائيات ساخرة آسرة مفعمة بالوجع المغنّى فى ديوانه الجديد الفريد "لا شيء عندى أخسره".

* حركة كفاية ليست شريكا إلى الآن فى التحالف الوطنى الذى بادرت إليه جماعة الإخوان، تذكروا أن كفاية ليست حزبا ولا هى طرف فى جبهة أحزاب، إنها إطار مدنى وطنى جامع لأشواق التغيير فى مصر.

* حركة كفاية تدعو الكل بمن فيهم جماعة الإخوان التى نقدر ونحترم دورها للمشاركة فى مظاهرة ميدان عابدين (فى السادسة مساء الخميس ١٤ يوليو الجاري) دفاعا عن حق ملايين العاطلينْ فى العمل.

* إعلان الأحزاب المحظورة من طرف واحد أفضل طريقة لإسقاط قيود قانون الأحزاب، فافعلوها يرحمكم الله.

* وللمرة العاشرة: مظاهرة المئة ألف مصرى لثلاثة أيام متصلة فى قلب القاهرة كافية جدا لإنهاء حكم الرئيس مبارك وعائلته..

٣ يوليو ٢٠٠٥

.. فى رقبة مبارك

دم السـفير إيهـاب الشـريف - بالمعنى السياسى - فى رقبة الرئيس مبارك شخصيا، لا نقولها على سبيل المجازفة، ولا فى فورة غضب حزين زلـزل القلـوب، فنظام الرئيس مبارك قبل جماعة الزرقاوى الإجرامية هو الـذى قـتل الشـريف، هو القاتل غير المباشر قبل القتلة المباشرين، أو قل بالدقـة: إن الشريف - إن صحّ نبأ موته - ذُبح بشفرة الحد الفاصل الواصل بيـن التـنطع والترخّص، تنطّع جماعة الزرقاوى مفهوم، فالتنطع بالمعنى الفقهى يعنى التشدد فى غير موضع، وقتل جماعة الزرقاوى للسفير الشريف مـثال نموذجـى للتنطع الفقهى، فقتل الشريف لن يحرر العراق، والجريمة مقطوعـة الصـلة بنصرة الإسلام، بل إنها واحدة من أكبر الكبائر فى حق قضـية الإسلام المهان، ثم إن الحادث الهمجى أفدح إساءة لصورة المقاومة العراقـية فـى عيـن المصريين، وهم أكبر شعوب الأمة العربية وأعظمها تعاطفـا مـع محنة الشعب العراقى، وقد لا يجوز أن تخاطب بالعقل جماجم فارغـة مـن نـوع أتباع الزرقاوى، فهؤلاء مثال للتنطّع الجهول بأصول الإسلام وحقائق العصر، وقد يتكشف فى النهاية أنهم مجرد طرف خيط ممتد بالتـتابع والتداخل إلى مكتب رئيس جهاز الموساد الإسرائيلى، فهؤلاء خدم ولـو بالطـريق غير المباشر للمخطط الأمريكى الإسرائيلى، وتنطعهم هو الوجـه الآخـر لـترخص الخـدم المباشرين لخطة أمريكا المحتلة للعراق، فالـترخص مقابل التنطع هو التماس الرخص مع وضوح جغرافيا المناطق الحـرام، وإدارة الحكم المصرى مثال للترخص فى الدين وفى السياسة معا، وقـد كـان ملفتا أن شيخ الأزهر المعين من قبل الرئيس مبارك وصف قتلة السـفير بأنهم المفسدون فى الأرض، وربما يبدو لأول وهلة على حق، لكنه الحـق الـناقص الذى هو الباطل بالكامل، فشيخ الأزهر قد لا يبتعد بسيرته القريـبة للأسـف عن معنى الإفساد فى الأرض، تحريم الشيخ للتظاهر ضد

الرئـــيس مـــثلا لـــيس أكـــثر من بوار فى العقل وإهدار للشرع وإفساد فى الأرض، وصـــمت الشـــيخ عـــن نصرة المقاومة العراقية من غير جماعة الـــزرقاوى إفســـاد حقـــيقى للدين، وتتكر ظاهر خشن لقيم الإسلام المقاوم، وتواطـــؤ الشيخ مع سياسة نظام الرئيس مبارك ليس سوى التماس للرخص فى موضع الخطيئة، فالشيخ يعلم كما يعلم الراكب والماشى أن نظام الرئيس بعـــث بالسفير المصرى إلى العراق فى مهمة ليست مقدسة، السفير الشريف رحمه الله ذهب إلى بغداد تنفيذا لأوامر لم يبتدعها ولا هو اختارها، فلم يكن الشـــريف سوى عبدالمأمور، ولم تكن مصادفة أن الأمر الرئاسى بذهابه إلى بغـــداد أعقب زيارة كونداليزارايس وزيرة الخارجية الأمريكية إلى القاهرة، ولم تكن الحسابات مطابقة ولا مقاربة لأقدار مصر ودورها التاريخى وهوية شـــعبها ومـــيولـــه الفطرية، بل الحسابات مفصلة على مقاس شخص واحد – ربما عائلة واحدة – فى قصر الحكم، فالتعجيل بذهاب سفير مصرى إلى بغـــداد المحتلة كان مطلبا أمريكيا ضاغطا، وذهاب السفير يعنى – ببساطة المغزى السياسى – اعترافا مصريا كاملا بحكومة الدمى الخاضعة للاحتلال الأمـــريكى فـــى بغداد، وقد فعلها مبارك لأسباب رئاسية تخصه لا لأسباب سياســـية يصـــح أن تنســـب لمصر، بدا التصرف الجارح لكرامة مصر من جملـــة تصـــرفات مضـــافة إلـــى مقايضة مفهومة، فقد أراد الرئيس مبارك استرضاء أمريكا فى حملة انتخابية من نوع شخصى جدا، استرضاء أمريكا المـــتحفزة مقـــابل ضوء أخضر من واشنطن يفتح الباب للرئاسة الخامسة، وكما عقد مبارك اتفاق الكويز. وأطلق سراح الجاسوس عزام. وصدّر الغاز المصـــرى مع البترول لإسرائيل. وأعاد السفير لتل أبيب، وكما فعلها مع تل أبيـــب كجسر محبة إلى واشنطن، فقد فعلها فى بغداد المحتلة، أرسل السفير الشـــريف إلى الجحيم ربما لتسهيل هدف البقاء فى جنة القصر الرئاسى، ولم يكـــن مفاجـــئا ولا مســـتغربا أن تنتهى القصة إلى مأساة دامية خلعت قلوب المصريين، فقد كان إرسال السفير مع سبق المعرفة بالأوضاع المتفجرة فى بغـــداد نوعـــا مـــن التصريح بالقتل، وقد ذهب الدبلوماسى المصرى ضحية لتنطع جماعة الزرقاوى الذى هو الوجه المقابل لـــ "ترخص" نظام الرئيس.

إشارات

* التواضـــع المهنى الصفرى لرؤساء التحرير المعينين رسميا باستثناء واحد أو اثنين أدق تعبير عن إفلاس نظام عنوانه الصفر.

* الشـــيخ أحمـــد الصباحى قارئ الكف أعلن ترشيحه للرئاسة، وربما يكـــون الشـــيخ هـــو المنافس الذى يليق للرئيس مبارك فى كوميديا الموسم السوداء!.

* مـــرة أخـــرى: هـــل يليق أن يبقى السفير سليمان عواد متحدثا باسم الرئاســـة مـــع اتهامـــه بتزوير ثبت بحكم المحكمة الإدارية العليا فى قضية السفيرة فاطمة حسين؟.

* السادســـة مســـاء الخمـــيس المقبل: مظاهرة كفاية بطالة فى ميدان عابدين دفاعا عن الحق الدستورى لملايين العاطلين فى العمل.

* الـــتعاطف الإنسانى فريضة مع الضحايا الأبرياء فى تفجيرات لندن، فالأغبـــياء الذين فعلوها خدموا حكومة تونى بلير الشريك الأصغر لبوش فى جريمة احتلال العراق.

١٠ يوليو ٢٠٠٥

دولة سوزان

هل يوجد شيء فى مصر لا تترأسه السيدة - الفاضلة - سوزان مبارك؟، السيدة سوزان - كما لابد تعلم - تترأس المجلس القومى للمرأة، وتترأس المجلس القومى للأمومة والطفولة، وجمعية الهلال الأحمر، ومهرجان القراءة للجميع، وجمعية الرعاية المتكاملة، وتترأس مجلس أمناء مكتبة الإسكندرية، ومشروعات بلا حصر للإسكان وتطوير العشوائيات.. إلخ، ولك أن تضيف ما تشاء، ربما بدون حرج، فالسيدة سوزان تطالعنا بصورتها الصبوحة كل صباح، وتتنافس الصفحات تلو الصفحات فى نشر أخبار السيدة سوزان وخطبها المطولة جداً، والجوائز التى تحصل عليها، فهى سيدة العام كما يظهر الرئيس مبارك - فى صحفنا القومية الرصينة(!) - كرجل للعام وكل عام، بل ربما تكون صورة الرئيس مبارك أكثر تحفظاً، فالرئيس لم يؤسس - كالسيدة سوزان - "منظمة المرأة العربية" مثلاً، والرئيس ليس صاحب حركة يقال إنها دولية باسمه على طريقة "حركة سوزان مبارك الدولية للسلام"، واللهم لا حسد، فنشاط السيدة سوزان ملء السمع والبصر فى الصحف وفى التليفزيون، تبدو كالعين الساهرة لا تزورها سنة من نوم أو غفلة، وتكاد تعجب من مقدرتها الفائقة على تقسيم وقتها وتنويع مشاعرها، وتراها عطوفة جداً وهى تداعب أطفال "ماما سوزان"، وتراها قارئة جداً مفكرة حكيمة وهى تفتتح المكتبات وتوصينا - والسامعين - بالقراءة ومحو الأمية كأنها "أم المعرفة" أو "شجرة الدر"، وربما ترد إلى الذهن أسئلة بلهاء من نوع الوضع أو الأساس الدستورى لنشاط السيدة سوزان، فالسؤال عن الدستور لا محل له من إعراب، فقد أخذ الدستور إجازة طويلة، وانتهينا إلى سلطة تحكم بالأمر الواقع، هذه السلطة منسوبة - بالطبع - إلى الرئيس مبارك، وقبلها كان نائباً للرئيس معيناً بقرار من المرحوم السادات، لكن السيدة سوزان لم يصدر لها قرار من

الرئيس السادات، ولا حتى من الرئيس مبارك فى أغلب الأحوال، فبأى حيثية – حتى لو كانت غير دستورية – تمارس السيدة سوزان سلطات تقتحم العين، وتدير هيئات أشبه بوزارات ظل فى كل التخصصات، وتخصص لها ميزانيات قد تنافس ميزانية الدولة، وتتم فى نطاقها اجتماعات يحضرها الوزراء ورئيس الوزراء وشيخ الأزهر تحت رئاسة السيدة سوزان، وهل تجتمع لها كل هذه السلطات – وبدون رقابة – لمجرد أن السيدة سوزان هى حرم الرئيس،؟ فلم يكن للسيدة سوزان أى نشاط اجتماعى أو غير اجتماعى – خارج المنزل – قبل أن يصبح زوجها رئيساً، ولا يعقل أن طاقاتها ومواهبها العقلية والوجدانية والإدارية العبقرية كانت كامنة فى انتظار تحول المنزل العائلى إلى بيت الرئاسة، فليس من نشاط اجتماعى أو صحى او تعليمى أو إسكانى أو سياسى إلا أن تكون السيدة سوزان حاضرة فيه، بل وفى رأسه، فهل نحن بصدد "دولة سوزان مبارك" على حد تعبير كاتب عامود يومى خصصه لمديح السيدة الأولى؟ أم أننا بصدد سيدة قوية – بحسب تقارير للصحافة الإسرائيلية والغربية – تلعب دور الراعى لسيناريو توريث الرئاسة إلى نجلها الأصغر جمال؟، أم أننا بصدد لغز "سيدة نصف ويلزية" – بتعبير صحيفة بريطانية – لا يكاد يشغل منصب فى مصر أو يملأ إلا أن يكون لها رأى فيه ولو بمنطق الاستشارات العائلية؟، ربما لا يسعنى الآن أن أقول لك الجواب الذى أعرفه، فإن كنت تعرف أنت فاتصل بى على رقم هاتفى الذى تعرفه، وادع الله معى ألا تجد هاتفى – أو شخصى – خارج الخدمة (!).

إشارات

* رئيس تحرير صحيفة يومية كبرى كتب بثقة – قبل يومين – أن "حزب المحافظين" – وليس "حزب العمال" برئاسة بلير – يحكم بريطانيا الآن، وليس العيب فيه بل فى الذين أصدروا قراراً بتعيينه، إنهم يستحقون درجة الدكتوراه – فى الجهل – مع مرتبة القرف.

* المشاركة الكثيفة فى مظاهرة الدفاع عن حق ملايين العاطلين فى العمل – مساء الخميس الماضى – شهادة مضافة لحيوية "حركة كفاية" التى أدمت نفوس الذين ولدوا صغاراً – بالقدر والقيمة – ويموتون كذلك.

* عسكرى الأمن المركزى الذى صرخ "كفاية. كفاية" - فعاقبه الضباط بالاعتداء الوحشى - أعظم شرفاً وأنقى ضميراً من "كتبة الأمن المركزى" المتسللين وراء خطوط المعارضة.

١٧ يوليو ٢٠٠٥

عاصفة ضمير*

---

* هــذه مجــرد عيــنة مــن مقالات مختارة- مرتبة بتواريخ النشر- لكُتاب من مختلف الاتجاهــات نشرت فى الصحافة المصرية عقب حادث الاختطاف والاعتداء الدنيء الذى تعرض له المؤلف فى الثالثة من صباح ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، يذكر أن مئات - ربما آلاف - التعليقات نشرت فى الصحف المصرية والعربية والعالمية عقب الحادث ذاته.

في غابة الأوغاد

جمال بدوي

هل نحن نعيش فى غابة؟

أقـول لـك بمنـتهى الصراحة، نعم.. نحن نعيش فى غابة تمرح فيها الوحوش ويتحرك الأوغاد.. وإلا.. كيف يختطف رئيس تحرير صحيفة من الطـريق العـام ويشحن فى سيارة بعد تغمية عينيه، وسد فمه، وينهال عليه البلطجـية بالضرب المبرح، ثم ينزعون ثيابه، ويتركونه عارياً فى صحراء المقطم (!!).

** بمـاذا يوصـف هذا العمل؟ وفى أى مكان يمكن أن يحدث إلا فى الغابـات حيث لا نظام ولا قانون ولا حقوق تضمن للإنسان حياته وكرامته وإنسانيته، بل الوحش الكاسر يفتك بالحمل الوديع المجرد من حق الدفاع عن النفس (!!).

** فمـن أيـن جـاء هـؤلاء الأوغاد؟ ومن الذى كلفهم بهذه المهمة الإجرامـية؟ لا يمكـن أن يكونـوا قـد هبطوا من السماء، أو انشقت عنهم الأرض، أو تسـللوا من خارج الحدود، وإنما هم قتلة محترفون ومأجورون لتأديـب كاتـب جريء، لكى يخاف الآخرون، فيدخلوا الجحور، ويكفوا عن شتم أسيادهم (!!).

** ليس مطلوباً من عبد الحليم قنديل أن يكشف هوية من خطفوه، فتلك مهمـة رجـال المباحث والنيابة والتحقيقات، ونحن نعرف أنها مهمة صعبة لأن مـثل هذه العصابات تسخر نفسها لخدمة الأسياد تحت نظام مهمة اليوم الواحـد.. أو العملـية الوحيدة، وبعدها يعودون لتوجيه الاتهامات، حتى لا تضـيع جهـوده عبثاً، وتطيش سهامه فى البيداء.. وعليه أن يريح نفسه من مشقة الوصول إليهم، لأنهم مثل الأشباح التى تتجمع عند الطلب، وتنصرف بالأمر، وهيهات أن تصل يده إليهم.

** لماذا فعلوا فعلتهم مع رئيس تحرير جريدة العربى الناصرى؟ لأنه كاتب جرىء لم يلتفت إلى اللافتات التى تحذر من الاقتراب من حقول الألغام فدخلها برجليه، ولقد كنت أسمع من أفواه الناس صدى ما يكتبه عبد الحليم قنديل، فمنهم من كان راضياً ومعجباً ومشجعاً له على أن يمضى فى طريقه مهما كان الثمن. ومنهم من كان يشفق عليه من أن تزل قدمه فيقع فى لغم.. وكنت أشفق عليه من هذا المصير، لأننى لا أتمنى لأى كاتب أن يتعرض لمهانة أو أذى..

** والأغوات الذين نصبوا له اللغم، واستأجروا القتلة: فعلوا ذلك تزلفاً إلى الأسياد، وللأسف فإن الساحة مزدحمة بالمنافقين والأفاقين وحملة المباخر، وكلهم على استعداد للخدمة، والقيام بواجب تأديب الصحفيين واستباحة دمائهم، من أجل الحظوة والرضاء السامى، وتلك وظيفة الشماشرجية والعبيد فى جميع العهود.

** إن هؤلاء الأوغاد الذين استأجروا ودبروا وأنفقوا: أثبتوا أنهم بلغوا ذروة الغباء، ولا يعرفون من طبائع الحرية ما سجلته أحداث التاريخ فالحرية تنمو وتزدهر وتتألق بمثل هذه الأعمال الفاتكة، ودعاء الأحرار هو الوقود الذى يحيل من الحرية ناراً تحرق الظالمين والطغاة، ولو أنهم أخمدوا أنفاس عبد الحليم قنديل فسوف يظهر من بعده عشرات من الأحرار يسترخصون حياة الذل والعبودية من أجل كرامة الإنسان وحريته.. ولكن.. متى كان الأغبياء يتعلمون (!!).

الوفد - ٤ نوفمبر ٢٠٠٤

شكراً
أنور الهواري

الآن يمكن القول: إن مصر سبقت كل بلاد الدنيا فى إنتاج البلطجة المتخصصة.

إنها البلطجة المتخصصة فى العدوان على رؤساء التحرير.

هل هى مجرد مصادفات أن يتم الاعتداء على رئيس تحرير الوفد السابق الأستاذ جمال بدوى، ثم رئيس تحرير الشعب الأستاذ مجدى حسين، ثم رئيس تحرير العربى الأستاذ عبد الحليم قنديل، ثلاثة رؤساء تحرير لثلاث صحف معارضة، تصدر عن أكبر ثلاثة أحزاب سياسية.

فقط نتساءل: هل هى مصادفة أن يتم اختيار رؤساء التحرير فى المرات الثلاث؟!

إنها المعركة الأبدية بين الوضوح والخفاء، بين الشرف والخسة، بين أشرف ما فى الإنسان من فضائل وأحط ما فى الوحوش من رذائل.

على البلطجة المصرية الحديثة أن تعلم أن الرسالة قد وصلت، ومن واجبنا أن نرد على الرسالة بمثلها أو أحسن منها، ولست أجد إلا كلمات خليل مطران:

شردوا أخيارها بحراً وبــراً
واقتلوا أحرارها حراً فحــراً
إنما الصالح يبقى صالحــاً
آخر الدهر ويبقى الشر شــراً
كسروا الأقلام هل تكسيرها
يمنع الأيدى أن تنقش صخراً؟
قطعوا الأيدى هل تقطيعها
يمنع الأعين أن تنظر شذراً؟

أطفئوا الأعين هل إطفاؤهـــا
يمنع الأنفاس أن تصعد زفراً؟
أخمدوا الأنفاس، هذا جهدكم
وبه منجاتنا منكم.. فشكراً!.

المصرى اليوم - ٦ نوفمبر ٢٠٠٤

جريمة الشروع فى قتل أمة
د. جلال أمين

١

ما أكثر الخواطر التى مرت بالذهن لدى السماع بهذا الحادث المروع الذى حدث للدكتور عبدالحليم قنديل رئيس التحرير التنفيذى لجريدة العربى فجر يوم الثلاثاء ٢ نوفمبر ٢٠٠٤.

هناك أولا الجانب الإنسانى البحت، حتى بصرف النظر عن أى مغزى سياسى للحادث.

رجل فى نحو الخمسين من عمره، صغير الحجم ونحيل الجسم. يعود فى وسط الليل إلى بيته فى الهرم، حيث ينتظره ابنه وزوجته، بعد سحور رمضانى مع أصدقائه، سائرا على قدميه إذ أنه لا يملك سيارة، فتقطع عليه الطريق سيارة ينزل منها أربعة رجال أشداء لا يعرفهم ولكنهم قطعا يعرفونه، فيجبرونه على دخول سيارتهم، ويكممون فمه حتى لا يستنجد بالناس، ويعصبون عينيه حتى لا يرى أوجه مختطفيه، ويسيرون بسرعة هائلة إلى الطرف الآخر من القاهرة، وأثناء ذلك يشبعونه ضربا فى مختلف أجزاء جسمه حتى يصاب بنزيف فى عينه اليسرى، ويلصقون المطاوى الحادة برقبته وأجزاء أخرى من جسمه، طوال ساعة ونصف الساعة لا يدرى خلالها ما إذا كان الأمر سينتهى بقتله، ويصبون عليه خلالها أفظع ألفاظ السباب والشتائم، حتى يصلوا إلى مكان ما على طريق القاهرة السويس فيجردونه من ملابسه وينزعون نظارته ويلقونه فى الصحراء فى ظلمة الليلة وهو عار يرتعش من البرد.

كيف تبلغ بمجموعة من الرجال القسوة والجرأة إلى هذا الحد؟ الرجل لم يقتل أو يسرق أو يضرب. وصنعته الوحيدة هى الكتابة، فما الذى يمكن أن يكون قد كتبه وما يمكن أن يسبب لبعض الناس كل هذا الغضب ألم تكن

تكفى لوقفه عند حده كل ترسانة القوانين العادية والطارئة، المدنية والعسكرية، التى يمكن تطبيقها على السب والقذف، إذا كان هناك سب أو قذف أو على تهديد السلام الاجتماعى أو الوحدة الوطنية، إذ كان هناك مثل هذا التهديد؟ كل هذه القوانين والمحاكم لم تكف ولم يبق من وسيلة لردع عبدالحليم قنديل إلا اختطافه بعد منتصف الليل وتجريده من ملابسه وإلقائه فى الصحراء.

٢

فى أى عصر تعيش مصر الآن؟.

مرت بالذهن صورة حقبة من أسوأ حقب العصر العثمانى فى مصر، حيث توجد قوانين ولكنها لا تطبق، ولا يتوقع أحد أن تطبق، إذ الدولة ضعيفة أو بالأحرى تحولت الدولة نفسها إلى ضيعة يتقاسمها ويعيد تقسيمها عدد صغير من الأفراد محدودى الأفق، ممن تنحصر طموحاتهم فى تكديس المال، لأنهم مجردون من أى ميزة أخرى، وعاجزون عن الاستمتاع بأى شيء آخر. فى ظل مثل هذه الدولة يسود قانون واحد هو قانون البطش، هذا هو القانون السائد الآن فى مرور السيارات بالشوارع، وفى الحصول على القروض من البنوك، وفى إعطاء المدرسين للدروس الخصوصية، وفى بيع أراضى الدولة وشرائها، وفى مد فترة الخدمة لرؤساء تحرير الصحف القومية، وفى ضرب رؤساء تحرير صحف المعارضة.. إلخ.

٣

ولكن خطرت بذهنى أيضا صورة نمط الحياة فى بعض دول أمريكا اللاتينية. لقد سبقت أمريكا اللاتينية مصر فى الانفتاح الاقتصادى بعدة عقود، وأدى قربها الشديد من الولايات المتحدة إلى أن تحولت إلى ضيعة من ضياع هذه الدولة، تعبث فيها وتمرح فوائض رؤوس الأموال الأمريكية، ومروجو السلع وتجار الأسلحة والمخدرات على هواهم. وقد أدى هذا وذاك إلى الاستهتار بالقوانين وسيادة قانون البطش بدرجة لم تكن معروفة فى مصر حتى وقت قريب، كما أديا إلى درجة من الاستقطاب الاجتماعى لم تعرفها مصر أيضا فى تاريخها إلا مؤخرا جدا، حيث أخذت تزيد بسرعة الفجوة بين نمط المعيشة للأغنياء والفقراء، وارتفع بشدة معدل البطالة المكشوفة بعد أن كانت مصر لا تكاد تعرف إلا البطالة المقنعة، وزادت بسرعة أعداد ولاد الشوارع الذين يلقون بأنفسهم على الرصيف من فرط

الجوع أو بسبب إدمانهم المخدرات الرخيصة كطريق من طــرق التغلب على الشعور بالجوع، أو يشتغلون بالدعارة من باب اليأس. لم تصل مصر بعد إلى ما وصلت إليه الحال فى البرازيل مثلا من حيث إقدام الشرطة على إطلاق النار على المشردين أولاد الشوارع، وكأنهم كلاب ضالة، لمنع مضايقتهم لعلية القوم من الكبراء والأثرياء. لم تصل مصر بعد إلى هذا الحد ولكن منطق الأمور والسياسات الاقتصادية المنتظرة لابد أن تؤدى إلى نفس النتيجة.

فى نمط الحياة السائدة فى أمريكا اللاتينية حيث تعلو قيمة المال فوق كل شيء، وتزيد الفجوة بين أنماط المعيشة، وتتفاوت القوة الاقتصادية بين الطبقات إلى هذه الدرجة تنمو القدرة على البطش من ناحية ويتفاقم اليأس والضياع فى الناحية الأخرى، مما يسمح بانتشار أنواع معينة من الجرائم غير المعهودة بنفس الدرجة فى مجتمعات أخرى، من بينها هذه الجريمة التى وقعت فى مصر يوم الثلاثاء الماضى.

٤

لا شك أن المتكلمين بلسان الحزب الوطنى الحاكم فى مصر مدينون لنا بتوضيح مهم بعد هذا الحادث الفظيع الذى حدث للدكتور عبدالحليم قنديل. هل هذا الذى حدث يندرج تحت ما أعلنوا عنه فى مؤتمرهم الأخير من فكر جديد سوف يحكم المرحلة الجديدة فى تطور الحزب الوطنى، هل هذه الطريقة فى التعامل مع المعارضة هى ما تفتق عنه الفكر الجديد، وهى طريقة خطف الكتّاب ورؤساء التحرير من أمام بيوتهم وضربهم وتهديدهم بالموت ثم تجريدهم من ملابسهم وإلقائهم فى الصحراء؟ هل تفتق الفكر الجديد عن أن هذه الطريقة الجديدة هى الأكثر فعالية فى التعامل مع المخالفين فى الرأى؟

أم هى يا ترى التطبيق الجديد للديمقراطية فى أحدث صورها؟.

٥

إذا كانت الحكومة قد استبد بها الغضب على عبدالحليم قنديل وجريدته فقررت التعامل معه بهذه الطريقة، فما هو يا ترى ذلك الذى أغضبها كل هذا الغضب، بحيث فقدت أعصابها إلى هذه الدرجة؟.

هل هى معارضة عبدالحليم قنديل وجريدته لانتقال الحكم من الرئيس مبارك إلى نجله جمال؟ فلماذا يؤدى هذا إلى كل هذا الغضب؟ ألم ينف

الرئيس أن هناك أى تفكير فى توريث الحكم؟ أو لم ينف جمال مبارك نفسه أى تفكير فى التوريث؟ هل المقصود إذن أن انتقال الحكم من الرئيس إلى ابنه سوف يتم ولكن ليس عن طريق التوريث، أى أن هذا الانتقال سيتم ليس استنادا إلى حق الملكية، كما تنتقل ملكية السيارة أو الأطيان، ولكن استنادا إلى الترشيح والانتخاب، ومن ثم تنتفى شبهة التوريث إطلاقا؟

إذا كان الأمر كذلك فقد كان من الطبيعى جدا أن يقلق رجل مثل عبدالحليم قنديل ونقلق جميعا من أن نجل الرئيس بوصفه نجلا للرئيس قد أعطى فرصة لم يعط مثلها لغيره فى الظهور فى وسائل الإعلام باستمرار، وفى الترقى من مستوى إلى مستوى أعلى منه فى الحزب الحاكم، وفى التعرف على أهل الحل والعقد فى مصر منذ وقت مبكر للغاية، وفى السفر وفى وفود رسمية لمقابلة أهل الحل والعقد فى خارج مصر، مما يجعل فرصته فى الحصول على أصوات المصوتين من أعضاء مجلس الشعب، وفى الحصول على تأييد القوى الخارجية ذات التأثير الحاسم فى نظام الحكم فى مصر، أكبر من فرصة أى مصرى آخر فى مثل سنه وخبرته.

إذا كان هذا قد بدا منافيا لأبسط مبادئ العدالة والديمقراطية فى معاملة المصريين، ومن ثم بدا الاعتراض عليه منطقيا جدا لعبدالحليم قنديل وأمثاله، فما الذى يغضب الحكومة كل هذا الغضب؟.

لعل هذا ليس هو سبب كل هذا الغضب، بل قد يكون سببه هو انتقاد عبدالحليم قنديل وجريدته لطريقة تعامل سلطات الأمن مع عدد كبير من سكان سيناء بمناسبة انفجارات طابا، ومن حيث القبض على الناس دون مبرر كاف وأخذ بعضهم رهينة ريثما يتم القبض على أفراد آخرين من عائلتهم، ثم إساءة معاملتهم وهم رهن الاعتقال.

إذا كان هذا هو ما أغضب الحكومة من عبدالحليم قنديل، فلماذا توجد معارضة إذن؟ ولماذا سمح أصلا للحزب الناصرى أو غيره بإنشاء جريدة بل بالوجود ابتداء وما قيمة كل هذا الكلام عن الإصلاح والديمقراطية والشفافية إلخ؟.

٦

لنفرض أن الحكومة قد غضبت كل هذا الغضب من عبدالحليم قنديل لهذا السبب أو ذاك، فما الذى دهاها لكى تقرر التعبير عن غضبها بهذه الطريقة الهمجية؟.

الجميع يتكلمون عن ضرورة الإصلاح، والجميع يتكلمون عن أن ديمقراطيتنا ناقصة والمطلوب إصلاحها والأمريكيون لا يكفون عن تعييرنا ببعدنا عن الديمقراطية ويطالبوننا بإصلاح أنفسنا وإلا قاموا هم بإصلاحنا بأنفسهم. فما الذى ورط الحكومة فى هذه الفضيحة الأخيرة؟ إنها لا تستطيع أن تنفى التهمة عن نفسها، فالرجال الذين قاموا بخطف عبد الحليم قنديل وضربوه قالوا له أثناء الضرب "علشان تبطل تشتم الكبار" ومن هناك فى مصر من الكبار غير الحكومة وعبدالحليم قنديل لم ينتقد إلا الحكومة، إذ ليس بينه وبين أحد كبار الأثرياء خصومة، ولا عداوة بينه وبين راقصة شهيرة أو مغنية معروفة. إن الرجل لم يفجر قضية خاصة له أو لأحد أقاربه، ولم يفعل هذا أحد من كُتّاب جريدته. كل القضايا التى فجرها قنديل وزملاؤها قضايا قومية ووطنية، فلماذا تتصرف الحكومة وكأن العداوة خاصة والقضية قضية ثأر شخصى؟ ما الذى دفع الحكومة إلى إيقاع الأذى بنفسها إلى هذا الحد؟.

هل هذه صورة نظام ينتحر؟.

٧

من الواضح أن الذين قاموا بضرب عبدالحليم قنديل لم يفعلوا ذلك بدافع الانتقام، بل بدافع التخويف والإذلال لم يكن المقصود مما حدث توقيع عقوبة بسبب شيء سبق حدوثه، بل المقصود به الوصول إلى نتيجة معينة فى المستقبل، وهو أن يكف قنديل وجريدته عما دأبت فى الماضى على عمله. وأفضل شيء لتحقيق هذا هو التخويف والإذلال. لقد نجا عبدالحليم قنديل من الموت ولكن الموت لم يكن هو الهدف، بل كان الهدف تكسير روحه وإفقاده ثقته بنفسه. وإلا فما معنى تجريده من ملابسه وإلقائه فى الصحراء؟.

المنظر يذكر بلا شك بمنظر التعذيب فى رواية جورج أورويل الشهيرة حيث لم يكن الغرض قتل المعارض بل إجباره على أن يقول إن ٢+٢= ٥ وإذ تبين للقائمين بالتعذيب أن روح الرجل وكبرياءه أقوى بكثير بما كانوا يظنون أخذوا يزيدون من قسوة التعذيب درجة بعد أخرى حتى قتلوا روحه تماما، وإذا به يعطيهم ما يريدون فى النهاية وهو أن يقول وهو كسير الخاطر وفى منتهى المذلة إن ٢+٢=٥

والذين ضربوا عبدالحليم قنديل يريدون الوصول إلى نفس النتيجة، ليس فقط معه بالذات بل ومع كل من تسول له نفسه أن يقاوم إلى هذا الحد.

والظاهر أن مثل هذا التخويف والإذلال بدا للحكومة ضروريا الآن بوجه خاص لأننا مقبلون على أشياء أسوأ بكثير مما مضى، سواء فيما يتعلق بإسرائيل أو العراق، أو ما سمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير أو الموسع، أو السياسة الاقتصادية فى الداخل إذا كان الأمر كذلك فالحال يتطلب اتخاذ العدة من الآن، فما كان من الممكن الصبر عليه حتى الآن لم يعد من الممكن الصبر عليه من الآن فصاعدا. لابد من التخويف والإذلال إذا أرادت الحكومة فعلا أن تنجز المطلوب منها إنجازه فلابد من الإجهاز على أى بقية باقية من روح المعارضة وقوة المقاومة. إذا كان هذا هو التفسير الصحيح لما حدث لعبدالحليم قنديل قبيل فجر الثلاثاء ٢ نوفمبر، فإن المقصود لم يكن عبدالحليم قنديل وحده بل أن يكون عبرة لغيره والحكومة لم تكن إذن فاقدة العقل عندما ارتكبته، والنظام لم يكن ينتحر بل كان فقط يشرع فى قتل أمة بأسرها.

العربى - ٧ نوفمبر ٢٠٠٤

صحفيون ضحايا للبلطجة

د. محمد سليم العوا

فجع الرأى العام المصرى بما نشرته وسائل الإعلام عن حادث الاعتداء على الأستاذ عبدالحليم قنديل رئيس التحرير التنفيذى لصحيفة العربى وجميع الأصناف التى تعرفها اللغة العربية تقصر عن الإحاطة بوصف هذا الحادث، فلو قلت إنه أثيم أو إنه بشع أو إنه حقير أو إنه أليم أو إنه دنيء، فهو كل ذلك وأسوأ منه.

تصور الناس دائما أن خلاف الرأى لا يفسد للود قضية، وأن المختلفين فى الرأى يعبرون عن وجهات نظرهم كيف شاءوا لكنهم لا يتعدون ذلك إلى الإسفاف فى القول أو الإساءة إلى الخصم الفكرى أو السياسى أو الثقافى.

فى العقدين الأخيرين توالت علينا صور جديدة للتعامل مع أهل الرأى والقلم، ولا سيما مع الصحفيين، لم نعهدها من قبل، ولم يرد على بال أكثرنا تشاؤما أن تتخذ سبيلا للتغيير عن عدم الرضا عما يقال أو يكتب أو ينشر.

لقد اعتدى بلطجية بالضرب على مجدى أحمد حسين وهو رئيس لتحرير صحيفة الشعب - قبل اغتيالها - فى وضح النهار فى أحد أهم شوارع القاهرة وأكثرها ازدحاما، وعلى بعد أمتار من مديرية أمنها العتيدة.

وكان هؤلاء البلطجية مجهولين، ولايزالون!.

واعتدى بلطجية بالضرب على جمال بدوى، وهو رئيس لتحرير صحيفة الوفد فى أهم شوارع القاهرة على الإطلاق، وعلى مقربة من عدة أماكن ذات أهمية عسكرية ولها حراسة عسكرية، وغير بعيدة عن مقر إقامة زعيم البلاد ورئيس جمهوريتها.

وكان هؤلاء البلطجية مجهولين، ولايزالون!.

واعتدى بلطجية جدد، مجهولون أيضا، على عبدالحليم قنديل، ولكن الاعتداء هذه المرة تجاوز كل حد وقفت عنده الاعتداءات السابقة، وبلغ مبلغ

الجرائم ضد الإنسانية وتضمن استهانة بالعرض لم تعرفها مصر، ولا أى بلد عربى آخر، ولا مجتمع مرت به عرضا أية نسمة من نسمات التحضر، ولا أحب وصف ما جرى فهو مقزز ومؤلم يعف القلم عن استعادته كتابة على الورق.

والبلطجية - عادة - لا يهتمون بالسياسة، ولا يعنون بمتابعة الآراء المختلفة فيها. ولكن بلطجية بلادنا الجدد يتابعون الآراء كلها فلا الاشتراكي/ الإسلامى مجدى أحمد حسين يعجبهم، ولا الليبرالي/ المؤرخ جمال بدوى يرضيهم، ولا الناصرى الثائر المتأمل عبدالحليم قنديل يفلت من بين أيديهم!!.. ..

لعله من واجبنا أن نهنئ الحكومة - بل الحكومات - التى تعاقبت علينا فى هذين العقدين الأخيرين لتثقيفها البلطجة سياسيا، وتحويلهم من الاهتمام بالحانات وروادها إلى تتبع ذوى الرأى المعارض للحكومة وتلقينهم الدرس تلو الدرس فى كيفية احترامها وكف أقلامهم عنها! وهى على الرغم من هذه الكفاءة النادرة تعجز فى كل مرة عن تتبع الجناة والقبض عليهم وتقديمهم للمحاكمة!.

لكنى أعتقد أن الصحفيين لن يعجزوا عن تقرير الإضراب العام يوما فى كل أسبوع لا تصدر فيه صحيفة ولا مجلة، ولا يقدم فيه إلى التليفزيون أو الإذاعة أو وكالة أنباء الشرق الأوسط أو القنوات الفضائية المصرية أى خبر أو تحقيق. ويستمر هذا الإضراب فى اليوم المعين كل أسبوع - وليكن يوم ممارسة البلطجة ضد عبدالحليم قنديل - إلى أن يقدم الجناة فى القضايا الثلاث إلى المحاكمة العلنية العادلة.

لقد كنا نطلب ونطالب بتعديل النصوص التى تتيح الحكم بالحبس فى قضايا الرأى، ونحن اليوم مضطرون إلى أن نطلب إيقاف البلطجية عن التعرض لأصحاب القلم. شأننا شأن قوم من أهل اليمن الشقيق حبسهم حاكم ظالم فى القرن الماضى، ثم رأى أن يلقاهم لعله يستميلهم إلى جانبه فقال له كبيرهم: لقد حبستنا لأننا نطالب بحرية القول ونحن الآن نرجوك أن تضمن لنا فى محبسنا حرية البول.

وحسب المصريين الله، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه.

العربى - ٧ نوفمبر ٢٠٠٤

من تجليات الفكر الجديد

فهمى هويدى

يصدمنا الذى جرى مرتين. مرة لأنه وقع على نحو لم يخطر لنا على بال، حيث ذكرنا بما قيل ذات مرة بأن عهدنا السعيد لم يقصف فيه قلم، وهو ما أكدته الممارسة العملية، لأن قلم عبدالحليم قنديل لم يقصف حقا، وإنما طال القصف رقبته وهدد حياته، أما المرة الثانية فلأن ما جرى جاء كاشفا لحقيقة أخرى، لم تخطر لنا بدورها على بال، وهى أننا نعيش فى ظل أوضاع غاية فى القصف والهشاشة، وليس لها من مقومات العافية أو الثقة فى النفس نصيب، وإذا سألتنى كيف، فإليك الحكاية:

فى عام ١٩٤٢، والحرب العالمية الثانية على أشدها أصدر المؤرخ والمفكر الإيطالى جوليلمو فريدو فى منفاه فى جنيف كتابا أحدث دويا فى حينه، كان موضوعه وعنوانه هو "السلطة" تناول فيه قضية الشرعية بالتحليل وأهم ما كشف عنه فى هذا الصدد هو أن انعدام تلك الشرعية لدى أى حاكم، يجعله يعيش حالة من الرعب والهلع المقيمين، وهو ما يفقده اتزانه بحيث تختل لديه الرؤى والمعايير، فتفزعه أبسط مظاهر الاعتراض، إذ يراها خطرا ماثلا يتهدد وجوده، الأمر الذى خلص منه المؤلف إلى أن الحاكم المستبد هو فى نهاية المطاف حاكم خائف، وأن الهيلمان الذى يتمتع به والصولجان الذى يلوح به، ليس أكثر من مجرد قشور ومسوح، تغطى اهتزاز ثقته فى نفسه وحقيقة يده المرتعشة.

انشغال فريدو بالموضوع لم يأت من فراغ، ولكن تجربة شخصية مر بها دفعته فى ذلك الاتجاه، وحفزته على العكوف على تحقيق وتحرير مسألة السلطة وشرعيتها.

ذلك أنه كان قد سافر إلى الولايات المتحدة قبل اندلاع الحرب، وهناك التقاه صحفى سأله عن أوضاع بلاده فى ظل حكم موسولينى الفاشى. فتحدث

إليه صاحبنا بصراحة. انتقد فيها نظام موسوليني بكلام نشر مقتضبا فى إحدى الصحف المحلية. وطبقا لما ذكر فريدو فى وقت لاحق فإنه لم يعر الأمر اهتماما يذكر، بل إنه نسيه تماما، وحين عاد إلى إيطاليا اكتشف أنه أقدم على مصيبة لم يتوقعها. ذلك أن كلامه المقتضب الذى نشرته الصحيفة الأمريكية المحلية أقام أجهزة النظام الإيطالى ولم يقعدها. إذ ما كاد الرجل يصل إلى روما حتى خضع للتحقيق والاستجواب، وبدأت الأجهزة الأمنية فى ملاحقته ومضايقته. وهو ما أثار دهشته البالغة، لأنه لم يتصور أن يقول كلاما فى أقصى الأرض تضمن نقدا بسيطا لنظام موسوليني، ثم يحدث ذلك الكلام صداه بتلك القوة لدى السلطة الإيطالية وهو ما دفعه إلى التساؤل: كيف يمكن لنظام مثل ذلك الذى يقف على رأسه موسوليني، يجمع بين يديه كل أسباب القوة والنفوذ والسطوة. وتحتشد وراءه أرتال الأجهزة والعسكر الذين ملأوا البلاد خوفا ورعبا أن يتعامل بهذه الدرجة من التخوف والاستنفار، مع كلام متواضع قاله رجل أكاديمى لا علاقة له بالعمل السياسى، ولا يطمح فى الاضطلاع بأى دور عام، ثم إن ذلك الكلام نشرته صحيفة بأقصى الأرض، ولم يثر انتباه أحد فضلا عن أن الذين قرأوا عددهم لا يكاد يذكر، ناهيك عن أنهم على الضفة الأخرى من العالم، مثل هذه التساؤلات حيرت الرجل، فدفعته إلى الهجرة من إيطاليا إلى سويسرا، حيث عكف على دراسة الموضوع.

وكان كتابه حول الشرعية وتحليله لها ثمرة تلك الدراسة. التى فضح فيها حقيقة الحكام الذين يفتقدون الشرعية، مؤكدا أنهم ليسوا أقوياء كما يبدون لنا على البعد، ولكنهم فى حقيقة الأمر ضعفاء ومهزوزون. مستقوون إن شئت الدقة.

حضرتنى قصة جوليلمو فريدو حين علمت بما جرى لعبدالحليم قنديل، فحمدت لأجهزة موسوليني الفاشية أنهم لم يخطفوا المفكر الايطالى ولم يجردوه من ملابسه ويضربوه، لكنى قلت: إذا كان صاحبنا ذاك قد خلص إلى ما خلص إليه لمجرد أنه استجوب ولوحق بسبب نقده الذى نشرته الصحيفة الأمريكية، فماذا عسانا أن نقول بحق الأجهزة التى فعلت مع عبدالحليم قنديل ما فعلته؟

سأترك لك الإجابة عن السؤال، لكنى اعتقد أنهم حين اعتدوا عليه ونكلوا به بتلك الصورة البشعة فضحوا أنفسهم ولم ينالوا منه. وإنما كبر هو

وصغروا هم. ورغم أنهم نزعوا ملابسه وجردوه من كل ستر، فإنهم هم الذين تعروا وكشفوا عن عوراتهم، وأسقطوا عن وجوههم أقنعة كثيرة حاولوا خداعنا بها.

لقد لاحظت ان الأسلوب الذى اتبع مع عبدالحليم قنديل فى الخطف والتنكيل ذهب بعيدا وتطور كثيرا عما سبق أن عهدناه فى الاعتداءين اللذين سبق أن تعرض لهما الزميلان مجدى حسين وجمال بدوى وهو ما أثار عندى سؤالا مؤرقا ومخيفا هو: هل يمكن أن يكون ذلك التطور من تجليات الفكر الجديد؟!

العربى - ٧ نوفمبر ٢٠٠٤

أين الشرعية؟
طارق البشري

النظم تقوم على الشرعية، فأين الشرعية فيما حدث؟ من يكتب رأيه ويعلن موقفه السياسى فى صحيفة تصدر بوجه رسمى من حزب معترف به قانونا، ويطالب بالحق الدستورى لمواطنيه، أم من يخطف هذا الكاتب ويتهجم عليه ويضربه ويلقيه فى الصحراء.

أين الفعل المشروع وأين الفعل غير المشروع؟

أرجو من النيابة العامة أن تنجح فى القيام بمهمتها السامية فى تحقيق الواقعة والكشف عن الجناة. وأرجو من الشرطة أن تنشط فى كشف المعتدين على مواطن مصرى شريف، بمثل ما نشطت ونجحت فى كشف المعتدين على الإسرائيليين فى طابا.

ونحن نعرف أن أول خيط من خيوط التحقيق فى أى حادث، هو البحث عن خصوم المجنى عليه والمتضررين من نشاطه وأن صحيفة "العربى" تقوم بدورها مع غيرها من طلائع صحف المعارضة، للإصلاح الدستورى والسياسى السليم، وإصلاح جهاز الدولة وكفالة الحرية للمواطنين، فى إطار الذود عن أمن الوطن من أخطار الخارج ومثالب الداخل. والدكتور عبدالحليم قنديل رعاه الله بين رجال المقدمة فى هذا السعى.

وإن العدوان عليه يحمل عدوانا على هذه المعانى وعلى كل من يؤمن بها، بصرف النظر عن حزبه أو تياره السياسى.

والحمد لله ورعى الله مصر والمصريين

العربى - ٧ نوفمبر ٢٠٠٤

ليلة الميليشيات

صلاح عيسى

أكبر الأخطاء التى ارتكبها الرئيس الراحل أنور السادات، غفر الله له، هو أنه أطلق عفريت الإرهاب من القمقم، حين استجاب لنصيحة مستشارى السوء، ووافق على تكوين ميليشيات من طلاب الجامعات المنتمين إلى بعض الجماعات الإسلامية وزودهم بالسلاسل والجنازير والقبضات الحديدية، وكف يد أجهزة الأمن عنهم، وتركهم يتعاملون مع معارضيه من الطلاب اليساريين بهذه الأدوات، حتى سيطروا على الجامعات وزحفوا منها إلى الشوارع، بينما كانت ميليشيات أخرى، تابعة للحزب الحاكم تتعامل بالأساليب ذاتها مع المعارضين فى النقابات المهنية وفى الانتخابات العامة، لينتهى هذا كله بإشاعة مناخ من العنف، فإذا بالعفريت الذى أطلقه السادات من القمقم.. يطوله.. فيقضى عليه!

ومع تراجع موجة الإرهاب خلال السنوات الأخيرة، عادت هذه الميليشيات إلى قواعدها، بما فى ذلك تلك التى شكلها بعض رؤساء مجالس إدارة المؤسسات الصحفية القومية، لإدارة المعارك الانتخابية فى نقابة الصحفيين.. لذلك كان لافتاً للنظر وباعثاً على القلق، أن يعود فريق من هذه الميليشيات للظهور، مساء يوم الثلاثاء الماضى، فى ندوة دعت إليها لجنة المتابعة فى مجلس النقابة، وحضرها أكثر من ٥٠٠ صحفى لمناقشة توصية كان المؤتمر العام الرابع للصحفيين قد أصدرها، بضرورة تنفيذ النص القانونى الذى يقضى بإحالة رؤساء مجالس إدارة المؤسسات الصحفية القومية إلى المعاش حتى بلغوا سن الخامسة والستين، خاصة وقد تجاوزوا جميعاً – باستثناء واحد – هذه السن، فضلاً عن أن هناك دعاوى أقامها عدد من الصحفيين العاملين فى أربع من هذه المؤسسات، أمام محكمة القضاء

الإدارى بمجلس الدولة، يطلبون عدم الاعتداد بما يصدره هؤلاء من قرارات، لأنهم – بعد بلوغهم سن المعاش – لم يعودوا ذوى صفة!

ومع أن عددهم كان قليلاً ومنطقهم كان ضعيفاً، فقد فرض هذه الميليشيات أنفسهم بالصوت العالى وإثارة الضجيج فى القاعة والاحتشاد حول المنصة وخطف الميكروفونات للحيلولة بين المتحدثين وبين مواصلة الكلام فى الموضوع، الذى كانوا يعترضون عليه من حيث المبدأ، لأن مجلس الشورى – فى رأيهم – هو صاحب الصحف القومية، وهو حر فى أن يطبق القانون والدستور، أو لا يطبقهما، لأن المثل الشعبى يقول: "جوزى.. وأنا حرة فيه"، ومجلس الشورى يقول "صحافتى.. وأنا حر فيها.. أفردها.. وأطويها"!

وصحيح أن الندوة قد انعقدت فى النهاية أمام إدراك هؤلاء، بأنهم كانوا فى الواقع يقفون ضد مصالحهم، وإصرار إدارة الندوة وجماهير الصحفيين على عقدها، وتأييد الجميع للخطاب الذى أرسلته النقابة إلى رئيس مجلس الشورى يطالبه فيه بتطبيق القانون، فقد تأملت مجموعة الميليشيات وقلت: اللهم اجعله خيراً.

وفى الصباح علمت بخبر العدوان الذى وقع على الزميل "عبد الحليم قنديل" رئيس التحرير التنفيذى لجريدة "العربى"، الذى ما كاد ينصرف من الندوة، ليعود إلى منزله، حتى وجد مجموعة من الميليشيات تنتظره، لتقوده إلى مكان خلوى، وتتعامل معه على الطريقة الساداتية بالزغدات واللكمات وسرقة الموبايل.

وحتى لا تكون ليلة الميليشيات – التى تركزت هذه المرة على الصحافة – بداية لموجة جديدة من الإرهاب نقول لأسيادنا الذين دبروا ذلك: اللى حضر العفريت يصرفه. وينصرف معه!

العربى – ٧ نوفمبر ٢٠٠٤

ضياع الحرمات بين الحكم ومجلس حقوق الإنسان

د. نادر فرجانى

إن الإيذاء البدنى لكاتب وطنى تجاسر على قول الحق فى مجتمع يغشاه الباطل من أكثر انتهاكات حقوق الإنسان جسامة، حيث يستهدف تكميم الأفواه وقصف الأقلام، ومن ثم اغتيال أم الحريات، حرية التعبير، ويحق لنا أن نسأل: هل فى هذا السلوك المشين أى "فكر جديد" يمكن الركون إليه فى إصلاح ما فسد من حال الوطن؟

الواقع أن واقعة الاعتداء على عبد الحليم قنديل، تضع الحكم فى مصر في سلة زبانية أبو غريب وبغاة الاحتلال الإسرائيلى فى فلسطين السليبة. وتنهى، إلى غير رجعة، ادعاءات الحكم ومن لف لفه من المنافقين وحملة المباخر، بالحرص على الديمقراطية والحرية.

وقد يسارع أحد هؤلاء إلى الدفاع بعدم وجود دليل على ضلوع الحكم فى الاعتداء على الصحفى البارز والوطنى الأمين، بهذه الصورة الشنعاء التى تنتهك الإنسانية فقط ولكن تنقل مصر إلى "أزهى" عصور القمع الباطش بحقوق الإنسان، التى تقابل فيها الكلمة الشريفة، باللكمات والبلطجة الحقيرة.

. ولكننا لا يمكن أن نقبل هذا الدفع الشكلى. ولو مؤقتاً، حتى تشمر أجهزة الأمن والعدالة المصرية عن ساعد الجد وتلقى القبض على الجناة وتقدمهم إلى محاكمة عادلة، إن كانوا يجرؤون، إذ أن محاكمة عادلة لابد ستكشف، كما فى حالتى أبو غريب وإسرائيل، عن جناة أعلى فى نسق الحكم، ولا نقول الحكومة، من حثالة البشر الذين كانوا مجرد أداة الجريمة، ولتخصص قوى الأمن لهذه القضية الجلل معشار ما تخصصه لإجهاض فرص قوى المعارضة للمشاركة فى حكم البلاد.

وبحق الحرية، كما قال عبد الحليم قنديل فى عاموده الأخير، يتوجب على جميع المواطنين الشرفاء إدانة هذه الفعلة الشنعاء وتأجيج الدعوة إلى الاحترام البات لحقوق الإنسان، خاصة الحريات، المفتاح للتعبير والتنظيم "أى التجمع والحرية الكاملة لإنشاء جميع أشكال المنظمات فى المجتمعين المدنى والسياسى، ونشاطها فى حدود قانون يحمى الحرية ويقوم عليه قضاء مستقل قطعا" والطريق واضح، بدايته إصلاح قانونى شامل يضمن اتساق القوانين والإجراءات المصرية مع القانون الدولى لحقوق الإنسان وتحرير منظمات الدفاع عن حقوق الإنسان فى مصر من قيود السلطة التنفيذية، وتمكينها من الاستمرارية بالإمكانيات الذاتية فقط حينها يمكن أن نصدق ادعاءات الإصلاح.

وأخيراً، إن كان المجلس القومى لحقوق الإنسان ينتظر الفرصة الملائمة لينفض عنه تهمة تجميل نظام حكم قهرى باطش، فالفرصة قد حانت.

فليس هناك من حالة أفضل من تلك يمكن أن يثبت فيها مثل هذا المجلس، وأى من منظمات حقوق الإنسان والمنظمات المهنية، وعلى رأسها بالطبع نقابة الصحفيين، من أى معدن صيغ إلا بأخذ موقف مبدئى جرىء ومناضل ضد هذه السقطة البائسة، لا ينتهى إلا بقيام الإصلاح الذى بات مطلوباً لصلاح الحياة والوطن.

العربى - ٧ نوفمبر ٢٠٠٤

ضى القناديل

فتحى عامر

أغلب الظن أن الجهة الحقيرة، التى أمرت باختطاف وتعذيب صديقى الأعز عبد الحليم قنديل، كات تريد أن تؤكد بشكل عملى أن مصر تعيش أزهى عصور الديمقراطية، وأن أزهى عصور الديمقراطية يتطلب إطلاق حرية البلطجة، وإصدار الأوامر للبلطجية والسفلة والعاطلين عن الإنسانية باختطاف الكتاب الشرفاء من الشارع، تحت تهديد الضرب المبرح والسب والقذف، ووضعهم تحت تهديد القتل ساعات طويلة فى منطقة نائية، ثم تركهم عراياً تماماً بعد التأكد من تحطيم إنسانيتهم وكسر معنوياتهم وانتهاك كرامتهم..

والحمد لله أننا نعيش فى عهد الأمن والأمان والاستقرار، ولولا الأمن والأمان والاستقرار والعهد الميمون بقيادته الميمونة "أخت أمونة" لفسدت الأرض تماماً وأصبح عاليها سافلها!

كل ما هنالك أن سياسة "الإصلاح" لكى تمر بأمان وسلام وديمقراطية "وفكر جديد فى جديد" لابد أن تتحول إلى عملية "إصلاح وتأديب" وهذا يتطلب إقصاء كل الآراء التى لا تعبر عن سياسة العهد الميمون، واختطاف ومطاردة وتعذيب كل أصحاب الأقلام والآراء والأصوات التى تعترض على فساد النظام الحاكم وانحطاطه وتبعيته.

وطالما أن الحكم باختطافه وتعذيبه لعبد الحليم قنديل، انتقل نقله نوعية، فى مواجهة معارضيه، فأطلق يد البلطجية، وكبل يد القانون، ولم يعد يحتمل كلمة نقد لسياسته التى وصلت بالشعب إلى الدرك الأسفل من الفقر والمرض والجوع والأمية والبطالة والتخلف والتبعية..

وطالما أن الكتاب والصحفيين الشرفاء صاروا مستهدفين أكثر من أى وقت مضى، وصاروا مطلوبين لدفع ثمن انحيازهم للحق، ومواجهتهم للباطل.

طالما أن الأمر كذلك فإننى أدعو الأستاذ جلال عارف نقيب الصحفيين، ألا يضيع الوقت فى إصدار بيانات احتجاج باسم النقابة ضد ما حدث، بل أدعوه أن يسعى بقوة لتمكين الكتاب والصحفيين المستهدفين من الحصول على رخصة سلاح للدفاع عن أنفسهم فى مواجهة البلطجة والخطف والتعذيب والشروع فى القتل فالنظام الحاكم داس القانون، وتحول إلى إرهابى من النوع القذر.

ليس فيما حدث مع عبد الحليم قنديل أى بطولة أو رجولة أو شرف، وليست عملية اختطافه وتعذيبه سوى عمل جبان وخسيس ولا يدل على شيء سوى إفلاس النظام وعجزه وفساده.

كل ما أستطيع تأكيده أن ما حدث سببه الأول والأخير ما يكتبه عبد الحليم، وأن عملية اختطافه وتعذيبه، بقدر ما فيها من آلام فوق طاقة البشر، لم تثنه ذرة واحدة عما يؤمن به ويفكر فيه ويكتبه، وإذا كان عبد الحليم دفع الثمن غالياً فقد دفعه نيابة عنا جميعاً، والنتيجة هى مزيد من الإصرار على ما نعتقد وما نكتب، ولن نتراجع لحظة واحدة فى دفاعنا عن الديمقراطية والعدالة وانحيازنا لمصالح الفقراء وكشفنا لفساد السلطة ولصوصيتها وانحطاطها وتبعيتها.

ليس فيما حدث لعبد الحليم قنديل سوى فقدان للمعنى، لكن المعنى الوحيد هو عبد الحليم قنديل نفسه.

ولا أود أن أكون مبالغاً فيما أكتب عن صديق ينزل من نفسى منزلة النفس ذاتها، وفى لحظة تعرض فيها لمحنة قاسية لكن المؤكد عندى أن عبد الحليم قنديل يحمل فى قلبه براءة الطفل، الذى قال للملك أنت عريان، فيما كان الجميع يتملق الملك ويتغزل فى ثوبه القشيب.

فقد نقل عبد الحليم المعارضة المصرية نقلة نوعية جديدة، دمرت كل الخطوط الحمراء، التى فرضتها السلطة، فقبل عبد الحليم كانت المعارضة موجهة ضد "خولى العزبة" وليس "صاحب العزبة" وجاء عبد الحليم قنديل ليوجه نقده مباشرة إلى مؤسسة الرئاسة وليس إلى الحكومة فقط، فمؤسسة

الرئاسة هى حاكم مصر الفعلى، وليست الحكومة سوى أداة لتنفيذ ما تمليه الرئاسة..

عمل عبد الحليم قنديل على هذه الحقيقة الدامغة بروح استشهادية ولسنين طويلة، ومن منظور مثقف موسوعى ومفكر لامع وبأسلوب مقتحم يلخص الأكثر فى الأقل من الجمل والعبارات الإشارية التى تنبع من أعماق روحه لتصل إلى الأرواح الغاضبة مما يحدث فى مصر ولمصر، فتفعل فيها الأفاعيل..

وظنى أن الحديث عن عبد الحليم قنديل الذى يزلزل جبال الفساد بكلماته يحتاج إلى مجلدات كثيرة، ومن كل قلبى أهنئه بما حدث، رغم ما فيه من آلام لأن رد الفعل على ما حدث كان استفتاء شعبياً واسعاً شاركت فيه كل القوى السياسية، وقلدته وسام الشرف والفخار، وجعلته كاتب مصر الأول بامتياز.

العربى - ٧ نوفمبر ٢٠٠٤

العار.. يا وطن

محمد مستجاب

رجعت من قريتي – ديروط الشريف – مسلحاً بالحب ذى الشجن القديم لأقيم بعض الوقت فى العاصمة الكبرى، هذه المدينة التى حطمت الأمل المنير الذى كنا نتسلى به فى قصص حياتنا المبكرة، الفقيرة والدافئة الجميلة، والقاسية أيضاً، وفى أول مساء بعد وصولى كان الإفطار الرمضانى السنوى مع زملاء (الأسبوع) ليخترقنى.. ويخترقنا النبأ الدامى الملعون: اختطاف عبد الحليم قنديل رئيس تحرير جريدة العربى التنفيذى، والاعتداء عليه بعد تجريده من ملابسه وإلقائه جسداً عارياً فى أول طريق السويس قريباً من جبل المقطم، فظل جسده يتناثر بالعار الوطنى ليدمر كل ما يمكن أن نزهو به أو نفتخر مصرياً بمعناه القائم فى الوطن البائس، وحاولت أن أتخفف وأهدئ من روعى، وكان مصطفى بكرى يتكلم عنه فى صلابة الرفض لما يحدث، وأنا لا أعرف – شخصياً – عبد الحليم قنديل وإن كنت بالطبع أقرأ ما يكتبه، وبدأت أختنق حتى إن الفنان حمدى أحمد – خلال كلمته – حاول أن يتنفس بالحب للوطن، وحاولت أن أسخر مما يحدث، وأن أظل مبتسماً، فأشار لى مصطفى بكرى بأن ألقى كلمة – تعودت أن ألقيها فى هذه الاحتفالية العائلية، إلا أنى لم أستطع جمع شتات أعضائى الممزقة كى أقف، أو أن أتكلم، أو أن أفعل شيئاً، وكل عنصر فى حياتنا قابل للتبديل أو إعادة الصياغة إلا هذا السلوك المروع، إنه العار الأبدى، كانت جمجمتى قد انشرخت لتنزف فى القلب روائح مقابر التاريخ المصرى الذى نحاول أن نجعله ملوناً أو مصبوغاً بالمجد، فاضطررت أن أرحل مضطرباً فى شوارع العاصمة الكبرى، صدرى مليء بالألم والدخان والذل ووسائل المجد التليفزيونى، وحاولت أن أجد الملاذ أو بعض الراحة فى ملجأ أتيليه القاهرة، حيث كان الزملاء يستعدون احتفالاً بأستاذنا الكبير

كامل زهيرى فى ندوة حول كتابه (سبعون كتاباً فى كتاب)، ومع كل ما حاولنا أن نشعر به من فخر واعتزاز، وأملى القديم أن أتكلم عن هذا المصرى الراقى الشامخ، إلا أن عبد الحليم قنديل ظل يضاغط كل ما مر فى حياتى وفى ليلتيٍ البائسة، فيتناثر الكفاح والحبٍ والتواصل الإنسانى، لأخر من الملجأ هائماً – وكارها، وكريهاً، وصامتاً، وبالغ الإحساس بالتشاؤم، حتى كدت أنام فى الشارع دون العودة لأسرتى.. التفكير فى المقابر يناسب ما يحدث.

الأسبوع – ٨ نوفمبر ٢٠٠٤

نقطة نظام

د. حسن نافعة

كنت أود فى مقال هذا الأسبوع مواصلة حديثى الممتد عن الإصلاح السياسى والدستورى فى مصر، غير أن حادث الاعتداء البشع الذى تعرض له الكاتب الصحفى عبد الحليم قنديل، رئيس التحرير التنفيذى لصحيفة العربى الناطقة باسم الماضى، وأثناء عودته إلى منزله بالهرم، فوجئ قنديل بسيارة تعترض طريقه وينزل منها أربعة أشخاص أشداء قاموا باختطافه ونقله عنوة داخل السيارة، وبعد تعصيب عينيه راحوا، والسيارة تشق طريقها إلى مكان مجهول، ينهالون عليه ضرباً وقذفاً وسباً، ويجبرونه على خلع ملابسه تحت تهديد السلاح، وإلى أن وصلوا به إلى بداية طريق السويس، وهناك، وبعد أن استولوا على كل ما معه، بما فى ذلك حقيبة أوراقه ونقوده وتليفونه، ألقوا به فى الصحراء عارياً كما ولدته أمه، قائلين له، وفقاً لنص شهادته المسجلة فى محضر النيابة العامة، "علشان تبطل تتكلم عن الكبار" – فمن هم يا ترى هؤلاء الكبار؟ يعرف القاصى والدانى، فى مصر وفى خارج مصر، أن عبد الحليم قنديل وزملاءه فى صحيفة العربى كانوا ومازالوا يقودون حملة ضد ما أسموه "توريث السلطة فى مصر"، وهى حملة راحت تتسع الآن لتشمل رفض التجديد لولاية خامسة للرئيس مبارك، لذلك، وبصرف النظر عن درجة التجاوب أو الرفض الشعبى لهذه الحملة، فإن ذهن الناس سينصرف على الفور إلى أن "الكبار" المشار إليهم فى هذا التحذير هم أولئك الذين تستهدفهم حملة العربى، وانطلاقاً من هذا الاستنتاج من المتوقع منطقياً، أن يطرح الناس ثلاثة احتمالات لتفسير ما حدث:

الأول: أن تكون تعليمات عليا صريحة ومباشرة قد صدرت بمعاقبة قنديل على هذا النحو البشع، المثير للاشمئزاز والغضب أيضاً، وهو أمر

أستبعده شخصياً، وأظن أن الأغلبية الساحقة من الشعب المصرى ستستبعده أيضاً.

الثانى: أن يكون التدبير للجريمة تم بمبادرة فردية من جانب أطراف رسمية أو شبه رسمية، اعتقاداً منها بأنها ستولد من الخوف والذعر ما يكفى لوقف حملة العربى، وردع المؤيدين المحتملين لها عن المشاركة النشطة فيها، وهو احتمال وارد.

الثالث: أن يكون هذا التدبير تم بمبادرة فردية، ولكن من أطراف لا علاقة لها بالدوائر الرسمية أو شبه الرسمية، وهى أطراف إما أن تكون موالية للنظام الحاكم وتصرفت بدافع من الرغبة فى معاقبة المعارضين له والانتقام منهم بطريقتها الخاصة، وإما أن تكون معارضة بل كارهة له إلى درجة مذهلة، وتصرفت بدافع الرغبة فى إثارة المتاعب له بالعمل على إلصاق تلك الجريمة البشعة به، وهذا احتمال غير مستبعد أيضاً.

فى سياق كهذا فإن الحفاظ على المصالح العليا للبلاد يتطلب ضرورة السعى بكل السبل المتاحة للكشف عن مرتكبى الجريمة، وكشف دوافعهم الحقيقية وإنزال أقسى عقوبة بهم، ذلك أن عدم الكشف عنهم سيؤدى إلى واحد من أمرين كليهما مر بالنسبة للدولة والمجتمع سواء بسواء، الأول: تثبيت الاعتقاد بأن الحكومة هى المسئولة عن ارتكاب الجريمة أو تقف وراءها أو تتستر عليها. والثانى: أن الحكومة لا تعلم شيئاً عن هؤلاء وعاجزة عن الإمساك بهم، وهو ما قد يكون بمثابة دعوة مفتوحة تمنح الضوء الأخضر لكل من يرغب ويقدر على تشكيل ميليشياته الخاصة، لفرض قانونه الخاص وبأساليبه وأدواته الخاصة، وبالتالى غياب "حالة المجتمع" والعودة إلى "حالة الطبيعة" حيث قانون الغاب.

ولأن الأمر جد خطير فإنه يستوجب التعامل معه بأقصى درجات الحسم والإحساس بالمسئولية، ولاشك لحظة فى أن الرئيس مبارك سيتعامل مع هذا الأمر بما يستحقه من جدية وبصراحة شديدة فإننى لا أتردد فى القول بأننى لو كنت محل الرئيس مبارك لخيرت وزير الداخلية بين القبض على المجرمين الأوغاد أو تقديم استقالته خلال فترة زمنية لا تتجاوز أسابيع قليلة.

ربما لا يكون الحادث الذى تعرض له الدكتور قنديل هو الأول من نوعه، فقد سبق أن تعرض صحفيون وكتاب كبار فى حجم جمال بدوى

للضرب والإهانة، لكنه الحادث الأخطر من نوعه، فالمجرمون لم يكتفوا هذه المرة بالاعتداء على صاحب قلم بالضرب والإهانة ولكنهم تعمدوا إذلاله والحط من كرامته. والهدف واضح: تحطيم روحه المعنوية كى يرتعش القلم فى يده، وردع كل من تسول له نفسه أن يتسلح بالشجاعة فى نقد "الكبار" أو التعليق على تصرفاتهم، حتى ولو كانت جرائم ترتكب فى حق الوطن، ولو استمر الحال على هذا المنوال فلن يمر وقت طويل حتى يفكر كل من يريد أن يمسك قلماً فى يده اليمنى أن يضع فى يده اليسرى مسدساً يحميه.

لست فى حاجة إلى تكرار ما ردده الجميع وهو أن الاعتداء على قنديل، هو اعتداء على كل الصحفيين، وعلى كل المثقفين، بل على كل كاتب وصاحب قلم، أياً كان موقعه، وحملة الأقلام هم حملة مشاعل النهضة والتنوير، حتى لو اشتط بعضهم، وعندما يتسلح نظام حاكم بكل هذه الترسانة الهائلة من قوانين الطوارئ والقوانين المقيدة للحريات، ثم لا يجد غير هذا الأسلوب الشنيع وسيلة لمعاقبة صاحب قلم معارض، فمعنى ذلك أن هذا النظام قد أصبح جسداً بلا عقل وبلا قلب أيضاً، وأن خللاً جسيماً قد حدث وأن معالجته على الفور يتعين أن تصبح قضية حياة أو موت.

إن الذين يتصورون أن شعب مصر سيقابل مثل هذا السلوك البذىء بالخوف والخنوع لا يعرفون معين هذا الشعب، ربما لأنهم ليسوا جزءاً أصيلاً منه، ومن يعتقد فى ذلك يكون قد خلط فى الواقع بين قدرة هذا الشعب العظيم على التحمل والجلد والصبر، وهى قدرة تبدو لا نهائية أحياناً، وبين قابليته للاستسلام للذل والمهانة، وإذا كان لنا أن ننصح هؤلاء كثيراً على صبر هذا الشعب وتحسبوا بعض الشىء لغضبه القادم لا محالة، فصبره قد أوشك على النفاد إن لم يكن قد نفد بالفعل.

المصرى اليوم – ٩ نوفمبر ٢٠٠٤

اضرب المربوط يخاف السايب!

عبد الرحمن الأبنودى

نحن لا نكتب ما نكتبه لأنه ضد الحكومة أو لأنه يرضى الحكومة، نحن نكتب ما لو لم نكتبه نموت!! لاشك أننا سعداء مبتهجون يهنئ كل منا الآخر بأن فتحت الدولة أبواب الإصلاح السياسى فى مصر. ذلك الإصلاح الذى انتظرناه طويلاً طويلاً وها هو يبزغ من وراء تلال الأنظمة القديمة كقمر الربيع أو شمس الصباحات المبتهجة. ولئن كان الإصلاح قد بدأ صغيراً وعلى استحياء كما هى طبيعة الأشياء.

وتمثل فى ضرب "د. عبد الحليم قنديل" وتجريده من ملابسه، وإهانته بالقول والفعل وإلقائه فى الصحراء تائهاً مذهولاً لا يرى بعد أن سلبوه نظارته، فإننا لاشك متفائلون شديداً بأن الإصلاح – دائماً – يبدأ صغيراً ثم يكبر ويتسع إلى أن يصبح مناخاً عاماً كما حدث فى معظم البلاد الديمقراطية. وغداً – بعون الله وبتوفيق منه – سوف يلقى بمعظمنا حفاة عراة نستر عوراتنا بأكفنا فى صحراوات طريق السويس أو الإسماعيلية بالذات لأننا من المناضلين، والمدينتان كانتا إلى وقت قريب رمزين للنضال والبسالة ودماء الشهداء!!

إذن فقد ارتفعت قامة "قنديل" بما فعلوا به وصغرت الدولة التى تدعى أنها تحمى الديمقراطية وفضحت ضعفها وخيبتها ليس أمام الشعب المصرى أو الشعوب العربية فقط، بل أمام العالم كله وبالذات سادتها فى البيت الأبيض الأمريكى الذين علموها أصول وأساليب البلطجة الديمقراطية، والذى يستند إلى جدرانها ظهر دولتنا الموقرة التى تعطى المثل يومياً فى العنف وكراهية الديمقراطية ونبذ الحوار مع أمثالنا!!

جيوش من البلطجة تسمنهم الدولة من مالنا. من مالنا يلبسون ويسكنون ويتزوجون وينجبون بلطجية جدداً، وتخبئهم دولتنا الرحيمة الصديقة فى

سراديب الوحشة وظلام السر ليوم معلوم نعرف أنه قادم لا محالة. جيوش من البلطجة لا نعرف لأية جهة أمنية أو غير أمنية ينتمون. تطلقهم على أهلنا فى الانتخابات والمظاهرات والجامعات ترى فيهم سندها الحقيقي وحماتها منا ومن غدرنا ومصدات دفاعاتها من الغضب الشعبى القادم يوماً. ذلك الغضب الذى تنضجه بسلوكياتها المستفزة. بالإفقار والتجويع والكذب العام والخاص وتسعى نحوه حثيثاً كأنها تستعجله. كلما تجاهلنا أفعال الدولة واختلقنا التبريرات، تصر الدولة على السفور والخروج إلينا بوجهها القبيح، وتصر على تذكيرنا بأننا شعبان وصنفان من البشر ليس لنا نفس الحقوق أو الاحترام أو المكانة أو الشرعية!!

إنه أسلوب تعلمته دولتنا من أعدائها فى تربية هذه القطعان السوداء "وعلفها" وتسمينها انتظار اللحظة، وقد أتت اللحظة والحمد لله فى فيض متوال. أتت اللحظة أكثر من مرة كان أبشعها ضرب الرجل المهذب المؤرخ الأمين ذى العين التى تخترق الباطل لترى الحق مهما حاولوا مواراته "جمال بدوى".

ولقد ضرب بعده أكثر من كاتب له آراء سياسية فى عرض الطرقات. لكن ما حدث مع "د. عبد الحليم قنديل" رئيس تحرير جريدة "العربى الناصرى" تجاوز كل الحدود من الإرهاب و"الصياعة" والابتذال وانحطاط الخلق والفكر ليفضح طبيعة الدولة التى تحكمنا وجهلها إلا بمصالحها الشخصية – جداً – إنه مبدؤها الخالد: "اضرب المربوط يخاف السايب!!"

وإننى لأعجب كيف لا يفزع مثلنا السيد الرئيس ويصدر أوامره بالقبض على المجرمين فوراً، إذ لا أعتقد أن سيادته أخذ علماً بما حدث ولكن على ما يبدو فإننا عدنا لمراكز القوى مرة أخرى وفاق الأمر أمر "زوار الفجر" الذين كانوا يقتحمون الأبواب ليأخذونا من بيوتنا الآمنة، فصار الأمر أن تختطف من شوارع المدينة وأن تعصب عيناك وينهال عليك البلطجية بالضرب والإهانات ووضع "المطاوى" على رقبتك وإعلامك أن هذا يتم بسبب مناقشتك أمور الكبار، إذن فلابد أن جهة مظلمة من جهات هؤلاء الكبار هى التى أرسلت بهؤلاء الوحوش، وهى مسألة مريبة وتتناول رؤوس السلطة إذ إن د. "قنديل" معروفة تلك المواضيع التى ناقشها ومعروفون

هؤلاء الذين تناولتهم موضوعاته وأظن – والله أعلم – أنهم مسئولون إلى حد كبير عما جرى له ويتحملون مسئوليته !!

أعجب كيف لا يفزع مثلنا السيد الرئيس محمد حسنى مبارك، فهذا يحدث فى عهده كيف يُسمح لبلطجية الانتخابات و"صيع" الغدر والانقضاض على رموزنا الثقافية والسياسية بالعمل على إسكاتنا والبطش بكل من تسول له نفسه النطق بالحقائق التى يعرفها العامة ويتندرون بها فى الطرقات.

كيف يرضى السيد الرئيس أن يحكم بلداً يعج بالأركان السوداء التى تلبد فى ظلماتها عصابات وحشية جاهلة مدربة على العنف نحن نعرف أنهم لم يقرأوا كلمة للدكتور "قنديل" ولم يسمعوا باسمه إلا حين أخذوا الأمر بضربه. تماماً مثل ذلك الجاهل الذى طعن أستاذنا نجيب محفوظ فى رقبته دون أن يقرأ كلمة واحدة له أو يعرف من هو. إنه الإرهاب. إرهاب الجماعات الإرهابية وإرهاب الدولة. شيطانان منفلتان من نفس القمقم.

كيف بالله نحس أمناً أو أماناً مهما طنطنت الدولة بنعيم الديمقراطية الذى نعيش فيه وهذه الوحوش المعلوفة جيداً والمدربة على التهام الكرامة وتمزيق علم العالم وإطفاء شموع الوعى التى تضىء دامس الظلمة فى زحام كل تلك المؤامرات التى يحاصرنا بها أعداء الأمة فى الخارج والداخل؟

كيف للسيد الرئيس الذى يفخر بأن قلماً لم يكسر فى زمن حكمه أن يصمت على انطلاق تلك الوحوش القذرة من مكامنها المريبة لتفعل ما فعلت من أجل إذلال أهل القلم الصادق معلنين بوضوح أنهم يعملون فى خدمة الكبار.. من هم الكبار هل هناك كبار آخرون قادرون على تلطيخ وجه الوطن وملابسه بالقاذورات فى زمن يتربص بنا أعداؤنا ويتهموننا بمثل تلك التهم دون أن تحدث فهل يعطيهم هؤلاء الكبار المبرر للتهجم والاتهام والوصم؟.. هل هناك كبار آخرون ربوا هذه الغيلان على كراهيتنا إلى هذا الحد واعتبارنا أعداء للأمة واعتبار هؤلاء الكبار الغامضين حكاماً لهذه الأمة التى يرعون أمنها ويحاربون أعداءها دون الرجوع إلى الحاكم الذى لا نعرف غيره؟

كم مرة أعلنت يا سيدى الرئيس رأيكم فى قضية التوريث التى صارت أم المشاكل الآن، وكم مرة استشهد السيد جمال مبارك بما قلتم وأعلنتم ليضع حداً لكل ما يزحم الشارع المصرى بل والعربى من أقوال واجتهادات لم نعد نعرف صادقها من كاذبها؟

ماذا فعل "قنديل" أكثر من مواجهته لهذه الزئبقية ومحاولة رد المصداقية لأقوالكم بعد أن عبث بها العابثون؟!!

هكذا تأكدنا الآن أن السلطة مرض يحتاج البرء منه إلى إرادة تفوق طاقة البشر، وإن الحفاظ عليها من الممكن أن يقود صاحبها إلى درك لم يكن يتخيل أنه منحدر إليه. داء عضال يلبد فى الضمير والعقل والأحشاء فينسى الواعد ما وعد به، ويدفع به لمحاولة محو الذاكرة العامة التى لا تمحى!!

لم يفعل هذا "القنديل" أكثر من إضاعته لما وعدتم به ومن كشف لأستار الفساد التى لم تعد فى حاجة إلى ستائر والمطالبة بالتغيير الذى وعدنا به مراراً وانتظرناه طويلاً. أى أن الرجل أفشى ما نختزنه جميعاً فى صدورنا المغلقة فكيف دفع ذلك الثمن المرعب؟

من يا سيدى الرئيس الذى فعل ذلك؟

وكيف تسمح له أن يكون من بين أفراد هيئاتك الحاكمة.

هل هناك جهات أخرى فى مصر لها قوة الحاكم وقادرة على إصدار قرارات رهيبة بهذا الحجم؟

هل قيل لسيادتكم إن رئيس تحرير "العربى الناصرى" حدث له ما حدث لأنه طرف فى نزاعات حزبية أو صحفية فعل غرماؤه ذلك به وأن السلطة براء من تلك الواقعة براءة الذئب من دم ابن "يعقوب"؟ وهل صدقتم سيادتكم ما قيل؟

سيدى الرئيس

لا نريد أن نشك فى أن عدة سلطات تحكم مصر. وبدون مزايدة أو حذلقة يريد كل الصحفيين والمثقفين وأصحاب الرأى فى هذا البلد أن تفتش سيادتكم عن الفاعل بنفسك فالفعلة التى حدثت هى إساءة للدولة ولنظام الحكم قبل أن تكون إساءة للدكتور "قنديل" الذى لم تجرده الذئاب من ملابسه وإنما فعلت ذلك بنظام الحكم فى مصر!!

نعم على النيابة أن تبحث، وعلى د. "قنديل" أن يمثل الواقعة ولكننا نأمل أن تأمر سيادتكم بتسليم الفاعل الذى وإن خبأوه عنا فإنهم لا يستطيعون إخفاءه عن سيادتكم!!

ملحوظة: لا أذكر أننى التقيت الدكتور "عبد الحليم قنديل" يوماً ما، ولا يربطنى به سوى كلماته الشريفة بالجريدة!!

الوفد – ١١ نوفمبر ٢٠٠٤

سحابة سياسية سوداء!

سلامة أحمد سلامة

قـد يكـون مـن الضرورى أن تعلن حكومة الحزب وحزب الحكومة بوضـوح قاطع، إدانتهما لحادث الاعتداء الأثيم الذى تعرض له عبد الحليم قنديل رئيس تحرير صحيفة "العربى" الناصرية، وبراءتهما من أى تدبير أو تـورط، والتعهد بضبط الجناة ومحاكمتهم.. وإلا فإن الجريمة بكل ما تحمله من مغزى سوف تلقى على عاتق النظام بأسره.

إذ إن حقـارة الاعـتداء بالضـرب، وأسلوب التنكيل والإيذاء وخطف الرجل من أمام بيته وتركه عارياً فى الصحراء، لا يدع مجالاً للشك فى أن الحادث وراءه أيد خفية، وله أبعاد سياسية لا يمكن إنكارها.

ويبدو أن الكتابات التى دأب عليها رئيس تحرير "العربى"، مهما بدا من صـراحتها وحدتهـا، خصوصـاً مـا يتعلق منها بقضية التوريث وتعديل الدستور، قد أثارت حنق بعضهم ممن وجدوا فى هذه الكتابات تعرضاً مشيناً للأسـياد.. وهـو التحذير الذى تلقاه الصحفى أثناء ضربه وهو تحت رحمة الجناة، بألا يتعرض مرة أخرى للأسياد!!

وللحقـيقة والتاريخ فنحن لم نعرف حتى الآن ونحن فى القرن الـ ٢١ مـن هـم الأسـياد ومن هم العبيد فى مصر. غير أن جريمة الاعتداء على قنديل، وما تكشف عنه من وجود مراكز قوى خفية فى الدولة، كنا نظن أنها ذهبـت إلى غير رجعة لا تسىء إلى مصر ومكانتها فحسب بل تسىء أيضاً إلـى الـنظام السياسـى فـيها وتجعل أى حديث عن الفكر الجديد وحقوق المواطـنة، وعن الإصلاح السياسى مجرد سحابة سوداء تطبق على أنفاسنا وهـو مـا يمـثل نكسة خطيرة فى مسار الديمقراطية والحريات التى كفلها الدستور.

ومـا وقع فى حادث الاعتداء على قنديل هو دليل على أن ثمة قوى فى الدولة مازالت ترى أن أساليب القمع والعنف فى إدارة الحوار السياسى هى

الوسـيلة الوحـيدة لتسوية الخلافات السياسية. وهذه القوى التى تقع فى قلب النظام أو على مقربة منه، هى التى تخلق أجواء العنف وتشجع على إشاعته فى مجالات أخرى تؤدى بالضرورة إلى ارتكاب جرائم إرهابية!

ولسبب أو لآخر لا أستبعد من هذه الدائرة المغلقة، ما تعرض له الكاتب الكبير أسامة أنور عكاشة من اتهامات تصل إلى التكفير والردة، لمجرد أنه تطـاول علـى الأسياد وناقش فى برنامج تليفزيونى حق المؤلف فى التناول الدرامـى للمواقـف السياسية لعمرو بن العاص لأنه إذا كنا فى قرن الحرية والديمقراطـية، نـؤدب الصحفيين بالضرب لأنهم تجرأوا على نقد أسيادهم، فمـاذا نـتوقع من جاهل متطرف أن يفعل حين يستمع إلى آراء أسامة أنور عكاشة فى عمرو بن العاص؟

رد الفعـل الطبـيعى فـى مثل هذا المناخ الذى تغيب فيه قيم التسامح والحـوار، حتى فى أعلى مستويات الحياة السياسية، وتستبدل بها قيم العنف لأسامة أنور عكاشة بالخروج عن الدين، ومن ثم إهدار دمه.

هذه هى الأجواء المحيطة بنا، والتى تثير لدى المرء شعوراً بالانقباض وخيبة الأمل!!

الأهرام – ١١ نوفمبر ٢٠٠٤

السجل الأسوأ لحرية الصحافة

صلاح الدين حافظ

لا أدرى أيهما أكثر دقة، السجل الأسوأ، أم السجل الأسود لحرية الصحافة، أم نضع الاثنين معا، لتكتمل الصورة، وتظهر تفاصيلها كاملة وعلى حقيقتها دون رتوش أو تجميل وتزويق مصطنع.

وبصرف النظر عن الخطاب السياسى الرسمى، الذى يمن على شعوبنا، بأن حرية الصحافة والرأى والتعبير، كاملة مكملة، فإن الواقع يقول بغير ذلك، وخصوصا حين تغوص فى الأعماق وتفتش عن خبايا الأمور، أو حين تسافر بعيدا وتقرأ كثيرا، فتعرف أن للحقيقة عدة أوجه.

وجه يقول إن تحسنا محدودا للغاية قد وقع فى بلاد ما يعرف بدول الهامش الديمقراطى، مثل مصر والمغرب ولبنان والأردن والكويت واليمن حيث زادت هوامش الحرية قليلا وانعكست بصورة إيجابية على صفحات الصحف، لكنها فى كل الأحوال مازالت تحت المعايير الدولية لحرية الصحافة والرأى.

ووجه آخر يقول إن أوضاع الصحافة والصحفيين فى البلاد العربية قاطبة، مع بعض الاختلاف، لاتزال متدنية متدهورة، فى ظل الهيمنة الحكومية الجادة على كل وسائل الإعلام والتعبير، انطلاقا من فلسفة الحكم الفردى أو الحزبى أو البيروقراطى، الأمر الذى وضع هذه الصحافة فى أدنى درجات التقويم الدولى المتفق على معاييره السياسية والمهنية.

وحتى لا تتوه الحقائق، فإننا يجب أن نقر ونعترف بأننا كشعوب نصحو وننام يوميا، على تناقض فج بين ما نسمعه عن مراتب الحرية ودرجات الديمقراطية، عبر ميكروفونات أجهزة الحكم، وبين ما نعانيه من نقص فى المعلومات الأساسية وتقييد للحريات العامة، وانسداد فى شرايين التواصل بين الحاكم والمحكوم، ومضايقات مشددة وعقوبات مغلظة تحد من حرية

الكُتاب والصحفيين وكل المشتغلين بالعمل العام، تفرضها قوانين شديدة التخلف، ابتداء من قوانين المطبوعات، حتى قوانين الطوارئ، وبينهما بالقطع قوانين العقوبات والقوانين الجنائية!.

والنتيجة الواضحة، أن صحافتنا مقيدة، وصحفيينا عجزة بفعل فاعل، فالخطوط الحمراء والصفراء والسوداء تنسج بيوتا للعنكبوت، يصعب على هواء الحرية اختراقها، وقيود التحكم فى إصدار الصحف، كما فى الأحزاب والجمعيات، وعقوبات حبس الصحفيين فى قضايا الرأى والنشر، لاتزال سيدة الموقف، ولا تكاد دولة عربية، تخلو من هذه القيود والعقوبات والعقبات الكؤود، وباستثناء الأردن فإن حبس الصحفيين أصبح سلوكا عاديا تمارسه البيروقراطية الحاكمة المتحكمة كما تمارس طقوس المأكل والمشرب الميكانيكية.

وقد كان المتوقع أن تكون دولة مركزية محورية بحجم مصر، ذات التقاليد البرلمانية والدستورية، بتجاربها الديمقراطية منذ منتصف القرن التاسع عشر حين انتعشت فيها دعوات الإصلاح المبكرة، هى السبّاقة فى ارتكاب فعل الإصلاح الديمقراطى قبل غيرها، وخصوصا فيما يتعلق بحرية الصحافة والنشر بضمانات العلم الصحفى والفكر الإبداعى، إلا أن تلكؤ الآلة البيروقراطية، بما تضمه من مستشارى السوء وترزية القوانين، قد حالت دون ذلك حتى اللحظة، وهل هناك دليل أقوى من التسويف والتهرب الحكومى من تحويل قرار الرئيس مبارك بإلغاء عقوبة حبس الصحفيين هذه إلى تعديلات تشريعية مستحقة ليصبح الإلغاء قانونيا.

وفى ظل هذا التهرب والتشكيك والمماطلة، هناك عشرات من القضايا منظورة أمام المحاكم، بل هناك أحكام حررت ضد صحفيين بالفعل، الأمر الذى أشاع ارتباكا فى كل الصفوف، فلا النهار نهار ولا الليل ليل، وحين تسود البلبلة ويقع الارتباك، تنشط جحافل الظلام لخنق بشائر الإصلاح ونسائم الحرية.

وانظر بتأمل فى الحادثة الفجة التى استهدفت صحفيا مرموقا، هو د. عبدالحليم قنديل رئيس التحرير التنفيذى لصحيفة العربى الناطقة باسم الحزب الناصرى الشرعى، حين تم اختطافه مؤخرا، وضربه وإيذاؤه وإذلاله بعنف، ثم رميه عاريا فى صحراء شرق القاهرة.. فهذه ليست جريمة جنائية بحثا عن فدية أو سرقة لمال أوحتى أخذا بثأر عائلى، بل هى

بلطجة سياسية ظاهرة، عقابا لقول قاله أو رأى كتبه علنا فى صحيفة شرعية معترف بها رسميا.

ولم تكن هذه حالة فريدة واستثنائية فى مصر المحروسة، لكنها كما نتذكر هى الحالة الخامسة خلال السنوات القليلة الأخيرة، فقد جرت سوابق لها مع الزملاء الأساتذة جمال بدوى حين كان رئيسا لتحرير جريدة الوفد ومجدى أحمد حسين حين كان رئيسا لتحرير جريدة الشعب المعطلة عن الصدور، وحمدين صباحى الكاتب وعضو البرلمان، حيث كان نصيبهم الضرب المبرح والإيذاء النفسى فوق الجسدى، على أيدى بلطجية مجهولين فروا بعد الجريمة هاربين لتقيد فى كل مرة ضد مجهول!.

أما الحالة الأغرب، فهى حالة اختطاف واختفاء الزميل الأستاذ رضا هلال مساعد رئيس تحرير الأهرام، دون أن يظهر له أثر حتى الآن، رغم مرور نحو عام ونصف العام، وكأنما انشقت الأرض فابتلعته، لا يدرى أحد من أهله أو زملائه هل اختفى فى الداخل أم اختطف للخارج، هل قُتل أم مازال حيا.. ولماذا كل ما جرى؟.. لا أحد يجيب، إلا صوت التخويف والترهيب لباقى العاملين فى هذه المهنة، التى صارت مهنة الموت كمدا، أو الموت جسدا، ولكل حق الاختيار!.

وإذا كانت القوانين المتعسفة والعقوبات المغلظة سالبة الحرية، بما فيها عقوبات حبس الصحفيين والكُتاب فى قضايا الرأى والتعبير، وصولا لعقوبات التكفير، على غرار ما حدث للدكتور نصر أبوزيد بالأمس القريب وما يحدث اليوم مع الكاتب الكبير أسامة أنور عكاشة هى عقوبات شائعة، من مشرق الوطن العربى إلى مغربه، فإن عقوبات الخطف والضرب، وحتى القتل دخلت مؤخرا على خط الترويع، كما جرى فى اليمن ومصر، وإن ظل صحفيوها أحسن حظا، مع كل ذلك، من الصحفيين فى العراق الآن الذين يقتلون بالجملة (قتل ٥٥ صحفيا عربيا وأجنبيا منذ الغزو الأمريكى للعراق قبل عام ونصف العام حتى الآن) وكذلك من الصحفيين فى الجزائر، الذين قُتل ٦٤ منهم خلال فترة اشتداد الصدام الدامى بين الدولة والجماعات الإسلامية المتطرفة.

فى ظل هذه القوانين المتشددة والعقوبات المغلظة، التى يجرى تطبيق بعضها وفق تشريعات جائرة، ويجرى بعضها الآخر خارج نطاق القانون والتشريع أصلا، كما فى حالات القتل والخطف والاعتداء الجسدى والإيذاء

النفسى، يصبح طبيعيا أن تختنق الحريات العامة، وخصوصا حرية الصحافة والرأى والتعبير، ويصبح منطقيا أن تصنف صحافتنا كلها فى البلاد العربية جميعا، ضمن السجل الأسوأ أو الأسود، فى التقارير الدولية المحترمة.

قبل أيام قليلة أصدرت المنظمة الدولية المعروفة بـــ" مراسلون بلا حدود" من مقرها فى باريس سجلا أو دليلا حول أوضاع حرية الصحافة والصحفيين في١٦٧ دولة فى العالم، يعتمد معايير مهنية ومقاييس دولية متعارف عليها، أهمها استقلالية الصحف، وسلامة الصحفيين، وحرية الرأى والتعبير، وحرية تدفق المعلومات، ونوعية الرقابة، وفداحة العقوبات.. إلخ.

يقول التقرير، الذى حصلنا على نسخة مبكرة منه خلال رحلة السفر الحالية، إن أفضل دولة فى العالم فيما يتعلق بحرية الصحافة، هى الدنمارك وتحتل المرتبة الأولى، وأسوأ دولة هى كوريا الشمالية، وتحتل المرتبة الأخيرة رقم ١٦٧، والدول العشر الأفضل هى بالترتيب: الدنمارك، فنلندا، إيسلندا، إيرلندا، هولندا، النرويج، سلوفاكيا، سويسرا، نيوزيلندا، ولاتفيا.

أما الدول الأسوأ العشر الأخيرة فى الترتيب فهى: كوريا الشمالية رقم ١٦٧، كوبا١٦٦، بورما ١٦٥، تركمانستان ١٦٤، إريتريا ١٦٣، الصين ١٦٢، فيتنام ١٦١، نيبال ١٦٠، السعودية ١٥٩، وإيران ١٥٨.

ونلاحظ ما يلى:

١- إن أهم الدول الغربية الديمقراطية لا تحتل المقدمة، حيث تأتى ألمانيا فى المرتبة الثانية عشرة، وفرنسا فى العشرين، والولايات المتحدة فى الثالثة والعشرين، وبريطانيا فى الثلاثين، وإيطاليا فى التاسعة والثلاثين، تليها إسبانيا فى المرتبة الأربعين.

٢- إن جميع الدول العربية، لا تظهر فى ترتيب المائة دولة الأفضل، باستثناء لبنان الذى جاء فى المرتبة ٨٧، ثم الكويت فى ١٠٣، وقطر ١٠٥، الأردن ١٢١، المغرب ١٢٦، فلسطين تحت السلطة الوطنية ١٢٧، الجزائر ١٢٨، مصر ١٢٩، الصومال ١٣٠، السودان ١٣٢، اليمن ١٣٥، الإمارات ١٣٧، موريتانيا ١٣٨، البحرين ١٤٣، جيبوتى ١٤٥، العراق ١٤٨، تونس ١٥٢، ليبيا ١٥٤، سوريا ١٥٥! لاحظوا دائما أن ترتيب الدليل أو السجل يضم ١٦٧ دولة.

٣- يشير التقرير إلى أن هناك منطقتين فى العالم تعانى فيهما الصحافة وحرية الرأى أشد المعاناة، هما على التوالى شرق آسيا، والشرق

الأوسط، بينما نجحت دول إفريقية فقيرة عديدة فى كسر النظم الديكتاتورية، والتحول برشاقة نحو الديمقراطية، تماما كما فعلت دول أوروبا الشرقية، التى كانت ضمن المعسكر الشيوعى المنهار، فى حين لم تحقق الدول العربية شيئا من هذا التحول!.

٤- تعانى الأغلبية العظمى من البلاد العربية، من النظم الفردية، التى لاتزال تتحكم بقوة فى الصحافة وكل وسائل الإعلام الأخرى، وتعرقل استقلاليتها وتفرض قيودا مشددة على حريتها وتتعرض بالعقوبات المشددة للصحفيين، وحدد التقرير الدول الأشد فى هذا المجال، مثل سوريا وليبيا وتونس وميز بينها وبين حالتى المغرب والجزائر التى تعانى الصحافة فيهما من المضايقات والمحاكمات.

٥- من السهل على كثيرين عندنا أن يستنكروا هذا التقييم (السجل الأسود) وأن يدّعوا كالعادة أن الصحافة حرة تماما، وأن معدى هذا التقييم من الأعداء الألداء الذين يحترفون تشويه الصورة وتزييف الواقع.

لكن الواقع الذى نعيشه ونعايشه يقول للأسف إن السجل الأسوأ هو من نصيبنا وقدرنا، وأن الإنكار والاستنكار لا يغيره إلى الأفضل، لكن الذى يغيره حقا هو أن نعترف بقصورنا وأخطائنا، ثم نبدأ الإصلاح الحقيقى فورا قبل فوات الأوان، بدلا من وأد الحرية فى سراديب الظلم والظلام، والاكتفاء بالحديث عن الحرية فى سرادقات المناسبات، بينما الأيدى الخفية تضرب وتعصف فى الظلام ثم تختفى محتمية بأمن لا نعرف سره أو مصدره!.

وقانا الله وإياكم شر الأذية.

* * *

خير الكلام: قالوا:

مقتل الرجل بين فكيه!.

العربى - ٢١ نوفمبر ٢٠٠٤

ملحوظة: منع نشر هذا المقال فى الأهرام

دولة.. أم عصابة ؟!

علاء الأسوانى

لو كان الاعتداء على عبد الحليم قنديل قد وقع على فتحى سرور أو كمال الشاذلى أو حتى الراقصة دينا، لو كان من تعرض للاعتداء سائحا أجنبيا أو موظفا فى السفارة الإسرائيلية لقامت قيامة وزارة الداخلية ولما قعدت حتى تعثر على الجناة، ولكن لأن المعتدى عليه عبد الحليم قنديل فقد مر أسبوعان ووزارة الداخلية لم ولن تفعل شيئا والسبب فى ذلك أن جهة معينة فى النظام تقف وراء هذا الاعتداء ووزارة الداخلية تعرف هذه الجهة ولا يمكن طبعا أن تكشف عنها.. لقد أرسل الاعتداء رسالة واضحة : إن الدولة لن تتسامح أبدا مع من يطالب الرئيس مبارك بالتخلى عن السلطة وتطبيق الديمقراطية.

وأن الدولة إذا جد الجد لا تتورع عن التصرف وكأنها عصابة فتخطط لخطف الكتاب وأصحاب الرأى وتعتدى عليهم وقد تقتلهم، من يعرف الآن ماذا حدث لرضا هلال؟.. وقد تم اختيار قنديل كضحية أولى لأنه من أشجع الكتاب السياسيين فى مصر ولأنه أول من رفض التوريث كما أنه يتحدث باسم الجبهة المصرية من أجل التغيير التى شكلها مئات المثقفين من أجل رفض التمديد للرئيس مبارك وانتخاب الرئيس القادم بين أكثر من مرشح، لقد كان هدفهم إرهاب عبد الحليم قنديل وإذلاله، فقد كان من الممكن أن يهددوه بدون ضرب أو أن يضربوه ويتركوه لحاله لكنهم تعمدوا أن يخلعوا ثيابه ويتركوه عاريا فى منطقة نائية بغرض إذلاله.. وهذا التفكير، فضلا عن إجرامه، ينم عن قصر نظر وغباء.. فكل من عرف عبد الحليم قنديل يدرك أنه طراز فريد من البشر فى صلابته وتمسكه بمبادئه، وقد عمل سنوات كطبيب، بعد تخرجه فى كلية الطب جامعة المنصورة، فخاض معارك مريرة ضد الفساد فى وزارة الصحة وتم تحويله إلى التحقيق وعقابه

إداريا لأنه رفض أن يعطى المرضى من الفلاحين الفقراء أدوية منتهية الصلاحية، تم استيرادها لحساب كبار اللصوص فى الوزارة، ومنذ أن عمل بالصحافة اشتهر بشجاعته واستعداده الدائم لتحمل مسئولية ما يكتب، عن طيب خاطر، ومنذ أن بدأ معركته ضد التوريث فى جريدة العربى وهو يتعرض إلى تهديدات متواصلة ومساع حكومية حقيرة لمحاربته فى رزقه شهدت بعضها بنفسى.. على أنه تحمل كل ذلك بمنتهى الشجاعة بغير أن يضعف أو يتراجع عن موقفه.. وقد رأينا كيف خرج بعد الاعتداء عليه أكثر صلابة وتمسكا بموقفه الوطنى بل إنه قد حظى بإجماع قل أن يجتمع لأحد.. وهكذا جاءت نتيجة الاعتداء على عكس ما أراد منفذوه، فقد توحدت أصوات المثقفين جميعا، بكافة اتجاهاتهم، للتضامن مع عبد الحليم قنديل الذى صارت صورته الآن أقرب إلى البطل الشعبى منها إلى المعارض السياسى.. ؟

٢- أثبت هذا الاعتداء بما لا يدع مجالا للشك أن المعارضة الوطنية لم تعد مجرد ديكور ديمقراطى أو وسيلة للتنفيس عن الناس، بل إن تأثيرها بدأ يزداد بطريقة مقلقة للحكام.. وها نحن نرى نظاما سياسيا يمتلك أدوات قمع جبارة ويحتكر وسائل الإعلام جميعا، لكنه لا يتحمل عمودا أسبوعيا صغيرا يكتبه كاتب لا يملك سوى قلمه وإخلاصه، فإذا بهذا النظام يستأجر البلطجية من أجل خطف هذا الكاتب وضربه وترويعه بالسكاكين.. وربما نتساءل هنا: لماذا لم يعتقل النظام عبد الحليم قنديل أو يلفق له تهمة سياسية تلقى به فى السجن وفقا لتقاليده الديمقراطية الراسخة؟ الإجابة: أن النظام المصرى الآن أضعف من أن يفعل ذلك.. ولو استطاع النظام أن يلقى بكل المعارضين للديكتاتورية والتوريث فى غياهب السجون لفعل ذلك فورا لكنه لا يستطيع لأن الظروف الدولية والداخلية لا تسمح له بذلك.. ومن هنا فان مصر فعلا تمر بلحظة تاريخية فارقة تستطيع فيها القوى الوطنية لو شددت الضغط على النظام أن تظفر بتغيير حقيقى فى طريقة الحكم.. إن الغضب يعصف بملايين المصريين وهم ينتظرون من يعبر عنهم.. ولا بد هنا، من باب الإنصاف، أن نذكر تجربة العربى، أول جريدة مصرية كسرت الخطوط الحمراء ووجهت النقد علنا إلى مؤسسة الرئاسة وسار وراءها الكتاب الوطنيون فى الصحف الأخرى.. لقد استطاعت العربى أن تطور مفهوم الناصرية حتى يتسع ويشمل معظم اتجاهات المعارضة الوطنية،

واستطاعت أيضا أن تعبر عن قطاع مهم من الطبقة المتوسطة لم يكن أحد يعبر عنه من قبل، مئات الألوف وربما ملايين المصريين المتعلمين، الذين يحبون بلادهم وقد ضاقوا ذرعا بالظلم والفساد واحتكار السلطة بواسطة فرد واحد وأعوانه وأسرته، هؤلاء هم قراء العربى الذين وجدوا فيها تعبيرا صادقا شجاعا عن أنفسهم.. والقارئ لتاريخ مصر سوف يكتشف أن هذه الطبقة المتوسطة الصغيرة المستنيرة كانت المحرك الحقيقى لجميع الثورات فى مصر بدون استثناء واحد، بدءا من ثورة القاهرة الأولى ضد الحملة الفرنسية وحتى ثورة ٥٢، ولعل هذا ما جعل النظام يخاف من حشد هؤلاء الغاضبين فى معركة الديمقراطية القادمة لا محالة عندما يسعى الرئيس مبارك إلى التجديد لنفسه ليتم ثلاثين عاما فى الحـــكم. لقد أرادوا بضرب عبد الحليم قنديل إرهاب المطالبين بالديمقراطية ولكن خاب سعيهم فقد ازدادت الأصوات المطالبة بتخلى الرئيس مبارك عن السلطة وأدرك الجميع أن الحلول الجزئية لم تعد تصلح ولابد من تغيير جذرى فى النظام السياسى.

٣- من ناحية أخرى يعكس الاعتداء على عبد الحليم قنديل الطريقة التى تحكم بها مصر: القمع والتنكيل بالمواطنين بطريقة بشعة لا تمارسها أكثر جيوش الاحتلال إجراما.. فى مصر عشرات الألوف من المعتقلين السياسيين والكثيرون منهم قد قضوا أكثر من عشرة أعوام بدون محاكمة، كما أن مقار مباحث أمن الدولة ليست فى الواقع إلا مجازر بشرية تهتك فيها الأعراض ويتعرضَ فيها المواطنون المصريون إلى أنواع مروعة من التعذيب على أيدى ضباط مصريين مثلهم أقسموا يوما على احترام القانون، بل إن ظاهرة التعذيب فى مصر تجاوزت المعتقلين السياسيين وصارت من الممارسات اليومية فى أقسام الشرطة.. ويضيق المجال هنا عن المئات من وقائع التعذيب الموثقة فهذه تحتاج إلى كتاب مستقل، لكننى أكتفى بذكر ما نشرته جريدة "الأهالي" فى ١١/٦ الماضى عما فعلته مباحث أمن دولة فى المواطنين الذين اعتقلتهم فى العريش أثناء التحقيق فى حادثة طابا، فقد تعرض هؤلاء إلى تعذيب بشع حتى يدلوا بمعلومات لا يعرفونها ويعترفوا بجرائم لم يرتكبوها، وقد تم خطف النساء والأطفال واحتجازهم كرهائن، وكان الضباط يتلذذون فى نهار رمضان بخلع ملابس الزوجات أمام أزواجهن ويقومون بحبسهن عاريات مع رجال عرايا ليهتكوا أعراضهن،كل هذا يحدث للزوجة أمام زوجها وقد أدى ذلك إلى إصابة أكثر من مواطن

بالشلل وهو يرى هتك عرض زوجته أمام عينيه.. مثل هذه النفوس المريضة والعقليات الإجرامية هى التى يعتمد عليها الحكم من أجل بقائه.. وهى التى دبرت الاعتداء على عبد الحليم قنديل..

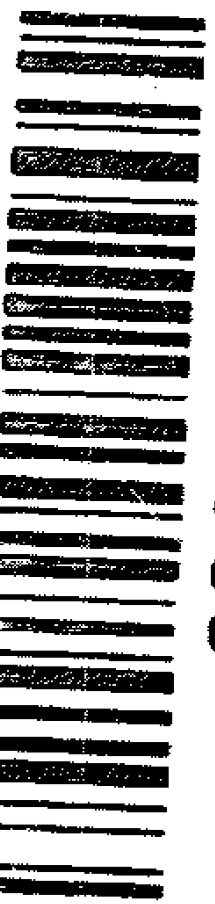
٤- وأخيرا يتضح الآن، أن النظام فى مصر لن يقدم أبدا على الإصلاح الديمقراطى من تلقاء نفسه، وأن كل أحاديث الإصلاح التى أغرقنا بها المسئولون كانت مجرد مناورات لتفادى الضغوط الخارجية، وقد سعى النظام إلى إرضاء الولايات المتحدة بكل طريقة مقابل أن تقلل من حديثها عن الديمقراطية، وعندما صمتت أمريكا عن الديمقراطية صمت حكامنا عن الإصلاح.. لقد فشل الحكم فى مصر على مدى ٢٤ عاما فى تحقيق أى إنجاز حقيقى، فشلوا فى كل شيء بدءا من التصنيع والزراعة والتعليم والتصدير وحتى مكافحة الجراد والقضاء على التلوث وتنظيم المونديال، فشلوا تماما وليس لديهم ما يقدمونه، ولأنهم يشعرون بأن طريقهم مسدود ولأنهم لا يريدون أبدا أن يتخلوا عن مناصبهم مادام فيهم نفس يتردد، فلم يبق لديهم إلا البلطجة يعاقبون بها كل من يطالبهم بالرحيل لكن ذلك لن يجديهم والتاريخ يعلمنا أن الأنظمة السياسية عندما تستشعر عجزها تفقد تقديرها السليم وتندفع إلى تصرفات طائشة تكون إيذانا بالانهيار القريب.. هكذا فعل الملك فاروق عندما خطط لحريق القاهرة وهكذا فعل أنور السادات عندما قام باعتقال معارضيه جميعا فى سبتمبر ١٩٨١، وفى نفس السياق سوف نذكر، ربما فى يوم قريب، حادثة الاعتداء على عبد الحليم قنديل. ؟

العربى - ٢١ نوفمبر ٢٠٠٤

مختارات ميريت

هذا الكتاب

هذه ليست مقالات كتبتها، بل جرائم ارتكبتها، ولا أريد أن أعتذر عن هذه الجرائم «النبيلة» -فيما أظنّ- لأحد مما يعدُّون، لا أعتذر عنها لوزير الداخلية الذى وصف مقالاتى -فى حوار تليفزيونى- بأنها مما «يعاقب عليه القانون»، ولا أعتذر لبيت الرئاسة -ولا «لشجرة الضرّ» فيه- الذى توحى الظنون بأنه دبّر ونفّذ حادث الخطف والاعتداء الدنىء الذى تعرضت له صباح ٢ نوفمبر ٢٠٠٤، كان الحادث ذروة الدراما فى صدام خفى -فظاهر- على مدى خمس سنوات، لم يكن الأول فى سلاسل إيذاء وتحرش سياسى وأمنى متّصل، كانت التهديدات تهوى كالمطارق من أول سطر، ومن مماليك كبار بالقرب من «بيت السلطان»، كانت الفكرة بسيطة فى أذهان الذين أرادوا أن يعاقبوا، لم يكن واردا إغلاق «العربى»، خاصة أن إغلاق جريدة «الشعب» صادف فى التوقيت بدء حملة «العربى» ضد التوريث فالتمديد، والبديل: ضغط وتهديد للحزب الناصرى الذى تصدر عنه جريدة «العربى»، وكان حملة رسائل التهديد من عيّنة زكريا عزمى وصفوت الشريف ومصطفى كمال حلمى وكمال الشاذلى وأسامة الباز فحوى الرسائل كان دائما أن الرئيس غاضب وخانق مما تنشره «العربى» بعامة، ومن مقالاتى بالذات وبدعوى أنها كسرت خطوطا حمراء وحطمت أسوارا صينية، ولم تصل رسائل التهديد إلى أهدافها مباشرة ولا بالوساطة، وكان لموقف ضياء الدين داود رئيس الحزب الناصرى -بالذات- أثره اللافت وربما الحاكم، فقد لعب ضياء -بطريقته المميزة فى امتصاص الضغوط- دورا حاميا لتجربة الخروج عن النص، بدأ للضاغطين بالمهاتفة أو بالمشافهة -فى لباس النصح- أن الطريق مغلقة، وجرّبوا الضغط بوسائل أخرى بدت أكثر خشونة. (...) لم أتوقع السيل الجارف من نداءات التضامن ومقالات التعاطف بالمئات، بدا أن ضمير مصر الساكن ينتفض أخيرا بدت القصة كلها فوق ما أستحق، وبدا أن أغلب الذين تعاطفوا تجاوزو إلى القضية ذاتها، فلم أكن -حين عوقبت- سوى المتهم بجرمية عن النص، وقد أرادوا هم أيضا أن يخرجوا عن النص، أرادوا أن «كفاية» لحكم الأب والأم والابن، وقد كان.





ميريت